موســـوعة تـــاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية

موســـوعة تـــاريخ

الأدب والنقد والحكمة العربية
في العصر الأموي في الأندلس

المجلد السادس

المؤلف
حسين علي الهنداوي

الموسوعة مسجلة في:

١ - مكتبة الإسكندرية

٢ - مكتبة بيت الشباب في الشارقة

٣ - مكتبة جمعة بن ماجد - الإمارات

٤ - مكتبة الفهد الوطنية

٥ - مكتبة بن ادريس المغرب - مراكش

٦ - مكتبة بن باديس - الجزائر

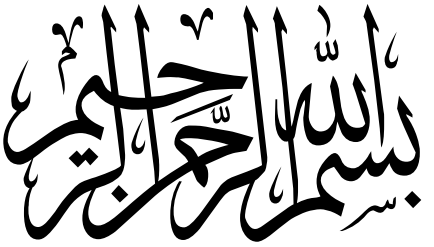

ترجمة صاحب الموسوعة

حسين علي الهنداوي

أ – أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي

ب – له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية

ج – نشر في العديد من الصحف العربية

د – مدرس في جامعة دمشق – كلية التربية – فرع درعا

هـ – ولد الأديب في سوريا – درعا عام ١٩٥٥ م

و – تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا

ح – انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب – قسم اللغة العربية وتخرج فيها عام ١٩٨٣

ك – حائز على إجازة في اللغة العربية

ص – حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق

ع – عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين – قسم اللغة العربية في مدينة درعا

ف – انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك.

– عضو اتحاد الصحفيين العرب

– عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب

– عضو تجمع القصة السورية

– عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله:

١ – الكويت (الرأي العام – الهدف – الوطن)

٢ – الإمارات العربية (الخليج)

٣ – السعودية (الرياض – المدينة – البلاد – عكاظ)

٤ – سوريا (تشرين – الثورة – البعث – الأسبوع الأدبي)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله:

١ – مجلة المنتدى الإماراتية

٢ – مجلة الفيصل السعودية

٣ – المجلة العربية السعودية

٤ – مجلة المنهل السعودية

٥ – مجلة الفرسان السعودية

٦ – مجلة أفنان السعودية

٧ – مجلة السفير المصرية

٨ – مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته:

أ - الشعر:

١ – هنا كان صوتي وعيناك يلتقيان/ ١٩٩٠

٢ – هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير/ ١٩٩٤

٣ – أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤

٤ – سأغسل روحي بنفط الخليج / ١٩٩٦

٥ – المنشّى يسلم مفاتيح ايلياء/ ١٩٩٦

٦ – هذه الشام لا تقولي كفانا / مخطوط

ب - القصة القصيرة:

شجرة التوت / ١٩٩٥

ج – المسرح:

١ – محاكمة طيار / ١٩٩٦

٢ – درس في اللغة العربية / ١٩٩٧

٣ – عودة المتنبي / مخطوط

٤ – أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د – النقد الأدبي:

١ – محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢ – النقد والأدب / ١٩٩٤

٣ – مقدمتان لنظريتي النقد والشعر / مخطوط

٤ – أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الدينية:

١ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الأول

٢ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الثاني

٣ – الإسلام منهج وخلاص – الجزء الثالث

٤ – فتاوى واجتهادات / جمع وتبويب

٥ – هل أنجز الله وعده؟

الصحف الالكترونية التي نشر بها:

١ – قناديل الفكر والأدب

٢ – أنهار الأدب

٣ – شروق

٤ – دنيا الوطن

٥ – ملتقى الواحة الثقافي

٦ – تجمع القصة السورية

٧ – روض القصيد

٨ – منابع الدهشة

٩ – أقلام

١٠ – نور الأدب

مقدمة

الأدب في العصر الأموي
في المغرب الأندلسي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتّبع هداهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

ما إن سقطت الخلافة الأموية في المشرق تحت ضغط العناصر غير العربية، وعلى رأسها العنصر الفارسي، وإن كان تحت راية العباسيين حتى وجد بعض الأمويين منفذاً لهم إلى الأندلس بعصاميه (صقر قريش) الذي استكمل مسيرة الأمويين في المشرق، وأسس دولة ذات صبغة عربية في الأندلس، وإن تسمت باسم (بني أمية) وقدر لهذه الدولة التي عاشت حوالي ثمانية قرون في أرض غير عربية، حيث نقلت هناك حضارة إنسانية تحت راية الإسلام، وبفعل عناصر عربية اختلفت في نهاية المطاف فيما بينها سند حتى سقطت المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى بيد الإسبان، ولكن هذه الدولة الأموية العربية الإسلامية استطاعت أن تؤسس لحضارة علمية أدبية عمرانية شهد لها العالم بأسره، وما تزال آثارها العمرانية حتى يومنا هذا ماثلة في (حديقة الزهراء – وقصر الحمراء) وغيرها من المعالم الأثرية، فقد كان الأدب يشغل الأمويين في المشرق لما له من أهمية في حياة الناس عامة والخلفاء خاصة والولاة ثانياً.

أما الأدب في الأندلس فقد شغل العرب هناك لوجودهم في بيئة غير عربية، ولكونهم يريدون أن يثبتوا عروبتهم وإسلاميتهم أمام الشعوب ذات التوجُّهات المخالفة والمشاكسة لهم في الثقافة؛ إضافة إلى النزعة الأسرية الأموية التي قد ذابت في التوجُّه العروبي للأدب انتماء ومنافسة للأدب العباسي في المشرق بعد أن أسس العباسيون دولتهم التي ارتقت بالأدب إلى أبعد من الثريا.

وهكذا اندمج العرب الأندلسيون في بيئة خضراء جذابة ذات هواء عليل وماء سلسبيل وأشجار مثمرة بعكس بيئة الرمال والصحراء والحر والقر حتى قال شاعرهم:

يا أهل أندلس لله درُّكم ... ماء وظل وأنهار وأشجار

مـــا جنـــة الخلـــد إلا في ديـــاركم ولـــو تخـــيرت هـــذا كنـــت أختـــار

وصارت مجالس الأنس في الطبيعة سمة الشعر في الأندلس، وأصبح للشاعر المنزلة المميزة بين أصحاب الأجناس الأدبية الأخرى، وبرزت ظاهرة المرأة الشاعرة في الأندلس والمثقف الأندلسي، واستحدث الأندلسيون نوعاً جديداً من الشعر هو شعر الموشحات الذي يعتبر الثورة الأولى للشعر على منهج القدماء شكلاً ومضموناً، ولشد ما يبهرك في الأدب الأندلسي:

١- شعر الطبيعة.

٢- وشعر رثاء المدن الساقطة.

٣- والموشحات الأندلسية.

فقد خلَّد الشعراء العرب أسماءهم مع كل رابية وحديقة ونهر وقصر على أرض الأندلس، كما خلَّدوا أشعارهم الحزينة مع كل مملكة ومدينة سقطت هناك:

لكـــل شيء إذا مـــا تـــم نقـــصان فـــلا يغـــر بطيـــب العـــيش إنـــسان

هـــي الأمـــور كـــما شـــاهدتها دولٌ مـــن سره زمـــن ســـاءته أزمـــان

وإن أهم ما يلفت الانتباه في الثقافة الأندلسية والأدب الأندلسي هذا الفيض من العلم والاهتمام به من خلال منافستهم العباسيين في بناء حضارة إسلامية واعدة تعتمد المشروع الإسلامي في نشر الثقافة، ولم يكن للأدب وحدة مضمار السبق، فقد كان للفلسفة مضمار ارتقى به الأندلسيون إلى أعلى من المريخ، فقد أنتج العرب المسلمون في الأندلس فلسفة جديدة للحياة أعادت صياغة فلسفة اليونان بوجه جديد، وكذلك أنتج العرب المسلمون مشروعاً ثقافياً نثرياً إسلامياً على يد ابن حزم الأندلسي حيث تألقت النظرة الإنسانية للحياة من خلال منظور مثقف فقيه ينظر إلى الحياة نظرة واعدة، وهكذا فقد خطا الأدب الأندلسي خطوة خامسة رفعت من مكانة القيم في عالم يبحث عن المنفعة والمتعة دون إخلال بالقيم النابضة بالحياة.

حسين علي الهنداوي
سوريا- درعا

الباب الأول

الحياة العامة

في العصر الأندلسي

الباب الأول

الفصل الأول

الحياة السياسية
الدولة الأموية في الأندلس

- ١ -

الفتح العربي للأندلس
إسبانيا في العصور القديمة

أ - رؤيا جغرافية:

تشكل شبه جزيرة إيبريا الزاوية الجنوبية الغربية من أوروبا ويفصلها عن الشمال الإفريقي مضيق جبل طارق، وهي تضم دولتين هما إسبانيا والبرتغال، سكنت شبه الجزيرة هذه قديماً القبائل الإيبيرية والكلتية، وقد أنشأ الفينيقيون فيها مستعمرات ومحطات تجارية من أشهرها قرطاجة (قرطاجة الجديدة) وفي أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فرض الرومان سيطرتهم عليها بعد انتصارهم على هانيبال، ثم هاجمتها قبائل الفاندال في القرن الخامس الميلادي واستقرت في القسم الجنوبي منها، وأطلقوا عليه اسم (فاند لوسيا) أي بلاد الفاندال، وأسماها العرب فيما بعد الأندلس، وفي القرن السادس الميلادي تعرضت فاند لوسيا لغزو القوط الغربيين الذين انحدروا من جنوب غالية (فرنسا) ودفعوا بالفاندال إلى شمال إفريقيا وسيطروا على البلاد.

ب - إسبانيا قبيل الفتح العربي:

قسم القوط البلاد إلى إقطاعات كبيرة جعلوها تحت سلطة أمرائهم الذين استغلوا جهود الفلاحين وصادروا أملاكهم، وفرضوا على السكان ضرائب باهظة، مما أثار النقمة عليهم والرغبة في الخلاص منهم، وخاصة بعد أن طرد ملك البلاد وأصبح لذريق أمير قرطبة بدلاً عنه، أخذ لذريق يضطهد أنصار الملك الأول مما اضطرهم للهروب إلى سبتة الواقعة على

الشاطئ الشمالي لبلاد المغرب في مواجهة الشاطئ الإسباني؛ حيث يحكم يوليان الإسباني الـذي كان من أنصار الملك المطرود.

ج- مقدمات الفتح:

كانت ولاية إفريقيا تابعة لوالي مصر، وعندما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة عين عليهـا موسى بن نصير والياً، وجعل مركزه مدينة القيروان استطاع موسى توطيد أمور ولايته، وعيَّن طارق بن زياد حاكماً على طنجة بعد تحريرها، وأخذ يتوق للوصول إلى البر الإسـباني لتأديـب سكانه الذين كانوا يُغيْرون على السواحل العربية في إفريقيا، وقد لقي موسى كل تشجيع عـلى غزو إسبانيا من يوليان حاكم سبتة الذي وعده بتقديم السفن المطلوبة لنقل الجنود هادفـاً مـن ذلك إلى إسقاط حكم لذريق استشار موسى الخليفة في دمشق في أمر الغـزو، فوافـق مـشترطاً إرسال حملة استطلاعية لمعرفة صدق يوليان حاكم سبتة، ونزلت فعلاً حملة بقيادة طريـف بـن مالك في جزيرة مقابل البر الإسباني، ولم تجد أية صعوبة وعادت محملـة بالغنـائم، وقـد شـجع ذلك موسى في المضي على خطته.

د- الفتح العربي للأندلس:

عهد موسى إلى طارق بن زياد حاكم طنجة بمهمة الفتح ورافق يوليان الحملة ونقل جنـود طارق على سفنه عبر المضيق الذي عرف فيما بعد باسمه ومعه سبعة آلاف مقاتـل، ثـم أنجـده موسى بخمسة آلاف، وقد لقي كل ترحيب وتشجيع من السكان الـذين كـانوا مـستائين مـن حكامهم مما شجعه على متابعة الفتح، وعندما علم لذريق ملك الإسبان بنـزول العـرب تخـلى عن عملياته ضد خصومه في الشمال واتجه لمحاربة العرب، والتقى بجيش طارق في وادي لكّـة الجزيرة الخضراء، وحدثت المعركة سنة (٩٢ هـ، ٧١١م)، ولم يكد يبدأ القتال حتى هربت فئة من جيش لذريق وتراجع الباقي فلاحقهم العرب ملحقين بهم خسارة كبـيرة، ومـات لـذريق منتحراً، وقد تابع طارق الفتح واحتل قرطبة وطليطلة.

هـ- وصول موسى بن نصير وابنه إلى الأندلس:

سارع موسى بن نصير إلى الأندلس للإسهام بشرف الفتح مع طارق واحتل بعـض المـدن، ومنها إشبيلية، والتقى بطارق، وفي تلك الأثناء قدم عبد العزيز بن موسى بناء على أوامر والده

وتوغل في أراضي البرتغال، وتابع القادة الثلاثة الفتح ووصلوا إلى جبال البرانس التي تفصل فرنسا عن إسبانيا، وأصبحت إسبانيا بيد العرب عدا بعض المناطق الشمالية التي تأسست فيها إمارات إسبانية مستقلة، وفي أواخر (٩٥ هـ، ٧١٤ م) توجه موسى وطارق إلى المشرق بناء على أوامر الخليفة الأموي، وعهد إلى عبد العزيز بولاية الأندلس.

و- دور الحكم العربي في الأندلس:

قسم المؤرخون الحكم العربي في الأندلس إلى أربعة عصور هي:

١ – عصر الولادة (٩٧ – ١٣٨ هـ، ٧١٦ – ٧٥٦ م).

٢- عصر الإمارة (١٣٨ – ٣١٦ هـ، ٧٥٦ – ٩٢٨ م).

٣ – عصر الخلافة (٣١٦ – ٤٢٢ هـ، ٩٢٨ – ١٠٣١ م).

٤ – عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ – ٨٩٧ هـ، ١٠٣١ – ١٤٩٢ م).

١- عصر الولادة (٩٧ – ١٣٨ هـ):

امتدت هذه الفترة نحو أربعين عاماً انتهت بوصول الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية إلى الإمارة، ساد الأندلس خلالها الاضطراب وعدم الاستقرار، وتولى حكم الأندلس عدد من الولاة كانوا تابعين لوالي إفريقيا، ومن أبرزهم السمح بن مالك الخولاني الذي استشهد في إحدى حملاته ضد الفرنجة قرب تولوز في فرنسا، وعبد الرحمن الغافقي الذي وصل إلى بوردو، والتقى بجيش شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء قرب بواتييه (١١٤هـ ٧٣٠ م) واستشهد فيها، وكان آخر الولاة يوسف الفهري الذي استمر في حكم الأندلس حتى استخلصها منه عبد الرحمن الداخل.

٢- عصر الإمارة الأموية في الأندلس
(١٣٨ – ٣١٦ هـ، ٧٥٦ – ٩٢٨ م)

أ- عبد الرحمن الداخل:

بعد انتصار العباسيين على الأمويين في معركة الزاب ١٣٢ هـ، وأخذوا يتعقبون أفراد البيت الأموي، وقد استطاع أحدهم وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام أن يفلت من أيديهم ويسرع بالفرار إلى شمال إفريقيا لبعدها عن مركز الخلافة العباسية، وكان يرافقه أحد أتباعه ويدعى (بدراً)، واستقر بهما المطاف في سبتة.

وهناك أخذ عبد الرحمن يدرس أوضاع الأندلس، ويتصل بمختلف الزعماء والقادة العسكريين فيه، ثم أرسل بدراً إلى داخل البلاد ليدعو له بين أنصار بني أمية وحلفائهم الذين ما لبثوا أن طلبوا إليه المجيء إلى الأندلس وتعهدوا بمساعدته.

ب- تأسيس الإمارة:

سارع عبد الرحمن إلى دخول الأندلس عام ١٣٨ هـ، فاستقبله أتباعه استقبالاً حافلاً، واجتمع حوله أنصار الأمويين من كل جهات الأندلس، وقد استولى بمساعدتهم على المناطق

الجنوبية من البلاد، ثم اشتبك مع والي الأندلس يوسف الفهري وحلفائه الذين احتجوا على وصوله إلى الأندلس، وجرت المعركة الفاصلة بينهما، في المصارة قرب نهر الوادي الكبير، والتي انتهت بانتصار عبد الرحمن الذي أخذ يتابع زحفه إلى قرطبة، فدخلها ظافراً بعد أن قضى على أعدائه، ولقب بالداخل لدخوله الأندلس ونجاحه في الوصول إلى الإمارة، كما لقبه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بصقر قريش اعترافاً بشجاعته وإعجاباً بقدرته على تأسيس دولة للأمويين في الأندلس.

ج- أعمال عبد الرحمن:

أعلن عبد الرحمن انفصاله عن الدولة العباسية: وقطع الخطبة للخليفة العباسي، وأخذ يعمل على توطيد حكمة، وإخماد الفتن وملاحقة الثائرين، وكان من أبرز أعماله العسكرية في هذه المرحلة:

- القضاء على محاولة عسكرية لبسط النفوذ العباسي على البلاد وقتل قائدها مع عدد كبير من جنوده.

- القضاء على ثورة والي سرقسطة الذي شعر بخطر عبد الرحمن على ولايته واستنجد بشارلمان ملك الفرنجة الذي أرسل حملة عبر البرانس باءت بالإخفاق؛ ذلك لأن سكان سرقسطة أغلقوا أبواب مدينتهم في وجهها، فاضطر للانسحاب مما أعطى العرب فرصة ثمينة لمهاجمتها وضم سرقسطة إلى الإمارة.

- اتخذ عبد الرحمن قرطبة مركزاً لإمارته، واهتم بالحركة العمرانية، وتنظيم أمور الدولة وإدارتها، وقد كسب محبة رعاياه وتقديرهم لتحقيقه العدالة وإنصافه المظلومين.

د- الإمارة بعد عبد الرحمن:

يمكن أن نقسم تاريخ الإمارة الأموية في الأندلس إلى ثلاث فترات وهي:

١- فترة توطيد الإمارة ١٧٢ – ٢٠٦ هـ: وفيها تم توطيد الإمارة، وبدأت معالم الثقافة الأندلسية بالظهور، وأبرز أمراء هذه الفترة هشام الأول الذي عرف بثقافته وعلمه وتقواه، فقد قرب إليه العلماء والفقهاء، وأقاموا العدل بين أفراد رعيته وقاد الجيوش للجهاد ضد الفرنجة.

٢- فترة الاستقرار والازدهار ٢٠٦ – ٢٧٣ هـ: امتدت هذه الفترة حتى أواسط القرن الثالث الهجري، وتمثلت بإمارة عبد الرحمن بن الحكم بن هاشم الملقب بالأوسط أو الثاني، والذي عمل على إصلاح البلاد، وتحميل مركز إمارته قرطبة فبنى فيها القصور والمساجد والحدائق، وقد استطاع التخلص من المشكلات الداخلية، واكتسب شهرة كبيرة حتى أصبح له أتباع بين أمراء شمال إفريقيا، كما تمت، اتصالات مع بيزنطة التي تريد الاستعانة بالأندلس ضد العباسيين، فجاء إلى قرطبة وفد من بيزنطة محملاً بالهدايا عارضاً على أميرها عقد معاهدة صداقة بينهما.

٣- الحروب الأهلية: وقد استمرت حتى آخر القرن الثالث الهجري، وأبرز أمراء هذه الفترة محمد بن عبد الرحمن، تميزت بانتشار الفوضى والاضطراب والقتال بسبب حركات المولدين والمستعربين، والتي جرت أشهرها في مدينة طليطلة.

٣- العصر الذهبي للدولة الأموية في الأندلس

أ ـ عصر الخلافة:

٣١٦ – ٤٢٢ هـ، ٩٢٨ – ١٠٣١ م

عبد الرحمن الثالث وتوطيد الإمارة:

ظفر عبد الرحمن بن محمد (الثالث) بإمارة الأندلس سنة ٣٠٠هـ، والبلاد غارقة في الفوضى والحروب الأهلية، وقد تعلقت آمال الناس بهذا الشاب الذي سعى لإعادة الاستقرار إلى البلاد.

وجد الأمير البلاد تعج بالثائرين، فركَّز السلطة في يده، وأرسل إلى الولاة يطلب الطاعة وأخذ البيعة، وأعد الحملات للقضاء على المتمرّدين، فضم إليه جميع المدن وقضى على جميع العصاة وخصوصاً ثورة عمر بن حفصون، واستطاع أن يجمع شمل عرب الأندلس تحت لوائه.

ب- أعمال عبد الرحمن الخارجية:

وما كاد الأمير يوطِّد سلطته في الداخل حتى وجَّه أنظاره إلى أعدائه في الخارج، فأعد أسطولاً قوياً لتأديب النورمانديين القادمين من شمال غربي فرنسا، والذين تكررت غاراتهم

على البلاد، واستطاع الاستيلاء على سبتة ومليلة، ثم اتجه لتأديب الممالك الإسبانية في الشمال، وقد أذعن له أعداؤه بالطاعة وهادنوه، وبعثوا إليه الهدايا طالبين الصلح، ولم يبق سوى خطر الفاطميين المقيمين في بلاد المغرب فبنى أسطولاً قوياً لينازعهم السيادة على غربي المتوسط.

ج- إعلان الخلافة:

وفي سنة ٣١٦ هـ، تلقب عبد الرحمن بألقاب الخلافة، وأصبح يدعى الخليفة الناصر لدين الله، وأمر أن يخاطب باسم أمير المؤمنين، وبذلك صار في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء: عباسي في بغداد، وفاطمي في المغرب، وأموي في الأندلس.

د- أعمال الخليفة الناصر:

لم تحُل مهام السياسة والحرب دون قيام الناصر بأعمال العمران العظيمة، فقد أسهم في زيادة إعمار قرطبة، والتي شهدت في زمنه ازدهاراً لم تشهده من قبل، فقد تسابق ملوك أوروبا وحكامها لكسب وده وصداقته، وفي مقدمتهم وفود فرنسا والإمبراطورية البيزنطية والممالك التي كانت بالأمس تناصبه العداء وتغير على أراضيه.

هـ - الحكم الثاني:

١ – توفِّي الخليفة الناصر بعد حكم دام خمسين عاماً، فخلفه ابنه الحكم الثاني (المستنصر بالله) الذي وجد البلاد مستقرة، وحدودها آمنة، ولم يكن حدثاً في مزاولة الحكم، بل مارسه في حياة أبيه.

٢ – صفاته: عرف الحكم بصفات كثير أبرزها حبه للعلم والعلماء، فازدهرت العلوم في عهده، وزهت الأندلس بمجالس العلم والمكتبات، وكان هو نفسه عالماً كبيراً جلب الكتب من البلاد الإسلامية كافة وبذل فيها الأموال الكثيرة، وأسس مكتبة ضخمة.

٣– أعماله: قاد الحكم جيشاً لتأديب الحكام الإسبان الذين أغاروا على الأندلس وأمّن حدود بلاده، وأجبر أعداءه على هدم حصونهم القريبة من حدود المسلمين، ولما توفِّي الحكم كان ابنه الوحيد هشام (المؤيد بالله) صغير السن، غير قادر على النهوض بأمور البلاد، ورعاية شؤون الدولة، فتولّى الحكْم نيابة عنه الحاجب محمد ابن أبي عامر الملقب بالمنصور والذي استأثر بالحكم، وخطب له على المنابر وضرب اسمه على النقود إلى جانب اسم الخليفة.

و- الحاجب المنصور:

كان منصب الحاجب في الأندلس بمثابة رئيس الوزراء في عصرنا هذا، وقد وصل محمد بن أبي عامر إلى الحجابة بما عرف عنه من ذكاء وطموح، استمر في حكمه نحو سبعة وعشرين عاماً استطاع خلالها نشر الأمن وتحقيق الرفاه للبلاد.

٣- أعماله:

١ - غزواته المستمرة على الممالك الإسبانية والتي قدرت بخمسين غزوة أحرز فيها انتصارات رائعة، واحتل العديد من المدن ووصل إلى أقصى معاقل أعدائه في الزاوية الجنوبية الغربية من إسبانيا.

٢ - اهتمامه بالعمران والذي تجلّى في بنائه لمدينة الزاهرة على نهر الوادي الكبير قرب قرطبة، واتخذها عاصمة له، كما زاد في جامع قرطبة.

٣- توفِّي المنصور في إحدى غزواته ضد الممالك الإسبانية، فخلفه ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، وكان قد ورث كثيراً من صفات أبيه وعرف بعدله ونصرته للمظلومين وجهاده في سبيل الدين، وواصل سياسة أبيه في الغزو والإغارة على الممالك الإسبانية، ولم يدم حكمه أكثر من ست سنوات غرقت الأندلس بعدها في الفوضى والاضطراب والنزاعات حول العرش.

٤ - أخذ الطامعون في الحكم يستعينون بخصومهم الإسبان للتخلص من منافسيهم وأخذت المدن تعلن استقلالها وانفصالها عن قرطبة وبذلك بدأت مرحلة ملوك الطوائف.

٤- العصر الذهبي للدولة الأموية في الأندلس
قرطبة حاضرة الخلافة

أ- ازدهار قرطبة:

شهدت قرطبة في عصر الخلافة ازدهاراً عظيماً، واكتسبت شهرة عالمية كبيرة، فقد بلغ عدد سكانها حوالي نصف مليون نسمة، وذاع اسمها في العصور الوسطى وأصبح مقروناً

بالقسطنطينية، كما نافست مدن بغداد والقاهرة وغيرها، وقد بلغت حاضرة الخلافة تطوراً عمرانياً لا مثيل له في دول الغرب المعاصرة، حتى أن شوارعها كانت تضاء ليلاً بالأسرجة في وقت كانت فيه جميع مدن أوروبا تعيش ليلها ظلاماً دامساً، كما ازداد عدد البيوت فيها، وحوت عدداً كبيراً من الحمامات والمساجد، واشتهرت بقصورها التي كان أبرزها قصر الإمارة الذي أصبح فيما بعد قصراً للخلافة.

ب- الرخاء والثروة:

نتج عن الاستقرار السياسي في عصر الخلافة نمو الثروة، وارتفاع مستوى الحياة لدى السكان، ومال الناس إلى حياة الترف والرخاء، وانتشرت مجالس الطرب والغناء وسارع الفنانون والعلماء إلى قرطبة لإظهار مواهبهم وإمكاناتهم من مختلف أنحاء الدولة العربية.

ج- التقدم العلمي في قرطبة:

أصبحت قرطبة مركزاً حضارياً مهماً يقصده الطلاب والمثقفون من أوروبا، وأخذت تشع تأثيراتها داخل الأندلس وخارجها، ولبيان ذلك يكفي أن نشير إلى أن تقدم أهل الأندلس في العلوم المختلفة تجاوز كل تقدير.

وكانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأهلها أشد الناس ولعاً واعتناء بجمع الكتب وغدت عادة جمع الكتب في عصر الخلافة ظاهرة عامة عند جميع السكان، حتى قيل: إذا مات عالم في إشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة، وإذا مات موسيقا في قرطبة وأريد بيع آلاته الموسيقية حملت إلى إشبيلية.

ومن أشهر المكتبات العامة:

١- مكتبة الخليفة الحكم المستنصر.

٢- ومكتبة المنصور.

ويعود الفضل في تقدم قرطبة العلمي إلى تشجيع الخلفاء، إذ كان منهم من يهتم بالعلم بنفسه كالحكم ومنهم من يشجع العلماء، وقد وصفت قرطبة بأنها سوق رائجة للعلم، جذبت مساجدها الأوروبيين الذين كانوا يفدون لأخذ العلم عن علمائها.

د- السفارات السياسية:

أصبحت قرطبة مركزاً سياسياً متألقاً، إذ أخذ ملوك أوروبا وعلى الأخص إمبراطور بيزنطة وأمراء الممالك الإسبانية يترددون إلى أمراء بني أمية وخلفائها في الأندلس محاولين إنشاء علاقات سياسية ودية معهم، فكثيراً ما استعان أمراء إسبانيا بحكام قرطبة لإعادتهم إلى عروشهم بعد أن أقصوا عنها أو لتجديد معاهدات صلح وعقدها معهم، وأما سفارات بيزنطة فكان هدفها عقد تحالف مع خلفاء قرطبة ضد العباسيين في بغداد، وكانت هذه السفارات تحمل معها هدايا من الكتب الثمينة إلى خليفة قرطبة لمعرفتهم بولعة بالعلم، كما نقلت بعض هذه السفارات آثاراً فنية قيمة كهدية استخدمت في بناء مدينة الزهراء.

٥- عصر ملوك الطوائف
٤٢٢ – ٨٩٧ هـ، ١٠٣١ – ١٤٩٢ هـ

أ- إلغاء الخلافة:

توالى عرش الأندلس بعد سقوط بني عامر عدد من الخلفاء الضعفاء كانوا ألعوبة بيد الجند الذين كانت بيدهم السلطة الحقيقة، ولم يقو أي خليفة على امتلاك ناصية الأمور، فعمَّ الاضطراب، وسئم أهل قرطبة الفتن، وأجمعوا على خلع الخليفة هشام الثالث، ودعوا إلى إلغاء الخلافة.

ب- ظهور ملوك الطوائف:

منذ القرن الخامس الهجري لم تعد القوى المتصارعة على السيادة في قرطبة تعتمد على قواها الموجودة داخل المدينة، وإنما تمركزت كل قوة في منطقة معينة من مناطق الأندلس، وأسست لنفسها فيها دولة مستقلة، دعيت هذه الدول بدول الطوائف وأطلق المؤرخون على هذه الفترة من تاريخ الأندلس اسم عصر ملوك الطوائف.

ومن أبرز هذه الدول:

١- بنو جهور في قرطبة.

٢- وبنو عباد في إشبيلية.

أولاً - بنو جهور في قرطبة

٤٢٢ – ٤٦٣ هـ، ١٠٣١ – ١٠٧٠ م

أ- نسبتهم:

ينتمي بنو جهور إلى عائلة عربية عريقة، إذ إن جدهم دخل الأندلس في فترة عصر الولاة، وفي ظل الدولة العامرية أصبح أحد أفرادها وهو أبو الوليد محمد بن جهور وزيراً للمنصور، وأما ابنه أبو الحزم جهور (٤٢٢هـ – ٤٣٥هـ) فقد تولى الكتابة وبقي فيها حتى انهيار الدولة، وقد شهد كل الحوادث والانقلابات العاصفة التي شهدتها عاصمة الدولة وعمل مع أتباعه على إسقاط بني أمية وإلغاء الخلافة.

ب- تأسيس الدولة:

أجمع سكان قرطبة بعد القضاء على الخلافة على اختيار أبي الحزم جهور رئيساً للحكومة، فقبل مشترطاً أن لا ينتقل إلى أحد القصور الملكية أو أن يخاطب بلقب ملك أو خليفة، وأن يكون تسلمه للأمر مؤقتاً ريثما يجمع الناس على شخص آخر.

عمل أبو الحزم جهور على إبعاد مثيري الفتن من قرطبة مما أكسبه محبة أهلها، وطرد الأطباء المزيفين الجهلة، واهتم بالأمن والسهر على راحة الناس الذين أخذوا يمارسون أعمالهم التجارية بحرية تامة، فامتلأت الأسواق بالبضائع وعم الرخاء المدينة، امتد سلطان بني جهور على منطقة تقع وسط الأندلس تضم مجموعة من المدن أهمها قرطبة.

ج- نهاية دولة بني جهور:

توفِّي أبو الحزم جهور ٤٣٥ هـ، فخلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور (٤٣٥ – ٤٥٦ هـ) وقد سار على سياسة والده، إلا أنه مرض وعجز عن الإشراف على شؤون الدولة فتنافس ولداه عبد الملك وعبد الرحمن، وقد استطاع عبد الملك (٤٥٦ هـ، – ٤٩٢ هـ) الذي انتصر على أخيه الانفراد بالسلطة، وأمر بأن يُدعى له على المنابر، وأقصى كبار موظفيه عن مناصبهم فانقطعت الصلة بينه وبين رعيته، ولم يتمكن من مواجهة الطامعين في دولته، فسقطت بيد بني عباد حكام إشبيلية بعد أن دامت حوالي أربعين عاماً.

ثانياً- بنو عباد في إشبيلية
(٤١٤ – ٤٨٤ هـ، ١٠٢٣ – ١٠٩١ م)

أ- نسبتهم:

ينتسب بنو عباد إلى قبيلة لخم اليمانية التي ينتمي إليها المناذرة أصحاب الحيرة، وقد دخل جدهم الأندلس مع جند حمص الذين قطعوا أراضي في منطقة إشبيلية في فترة عصر الولاة.

ب- تأسيس مملكتهم:

ظهر نجم هذه الأسرة عقب سقوط الخلافة، وكان مؤسس دولتهم القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد الذي قضى على نفوذ حكام إشبيلية، فأجمعت كلمة أهلها على تنصيبه زعيماً، فقبل بشرط أن يختاروا له من بينهم رجالاً يكونون له أعواناً ومستشارين، كون القاضي محمد بن إسماعيل جيشاً وشجع الناس على الانخراط فيه، واشترى عدداً من المماليك ودربهم على القتال، وقضى على الدويلات الصغيرة المجاورة لإشبيلية.

ج- فترة التوسع والمعتضد بالله:

بعد وفاة محمد بن إسماعيل خلفه ابنه أبو عمر بن عباد الذي لقب نفسه بفخر الدولة المعتضد بالله، وفي عهده تعاظمت قوة الدولة واتسعت رقعتها وازدادت مواردها، وبسطت سلطانها على الدويلات الواقعة غربي إشبيلية فوصلت حدودها إلى شواطئ الأطلسي، وتوسع المعتضد بالله نحو الشرق حتى أصبح على أبواب قرطبة واحتل الجزيرة الخضراء، واهتم بالعمران فبنى عدداً من القصور اشتهر منها القصر المبارك (قصر إشبيلية اليوم).

د- المعتمد بن عباد:

خلف المعتضد بعد وفاته ولده محمد الملقب بالمعتمد على الله الذي سار على سياسة والده التوسعية، وقد تمكن من ضم قرطبة وانتزع قسماً من أملاك طليطلة، وكان شاعراً محباً للأدب يدعو إلى عقد ندوات أدبية في قصره.

هـ- ضعف الدولة وسقوطها:

تعرضت دولة بني عباد لغارات الإسبان الذين وحدوا قواهم وأخذوا يقتطعون بعض أراضيها، وقد أرسل ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين في مراكش طالباً منه

النجدة للوقوف في وجه الإسبان، فأتى وخلص إشبيلية من الخطر الإسباني، وقضى على دولة بني عباد، وجعل مملكتهم ولاية تابعة للمرابطين.

٦- المرابطون

نشأتهم – توسعهم

٤٣٠ – ٥٤٢ هـ، ١٠٤٦ – ١١٥٨ م

أ- نشأة المرابطين:

نشأت حركة المرابطين في المنطقة التي نطلق عليها اليوم اسم موريتانيا، حيث تستقر قبائل الملثمين (بسبب اتخاذ رجالهم اللثام في أزيائهم) وكان يتزعمهم يحيى بن إبراهيم اللمتوني الذي استعان بالفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي لتعليم قومه أمور دينهم والنهوض بهم.

لم يتردد عبد الله عن القيام بهذه المهمة، واستقر بين قبائل الملثمين، وأخذ في تعليم الناس وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتجمع طلبه العلم حوله.

ب- تسمية الحركة:

لاقت دعوة عبد الله قبولاً لدى قبائل الصحراء، واتخذه الملثمون زعيماً لهم، وقد أنشأ مركزاً قرب نهر السنغال دعي باسم ((رباط)) وأطلق على أتباعه بعد ذلك اسم المرابطين، ما لبث الرباط الذي أنشأه عبد الله أن أصبح مركز إشعاع سياسي، إذ إن عبد الله بعد أن كثر أتباعه وأنس فيهم الاستعداد للجهات شكل منهم جيشاً قام بتسليحه، وعقد قيادته ليحيى بن إبراهيم الذي خرج به من مركزهم الرباط واتجه نحو الشمال فأخذت تتجمع حوله القبائل معلنة تأييدها له مما زاد في عدد جيشه وقوته.

ج- توسيع المرابطين:

١- **في المغرب:** استطاع جيش المرابطين بقيادة يحيى من إخضاع عدد من الإمارات القبلية في الصحراء، كما غزا بعض الإمارات في المغرب الأقصى، وقد استشهد يحيى في أثناء حروبه في جنوبي المغرب، فتسلم قيادة الجيش أبو بكر بن عمر الذي غدا زعيماً للمرابطين بعد وفاة

الفقيه عبد الله، وبقي كذلك حتى وقعت حرب بين بعض القبائل في الصحراء، فاضطر إلى مغادرة المغرب الأقصى بعد أن استحلف عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين، وعاد إلى الصحراء لإصلاح شأن القبائل المتحاربة.

واصل يوسف بن تاشفين زحفه إلى الشمال المغربي، ولما أثبت جدارته بقيادة الجيش تنازل له ابن عمه عن إمارة المغرب، فأخذ البيعة من أهلها وأصبح أميرهم ولقب بأمير المسلمين.

أسس ابن تاشفين مدينة مراكش ٤٥٤هـ وجعلها عاصمة ومعسكراً لجيشه، ثم فتح مدينة فاس وواصل الزحف إلى طنجة، وبذلك أصبح سيد المغرب.

٢- في الجزائر: كان يوسف بن تاشفين يسعى لتوحيد المغرب تحت سلطة المرابطين، فأرسل جيوشاً تمكنت من فتح جميع مدن الجزائر وعلى رأسها مدينة الجزائر العاصمة، ثم نظم إدارة المناطق المفتوحة، وجعل مدينة تلمسان عاصمة لولاية الجزائر ومركزاً لجيوش المرابطين تخرج منها لفتح المناطق الباقية.

٧- المرابطون في الأندلس

أسباب دخول المرابطين الأندلس:

أ- مقدمة: بعد أن أتم المرابطون احتلال المغرب، ووطّدوا الأمن في الجنوب أصبحوا على تماس مع الأندلس، لا يفصلهم عنها سوى المضيق كانت الأندلس في تلك الفترة تعاني من التمزق والصراع بين ملوك الطوائف، بينما كان أعداؤهم الإسبان يتقدمون لاحتلال مدنهم والقضاء على إماراتهم، وقد وجد المرابطون أن ما يجري في الأندلس يهمهم من ناحيتين:

الأولى: دفاعية إذ إنهم كانوا يخشون وقوع الأندلس تحت سيطرة أعدائهم الإسبان الذين يسعون لإخراج العرب منها.

والثانية: دينية لأن في دخولهم لشبه الجزيرة ودفاعهم عن عرب الأندلس تحقيقاً لمبادئهم في الجهاد المرابطون وملوك الطوائف:

كان الفقهاء في الأندلس أكثر الناس شعوراً بالخطر المحدق ببلادهم وإدراكاً لمداه، فقامت عدة دعوات لتوحيد دول الطوائف ونبذ الخلاف لصد العدو المشترك، إلا أن هذه الدعوات لم تفلح فتداعى ملوك الطوائف لعقد اجتماع في قرطبة، وقرروا دعوة المرابطين لنجدتهم وتخليص بلادهم من الأخطار التي تحيق بهم، فلاقت الدعوة استجابة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين.

ب- معركة الزلاقة ١٢ رجب ٤٧٩هـ - ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦م

دخل جيش المرابطين الأندلس، وأخذ ملوك الطوائف يخرجون بجندهم للانضمام إليه، ومن هؤلاء المعتمد بن عباد وأمير غرناطة وغيرهم، ولما اكتمل تجمع الجيوش قرب إشبيلية قسمها ابن تاشفين إلى قسمين بغية عدم دفعها جميعها في المعركة، تقدم الملك الإسباني الفونسو إلى حيث يعسكر المرابطون، وانضمت إليه قوات من معظم الممالك الإسبانية ومتطوعون من الفرنجة.

أما ابن تاشفين فقد نظم جنده وسعي لمراقبة العدو واستطلاع حركاته وأخذ يعد للمعركة فبقي ليلتها متيقظاً، وأعاد ترتيب جنده ليخدع أعداءه.

وفي صباح يوم المعركة ركز الإسبان هجومهم على الأندلسيين فتراجعوا، فقام ابن تاشفين الذي كان يراقب العملية بهدوء بإرسال جيش على دفعات إلى سهل الزلاقة.

ج- هزيمة الإسبان:

شعر الإسبان بالنصر فتركت قواتهم أماكنها، فسارع إليها يوسف بجيشه واستولى على معسكر الإسبان وأضرم فيه النار، وانقلب المرابطون من الدفاع إلى الهجوم، وانقضت فرقة من السودان كالصاعقة على صفوف الإسبان وشقت طريقها إلى الفونسو الذي جرح وفر في جنح الظلام بعد أن حاقت الهزيمة بجنده.

جرت هذه المعركة في رجب ٤٧٩هـ، وسميت معركة الزلاقة نسبة إلى المكان الذي نشبت فيه وهو سهل الزلاقة، تلقّى يوسف بن تاشفين عقب فوزه بالزلاقة نبأ وفاة ولده الذي خلفه على حكومة مراكش فعجل بالعودة إلى المغرب.

د- القضاء على ملوك الطوائف:

بعد هزيمة الإسبان في الزلاقة تداعى الأوروبيون استجابة لنداء الفونسو وأرسلوا جيوشاً لمساعدته، عاد ملوك الطوائف بعد الانتصار وعودة ابن تاشفين للأندلس إلى التخاصم والتنافس، وتقاعسوا عن تلبية داعي الجهاد، فأفتى فقهاء الإسلام لابن تاشفين بخلعهم فجاء ابن تاشفين ثانية إلى الأندلس واحتل بعض المدن منها غرناطة وإشبيلية وقرطبة وأدخل الأندلس تحت حكم المرابطين.

٨- الموحّدون

نشأتهم – توسعهم

٥١٥ – ٦٤٠ هـ، ١١٢ – ١٢٤٤ م

أ- حركة الموحدين:

قامت حركة الموحِّدين على أسس دينية وسياسية، وهي تشبه في مبادئها وأهدافها حركة المرابطين، قام بها رجل من قبيلة – مصمودة – يُدعى محمد بن تومرت اتخذ لنفسه لقب المهدي، تلقّى علومه في قرطبة والقاهرة وبغداد، ثم عاد إلى بلاده ليبث تعاليمه منتدباً بمثالب الحكام والمتنفِّذين وخصوصاً ما يعيشون فيه من ترف وبذخ، وكان ابن تومرت من أشد الناس حباً للعلم وانصرافاً للعبادة، دعا أبناء قبيلته والقبائل الأخرى من أهالي جبل أطلس في مراكش إلى مذهب التوحيد انتصاراً لعقائد السلف فسمي أتباعه بالموحِّدين.

ب- تأسيس الدولة وتوسعها:

خلف ابن تومرت بعد وفاته عام ٥٢٤ هـ، صديقه وقائد جيوشه عبد المؤمن بن علي من قبيلة زناته، ويعد عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين والخليفة الأول لأعظم دولة شهدتها مراكش وإفريقيا، وقد تغلب خليفتهم على المرابطين بالقرب من تلمسان، واستولى على تلمسان وفاس وسبتة وغيرها، واحتل مدينة مراكش ٥٤٢هـ واتخذها عاصمة للموحدين، وبذلك أنهى ملك المرابطين ليتفرغ للإغارة على الأندلس.

دانت لعبد المؤمن مراكش والأندلس، وضم إلى دولته الجزائر وتونس وطرابلس، وبذلك توحد لأول مرة في تاريخ العرب والإسلام الساحل الإفريقي قاطبة، من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر ومعها الأندلس، وخطب له على المنابر في أرجاء هذه الدولة الواسعة خليفة عوضاً عن الخليفة العباسي.

ج- خلفاء عبد المؤمن:

بعد ولاية طويلة حافلة بالأمجاد توفِّي عبد المؤمن ٥٥٨ هـ، ومن أعظم خلفائه وأشهرهم حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور، وهو الذي استنفره صلاح الدين وأرسل إليه وفداً يحمل له الهدايا ويستنجده على الفرنجة الصليبيين الذين كانوا يحاولون غزو مصر وسواحل بلاد الشام، واهتم المنصور بالناحية العمرانية، وتعد الأبنية التي أنشأها في مقدمة الآثار القائمة حالياً في مراكش وإسبانيا، ومنها البرج المعروف باسم (جرالدا) الذي بناه عقب انتقاله إلى إشبيلية التي كان الموحّدون قد اتخذوها عاصمة لهم سنة ٥٦٥هـ، وفي المغرب الأقصى بنى المنصور مدينة عظيمة سميت رباط الفتح مقلداً الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء، وقد اختصر اسمها فيما بعد وأصبح الرباط، كما بنى في مدينة مراكش بيمارستاناً فريداً من نوعه.

د- سقوط دولة الموحدين:

خلف المنصور بعد وفاته ابنه محمد الناصر الذي قاد جيوش الموحدين ضد الإسبان، ثم خلفه عدد من الخلفاء الضعفاء من ذرية عبد المؤمن استمروا حتى سقوط مراكش بيد بني مرين المتفرعين عن قبيلة زناته.

هـ- دولة الموحدين:

كانت دولة الموحدين تُحد من الجنوب بالصحراء الكبرى، ومن الغرب بالمحيط الأطلسي ومن الشرق بالصحراء العربية التي تفصلها عن مصر، وأما من الشمال فكان يحدها البحر المتوسط، وفيما وراء المضيق في شبه الجزيرة الإسبانية كان الموحّدون يملكون جميع الأراضي التي يطبق عليها اسم الأندلس، وكانت الحدود الشمالية الغربية نهر الوادي الذي ملك

الموحّدون ضفته اليسرى، وملكوا من ضفته اليمنى عدة مناطق مثل ولاية الغرب، وتمتد إلى مقربه من نهر التاجة (تاجو).

٩- الموحّدون في الأندلس

دخول الموحدين الأندلس:

أ- مقدمة:

ورث الموحّدون دولة المرابطين في المغرب والأندلس، إذ إن ضعف المرابطين دفع بوفود أندلسية للطلب من عبد المؤمن إنقاذ الأندلس من أعدائه الإسبان، وكان من بين هذه الوفود التي بايعت عبد المؤمن وفد علماء إشبيلية.

أرسل الموحّدون أول جيش إلى الأندلس ٥٤١ هـ، ولما استقر الأمر لهم في المغرب عبر عبد المؤمن البحر ليشارك بنفسه في ترتيب الأمور في شبه الجزيرة، وأمر ببناء مدينة في جبل طارق، فكان له ذلك.

ب- دور الموحدين في إيقاف المد الإسباني:

قام عبد المؤمن باستعدادات دفاعية كبيرة، وجهز حامية قوية من الموحدين والأندلسيين، وجعل غرناطة مركزاً دفاعياً قوياً، ونقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ٥٥٧ هـ، والتي عدت مقراً لجيوش الموحدين، وبدا زعيم الموحدين يتجهز لرد عدوان الممالك الإسبانية الشمالية.

وفي ٥٦٠ هـ، عبرت حملة عسكرية إلى الأندلس لتعزيز دفاعات بعض المناطق الأندلسية ضد الممالك الإسبانية الشمالية، وقد حدث صدام مع أمير مرسية الذي كانت له علاقات ودّيّة مع الإسبان، وتم النصر للموحدين الذين أخذوا ينظمون أحوال الأندلس ويهتمون بأمور أهلها.

وسرعان ما تصدت جيوش الموحدين في الأندلس لعدوان ملك البرتغال الذي استولى على بعض المدن، وعقدت معاهدة صلح مع ملك ليون الذي ما لبث أن خرقها وهاجم الأراضي

الأندلسية، وأصيب أبو يعقوب في معركة مع العدو كانت سبباً في وفاته، فخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور.

لم تتوقف هجمات الإسبان والبرتغاليين على الأندلس، وقد ساعدهم على ذلك انشغال الخليفة الموحدي المنصور بتوطيد الأمور في المغرب، ووصول إمدادات صليبية قادمة من المشرق منهزمة بعد أن خسرت مواقعها وسقطت إماراتها بيد المسلمين بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبي ٥٨٣هـ، واسترداد المسلمين لبيت المقدس فجاءت هذه الإمدادات تحمل روح الحقد والكراهية على العرب والمسلمين.

ج- نشاط المنصور ضد الإسبان:

وصل جيش موحدي جديد إلى الأندلس بقيادة خليفة الموحدين المنصور لرد المعتدين، وقام بنشاط عسكري واستعاد بعض المدن، وبعدها توجه إلى مراكش، وعقدت معاهدة مع ملك قشتالة نصت على قيام هدنة مدتها خمس سنوات، وما إن انتهت مدة الهدنة المتفق عليها حتى بدأت قشتالة بمهاجمة الأندلس والعبث فيها فساداً، فأعد الموحدين حملة توجهت إلى الأندلس بقيادة الخليفة الموحدي المنصور نفسه ووصلت إلى إشبيلية، ثم اتجهت للقاء جيش الفونسو الثامن الذي تحصن في مرتفع يشرف على سهل الأراك الذي يعسكر فيه المسلمون قرب حصن يحمل الاسم نفسه.

د- موقعه الأراك ٩ شعبان ٥٩١ هـ:

التحم الطرفان في قتال عنيف وكثر القتل في جيش القشتاليين، ثم التحمت بقية الجيوش، فاضطر الجيش القشتالي إلى التقهقر والفرار، وفر ملك قشتالة إلى طليطلة، استمرت المعركة يوماً واحداً ٩ شعبان ٥٩١ هـ، غنم المسلمون فيها مغانم كثيرة، وافتتحوا حصن الأرك، ويعد هذا من أعظم انتصارات الموحدين.

هـ- موقعة العقاب وهزيمة الموحدين:

توفِّي المنصور بعد عودته إلى مراكش فخلفه ابنه أبو عبد الله الملقب بالناصر لدين الله، الذي تجهز بجيش وعبر الأندلس بعد أن سمع بعدوان ملك قشتالة المنهزم في الأرك بعد أن انضمت

إليه جيوش صليبية من أوروبا، التقى جيش الناصر بجيش الفونسو عند حصن العقاب ٦٠٩هـ، وانتهت المعركة بهزيمة جيش الناصر الذي مات بعد أن عاد إلى مراكش، وبعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب أصبحت الأندلس لقمة سائغة تقاسمها الأمراء الإسبان، وصغار أمراء المسلمين، ومن هؤلاء بنو نصير الذين أقاموا دولتهم في غرناطة وامتدت إلى إشبيلية، وأعادت إليها أمجادها الغابرة لفترة من الزمن، وقد عرفت بدولة بني الأحمر.

١٠- سقوط الحكم العربي في الأندلس

الأندلس بعد سقوط الموحدين:

أ- مقدمة:

بعد موقعة العقاب التي انتهت بانتصار الإسبان على الموحدين والأندلسيين خبتْ شعلة الجهاد ضد الإسبان الطامعين، فسقطت دولة الموحدين، وبدأ الحكم العربي يتداعى، والمدن تسقط بيد الإسبان واحدة بعد أخرى، والأمراء الصغار مازالوا يتنافسون ويتصارعون ويستعينون بأعدائهم لنصرتهم.

ب- سقوط مدن الأندلس:

١- **قرطبة:** حوصرت قرطبة من قبل جيوش ملك قشتالة، وبذلت المدينة المحاصرة جهوداً كبيرة للوقوف ضد المعتدين، وعندما اضطرت للتسليم كان غلاة الإسبان يرون رفض التسليم واقتحام المدينة وقتل كل أهلها، لكن ملك قشتالة مع بعض مستشاريه رأوا هذا الإجراء سوف يدفع أهلها لليأس وتخريبها، دخلها الإسبان ٦٣٣هـ، وأخرجوا أهلها العرب المسلمين منها، وحولوا مسجدها الذي كان شعلة وضاءة إلى كنيسة.

٢- **بلنسية:** وكانت تعد من كبرى مراكز العلم والآداب، وقد جاهدت الطامعين حوصرت من قبل جيش ملك أراغون، فاستنجد أهلها بالفحصيين في تونس الذين أرسلوا إليها المؤن والسلاح، إلا أن هذه الإمدادات لم تصل إلى السكان لشدة الحصار، وسقطت المدينة الباسلة ٦٣٦ هـ، وحولت مساجدها إلى كنائس أيضاً.

وتبع ذلك سقوط عدد من المدن أهمها إشبيلية ٦٤٦ هـ، ولم يبق من ممالك العرب في الأندلس سوى مملكة غرناطة أو الأندلس الصغرى كما كان يطلق عليها.

دولة غرناطة
٦٣٥ – ٨٩٧ هـ، ١٢٣٨ – ١٤٩٢ هـ

أ- تأسيسها:

كان مؤسسها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وقد استمرت رغم ظروف الأندلس ما يزيد على قرنين ونصف، وتوالى على حكمها ما يزيد على عشرين حاكماً، تمتع كثير من هؤلاء الحكام بصفات ممتازة، وظهر في غرناطة شخصيات ذات كفاءات عالية وقدرات كبيرة أدت واجبها نحو البناء والعلم.

ضمنت غرناطة الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية، وشملت ثلاث ولايات كبيرة هي غرناطة والمرية ومالقة، وقد ثبتت في مواجهة أعدائها الإسبان بسبب موقعها، واحتوائها للعرب المسلمين المهاجرين من ديارهم، واستعداد أهلها للجهاد والبذل، وكذلك وقوف بني مرين في المغرب معهم.

وكان آخر ملوك غرناطة أبا عبد الله الذي يعرف بالصغير ٨٨٧هـ الذي خاض معركة ضد جيش قشتالة وانتصر فيها، ثم اتجه نحو قرطبة، لكنه أسر في جنوب شرقي قرطبة، وتولى حكم غرناطة بعده عمه محمد بن سعد المسمى بأبي عبد الله الزغل.

ب- سقوط غرناطة: حدث صدام بين العم الذي يتمسك بالسلطة وابن أخيه، انتهى بتقسيم غرناطة، والعدو القشتالي المتربّص بهم ما برح يهاجم الحصون ويهرب ما حول المدينة، فعقد الزغل معاهدة مع ملك قشتالة، واضطر إلى ترك الأندلس إلى تلمسان بالجزائر.

توحدت مملكتا أراغون وقشتالة بسبب زواج ملكيْها فرناند وإيزابيلا، وعادا للتحرش بأراضي غرناطة وإيقاع الفتنة بين المسلمين، ثم حاصراها.

وبعد حصار شديد لهذه المدينة اضطرت إلى عقد معاهدة استسلام عام ٨٩٧هـ تضمنت هذه المعاهدة تامين المسلمين على النفس والأهل والمال والسماح بإقامة شريعتهم على ما كانت، وغادرها آخر ملوكها أبو عبد الله الصغير ومعه والدته وزوجته وأولاده (٨٩٧ هـ، - ١٤٩٢ م).

بكى أبو عبد الله الصغير عندما ألقى آخر نظرة على قصره أسىً وحزناً، فقالت له أمه: (ابك كالنساء مُلكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال) وانتقل إلى المغرب ونزل بمليلة، ثم ارتحل إلى فاس.

وبذلك سقطت آخر دولة عربية في الأندلس بيد الإسبان.

١١- عوامل ضعف الحكم العربي في الأندلس وسقوطه

عوامل الضعف

تعرضت الأندلس منذ الأيام الأولى للفتح العربي لمجموعة من المشكلات والعوامل أسهمت في إضعاف الحكم وتجزئة الدولة وسقوطها، ولم تتمتع البلاد بالاستقرار والازدهار إلا إبّان حكم أمراء وخلفاء أقوياء أمثال الأمير عبد الرحمن الداخل والخليفة عبد الرحمن الناصر.

ومن هذه العوامل:

١- **العصبية القبلية:** إن القبائل عند دخولها الأندلس انفصلت عن بعضها في السكنى والاستقرار، وفي الجيش أيضاً، وعاد الصراع بين القيسية واليمانية، وحصلت حروب بينها، انتصرت فيها القيسية التي حكمت الأندلس حتى دخول صقر قريش إليها، وكانت تخبو جذوة العصبية القبلية في عهد الحكام الأقوياء الذين يعدون أنفسهم أسياداً للقبائل ويتبعون سياسة التوازن بينها.

٢- الصراع المستمر مع الممالك الإسبانية والفرنجة في الشمال: وقد ظهر ذلك جلياً مع إمارة أستورية (جليقية) في عهد عبد الرحمن الداخل، وفي الحملة التي قادها شارلمان على سرقسطة، والتي استمرت حتى زمن الخليفة الناصر والمنصور بن أبي عامر، وقد اتخذ هذا الصراع فيما بعد شكلاً جديداً، إذ إن الإسبان وحّدوا قواهم لإخراج العرب من الأندلس، وعدوا قتال المسلمين جهاداً بالنسبة إليهم.

٣- وصول أمراء وخلفاء إلى الحكم لا أهلية لهم: لم يستطيعوا المحافظة على تماسك الأوضاع الداخلية في الأندلس، وكانت عهودهم تسودها الفوضى والاضطراب أمثال محمد بن عبد الرحمن الأوسط والخلفاء الذين حكموا في أواخر عصر الخلافة.

٤- الثورات الداخلية التي قامت بها مختلف الفئات: وخصوصاً حركات المولدين والمستعربين، والتي قامت في الثغور وهي المراكز العسكرية القريبة من خط الحدود مع إسبانيي الشمال، ومعظم هذه الحركات كانت نتيجة نحو التحالف مع دويلات الشمال الإسبانية مثل ثورة الضراب في طليطلة، وثورة ابن حفصون في جنوبي الأندلس.

٥- ازدياد نفوذ الصقالبة والبربر في الدولة في أواخر عصر الخلافة: فالصقالبة هم العبيد الذين تم شراؤهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وسلمهم الوظائف العليا في الدولة، وأما البربر فأولئك الذين استقدمهم المنصور بن أبي عامر للتقليل من نفوذ الصقالبة، وقد أدى ذلك إلى إضعاف السيادة العربية، وفي سنوات الفتنة كان لكل فريق منهم دوره بالانفراد بالسلطة، فأحياناً يسود الصقالبة في قرطبة، وأحياناً أخرى تعود إليها السيادة البربرية.

٦- انقسام الأندلس إلى عدة ممالك: مما مزق شمل وحدة البلاد، وسهل على الإسبان تحقيق أغراضهم بتحريض مملكة على أخرى وتزويدها بالمال والسلاح.

٧- عدم توافر وحدة الهدف والمصير بين عناصر المجتمع العربي في الأندلس: فهناك العرب وهناك اليهود والمولدون والمستعربون والصقالبة...إلخ، وانصرافهم إلى الرفاهية ومتع الحياة، كل ذلك أفقد المجتمع التماسك والمقدرة على مجابهة المشكلات ورد المعتدين.

٨- **الصراع بين أمراء الطوائف:** الذي تجاوز كل الحدود، ووصل هذا الصراع إلى حد الاستعانة بخصوم العرب من أمراء دويلات الشمال الإسبانية، فقد أخذ كل فريق يستعين على جاره بالأعداء نظير إعطائهم بعض الحصون، وكان ذلك كله على حساب العرب ودولتهم في الأندلس.

٩- **التفاهم والاتحاد بين دويلات الإسبان لتحقيق الهدف المشترك:** وهو إخراج العرب من الأندلس.

١٠- **النجدات الأوروبية للإسبان:** وخاصة العائدون من الشرق إثر الحروب الصليبية وحقدهم على العرب والمسلمين.

الباب الأول

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية

مظاهر التفوق الحضاري العربي في الأندلس

آ. العلوم الزراعية والطبية

أولاً – العلوم الزراعية:

١- عوامل تطور الزراعة: دخل العرب الأندلس وهم يحملون خبرات المشرق الزراعية؛ مما ساعد في تطوير الزراعة وإدخال أساليب لم تكن معروفة، وأصبحت علماً قائماً بذاته، له علماؤه وخبراؤه الذين قاموا بتجارب ووضعوا مؤلفات انعكست في المجال العملي، ومن العوامل التي ساعدت العرب في ذلك:

أ- جودة مناخ الأندلس وملاءمته للزراعة.

ب- خصوبة الأرض وتنوع التربة مما ساعد على تنوع المحصولات.

ج- وفرة المياه.

د- اشتغال عدد كبير من الناس بالزراعة بعد أن وزعت عليهم الأراضي.

٢- فضل العرب في مجال الزراعة:

يتضح فضل العرب فيما يلي:

أ- استصلاح الأراضي وإدخال نظام المدرجات الجبلية.

ب- الاهتمام بالري وحفر الأقنية والسواقي وخزن المياه المتساقطة من الجبال في سدود.

ج- الاهتمام بتخطيط الحدائق والبستنة وإدخال زراعات وأغراس جاؤوا بها من المشرق.

د- ظهور علماء ومؤلفات في مجال الزراعة، وبفضل تلك الجهود أصبحت أراضي الأندلس تنتج ثلاثة أو أربعة مواسم كل عام، وقد وضع العرب تقويماً زراعياً عُرف بالتقويم القرطبي، وأصبح دليلاً لزراعة النباتات وأصنافها ومواعيدها، استفادت منه معظم الأمم.

٣- أشهر المزروعات: اشتهرت الأندلس بزراعة الحبوب والأشجار المثمرة كالتين والعنب والتفاح والكمثرى والبرتقال والرمان والتوت والكستناء والموز والنخيل والبطيخ، وهناك زراعة الزيتون والتوت والقطن وقصب السكر والأرز، وقد دخل الكثير من تسميات النبات ووسائل الزراعة العربية إلى اللغات الأوروبية.

٤- علماء الزراعة: اشتهر عدد من علماء الزراعة العرب في الأندلس من أبرزهم:

أ- رشيد الدين الصوري: من أهل قرطبة ألف كتاباً سماه (الأدوية المفردة المستخرجة من العقاقير والأعشاب).

ب- يحيى بن محمد بن العوام: من إشبيلية وضع رسالة في الزراعة سماها (كتاب الفلاحة)، ويعد هذا الكتاب من أهم ما كتب عن الزارعة العربية في الأندلس.

ثانياً – الطب:

أ- مقدمة:

اعتمد الطب عند العرب على كتب اليونان، لكنهم لم يتوقّفوا عند حدود ما أخذوه، بل أضافوا إليه ملاحظاتهم، ووصفوا العديد من الأمراض التي لم يعرفها اليونانيون، وكان أطباء الأندلس في عصر الخلافة يذهبون إلى بغداد في المشرق لينهلوا من علومها، ويستفيدوا من مكتباتها.

ب- فضل عرب الأندلس في الطب والصيدلة:

وصل الطب إلى أوجِهِ في عهد الخليفة الناصر بفضل اعتماد العلماء العرب المنهج العلمي في البحث القائم على الملاحظة والتجربة، وقد ظهر فضل العرب في الطب في عدة جوانب أهمها:

١- تشخيص الأمراض ووصف أعراضها.

٢- إجراء عمليات جراحية مثل خياطة الأمعاء وتفتيت الحصى في الكلى.

٣- صناعة الكثير من الآلات والأدوات المستخدمة في الجراحة.

٤- دراسة النباتات الطبيعية لاستخلاص الأدوية منها.

ج- مشاهير الأطباء والصيادلة العرب في الأندلس:

أ- أبو القاسم الزهراوي: ولد في مدينة الزهراء، وكان طبيباً للحكم الثاني وضع كتاباً في الطب اسمه (التصريف لمن عجز عن التأليف).

ب- ابن زهر: ولد في إشبيلية، من أسرة اشتهرت بالطب، أصبح طبيباً لزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين: ومن أشهر كتبه (التيسير في المداواة والتدبير) وصف فيه بعض الأمراض الباطنية والجراحية.

ج- ابن البيطار: من مالقة جنوبي الأندلس، ويعد من أشهر الصيادلة، انكبّ على دراسة النباتات الطبية ليستخلص منها الأدوية، وأشهر كتبه (الجامع في مفردات الأدوية والأغذية).

الباب الأول

الفصل الثالث

الحياة الفنية

التفوق الحضاري العربي في الأندلس

أولاً- البناء والهندسة:

- ازدهار البناء في الأندلس:

رافق فترات الهدوء الداخلي واستقرار السلطة في الأندلس نشاط عمراني كبير، بلغ أوجه في عصر الخلافة بسبب قوة الدولة، ووفرة الأموال في خزينتها، ونشاهد مظاهر هذا النشاط في:

أ - بناء المدن:

أسهم العرب في بناء العديد من المدن في الأندلس أشهرها:

١- **قرطبة:** تحتل قرطبة سهلاً فسيحاً يقع بالقرب من نهر الوادي الكبير، وأصبحت منذ أن استقر بها العرب داراً للإمارة، ثم اتخذها الخليفة الناصر حاضرة له، وقد بنيت فيها الدور الجميلة والقصور الفخمة واشتهرت بقصورها وجامعها.

٢- **الزهراء:** بناها الخليفة الناصر، تم اختيار موقعها على السفح الجنوبي لجبل العروس، احتوت على قصور ملكية، ودار للسكة وكذلك على حدائق ومسجد، ومن روائع الزهراء أن الناصر وضع في البيت المخصص لنومه حوضاً منقوشاً عليه اثنا عشر تمثالاً لحيوانات من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس، كانت الزهراء تمثل قمة الفخامة والترف، عمل في بنائها وتزيينها ألوف العمال، وأنفق عليها الملايين من الدنانير.

٣- **الزاهرة:** أمر ببنائها المنصور بن عامر ٣٦٨هـ واستغرق بناؤها تسع سنوات، اتخذها مقراً شخصياً له ومركزاً لإدارته وجيشه، تنافس الناس على النزول بها، وزاد بناؤها حتى اتصلت بأرباض قرطبة واشتهر من أبنيتها المسجد.

ب ـ بناء المساجد:

كان من أبرز المساجد التي بناها العرب في الأندلس:

١- مسجد قرطبة: بناه عبد الرحمن الداخل على غرار المسجد النبوي، وقد امتاز بكثرة أعمدته الرخامية وأقواسه، كما زينت واجهته القبلية بالفسيفساء التي يخالطها قطع صدفية صغيرة كتب عليها آيات قرآنية، وكسيت جدران المصلى بزخارف دقيقة.

أما المنبر فكان مؤلفاً من قطع خشبية مطعّمة بالعاج، جمعت مع بعضها بمسامير من الذهب والفضة، وللمسجد واحد وعشرون باباً، ويقوم على إضاءته ليلاً والعناية به عدد كبير من الأشخاص.

ج ـ بناء القصور:

اشتهر من قصور الأندلس:

١- قصر الخلافة بقرطبة: يعكس تطور الفنون المعمارية وفنون الزخرفة خلال الحقب المتوالية، وبلغ أوجَه في عصر الخلافة، وكان يضم عدة قاعات أطلق عليها أسماء مختلفة.

٢- قصر الحمراء: بناه الأمير محمد بن يوسف الملقب بابن الأحمر صاحب غرناطة، ويعد من أجمل القصور العربية في الأندلس، وهو يتألف من باحة واسعة يقوم في وسطها حوض ماء حوله اثنا عشر سبعاً من الرخام يتدفق من كل منها فوارة ماء، يمتاز بزخارفه الجصية ونقوشه الذهبية وكتاباته الكوفية التي تحوي شعار عرب الأندلس ((لا غالب إلا الله)) وأهم أجنحته قاعة الملوك وقاعة الشعراء.

د- فن الزخرفة في الأندلس:

أبدع عرب الأندلس في فني النقش والزخرفة، وقد استخدموا الفسيفساء والقيشاني، ورسموا مشاهد الطبيعة وأشكال الحيوانات في زخارفهم، وزينوا نقوشهم بالخطوط العربية وكتابة الآيات القرآنية، ويظهر ذلك على جدران المساجد والقصور.

أطلق الأوروبيون على فن الزخرفة العربية (أرابسك) أي الفن العربي وقلدوا هذه الفنون في صناعاتهم وزخرفة مبانيهم.

الباب الأول

الفصل الرابع

الحياة الفكرية

التفوق الحضاري العربي في الأندلس

المكتبات والأدب

أولاً- ازدهار الثقافة العربية في الأندلس:

ازدهرت الثقافة العربية في الأندلس، فكانت الجامعات الكثيرة والمكتبات الضخمة، وكان العلماء والأدباء الذين برزوا في شتى مجالات العلم والأدب، ولم يقتصر ازدهار الثقافة على فترات الاستقرار، بل استمر في فترات الضعف وخاصة في فترة حكم ملوك الطوائف.

أ- المكتبات:

زاد عدد المكتبات في الأندلس على السبعين وكانت أهمها:

١- **مكتبة الحكم المستنصر:** بلغ ما فيها من الكتب حوالي أربعمئة ألف مجلد، وكانت متنوعة، منها العلمية والفلسفية وعلوم الحديث والفقه والشعر...إلخ، كما كانت ترد إليها الكتب من المشرق والمغرب المؤلفة منها والمترجمة.

ولشدة اهتمام الحكم بالكتب كان له ورّاقون في عدد من الأقطار يختارون له غرائب الكتب ونفائسها، ولم يكتف بجمع الكتب، بل كان عالماً وأديباً يقرأ الكتب ويضع ملاحظاته على حواشيها.

٢- **مكتبة المنصور بن عامر:** التي زخرت بالكتب النفيسة.

ب- الآداب:

ازدهرت حرفة الأدب في الأندلس، وبرز ذلك في ميادين الشعر والنثر والنحو.

١ ـ **الشعر:** أثرت طبيعة الأندلس الجميلة في قرائح الشعراء فتفتحت وأبدعت، اشتهر من الشعراء ابن هانئ الإشبيلي وابن حزم القرطبي وابن زيدون وأبو البقاء الرندي الذي شاعت قصيدته المشهورة التي يندب فيها سقوط بعض المدن بيد الإسبان، كما ظهر في الأندلس شعر لطيف الوزن رقيق المعنى دعي بالموشحات.

٢ ـ **النثر:** ظهر في الأندلس بعض الأدباء شاعت مؤلفاتهم منهم: ابن عبد ربه الذي ألف كتاب (العقد الفريد) ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر جزءاً تتحدث عن السياسة والحرب وعلاقة السلطان بالرعية...إلخ. وابن حزم وقد مر ذكره كشاعر وله كتاب (طوق الحمامة في الألفة والألاف).

٣ ـ **النحو:** كان الناس أول الأمر يدرسون اللغة عن طريق قراءة النصوص الأدبية دون استعمال كتب خاصة بالنحو، ولكن تطور الأمر عندما ظهر نحاة كثرت مؤلفاتهم في هذا الميدان ومن أشهرهم:

أ- **أبو علي القالي:** وهو ممن وفدوا من أهل الأدب المشارقة على الأندلس، ونال فيها حظوة عظيمة في عصري الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر، أتقن علوم اللغة والشعر والنحو على طريقة البصريين، عهد إليه الخليفة الناصر تأديب ولده الحكم، وقد أهدى كتابه الأمالي إلى الخليفة الناصر، ومن مؤلفاته رسالة عن المقصور والممدود كتاب (البارع في اللغة).

ب- **ابن سيدة:** صاحب المعجم وكتاب (العالم والمتعلم).

ج- **ابن مالك:** صاحب الألفية المعروفة باسم ألفية ابن مالك، وله كتاب ((الكافية الشافية))

د- **أبو حيان الغرناطي** الذي لقب بشيخ النحاة.

ج- **التاريخ:**

ألف مؤرخون الأندلس كتباً تبحث في أخبار المشاهير والأعلام وكتباً في الأنساب، واهتموا بالتواريخ العامة، وقد تأثروا بمؤلفات الطبري وغيره من مؤرخي المشرق، ومن أشهر مؤرخي الأندلس:

١- عائلة الرازي ظهر منها:

أ- أحمد بن محمد بن موسى الرازي:

وله مؤلف أسماه (أنساب مشاهير أهل الأندلس).

ب- عيسى بن أحمد: وله تاريخ الأندلس وله تاريخ حجاب الخلفاء في الأندلس.

ج- ابن الفرضي: اشتهر من مؤلفاته ((تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس)).

د- الجغرافية:

كان الدافع للاهتمام بالجغرافية الازدهار التجاري والنشاط البحري اللذين ساعدا على ظهور كتب الرحلات، واشتهر من الجغرافيين:

- أحمد الرازي: وقد سبق ذكره كمؤرخ، ويعد أول كاتب لجغرافية البلدان في الأندلس.

- محمد بن يوسف الوراق: وضع أول كتاب في المغرب الإسلامي يبحث في المسالك والممالك.

هـ- الموسيقا والغناء:

رأينا أن صوراً أخرى من الشِّعر ظهرت في الأندلس مثل الموشحات والزجل والتي ارتبطت بالموسيقا والغناء فعرفت بالموشحات الأندلسية كانت الموسيقا محاربة من قبل رجال الدين الذين كانوا يأمرون بكسر آلات الموسيقا، وأشهر من احترف الموسيقا والغناء في الأندلس زرياب الذي قدم من المشرق، وأصبح موسيقي الأمير عبد الرحمن الأوسط، من مآثره أنه أضاف وتراً خامساً على العود، وقد لاقى تشجيعاً كبيراً من سكان قرطبة، وكان ازدهار الموسيقا والغناء مواكباً لرفاه المجتمع وثراء السكان.

الباب الأول

الفصل الخامس

التأثر الإسباني والأوروبي بالحضارة العربية الإسلامية

أ- مقدمة:

تجلّت حضارة الأندلس الزاهرة في مختلف نواحي العلم والمعرفة، فقد كانت مساجدها وجامعاتها قِبلة يحجّ إليها طلبة العلم من كل مكان كل ذلك يجري وأوروبا تعيش في انحطاط وركود فكري.

ب- حالة أوروبا في العصور الوسطى:

منذ بداية العصور الوسطى وأوروبا تشكو الفقر والفاقة، تعيش على حساب الشرق الذي يزودها بالسلع الغذائية والمنتجات الصناعية، وكانت الثقافة محدودة وقاصرة على رجال الدين وأبناء الأغنياء، أما الجماهير فكانت غارقة في الجهل والأمية، قل فيها من كان يعرف القراءة والكتابة، ولم تشجع الكنيسة على انتشار الثقافة وأبقت المخطوطات القديمة محفوظة في مكتبات الأديرة لا يطلع عليها إلا الرهبان بالإضافة إلى أن الإنسان مكبل بكثير من الأوهام والعادات التي لا تدع له مجالاً لنمو تفكيره وتفتح عقله.

ج- أثر الحضارة العربية في الأندلس في أوروبا:

تعد الأندلس أهم طرق انتقال الحضارة العربية إلى أوروبا، فإليها يفِد الطلاب الأوروبيون للتعليم في جامعاتها، ومنها تحصل أوروبا على المؤلفات الضخمة في شتى نواحي المعرفة لتترجم إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى للإفادة منها معاهدتهم العلمية، ومن أبرز من تتلمذ على أيدي العلماء العرب البابا سلفستر الثاني، وقد وضح أثر الحضارة العربية في أوروبا في النواحي التالية:

١ ـ **في مجال الفلسفة:** أعجب الأوروبيون بعمق الفلسفة العربية، وتأثروا بها وظهر ذلك جلياً في العديد من كتاباتهم، كما ترجموا مؤلفات ابن طفيل وابن رشد إلى اللاتينية.

٢ـ **في المجال العلمي:** تركت بحوث العلماء العرب في الطب والفلك، والرياضيات أثراً عميقاً لدى الأوروبيين، وبقيت كتب الزهراوي وابن زهر وكتاب القانون في الطب لابن سينا تدرس في جامعات أوروبا حتى وقت متأخر، واطلعوا على مؤلفات العرب في الفلك والرياضيات والميكانيك وعلم الطبيعة واستخدموا الأرقام العربية، والنظام العشري في الحساب بدلاً من الأرقام اللاتينية المعقدة مما ساعد على تطور المعارف الأوروبية في جميع مجالات العلوم.

٣- **في مجال الأدب:** كانت الطبقة الغنية في إسبانيا وأوروبا ترسل أولادها إلى الأندلس ليتعلموا اللغة العربية، ويتذوقوا الأدب العربي، وقد أخذوا عن العرب نظام المكتبات وفنون القصص والشعر والموشحات والزجل وصاغوا في أدبهم على شاكلتها.

٤ ـ **في مجال العمران والزخرفة:** أخذ الأوروبيون أيضاً عن العرب فن العمارة الأندلسي بما فيه من رشاقة الأعمدة والأقواس والقناطر والزخارف من رسوم نباتية أو خطوط عربية، ويتضح ذلك من بعض القصور قرب مدريد وفي إشبيلية التي بناها الإسبان بعد خروج العرب، وقد انتقل فن البناء العربي إلى أوروبا جميعها.

د- إسبانيا بعد خروج العرب منها:

خرج العرب من إسبانيا وخبتْ شعلة الحضارة التي أضاءت فيها نحو ثمانية قرون، وأنارت الدرب لأوروبا، وكانت الأساس الذي بنت عليه نهضتها انحطت الثقافة في شتى الميادين وتناقص السكان، وافتقرت دور العلم إلى مدرسين يعلمون فيها وطلاب يؤمّونها، وكان على العرب الذين لم يخرجوا من الأندلس أن يتحدوا الفناء ويدافعوا عن عقيدتهم وحضارتهم، لأن الإسبان لم يفوا بوعودهم ولم يحفظوا عهودهم، فكانت محاكم التفتيش التي ينال عقابها كل من تبدو عليه صلة بالعروبة والإسلام، وأجبر المسلمون على التنصّر وفرضت عليهم المغارم الثقيلة، مما دفع الكثيرين منهم إلى ترك أموالهم وديارهم نازحين إلى المغرب العربي.

الباب الأول

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية والشخصية الأندلسية

أولاً- سمات الشخصية الأندلسية:

١ - فرضت الطبيعة سلطانها في تكوين الشخصية الأندلسية، ولعب الاختلاف العنصري دوره في تكوين هذه الشخصية، سواء أكان الأندلسي عربياً أم بربرياً أو صقلبياً أو إسبانياً محافظاً على دينه.

١ - الأندلسي بكافة عناصره يتميز بصفات لا تجدها عند هذه العناصر التي بقيت خارجة عن محيطه الأندلسي.

٢ - الشخصية لم تكن لتستدعي أن تمحو كل الصفات الأخرى التي تميز العربي عن البربري وعن الصقلي وعن الإسباني.

٣- الشخصية الأندلسية موجودة ضمن هذا الاختلاف العنصري على الرغم أن ظواهر هذا الاختلاف تقل عندما تنظر إلى الشعر الأندلسي من خلال الطبقات التي يتألف منها:

أ- فالطبقة الأرستقراطية مثلاً أو طبقة الحكام قد تجمعها صفات واحدة على رغم اختلاف العناصر الجنسية التي تتألف منها.

ب- وكذلك الطبقات الأخرى المتوسطة أو الدنيا التي تشمل سائر الناس.

٤ - الأندلسي رجل مهتم بلباسه وهندامه وطعامه محباً للهو والغناء والموسيقا، ونجده أيضاً، إلى جانب هذه الحياة اللاهية، حسن التدبير محباً للعلوم والفلسفة، وليس عجيباً أن نراه محباً للفن شاعراً ولاهياً عابثاً، ثم بعد هذا منصرفاً إلى التفقه في العلوم والتشريع والدين والفلسفة بتأثير الدافع الإسلامي وحب التأمل وفهم أسرار الحياة، وقد عدَّ ابن غالب من فضائل الأندلسيين اختراعهم للموشحات التي استحسنها أهل المشرق وصاروا يقلدونها.

ثانياً- سمات المجتمع:

يوجد بين الأندلسيين والشعوب الأخرى بعض المشابهات:

١- فأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزوة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية.

٢- هنديون في إفراط عنايهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم.

٣- بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقَّة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وجودة قرائحهم ولطاقة أذهانهم وحدَّة أفكارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة.

هذه الأقوال تصف الأندلسي متميزاً بأمور لا نجدها عند عربي البادية، ولا شك في أن للطبيعة الأندلسية أثرها في صقل هذه الشخصية وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط، ويبقى الأندلسي ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشارقة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية فيها كثير من الشوق، وكثير من العز الرغبة في عدم الابتعاد عن تقاليدهم.

الباب الأول

الفصل السابع

سمات العصر الأندلسي
في السياسة والاجتماع والفكر

أولاً- سمات هذا العصر:

يتصف العصر الأندلسي بصفات متعددة متناقضة أحياناً، ومتوافقة أحياناً أخرى هما التعصب والاستبداد من ناحية، والتساهل والحرية من ناحية أخرى.

أ- الإقبال على التعاليم الإسلامية:

أقبل الأندلسيون على التعاليم الإسلامية بشغف وحب وإدراك أن الإسلام هو الضمانة الفاعلة في حياة الناس، وأنه الدين الفاعل في امتلاكهم للقوة والبقاء.

ب- التعصب والاستبداد: لم يكن التعصب على درجة واحدة وقوة في مختلف الأدوار التي مر بها هذا العصر، ولقد كان لوجود المسلمين في بقعة تناخمها النصرانية، ويناصبهم أهلها العداء أثر كبير في إذكاء الشعور الديني في نفوسهم، وقد ساعد الفقهاء في دعم هذا الشعور وتقويته لما لهم من نفوذ ديني.

ولكن هذا التعصب الذي كان خيراً في سبيل دعم القوة الإسلامية ضد أعدائها، كان في الوقت ذاته شراً على الحرية الفكرية عند المسلمين أنفسهم، وذلك أن الفقهاء، حرصاً منهم على سيادتهم، كانوا يثيرون العامة في كثير من الأوقات على المفكرين والفلاسفة، ومن نظروا في أمور الدين والشرع والسنة، ولا يحجمون عن أن يطلبوا من الخلفاء أنفسهم أن يمنعوا في التضييق على رجال الفكر، ولهذا كنت ترى عامة الشعب، تحت تأثير دعوة الفقهاء، ساخطين على الفلاسفة الذين كان يُنظر إليهم أحياناً كزنادقة وملحدين.

وكان من الطبيعي أن تروج الدسائس والشائعات في مثل هذا الجوِّ، وأن يلقى المفكرون العنت والشر فيعمد الخلفاء أحياناً في سبيل التودد إلى الفقهاء والعامة إلى حرق كتبهم

واضطهادهم، فقد نكب ابن رشد وأصحابه ونفى ابن هانئ عن الأندلس، وامتدت النقمة إلى الوزراء والقضاة، فنالهم السجن والاضطهاد كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

ج- الحرية:

ولئن كانت الصفة الغالبة هي التعصب بسبب قرب المسلمين في الأندلس من الشعوب النصرانية ومحاككتها، لقد كانت تمر فترات يأتي فيها ملوك عادلون ينتصرون لحرية الفكر دون أن يثيروا الفقهاء، كما كان الشأن زمن الموحدين حيث انتعشت الفلسفة، وقلَّت الوشايات ذات الصبغة الدينية.

د- الانفلات واللهو:

إلى جانب هذا التعصب الديني الذي كان يكمُّ الأفواه، كنت ترى حياة الدعة والانفلات والتساهل منتشرة، فقد كانت الحياة الخاصة متعة متصلة الحلقات، بعيداً عن أمور السياسة والدين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية.

ثانياً- مواقف الأندلسيين من ذلك:

اختلفت مواقف الأندلسيين من ذلك، فمنهم من وقف رأيه على الفقهاء، ومنهم من وقف رأيه على ترك الأمور لحرية الشخص، ومنهم من عاش حياة اللهو، ولهذا كنت ترى الأندلسي يتهتك دون وازع، وقد انغمس الشعراء والكتاب في حماة الدعوة ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال، وامتد هذا الانفلات إلى الملوك، فرأيتهم يُرخون العنان للَهوهم وطربهم وللَهو الناس وطربهم، ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسان الدين الذي له حرمته في النفوس، فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق، وكان ضرر هذا التسامح أبلغ أثراً من ضرر التعصب، إذ قد أفسد النفوس فاستسلمت للراحة والدعة، وهان عليها أن تقبل الصدمات والذل ولا تثور لكرامتها، فبقيت خانعة باكية معولة تحن إلى مجد آفل وعز سليب.

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية:

١ – ما يرويه لنا ابن خاقان في المطمح عن مجلس مزج فيه الجد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر ابن شهيد في ليلة سبع وعشرين من رمضان في هذه الليلة المباركة التي يجب أن ينقطع فيها الإنسان إلى التهجّد والعبادة.

٢- وهذا أبو القاسم ابن العطار أحد أدباء إشبيلية، كان رجلاً مستلسماً إلى الصبابة، لا يحفل بملام ولا ينتقل عن المدام، يتغزل بهذه الأبيات الرقيقة:

هب النسيم مع العشى فشاقني إذ كان من جهة الحبيب هبوبه
قد كنت ودعت الصبا بوداعه وأخو الصبابة لا تفيق ندوبه
فدعا الهوى لي دعوة لم أعصها والصب راحة قلبه تعذيبه
لو لم أجب داعي الهوى وعصيته لغدت جفوني بالدموع تجيبه

٣- ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين والمسيحيات من سكان الأندلس، وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهي من الحياة الأندلسية، وإنما يقدِّمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين وعن لباسهم وأزيائهم، عن الحرية التي كانوا يتمتعون بها في قيامهم بشعائرهم الدينية، وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطا كبيراً.

٤- فقد ذكر ابن خاقان في المطمح (أن أبا عامر بن شهيد قد بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور واستئناس وقرع النواقيس يهيج سمعه وبرق الحميا يسرح لمعه، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحاً بالزنابير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح، واطّرحوا النعم كل اطّراح:

لا يعمدون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حميا، كأنما يرشف من شفة لمياء وهي تنفح له بأطيب عرف، كلما رشف أعذب رشف، ثم ارتجل بعدما ارتحل، فقال:

ولرب حان قد شممت بديره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدي لنا بالراح كل مصفر كالخشف خفره التماح خفيره

يتنـــاول الظرفـــاء فيـــه وشربهـــم أســـلافهم والأكـــل مـــن خنزيـــره

هذه الأبيات الصريحة التي لا يستبعد أن تكون صراحتها مقصودة، ورسالة ابن عبدون تثبت لنا أن هناك امتزاجاً شديداً بين الأندلسيين والمسيحيين المستعربين؛ مما يؤيد أن الصورة التي يقدمها أبو عامر بن شهيد في الأبيات السابقة ليست على صراحتها، كثيرة المبالغة.

٥- هذا عدا مشاهد الحب التي كان يصوِّرها الشعراء، والتي كانت ترسم لنا علاقات الأندلسيين بالمسيحيات والمستعربات، وهي علاقات ما كانت لتقتصر على الطبقات العليا، بل نجدها في مختلف طبقات الشعب الأندلسي، ولاسيما الطبقات الوسطى والدنيا فالشاعر الرمادي يشير إلى نوع من العلاقات الماجنة بشيء من الصراحة أحياناً، فيقول مخاطباً الساقي النصراني:

قبلتـــــه قـــــدام قسيـــــسه شربـــت كاســـات بتقديـــسه

يقـــرع قلبـــي عنـــد ذكـــري لـــه مـــن فـــرط شـــوقي قـــرع ناقوســـه

٦- وإذا كان الشعراء قد تعاهروا في حبهم وذكر علاقاتهم بالأوساط المسيحية، فهناك آخرون قد أظهروا لنا وجهاً عفيفاً محباً لهذا الاختلاط، كما فعل أبو عبد الله بن الحداد أحد شعراء بلاطك المرية زمن المعتصم بن صمادح في أشعاره التي تصور لنا حبه لأولئك النصرانيات كحبه لنويرة، وشعرنا بنفحة عذرية بدا مثلها فيما بعد على أشعار التروبادور، وأشعار ابن الحداد لها فائدة أخرى فهي تمنحنا صورة واضحة عن طريقة إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائرهم الدينية كما كانت معروفة عندهم.

الباب الأول

الفصل الثامن

إدارة المجتمع الأندلسي

أولاً- قيادة الدولة:

١- تركزت السلطة العليا في الأندلس بيد الأمير أو الخليفة.

٢- يساعده في الأمور المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء.

٣- وكان له مستشاران يسمّيان بالوزيرين، وكثيراً ما كان يطلق على كل منهما اسم ذي الوزارتين.

٤- وكان لكل مصلحة في الدولة كتاب مختصون بها، ككتاب الرسائل وكتاب الذمام الذين ينظرون نفي شؤون أهل الذمة.

٥- وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزارة رجل يسمى بالحاجب صارت وظيفته فيما بعد أعظم من وظيفته الوزير، وقد استبد بعض الحجاب بالخلفاء، كما فعل الحاجب المنصور، وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب.

٦- وكان في كل مدينة قاض، وكان قاضي الجماعة أي قاضي القضاة يقيم في قرطبة، ولا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء.

٧- وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفة العدالة ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات.

٨- وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى رئيس الشرطة، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية، ويقوم المحتسب:

أ- على شؤون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق.

ب- مطاردة المنكرات والتأديب.

ج- العمل على احترام الأحكام الشرعية.

د- قمع الغش والاختلاس في المعاملات.

٩- وكان للأندلس في عهدها الزاهر أسطول قوي كان يسمى قائده بأمير الماء، ووضعت أنظمة للجيش.

١٠- وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء التي كان لها نفوذ واسع حاولت كثيراً أن تستغله في السياسة وتدبير الملك، وفي القضاء على الروح العلمية والثقافية، بل كثيراً ما دبرت الثورات لقلب الحكم.

١١- وقد ساعدت تنحية العرب عن الجيش في زمن عبد الرحمن الداخل على وجود طبقة الجنود المتطوعة من بربر وصقلبيين، فقامت بنصيبها الكبير من الفتن، بل إن طبقة الخصيان والموالي أصبحت في عهود ضعف الدولة تتصرف في شؤون الخلافة والملك، كما ذكرنا.

ثانياً- ضعف الدولة:

انهارت الدولة العربية في الأندلس لعدة أسباب تمثّلت في:

١- ضعف الروح الحربية عند العرب.

٢- ضعف الروح الاجتماعية.

٣- تدهور الأخلاق.

٤- وساعد الغنى وخصب البلاد على انصراف الناس إلى اللهو والملذات، وظهر فيهم شعور الأثرة حتى استنجد المسلمون بالفرنجة أعدائهم.

٥- تحول العرب أنفسهم إلى طبقة الزُّراع والتُّجار والصُّناع الذين قاموا بنصيبهم في رقي الأندلس وحضارتها.

٦- تحول المجتمع إلى طبقات متناقضة:

أ- طبقة الموالي المؤلفة من الإسبانيين وغيرهم من الذين دخلوا في الإسلام.

ب- وطبقة اليهود الذين كانوا منتشرين في إسبانيا.

٧- تزوج العرب أو تسريهم بالقوطيات (الإسبانيات) اللاتي أضعفن روح العروبة بأبنائهن.

ثالثاً- سيادة القوة:

انتشرت في الأندلس روح الفتوة التي سادت في الوقت نفسه لدى الإسبانيين والغربيين قاطبة، وكانت لها قوانين متّبعة، وأصول مقررة إذا خالفها الفارس أخلّ بشرفه.

وقد بقيت الفروسية الأندلسية عصوراً تجذب الأنظار إليها، إلا أنها لم تستطع أن تذكي في نفوس أكثر العرب روح الحرب لانصرافهم عنها إلى اللهو والرخاء، وظلت على الأكثر مظهراً من مظاهر المباهج والتسامح، وقد كثر الشغف بالفروسية في حكم دولة بني الأحمر وكانت مبارياتها وحفلاتها من أجمل المباهج العامة التي تجري في غرناطة، وكثيراً ما اجتمع فيها الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ويسوون منازعتهم، وكان نساء غرناطة، البارعات في الحسن والأناقة، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من المحافل، ويخلعن عليها جواً من السحر والروعة ينم عما كن يتمتعن به من الحرية.

الباب الأول

الفصل التاسع

الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

مرَّ الوجود العربي الإسلامي في الأندلس بمراحل متباينة:

أولاً- مرحلة الذروة:

وصلت الحضارة الأندلسية إلى ذروة القوة في عهد الخلافة الأموية، أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم، ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكري، ولما انهارت الخلافة الأموية، وسادت الفوضى أرجاء الأندلس في عهد الفتنة ذوتْ هذه الحضارة، وخبتْ مظاهرها العمرانية والفكرية، حتى جاءت دول الطوائف، فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها ومجتمعاتها، وسطعت شمس الأدب والفكر، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها أمثال:

١- الفيلسوف ابن حزم المتوفَّى سنة ٤٥٦هـ.

٢- والمؤرخ ابن حيان المتوفَّى سنة ٤٦٩هـ.

٣- والشاعر ابن زيدون المتوفَّى سنة ٤٦٢هـ.

٤- والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفَّى سنة ٥٢٠هـ، وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء، بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا في طليعة الأدباء والشعراء، أمثال:

٥- العالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس.

٦- والمعتضد والمعتمد صاحبي إشبيلية.

٧- والمعتصم بن صمادح صاحب المرية.

ثانياً- مرحلة التضعضع:

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ما لبثت أن توقفت عقب تضعضع دول الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، فقد كان هؤلاء المرابطون، شديدي التعصب، قساة غلاظاً، ألفوا الحرب والخشونة، فلم تجد دول الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً، ولقد تألقت في عهدهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال:

١- الطبيب أبي القاسم خلف بن عباس القرطبي.

٢- والفيلسوف ابن باجه.

٣- والفتح بن خاقان.

٤- وابن بسام صاحب كتاب الذخيرة.

٥- ابن قزمان صاحب الأزجال الشهيرة، ولكن ظهورهم وإضرابهم في هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الفكرية التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف.

ثالثاً- مرحلة الانتعاش:

ثم جاءت دولة الموحّدين، فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة التفكير، لقد نشأ الموحّدون كالمرابطين في مهاد الخشونة والتقشف، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً، وكان مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني، وأظهر خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون، وأطلقت حرية التفكير والبحث بعد أن قُيِّدت في عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكري المشرق، وكانت قد كوفحت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس.

وفي هذه الفترة، أي في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، بلغت النهضة الفكرية في الأندلس ذروة نضجها، وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب، وفي طليعتهم:

١- أبو جعفر بن طفيل الإشبيلي صاحب رسالة حي بن يقظان المتوفَّى سنة ٥٧١.

٢- والفيلسوف ابن رشد القرطبي المتوفَّى سنة ٥٩٤هـ.

٣- والرئيس موسى بن ميمون القرطبي المتوفَّى سنة ٦٠٢هـ، وكان يهودياً، وهو من أشهر الأطباء والفلاسفة في عصره.

٤- ابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه في ذلك العصر، ومن أهم آثاره شروحه لفلسفة أرسطو في المنطق وما وراء الطبيعة.

وظهر في تلك الفترة، إلى جانب هؤلاء العلماء، عدد من أعلام الشعر والأدب مثل:

٥- أبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفَّى سنة ٥٧٨هـ، وهو مؤلف كتاب الصلة.

٦- وابن بدرون الإشبيلي المتوفَّى في فاتحة القرن السابع، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس.

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحّدين بالمغرب والأندلس، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف، ومقصد الطلاب من كل فج، وفيها المكتبات التي تضم الكتب النفيسة والتآليف النادرة في مختلف العلوم والفنون، وعني الموحّدون أيضاً برعاية الفنون، وأقيمت في عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التي تمتاز بجمالها الفني.

رابعاً- مرحلة الاضمحلال:

ولما اضمحل شأن الموحدين، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس، في أوائل القرن السابع الهجري، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية، قام المتغلبون يتنافسون في اجتناء أسلاب الدولة الذاهبة، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً في يد النصارى، وشغلت الأندلس بمحنها، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ومدافعة المغيرين، فانكمشت فنون السلم، واضطربت دولة التفكير والأدب، ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحي القوة والنضج، وقد أثرت المحنة في نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة، وبعثت إلينا بطائفة من المراثي التي ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها.

خامساً- مرحلة انكماش رقعة الأندلس ورحيل الأدباء والعلماء:

وغادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير، وآثروا العمل في جو أكثر استقراراً وطمأنينة، مثل الشيخ محيي الدين بن عربي شيخ المتصوفين الشهير، وابن البيطار المالقي وابن الأبار القضاعي، وانجلت الفتن الداخلية، وانجلى الصراع

بين إسبانيا المسلمة، وإسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن من سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً، وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي للمملكة الإسلامية القديمة، في مملكة غرناطة الصغيرة، التي برزت من غمر الفوضى، وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بني نصر، كما تقدم ذكره، وإليها هُرعت معظم الأسر الأندلسية القديمة وغدت خلال مدة تزيد على القرنين، مستودع تراث الأندلس القوي والسياسي ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي.

سادساً- مرحلة استقرار جديدة:

وفي ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وأنست جواً من الطمأنينة والهدوء، وكان ملوك غرناطة من حماة الآداب والعلوم، وسطع بلاط دولة بني الأحمر بتقاليده الأدبية الزاهرة على غرار قصور ملوك الطوائف.

تقويم للحياة الفكرية الأندلسية:

١- هذه الحركة الفكرية الأندلسية في عصر بني الأحمر تكاد تنحصر في النواحي الأدبية، فقد ازدهرت الأدب والشعر وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء.

٢- ولكن العلوم العقلية أصابها الركود، وقلما نجد في هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو غيرها من العلوم المحضة التي ازدهرت من قبل بالأندلس.

٣- إن العقلية العربية في الأندلس قد أثر فيها الاختلاط العنصري تأثيرا كبيراً.

٤- صنع الأمويون في الغرب الإسلامي صنع العباسيين مع الفرس وقربوا القوط إليهم، كما ذكرنا، فكان من أثر هذا الاختلاط امتزاج العقلية الآرية بالعقلية السامية، فنضجت العقلية العربية وزهت الآداب وازدهرت الحضارة.

٥- اقتبس الإسبانيون ثقافة العرب؛ لأنهم كانوا دونهم ثقافة، ودخلوا في دينهم وتعلموا لغتهم وأدبهم وهجروا اللاتينية وأعرضوا عن كتب المسيحية، حتى أصبح رجال الدين الإسبان يشكون من انصراف الإسبان المسيحيين عن اللاتينية إلى اللغة العربية، ويأسفون على حماسهم الشديد للغة العرب وعلى ضياع اللاتينية بين المسيحيين الذين يقبلون على العربية

والشعر العربي، ويدرسون كتابات متكلمي الإسلام وفقهائه لا ليفندوها، بل لكي يكتبوا العربية في صحة وإتقان.

٦- شيد الأندلسيون المدارس حتى أصبح أكثر الناس متعلمين.

٧- ازدهرت الآداب والفنون ازدهاراً يقوى وينخفض بحسب الظروف السياسية والعهود المختلفة التي مرت بها الأندلس.

٨- حدّت روح التعصب أحياناً من نشاط الفلسفة والعلوم العقلية.

٩- كان الأندلسيون كانوا في آدابهم مقلدين للمشارقة؛ لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم، ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم.

١٠- ظلت معاني الشعر الأندلسي سطحية ليس فيها إكثار من الحكم وطرق المعاني الفلسفية، وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة العقلية ولانصرافهم إلى اللهو والحياة السهلة.

١١- انتشار الكتابة فيهم وقلة الأمية زاد عدد الشعراء والأدباء، فقد كان أكثر الخلفاء والفقهاء والوزراء ينظمون الشعر، بل نجد روايات أدبية تذكر أن بعض السوقة ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى، وعلى رغم كثرة عدد الشعراء ووجود طائفة من النابغين فقد قصروا عن اللحاق بفحول الشعراء المشرقيين، وذلك لإقبالهم على اللهو وانصرافهم عن كل ما يكدُّ الذهن من دراسات عقلية، ولنظرتهم المثلى لكل ما كان يرد من الشرق من فكر وأدب وفلسفة، والنسج على منواله دون أن يعمدوا، على الغالب، إلى أصيل.

الباب الثاني

شخصية المبدع الشعري الأندلسي

الباب الثاني

الفصل الأول

ثقافة المبدع الأندلسي وطرق التعليم

أولاً- الأجواء الإبداعية:

تهيأت لأهل الأندلس أسباب الشعر، وتوافرت لديهم دواعيه، فطبعوا على الشغف به وانبسطت ألسنتهم بقوله، حتى أنه قلَّ أن تجد منهم من ألمَّ بطرف من الآداب، ولم يقل شعراً، وذلك لأسباب عدة:

١- كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتن أثر كبير في طبعهم على هذه الشيمة، حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق، أو كاتب بليغ كما يقول ابن بسام في مقدمة ذخيرته.

٢- تشجيع الخلفاء والولاة والمجتمع للإبداع.

٣- دخول المرأة ساحة الإبداع ومشاركتها في جوانب الحياة جميعها، فنبغ من النساء شواعر كنَّ يضاهين الشعراء عدداً، وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات، كولادة بنت المستكفي، وتلميذتها مهجة القرطبية وحمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بخنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الركونية، وعائشة بنت أحمد القرطبية، ونزهون القلاعية الغرناطية، وكنّ جميعاً موصوفات بالجمال والظرف، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة.

ثانياً- الشعر محور الإبداع:

١- كان للشعر حظوة لدى الملوك، فنبع منهم شعراء، ودرجوا على استيزار الشعراء، فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته بآن، فاعتز الشعراء بذلك وسمت مكانهم، وحفلت بهم دور الأمراء ودر عليهم الرزق، فنعموا، وترفوا ولهوا وعبثوا.

٢- كان الشعراء مهدّدين بزوال النعمة، لوشاية حاسد، أو مكيدة مبغض، أو خشية ملك أن يستقبل الوزير بالأمر دونه.

أ- كما اتفق لابن زيدون عند بني جهور.

ب- ولابن الخطيب عند بني الأحمر.

ج- وقد تحدث الوزير نفسه بالملك، فيظهر ملكه على رغبته، فيوقع به، كما صنع المعتمد بن عباد بوزيرة الشاعر ابن عمار.

د- عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان أو الوصول إلى الوزارة فظلوا على نباهتهم مغمورين خاملين.

٣- لم تخل حياة الشعراء من مضايقات، وأعنفها ما كان يلقاه بعضهم من لفيف من الفقهاء، كانت تدفعهم غيرتهم الدينية إلى أن يوقعوا ببعض من عرفوا بزيغ أو مجون أو خلاعة، كما جرى لابن هانئ، فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامة، لما بدا في شعره من آثار الخلاعة، والمجاهرة بما يمس العقيدة.

٤- على أن شعراء الأندلس وأدباءها، على ما أوتوا من طبع صقلته الطبيعة ونمته المرانة، لم يكن لهم بد من ثقافة تعينهم وترفد طبعهم.

ثالثاً- ينابيع ثقافة الشاعر:

ومن المهم أن نتعرف على منابع الثقافة في هذا العصر، ومادة هذه الثقافة، والآثار المهمة التي كان الشعراء يتدارسونها، لنضع أيدينا على ينابيع ثقافة الشاعر.

١- كانت العربية لغة الأندلس الرسمية، بها تجرى المكاتبات والمراسلات.

٢- جنوح لغة التخاطب إلى العامية.

٣- واستعمال بعض الفئات اللغة البربرية أو الرومانية.

٤- وكان الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية، ويتنافسون هم أنفسهم في دراستها وإجادتها، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم.

٥- ولم يكن التنافس بين الأمراء والحكام مقصوراً على الجانب السياسي، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً.

٦- وكان كل أمير يعمل على أن يكون في كنفه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانة، بل كانت المنافسة في هذا الباب تدفع الواحد منهم أن يقتنص من لدى منافسه من أدباء أو شعراء كبار، كما فعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بابن الأرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية وكاتبه الخاص، وإن كان لم يوفق في مسعاه.

٧- ومن هنا كان تعلم العربية والتمكن منها ضرورة لمن يريد أن يصل إلى ديوان الإنشاء.

٨- ولما كان الشاعر يتولّى في كثير من الأوقات وظيفة كتابية بوصفه وزيراً، كان عليه أيضاً أن يكون واقفاً على أصول الإنشاء مجوداً للكتابة، وإذا كان اهتمام الشعراء بالكتابة وفن إنشاء الرسائل ضرورة تقتضيها مهنهم ككتاب في دواوين الإنشاء، فقد كانت الكتابة أيضاً نتيجة لميل أدبي متأصل فيهم.

٩- العطف الذي أبداه الخلفاء والأمراء نحو الأدب والمتأدبين أدى إلى كثرة الكتاب والشعراء وإلى ازدهار الأدب ولاسيما في زمن ملوك الطوائف، ولكن هذا العطف لم يكن السبب الوحيد في هذا الازدهار.

١٠- بل إن أسلوب تعلم اللغة العربية والتثقيف بالثقافة الأدبية العامة كان لهما أيضاً أثر كبير في نهضة الأدب وازدهاره في بلاد الأندلس.

الباب الثاني

الفصل الثاني

طرق التعليم في الأندلس

اهتم الأندلسيون بطرق التعليم بشكل كبير وعرف عنهم:

أولاً- العلوم التي اهتموا بها:

١- إنهم كانوا يعنون بتعليم العربية.

٢- رواية الشعر قبل العلوم الأخرى.

٣- القرآن الكريم أيضاً ليتفهموه.

٤- الترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها.

٥- تجويد الخط والكتاب.

ومن الصعب أن نفصل تعلم القرآن عن تعلم اللغة والشعر القديم لما بينهما من وشائج وثيقة، وقد يكون من المستحسن لفهم القرآن أن نبدأ بدراسة اللغة، كما شاء الأندلسيون.

ومن دلائل النهضات الإنسانية في شعب ما، أن يهم هذا الشعب بدراسة الإنسانيات القديمة وآثارها.

فالتعليم الذي يتلقاه الشاعر الأندلسي إذن لا يختلف في شيء كبير عن التعليم الذي يتلقاه الشاعر المشرقي، وهو قبل كل شيء عودة إلى الآثار القديمة وحفظها وتفهمها وأحياناً تقليدها وقد أراد الأندلسي أن يكون تعلمه للشعر واللغة سابقاً لتعليم القرآن الكريم وسائراً معه، كما أراد المشرقي أن يسبق تعلم القرآن دراسة الشعر والأدب، ولا أظن أن الأندلسي والمشرقي استطاعا أن يجدا حدوداً فارقة بين هذا وذاك أثناء تلقيهما العلوم والمعارف الأولى.

وقد كان التعليم الخاص الذي لا تشرف عليه الدولة منتشراً في كل مكان في أندلس، فكنت ترى في القرى الصغيرة، كما في المدن الكبيرة، ما يشبه المدارس الابتدائية اليوم، أما في

المراكز المهمة كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة، فكنت ترى حلقات التعليم على مختلف درجاته منتشرة في المساجد، وكان هناك مدارس يشرف عليها أساتذة قديرون إلا أنه لم يكن في الأندلس مدرسة جامعية على نمط المدرسة النظامية التي أسست ببغداد سنة ٤٥٧ هـ ١٠٦٥م.

هذا، وقد خسرت قرطبة مركزها الثقافي بعد زوال الخلافة عنها، وأصبحت المراكز الثقافية موزعة بين طوائف الملوك، فكان لكل بلاط مركز من مراكز الثقافة.

ثانياً- الكتب التي اهتموا بها:

وجلُّ هذه الثقافة كانت ترمي لجعل الأندلسي أديباً، شاعراً أو كاتباً من قراءة مجموعة من الكتب هي:

١ - كتاب سقط الزند للمعري.

٢- اللزوميات للمعري.

٣- زمرة المختارات والدواوين، فمن كتب المختارات المعروفة نشير إلى:

أ- المعلقات مع شرح ابن النحاس النحوي المتوفَّى سنة ٣٣٧ هـ، ثم إلى:

ب- المفضليات.

ج- الأصمعيات.

د- وكتاب الحماسة لأبي تمام.

ه- وأشعار الهذليين.

و- والنقائض بين جرير والفرزدق.

ز- وكتاب اليتيمة للثعالبي.

٤- الدواوين الشائعة فهي:

أ- ديوان ذي الرمة، ويذكر المقري أن أبا بكر بن زهر كان يحفظ هذا الديوان، ويقول: إنه يحوي ثلث مفردات اللغة العربية.

ب- وديوان الأعشى.

ج- وديوان أبي تمام.

د- وديوان المتنبي.

هـ- وديوان الصنوبري (المتوفَّى سنة ٣٣٤هـ).

و- وسقط الزند واللزوميات للمعري.

ز- وديوان أبي العتاهية.

وإلى جانب هذه الدواوين يجب أن نشير أيضاً إلى الدواوين التي جلبها أبو علي القالي من الشرق عندما رحل إلى الأندلس، وهي تشمل معظم الشعراء الشرقيين المعروفين لعصره.

٥- وزمرة طبقات الشعراء، التي تضم عادة مختارات من القصائد مع نقد موجز، فلم تكن عديدة، منها:

أ- كتاب الطبقات لابن قتيبة (المتوفَّى ٢٧٦هـ).

ب- وكتاب الطبقات لابن النحاس (المتوفَّى ٣٣٧هـ).

٦- وزمرة كتب الأدب، ويذكر من كتب الأدب.

أ- كتاب زهر الآداب للحصري.

ب- وكتاب الآداب لابن المعتز.

٧- وزمرة كتب اللغة والنوادر، ومن كتب اللغة.

أ- الميسر والقداح لابن قتيبة.

ب- والكامل للمبرد.

٨- أما كتب النوادر فمنها كتاب:

أ- النوادر لعلي بن حزم اللحياني.

ب- والنوادر لأبي زيادة الكلابي.

ج- والنوادر للحصري.

٩- وزمرة كتب النحو.

وإذا كانت جميع الكتب التي ضمتها مكتبة الحكم الفخمة، قليلة عدد النسخ، بعيدة عن أن تكون في متناول عامة الناس، فإننا نزعم أن عدداً منها كان يتداوله الأدباء المقربون من البلاط الأموي، وأن هذا التراث الأدبي، عندما سقطت خلافة قرطبة لم يفقد بأجمعه، وقد أدى التوزع السياسي الذي عقب هذا السقوط توزعاً أدبياً، وتبعثر ما بقي من مكتبة الحكم في مكتبات ملوك الطوائف، وفي المكتبات الخاصة لبعض متذوقي الأدب.

١٠- كتاب الأغاني الذي كان الحكم قد اشترى نسخة من نسخه الأولى، وكان يقرأ في حلقات بعض مدرّسي الأدب، وأن ابن عبدون كان في شيخوخته يتلو الأغاني عن ظهر قلب؟ وأن كتاب الأغاني قد لاءم ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقا، وقد أثر تأثيراً كبيراً في الأوساط الأدبية وحلقات السمر المرهفة التي كانت منتشرة في الأندلس، وقد ألّف يحيى الحدج أديب مرسية كتاباً على نمطه يدعى كتاب الأغاني الأندلسية.

١١- رسالة ابن حزم.

١٢- والحكايات الكثيرة التي يرويها المقري في نفح الطيب.

١٣- النوادر لأبي علي القالي وأماليه وقد أملاهما في الأندلس نفسها.

١٤- الكتاب لسيبويه، وقد اهتم به أهل الأندلس وتدارسوه وشرحه ابن المناصف شرحاً مطولاً.

١٥- فصيح ثعلب كان له قارئوه من الأندلسيين.

١٦- كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت.

١٧- كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (وفاته سنة ٢٢٣هـ) المسمى (الغريب المصنف).

١٨- كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وقد شرحه ابن السيد البطليوسي أحد نحاة بجاية في القرن الحادي عشر الميلادي.

١٩- الكامل للمبرد، أقبل الأندلسيون على دراسته بكثير من الشغف والاهتمام.

٢٠- فألف صاعد اللغوي، وهو نحوي شهير قدم الأندلس زمن طوائف الملوك كتاباً أسماه (كتاب الفصوص) حذا فيه حذو المبرد في الكامل.

ثالثاً- الشعراء الذين اهتموا بهم:

في طليعة الشعراء الذين اهتم الأندلسيون بهم واستساغوا شعرهم وأحبوهم:

١- أبو نواس.

٢- ابن الرومي، وقد نظم في هذا المعنى كثير من شعراء الأندلس أشعاراً تعارض ابن الرومي، يعجبون بوصفه للطبيعة ويحفظون له أشعاره في تفضيل النرجس على الورد.

٣- البحتري، فقد كان محط إعجاب الأندلسيين، وقد لجؤوا إلى طريقته في النظم.

٤- المتنبي، وقد ملأ الدنيا كما يقول ابن رشيق، قد وصل تأثيره إلى المغرب الإسلامي وخاصة الأندلس.

ويظهر أن المعتمد هو أول ملك من ملوك الطوائف اهتم اهتماماً كبيراً بالمتنبي، حتى أن إعجابه بشاعرنا العربي الكبير قد أزعج الشعراء المحيطين به.

٥- كالشريف الرضي الموسوي (وفاته ٤٢٨هـ).

٦- وعبد المحسن الصوري (وفاته ٤١٩هـ).

٧- ومهيار الديلمي (وفاته ٤٢٨هـ).

فابن خفاجة الذي يعد شاعر الطبيعة الأول في الأندلس، والذي لم يكن سوى مقلد عبقري، يعرف بأنه مدين في أكثر وحيه إلى شعراء مشارقة كالشريف الرضي الموسوي، وعبد المحسن الصوري، ومهيار الديلمي، ولا يصعب علينا أن نبيِّن ما أخذه عن البحتري والصنوبري من معان وأخيلة تتعلق بوصف الطبيعة، حتى إنه كان يلقب بصنوبري الأندلس.

٨- أبو العلاء المعري:

أ- ويدهشنا أن رسالة من رسائل أبي العلاء المسماة (الصاهل والشاحج) قد قلدها أحد أولاد الأندلسي ابن عبد الغفور تحت عنوان (الساجعة).

ب- يشير المؤرخون إلى أن أبا عامر ابن شهيد (٣٨٢ - ٤٢٦هـ) كان مولعاً بآثار المعري حاذياً حذوه، ويقال: إنه عارض (رسالة الغفران) للمعري برسالته: (التوابع والزوابع).

الباب الثاني

الفصل الثالث

طبقات الشعراء

حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية

أولاً- طبقات الشعراء في الأندلس:

إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسي رأينا أن الشعر قد استطاع التغلغل في مختلف طبقاته، فلم يقتصر على الأمراء وعلية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه منذ شبابهم مستفيدين من ثقافتهم التي جاءتهم عن طريق التعليم، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب ينظمون الشعر ويتذوقونه.

أ- طبقة عامة الشعب ممن لا يعرفون القراءة والكتابة وهم محرومون من الثقافة ينظمون الشعر ويتذوقونه، ولعل هؤلاء قد اكتسبوا هذه القدرة على النظم بعد أن تقدمت بهم السن، وبعد أن اختلفوا إلى بعض الحلقات العلمية، واستمعوا بدافع ميل شخصي عفوي إلى ما يقوله المتأدِّبون والعلماء في دروسهم فنما فيهم ذوقهم الفطري، فقد كان المدرسون يقبلون في حلقاتهم أي شخص كان، على أن يكون لديه الاستعداد الفطري لتذوق ما يسمع، ومن هؤلاء الشعراء الأميين ابن لبال الأمي أستاذ ابن عبدون.

ب- الشعراء العميان:

وهم زمرة الشعراء العميان، لا يعرفون القراءة والكتابة، وكثيرون في الأندلس الشعراء الذين يحملون لقب الأعمى أو الضرير أو المكفوف، ويشير الصفدي في كتابه (نكت الهميان) إلى عدد كبير منهم، فممن امتازوا بالعلم والأدب:

١- كالنحوي ابن سيده الذي عاش في مرسية.

٢- والشاعر الوشاح الأعمى التطيلي الذي عاش في تطيلة.

ج- الشعراء أرباب المهن:

وهناك شعراء من أصل متواضع، أو من أرباب المهن، كانوا على جانب بسيط من الثقافة، ويحدثنا ابن عمار شاعر المعتمد، وهو من أسرة متواضعة عن الفائدة التي يمكن أن يجنيها المرء من مخالطته هذه الجماعات الكادحة التي تسعى جاهدة في سبيل نيل قوتها اليومي، وقد كان ابن عمار قبل أن يصبح شاعر المعتمد يخالط هذه الأوساط باحثاً فيها عن موضوعاته الأدبية مدركاً ما يمكن أن يستفيده الشاعر من صور جديدة وتشابيه مستمدة من واقع الحياة، وابن عمار هو الذي اكتشف الشاعر ابن جامع، وقد كان صباغاً في مدينة بطليوس، أما أبو تمام غالب بن رباح وهو حجام في قلعة الرباح فقد اشتهر بشعره الواقعي، ونظم شعراً يصف الجروح والقروح وافتراس الطيور الجارحة لأحشاء القتلى وصفاً واقعياً تشمئز منه النفس أحياناً.

ومن هؤلاء الشعراء:

١ - ابن جامع الذي كان صباغاً في مدينة بطليوس.

٢ - أبو تمام غالب بن رباح وهو حجام في قلعة الرباح الذي اشتهر بشعره الواقعى ونظم شعراً يصف الجروح.

د- الشعراء الذين اشتغلوا بالطبيعة:

ومن بين الشعراء الذين انبثقوا في طبقات متواضعة، يمكننا أن نشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في الحقول، وكانت مهنهم الزراعة، ولا شك أن نشاطهم الأدبي كان ذا قيمة، فالحياة في الحقول ليست دائماً عملاً مرهقاً، إنها تترك فسحات للأحلام.

هـ- الطبقات العالية والأرستقراطية:

وكذلك كنا نلمس ذوقاً شعرياً وشغفاً كبيراً بالنظم في هذه الطبقات، فها هو ذا:

١ - المظفر بن المنصور كان مشغوفاً بالأشعار التي تصف الأزهار والمسماة بالنوريات، وكان يقترح على الشعراء أن ينظموا في وصف الحدائق والحقول، ولم تكن السياسة والحروب لتشغل الأندلسيين عن الاهتمام بالأدب، فها نحن أولاء نرى:

٢- المستظهر بالله، وكانت خلافته زمن الفتنة (توفى سنة ٤١٤هـ) يعقد مجالس أدبية يشترك فيها أدباء مشهود لهم بالمقدرة كأبي عامر ابن شهيد وأبي محمد ابن حزم، على رغم اضطراب الأمور من جراء العراك الشديد القائم ضد البرابرة، وكذلك:

٣- المعتضد فقد قرض الشعر.

٤- وكذلك ابن المعتضد- المعتمد - فقد كان صورة صادقة للشاعر الأندلسي، وفي عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية.

٥- المظفر ملك بطليوس.

ثانياً- طبقات متميزة:

أ- طبقة الشعر الأندلسي الحقلي:

ولا نكون مغالين إذا قلنا: إن الشعر الشخصي هو ما كان منبعثاً عن أولئك الذين عرفوا الطبيعة وتحسسوا بجمالها، والميزة التي امتاز بها بعض شعراء الأندلس الذين تأثروا بالطبيعة:

١- ابن خفاجة مثلاً هي أنهم لم ينظروا إليها كشيء خارج عن كيانهم، بل وصفوها من خلال عواطفهم وأشركوها إحساسهم فجسّموها وشخصوها، ولا شك أن هذا الوصف العاطفي للطبيعة الأندلسية قليل إلى جانب الوصف المادي إلا أنه موجود وجمال الطبيعة وقساوتها قد انتقلت إلى أشعار هؤلاء النفر من الشعراء الذين مارسوا حياة الحقل، وهم هؤلاء الذين استطاعوا بعد أن انتقلوا إلى حياة المدن الناعمة أن يعبروا عن أفكار قوية بصور جديدة ملونة، وهم الذين منحوا الشعر الأندلسي هذا اللون الحقلي، لون الشعر الرعوي، وهو شعر يصف الطبيعة والحياة القبلية في رقة ظاهرة، وكثيرون الشعراء الأندلسيون الذين تفتحت عبقريتهم في أحضان الطبيعة.

٢- ابن عمار الذي نشأ في الريف وقال فيه أول شعره.

٣- وابن شرف أحس بشاعريته وهو في قريته - برجة -.

ومنهم من غادر قريته إلى المدينة، ولكنه لم يستطع الابتعاد عنها نهائياً فعاوده الحنين إليها، وفضل أن يقضي آخر أيامه فيها.

ب- طبقة شعراء الدول والممالك:

١- بنو عباد:

استطاع بنو عباد أن يجمعوا في دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية، وكذلك بلاط المرية أصبح ملتقى الشعراء في عهد المعتصم بن صمادح أما بقية ملوك الطوائف فقد كان حبهم للشعر والأدب ظاهرة من ظواهر التباهي والتفاخر، وأكثر من أن يكون حباً خالصاً وذوقاً شعرياً مجرداً.

٢- مملكة بطليوس:

لا عجب إن نسمع أن المظفر ملك بطليوس يقول: إنه لا يقبل في بلاطه شاعراً يقل عن المتنبي أو المعري، وكان من جراء ذلك أن ابتعد الشعراء عنه، أما الذين جاؤوه فقد دفعوا الثمن وأراقوا ماء وجههم في مدحه والتملق له.

٣- دولة غرناطة:

أما في غرناطة، فيظهر أن الشعراء، في بادئ أمرهم، قد عاشوا في خوف دائم لاسيما في عهد الأمير باديس بن حبوس، وإذا كان هذا الأمير قد أكرم الأدباء كغائم المخزومي، فذلك أنه كان يعتبرهم كفقهاء، وقد أبعد كل من كان حراً في رأيه، ولكن الأمراء الذين خلفوا باديس كانوا على عكس ذلك، فقد أكرم الشعراء والأدباء الذين كانوا يتوافدون على غرناطة، وكان من بينهم من ينظم شعراً، حتى أن الأمراء البرابرة، كعلي بن حمود الناصر، كان يلذ لهم أن يسمعوا الشعر ويحضوا الشعراء على نظمه، ونحن نعلم ما تمت به غرناطة في أيامها الأخيرة من شهرة عظيمة، وكيف كانت آخر نواة لقي فيها الشعر رواجاً ومتعة ورخاء.

ولنقل: إن الاهتمام بالشعر والأدب كان على الشدة نفسها في بقية المراكز التي قام بها بلاط لطائفة من طوائف الملوك.

٤- أمراء سرقسطة:

وإذا كان أمراء سرقسطة قد امتازوا بحبهم للفلك وللعلوم الرياضية، فما نحسب أنهم نأَوْا عن الأدباء أو قصروا في تشجيع الشعر والعطف على الشعراء.

٥- أمراء طليطلة:

وإذا كان أمراء طليطلة مع اهتمامهم بالعلم يمتازون بحبهم للأدباء، فإنهم لم يقصروا في تشجيع الشعر والعطف على الشعراء.

ثالثاً- الشعر قيثارة المجتمع:

إن مثل هذا الرواج ظاهرة فريدة ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعة، حتى أصبح هذا الشعر على فم كل إنسان فهو:

١- في نظر العامل والفلاح الأندلسي أنشودة تنسيه أتعابه.

٢- وهو في نظر الوزير والأمير هروب من مشاغل السياسة والإدارة.

٣- وهو في نظر الشاعر الرسمي أو شاعر البلاط سبب للرزق، ولكن على الرغم من هذا الطمع المادي الذي أبداه شاعر البلاط فإنه ما كان لينسى النواحي الفنية، بل لعله كان يجبر الفن على الانطلاق لينال إعجاب الممدوح.

ويمكننا أن نقول: إن الشعر كان في نظر الأندلسي على الإطلاق رمزاً للفخر، وما كان الأمير ليجد في ممارسته غضاضة أو نقصاً، بل على العكس فخاراً ومجداً، ولهذا فالأندلسي رغب بالشعر للشعر.

الباب الثاني

الفصل الرابع

حياة الشاعر الأندلسي

أولاً- سيرة الشاعر:

يمكن أن نختصر حياة الشاعر الأندلسي بالكلمات الآتية:

١ - دراسة في قرية متواضعة.

٢ - ثم في مدينة كبيرة.

٣- بعدئذ حياة هائمة قريبة من التشرد.

٣- إلى أن يقترب من محسن أو أمير فيواتيه الحظ وينعم بالجاه والمكانة والمال أو ينغمس في حماة الدسائس، ونرى أن أكثر الشعراء قد نشؤوا في الأرياف، وقد لقنهم بعض النحويين النظاميين علوم العربية والشعر، ثم يقصدون المدينة، والحكايات في هذا الصدد كثيرة مبعثرة:

أ- فابن عمار عندما غادر قريته كان لا يملك إلا بغلته التي كان يمتطيها، ومع هذا فقد أصبح وزيراً للمعتمد.

ب- والشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتصم بن صمادح في المرية كان في ثياب رثة أثارت ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم.

ثانياً- رحلة الشاعر الأندلسي للمجد:

كان على الشاعر أن يجاهد للبحث عن المجد والمادة، ولاسيما إذا كان من طبقة متواضعة.

١ - حياة المجد التي كانت تنتظر الشاعر الناجح هي التي كانت تحثه على العمل ومواصلة السعي.

٢ - وهو رغم سعيه ما كان ليخفي المصاعب التي تعترض سبيله.

٣- فالشعراء كثيرون والنقاد متهيئون، ومن الصعب لمن لا يتحلى بالعبقرية والثبات أن يفرع له طريقاً في هذا المضمار الوعر.

٤- وكانت حياة الشعراء حياة تنقل، فالشاعر يحمل إنتاجه الشعري ويطرق أبواب الأغنياء والأمراء طلباً للجائزة وسعياً وراء المادة، حتى لو استقر به المقام عند أمير من الأمراء فقد لا يكون هذا المقام طويلاً، ويضطر الشاعر، وقد شعر أن ممدوحه قد مل معانيه وشعره، أن يغادر بلاط هذا الممدوح إلى بلاط ممدوح آخر.

٥- يظهر الشاعر تذمره وشكواه مما لاقاه ويتألم من ممدوحه الذي لم يستطع إدراك مزاياه، وهذا التنقل سنراه شائعاً أيضاً عند شعراء التروبادور.

٦- وشكوى الشعراء من سوء الطالع ومن سوء الناس وقلة فهمهم لهم ازدادت في زمن المرابطين، حتى رأينا ابن بقي يتهم اتهاماً قوياً المجتمع الذي لم يعد يقدر العبقريات ورجال الشعر، ولا شك أن ابن بقي قد نظر هذه النظرة الشديدة لمجتمعه عندما شعر ببعض الإخفاق، وكان إخفاقه طعنة آلمت شعوره وأثارت سخطه حتى وصف أفراد مجتمعه بالجهلة والقساة، ومهما يكن من أمر فحياة الشعراء لم تكن دائماً حياة ضاحكة، بل هي كحياة أولئك التروبادور الذين كان عليهم أن ينشدوا ليعيشوا.

٧- كان الشاعر يعرف كيف يخضع نفسه الشروط معينة ولطاعة مذعنة عندما يصل إلى مدينة يحكم فيها أمير يرغب في الدخول تحت زعامته، وهكذا يطرق باب قصر الأمير، ويخصص له صاحب الإنزال (وهو موظف مخصص لإسكان الشعراء واستقبال ضيوف الأمير) مكاناً في ملحقات القصر، وأحياناً في القصر ذاته عندما ينال الحظوة اللائقة التي تستدعي هذا الإكرام.

٨- حياة الشاعر مرتبطة بحياة الأمير، لا يترك مناسبة تمر دون أن يوجه له مديحاً يعدد فيه مناقبه وشجاعته وكرمه على طريقة الشعراء المشارقة مردداً معاني المدح التقليدية.

٩- وحياة شاعر البلاط في الأندلس لا تختلف في شيء كثير عن حياة شاعر البلاط في الشرق، ولابد للشاعر بعد أن يدخل القصر، أن يمثل بين يدي الأمير ليسمعه بعض شعره، ويكون ذلك بمثابة امتحان له، فإذا ما لاقى الشاعر استحساناً تمكن من البقاء، ومن الشعراء من استطاعوا أن ينالوا مرتبة عظيمة ويتقلبوا في المناصب العالية، وتغدق عليهم الأموال بعد أن أخضعوا شيطانهم للمدح والاستجداء.

الباب الثاني

الفصل الخامس

الآثار الأدبية الأولى
وأشهر الأدباء والشعراء

أولاً- أوائل الشعراء الأندلسيين:

ما إن تم للعرب فتح الأندلس حتى أخذت القبائل العربية تتقاطر عليها من أنحاء المشرق، ولاسيما ديار الشام، مستوطنة، وكان بين هؤلاء النازحين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه، إلا أن من الطبيعي ألا نعتبر ما أثر عن هؤلاء الطارئين شعراً أندلسياً يحمل طابع الأندلس الخاص وملامح الشخصية الأندلسية المتميزة، إذ لا يعدو هؤلاء أن يكونوا جيلاً مشرقياً تظهر في آثارهم مسحة المشرق، ولابد من تصرُّم حقبة من الزمن غير قصيرة لينشأ جيل أندلسي طبعه الجو الجديد بطابعه وظهرت في تكوينه آثار طبيعية الأندلس ومناخها على نحو مستقل.

على أن هذه الأجذام العربية النازحة، وما انحدر منها من سلالة أندلسية كانوا، في واقع الأمر، وأول تاريخ الأدب في الأندلس، وقلما تجد في الأندلسيين شاعراً مفلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية.

هذا، وقد حفظت لنا كتب الأدب طائفة مما أثر من شعر هؤلاء النازحين وفي طليعة هؤلاء:

١- عبد الرحمن الداخل (صقر قريش): الذي وطد الملك لبني مروان في الأندلس فالمقري يذكر له خطباً ورسائل تشبه في أسلوبها خطب الأمويين ورسائلهم في آخر أيامك دولتهم بالمشرق، ويذكر له فوق ذلك شعراً يتمتع برقة الشعر الأموي وجزالته، زمنه ما بعث به إلى أخت له بالشام يصف فيه شوقه إليها وحنينه إلى بلده ووطنه الذي فارقه موجع القلب فاراً من سيوف العباسيين، قال:

أيهـــا الراكـــب المـــيمم أرضي أقـــر مـــن بعـــضي الـــسلام لـــبعض

إنّ جـــسمي كـــما تـــراه بـــأرض وفـــؤادي ومالكيـــه بـــأرض

قـــدر البـــين بيننـــا فـــافترقنا وطـــوى البـــين عـــن جفـــوني غمـــضي

قـــد قـــضى الله بالـــفراق علينـــا فعـــسى باجتماعنـــا ســـوف يقـــضي

ومنه أيضاً هذه الأبيات التي نفيض بالحنين والشوق، والتي قالها في نخلة فريدة في حديقة قصره بالرصافة الذي بناه على نسق رصافة الشام، فهاجت شجنه وأثارت كوامن عاطفته:

تبـــدت لنـــا وســـط الرصـــافة نخلـــة تنـــاءت بـــأرض الغـــرب عـــن بلـــد النخـــل

فقلـــت: شـــبيهي في التغـــرب والنـــوى وطـــول التنـــائي عـــن بنـــيّ وعـــن أهـــلي

نـــشأت بـــأرض أنـــت فيهـــا غريبـــة فمثلـــك في الإقـــصاء والمنتـــأى مـــثلي

ســـقتك غـــوادي المـــزن في المنتـــأى الـــذي يـــصح ويـــستمري المـــساكين بالويـــل

٢- وابن عمه الأمير عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي من الـذين فـروا مـن الشام خوفاً من المسودة، وقد مضى إلى الأندلس فولاه عبد الرحمن عـلى إشـبيلية وكـان يقـول الشعر، وقد رووا له أيضاً أبياتاً قالها في نخلة فريدة رآها بحديقة بإشبيلية فتـذكر وطنـه وحـن إلى أهله، قال:

يـــا نخـــل أنـــت فريـــدة مـــثلي في الأرض نائيـــة عـــن الأهـــل

تبكـــي، وهـــل تبكـــي مكممـــة عجـــماء لم تجبـــل عـــلى جـــبلي

ولـــو أنهـــا عقلـــت إذاً لبكـــت مـــاء الفـــرات ومنبـــت النخـــل

لكنهـــا حرمـــت وأخرجنـــي بغـــضي بنـــي العبـــاس عـــن أهـــلي

وهذه الأبيات تنسب أيضاً لعبد الرحمن، وهى كما ترى تـنم عـن قـوة ورقـة كانـت طـابع الأندلسي في جميع أطواره.

ثانياً- قرطبة مسكن الشعراء الأندلسيين:

وقد أصبحت قرطبة في زمن عبد الرحمن ومن عقبه من الأمراء مركز الحركة العلمية والأدبية في الأندلس، فتوافد إليها الكثيرون من المشرق يعرضون إنتاجهم وشعرهم وحدث اتصال أدبي، شرقي غربي، ولكن قرطبة كانت ترسم خطى بغداد في نهضتها، وكان المشرق قبلة الأندلس، وقد رأينا كيف كان الأندلسيون يعيشون على الثقافة الشرقية، فلا يكاد يعرف كتاب في المشرق حتى يطلب إلى المغرب، ورأينا كيف كان الأندلسيون يرتحلون إلى المشرق في طلب العلم والأدب والرواية، ثم يعودون فينشرون هذا العلم والأدب في الأندلس.

وهكذا كان الأدب حتى أواخر الدور الأموي وسقوط الخلافة أدباً وافداً على الأندلس يتذوقه الأندلسيون ويقلدونه، وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله أواخر العصر الأموي وصدر العصر العباسي، ولم يكن هناك جدة في أشعارهم إلا ما تقتضيه طبيعة إقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشآت التي استحدثها ملوكهم، وبقيت أكثر الأغراض الشعرية التقليدية تحتذي نماذج مشرقية، وكثرت فيها بعد الألقاب التي تشير إلى أن هم شعراء الأندلس أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق.

الباب الثاني

الفصل السادس

روابط الأدب الأندلسي بالمشرق

ارتبط الأدب الأندلسي بالمشرق بروابط وثيقة من أهمها:

١- رابطة العقيدة الإسلامية:

وقد يبدو لأول وهلة أن استيطان العرب بلاد الأندلس بعد افتتاحها واستقرارهم فيها بعيداً عن منابت العروبة والإسلام، وخضوعهم لمقتضيات الإقليم ومتطلبات الحياة الجديدة وحدها، قد أنساهم كل ذلك أصالة الوراثة، ولكن العكس هو الصحيح، إذ إن هذه الأصالة حالت بميسمها دون الخضوع نهائياً إلى مظاهر المحيط الجديد ومتطلباته العابرة، ويبدو هذا الأمر جلياً في حياة المجتمع الأندلسي، ويتمثل في ظاهرتي: الدين واللغة، فلقد أسلمت الأندلس وبصورة أدق لقد خفقت في أرجائها راية الإسلام، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جاوزت الأندلس في تعصبها لدين الإسلام الوافد عليها واستمساكها بتعاليمه أخواتها من دول المشرق المسلم.

والأكثر غرابة من هذا تعلق الأندلسيين بمذاهب أهل النقل، فقد كان أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح، ثم انتقلت الفتوى في دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً والمغرب وذلك برأي الحكم واختياره.

وإذا كنا نلمس انتشار المذهب الظاهري في الأندلس على يد إمامه ابن حزم، فإننا لا نستطيع أن نقول بانحسار المذهب المالكي عنها، ذلك أن المذهبين إنما يستقيان معاً من معين النقل، على أن الظاهرية في الأصل مذهب من مذاهب التفسير قبل أن تكون مذهباً من مذاهب الفقه، وهكذا فإن المجتمع الأندلسي لم يكتف في تدينه بمذهب فقهي وسط كالمذهب الشافعي السائد في مصر والمنتشر في بلاد الشام، وإنما طبق تعاليم الإسلام

بالنص كما أخذت من القرآن والحديث وجرى العمل عليها من أهل المدينة، ثم لم يجمع إلى المالكية مذهباً آخر.

ومن هنا فقد انعدمت المشاحنات بين الفقهاء إلا ما كان بين ابن حزم والمناوئين لمذهبه، وكان الأندلسيون يعبرون عن إعجابهم الأدبي بأحد نجبائهم أو نوابغهم أو ساداتهم بأن كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون التنويه به بالفقيه، وقد يسمون الكاتب والنحوي واللغوي فقيهاً؛ لأنها عندهم أرفع السمات.

إن الأندلسيين بالغوا في الدين إلى درجة التقليد، ولكنهم لم يستغلوا تعصبهم إلا نادراً للإيقاع بالعناصر غير المسلمة في بلادهم نظراً لوصية الدين فيهم، الأمر الذي حدا بالكثير من الذميين إلى الارتقاء تلقائيا في أحضان الإسلام، بل وحمله على اعتناقه بلا إكراه كما هو الشأن مع إبراهيم بن سهل الإسرائيلي.

إن أهل الأندلس لم ينفردوا عن إخوانهم من عرب المشرق ومستعربيه، بل ظهرت فيهم وبصورة أشد نزعة الاندفاع تجديداً وتقليداً فعرفوا بتأييدهم المندفع لمذهب مالك بن أنس وتقيدهم بمذاهب السماع والنقل وضيقهم بالفلسفة وكتب الفلاسفة، ولكن هذا الاندفاع المحافظ لم يمنعهم من أن يستأثروا دون أبناء العروبة كلهم بأشهر فيلسوفين عربيين ابن رشد وابن طفيل.

ب- رابطة العروبة واللغة العربية:

ولقد حرص الأمويون منذ بداية عهدهم بالأندلس على إحياء دولتهم العربية اللسان والفكر والثقافة، وشجعهم على ذلك ما وجدوه من تشابه جغرافي بين دولتهم القديمة في الطرف الشرقي من البحر المتوسط وما شاهدوه في دولتهم الفتية الناشئة في الطرف الغربي لهذا البحر، الأمر الذي دفعهم لتسمية أقاليم الأندلس بأسماء المناطق الشامية، فنجدهم يطلقون لفظة: حمص على إشبيلية، كما أنهم وزعوا الوافدين إلى الأندلس من المشرق على الأقاليم المشابهة لأماكن إقامتهم سابقاً، ولم تلبث اللغة العربية أن غدت لغة الوطن.

ولقد مثل أسقف قرطبة إقبال المسيحيين الإسبان على اللغة وآدابها، حين شكا من أهل ملته الذين كانوا يقرؤون الشعر العربي والأخبار العربية، ويدرسون كتابات متكلمي الإسلام

وفقهائه، لا لكي يفندوها، وإنما لكي يكتبوا العربية في صحة وإتقان، وتأسف على ضياع اللاتينية بين المسيحيين، وعلى حماسهم الشديد للغة العرب، وإنفاقهم السخي على مكتباتهم العربية، وقد صورت الكتب القديمة براعة اليهود في العربية، ونقلت إلينا أشعارهم وحديث بعض شعرائهم كابن سهل الإسرائيلي.

ومن مظاهر التأثر بالمشرق:

١ - أن ابن زيدون لم يكتب رسالته الهزلية إلا محاكاة للتربيع والتدوير.

٢ - معرفة الأندلسيين نثر الجاحظ في وقت مبكر، فقد ذهب أبو خلف سلام بن زيد إلى المشرق وتتلمذ على الجاحظ لمدة عشرين عاماً، ثم عاد إلى الأندلس عقب وفاة الجاحظ، وبالفعل تأثر أدباء الأندلس بالأسلوب الجاحظي المتميز بفصاحته وبلاغته، ومنهم ابن زيدون الذي احتذى طريقته في رسالة التربيع والتدوير في تضمين كلامه آيات من القرآن، وأبياتاً من الشعر وكثيراً من الأمثال، وإضفاء روح التهكم والسخرية على أسلوبه.

٣- رحيل أديب قرطبة وعالمها الجليل فرج بن سلام الذي كان في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان ذا عناية شديدة بعلم اللغة ورواية الشعر وحفظ الأخبار والأنساب، وكان على ذلك يتطبب ويشارك في الحكمة، وله حظ جزيل من البلاغة، دخل العراق بأجمع ما كانت للعلم والأدب، فلقي عمرو بن بحر الجاحظ، وأخذ عنه كتاب "البيان والتبيين" فأدخله إلى الأندلس رواية عنه، وخف على قلب الجاحظ فاستكثر منه وكتب كثيراً من مصنفاته ورسائله فكان أول من أدخلها إلى الأندلس.

وقد كان الإسبان أنفسهم كانوا يكتبون صكوكهم ومعاملاتهم باللغة العربية التي ظلت لغة الثقافة عندهم إلى ما بعد الجلاء العربي عن الأندلس بخمسمئة عام.

ج- التعلق بالوطن الأم:

والحنين إلى ربوعه والإعجاب بثقافته وأدبه، وظاهرة الحنين هذه رافقت الوافدين إليها من الشرق، فالأندلسي مشدود بحنينه إلى المشرق رمز الماضي والمنبع والأهل والأحباب، وقد ترتب عن هذا الأمر ـ كما رأينا ـ استعارة الأندلسيين لأسماء مدن مشرقية

مشهورة ليطلقوها على حواضرهم ومدنهم، كما نزعوا إلى تلقيب أعلامهم بأسماء علماء المشرق، فكانوا يقولون:

١- "الرصافي ابن رومي الأندلسي.

٢- ومروان بن عبد الرحمن ابن معتز الأندلس.

٣- وابن خفاجة صنوبري الأندلس.

٤- وابن زيدون بحتري الأندلس.

٥- وابن دراج متنبي الأندلس.

٦- ومحمد بن سعيد الزجالي الأديب الحافظ أصمعي الأندلسي لحفظه وذكائه.

٧- وأبو بكر الزبيدي الشاعر اللغوي ابن دريد الأندلسي.

٨- كما يقولون في الفيلسوف ابن باجه إنه: فارابي المغرب.

٩- وحمدة بنت زياد الشاعرة بأنها خنساء المغرب... ".

ولعل من غريب الصدق، أن يكون أول شعر أنشد في بلاد الأندلس أبيات في تصوير الغربة والحنين إلى المشرق، تنسب لعبد الرحمن الداخل، يخاطب فيها نخلة منفردة تشبهه في غربته:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت: شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنأى مثلي

وقد هيجت تلك النخلة حنينه إلى الشرق:

يا نخل أنت غريبة مثلي ... في الغرب نائبة عن الأصل

ولو أنها تبكي إذن لبكت ... ماء الفرات ومنبت النخل

وهذا ابن حزم رغم تطاول الأزمان وتمكن الاستقرار تبدو عاطفته نحو المشرق مستعرة قوية لم تنطفئ جذوة الحنين فيها:

أنـــا الـــشمس في جـــو العلـــوم منـــيرة ولكـــن عـــــيبي أن مطلعـــي الغـــرب
ولـــو أننـــي مـــن جانـــب الـــشرق طـــالع لجـد عـلى مـا ضـاع مـن ذكـري النهـب
ولي نحـــو أكنـــاف العـــراق صـــبابة ولا غـرو أن يـستوحش الكلـف الـصب

ولنستمع إلى صاحب نفح الطيب وهو يحدثنا عن علاقة كتابه بأهل الشام فيقول: "ولهـذا الكتاب بالشام تعلق من وجوه عديدة أولها: أن الداعي لتأليفه أهل الـشام أبقـى الله مـآثرهم، وثانيها: أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذوو الشوكة الحديـدة، وثالثهـا: أن غالـب أهـل الأندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالأندلس وطناً مستألفاً وحضرة جديدة، ورابعهـا: أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بهـا في القـصر والنهـر والـدوح والزهـر والغوطة الفيحاء وهذه مناسبة قوية العرى شديدة.

وكان للأندلس بالشام شبه كبير حتى عدها أبو عامر السلمي "من الإقليم الشامي، ولهذا نجد في أصوات الدعاة للتحرر أثراً يشبه الصدى لصوت دعاته في الشرق، فابن بـسام يـسخر من قدماء الشعر ومحدثيهم، ومن دعاة التقليد والمفضلين للقدماء، ويقدم معاصريه من شعراء الأندلس ويعنى بهم، ويقرر أنه التأسي في تأليف كتابه بأبي منصور الثعالبي في تأليفـه المـشهور المترجم "بيتيمة الدهر في محاسـن أهـل العـصر" وظهـر هـذا الائتـساء واضـحاً في أسـلوب التأليف، كما اتبع الجاحظ في مسائل كالعناية بنقد الكتاب وتقديمه عـلى مـا سـواه مـن ألـوان النقد، وعني بالبديع على طريقة المحدثين من أهل المشرق، وذكر أنه "قيم الأشـعار وقوامهـا، وبه يعرف تفاضلها وتباينها".

والأمثلة الأندلسية على أثر المشارقة في ترسل الأندلسيين كثيرة، من ذلك أثر رسـالة سـهل بن هارون ـ التي أوردها الجاحظ في البخلاء ـ في رسالة ابن برد المسماة: البديعة في تفضيل أهل الشاء، فلقد وحد الحنين بين فروع الناس في الأندلس وأصولهم في المشرق، فلقد كان المجتمـع الأندلسي شرقي الروح والعاطفة واللسان، وكان إلى ذلك مشتركاً مع الشرق العربي في مأكلـه وملبسه وعاداته، وفي نفح الطيب نقف على بعض العـادات المـستجلبة عـلى يـد زريـاب مثـل تقصير الشعر وتفضيله آنية الزجاج على آنية الذهب والفضة.

وهذا ابن عبد الغفور الكلاعي أحد أبناء القرن السادس للهجرة أشد الكتاب الأندلسيين إعجاباً بأبي العلاء حتى حاكى كثيراً من كتبه: حاكى السجع السلطاني وكتب رسالة "الساجعة والغربيب" معارضة لرسالة "الصاهل والشاحج" لأبي العلاء، ثم عارضه بتأليف سماه ثمرة الألباب مضاهياً به سقط الزند، وعارضه بتأليف سماه كتاب "الفصيح"، وهناك معجبون آخرون غير ابن عبد الغفور الكلاعي، منهم ابن أبي الخصال الذي عارضه في "ملقى السبيل"، والسرقسطي الذي تأثر خطاه في "المقامات" وبناها على لزوم ما لا يلزم، وحذا حذوه ابن خفاجة من حيث الشكل حين استعمل اللزوم في شعره.

وقد استوقفتني قولة لصاحب الذخيرة، ابن بسام جاء فيها: "... إلا أن أهل الأندلس ـ أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون في أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً".

مثل هذا التصريح من أحد أدباء الأندلس المبرزين حدا ببعض مؤرخي الأدب العربي المحدثين إلى إقرار اعتراف أهل الأندلس بتقليدهم للنتاج الأدبي والثقافي المشرقي، تقليداً لا يبدو فيه أثر لطابع أندلسي خاص أو سمة أندلسية مميزة.

ومن مظاهر تعلق الأندلسيين بالمشرق:

أ- تسمية الأندلسيين لنوابغهم وأعلامهم بأسماء المشارقة.

ب- تسمية حواضرهم ومدنهم بأسماء حواضر المشرق ومدنها.

ج- التطابق بين شاعر أندلسي وآخر شرقي في طريقة النظم، وفي الخصائص الأسلوبية وطبيعة المعاني.

د- معارضة شاعر أندلسي لشاعر مشرقي في النسج على منواله في موضوع واحد ووزن واحد وقافية واحدة.

إن الشعر الأندلسي من جنس الشعر المشرقي يلتقي معه في:

١- صفاته العامة.

٢- وموضوعاته.

٣- وفنونه التقليدية.

والكلام ينطبق على فنون النثر وأساليب الكتابة وتقاليد التأليف مثل:

١- كثرة النقل.

٢- وسعة المعارف.

٣- وشمولية الثقافة.

٤- وتجميع المادة.

٥- واختيار عيونها وتبويبها في كتب الأدب العامة مثل:

أ- "العقد الفريد" لابن عبد ربه الذي صاغه صاحبه على شكل "عيون الأخبار".

ب- و"بهجة المجالس" لابن عبد البر النمري القرطبي الذي صيغ على شكل "المحاسن والأضداد" للجاحظ.

ج- وصيغ كتاب "الحدائق" للجياني على كتاب "الزهرة" للأصبهاني".

ويلتقي الأديب الأندلسي بالأديب المشرقي في قدرته على تذوق مكامن الأدب وتحسس مواطن جماله، وقد يتفق معه مدفوعاً بذوقه المرهف وحبه للجمال إلى التسامح في (اللحن) مع الأدباء عامة والشعراء خاصة ما دامت الجمالية الفنية قد تحققت لديهم، حتى وإن تجنوا على اللغة وأخلوا بقواعدها، فالأديب هنا ينسى عقله ومنطقه تجاه الإبداع الجميل.

وتتمثل القيمة الموضوعية للأدب والفكر الأندلسي في قدرتهما على تدوين ذلك التراث العربي الإسلامي الغني بالمادة الأدبية والتاريخية والحضارية والبلاغية والنقدية واللغوية والفقهية، والحافل بالمعرفة، ولا يفرق الأديب الأندلسي بين ما هو مشرقي ومغربي سوى إدراكه فضل التأسيس والتأصيل، أما الامتداد والاستمرار والابتكار والطرافة فخصائص عامة يلتقي فيها الأديب العربي اللسان والبيان سواء كان في المشرق أو في الأندلس؛ لأن ما هو تراث ماض ملك للأديب الأندلسي بوصفه أصله وأساسه.

أما نزعة المباهاة والمفاخرة بالشخصية الأندلسية فمن باب:

أ- تأكيد حضورها الثقافي.

ب- وإشعاعها الفكري.

ج- وعطائها الحضاري.

ولعل المتصفح لكتاب "الذخيرة" سيشعر بأن الباعث على تأليفه هو:

١- التعريف برموز الثقافة الأندلسية وإنتاجاتها.

٢- وأخبار أبنائها ومحاسنهم الكثيرة.

ولقد أسهمت بعض العناصر الحضارية في تنامي شعور الاعتزاز بالشخصية الأندلسية واطِّراد الوعي الحضاري بها، وأسهمت عوامل في ازدهار الحركة الأدبية في الأندلس مثل:

١- الخصومة التي نشبت بين المشارقة وأهل الأندلس.

٢- والاحتفاء بأدباء المشرق في الأندلس.

٣- وإمعان المشارقة في التهوين من شأن النتاج الأندلسي الأدبي.

وقد برز ناقدان ما بين أواخر القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس للهجرة وهما ابن شهيد وابن حزم اللذين اتجهت عنايتهما إلى خلق مدرسة أدبية أندلسية في محاولة لإثبات فضل أدباء الأندلس والتصدي للاتجاهات الأدبية المشرقية وبزّ أدباء المشرق.

وهناك عامل المنافسة في الأدب والثقافة وبروز أسماء أعلام أفذاذ في ديار الأندلس مثل ابن حزم وأبي حيان وابن زيدون وابن عبدون وابن عبد الغفور الكلاعي، وابن بسام وابن باجة، والفتح بن خاقان، كما أن هناك الشعور بالخوف من الضياع: ضياع تراث الأمة العربية الإسلامية، فلا عجب إذا كثر التسجيل والتقييد والتدوين وقل النقد والتمحيص والتأويل خصوصاً في تلك الفترات التي امتدت فيها وطأة الحروب الصليبية ونشطت حركات الاسترداد، وخاصة في القرن السادس والسابع للهجرة، وما تلاهما من حقب زمنية أضرت بالوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وحتى في المشرق الإسلامي الذي عرف ارتفاع الموجة المغولية التي أضرت بالحضارة العربية الإسلامية، ثم هناك عامل التعلق بالطبيعة، الذي أسهم في نهضة الأدب الأندلسي وازدهاره.

إننا نستطيع في كثير من الأحيان أن نرد معاني الأندلسيين إلى مصادرها في الشرق، وأن نستشعر بينها وبين معاني المشارقة تجاوباً عجيباً لا يمكن حدوثه عرضاً، فإذا قال ابن زيدون:

سرى ينافحه نيلوفر عبق وسنان نبه منه الصبح أحداقا

فإن البحتري قد سبقه إلى القول:

وقد نبه النوروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوّما

د- الاعتقاد الراسخ بالقيم والأفكار المشرقية.

هـ- التشبث بالأخلاق العربية.

و- التشبث بالحضارة العربية الإسلامية.

ز- التشبث بالتاريخ المشترك.

لقد ذابت مختلف الفوارق العرقية في الحضارة الأندلسية، والكل متعلق بالتراث؛ لذلك لم يهتم الأندلسيون بالسرقة الأدبية، بل آمنوا بالتناظر والتشابه في المعاني والأساليب والصور، وآمنوا بامتدادهم وانتمائهم إلى نفس الحضارة.

ح- اعتزاز الأندلسيين بقوميتهم الأندلسية: مع الاعتقاد العميق بانتمائهم إلى الوطن العربي الإسلامي الفسيح، لا جسور ولا فوارق.

ط- المصير المستقبلي المشترك: فالجميع في المشرق والمغرب يخاف من هجمات العدو الصليبي الشرسة وهجمات النورماند، من ثمة كان الإلحاح على تحقيق العدل والثورة على الطغاة من الحكام، وتعالت الأصوات تستفز الأمة لمناهضة الغزاة الطامعين في أرض الإسلام واللغة العربية، وكثرت الدعوات للتشبث بأخلاق السلف ومناقبهم، وكان الأدب الأندلسي أحد جوانب الحضارة العربية الإسلامية، وما الإبقاء من جانب الأندلسيين على تقاليد الشعر والنثر المتوارثة إلا صورة من صور هذا الانتماء وليست العبرة بفنون القول، وإنما هي بمدى الإجادة وعدم الإجادة فيها.

الباب الثاني

الفصل السابع

أثر الأديب الأندلسي في أدباء الغرب

١- لا يخلو عصر من العصور من التأثر أو التأثير في مجالات الحياة معظمها؛ والأدب كغيره من الفنون والمعارف تندرج عليه هذه القضية.

٢- إن صنوف التأثير الأدبية هي بذور فنية تستنبت في آداب غير آدابها متى تهيأت لها الظروف والأسباب، وهذا ما حصل في اللقاح الفكري بين الأدبين العربي والإسباني الذي وصل إلى مدن فرنسة الجنوبية، ومدن اللورين الكائنة في الشرق عند حدود ألمانية، فوجد فيها تربة خصبة جرى نسغها إلى ألمانية وإنكلترا لتكون ركائز النهضة الأوروبية.

٣- وقد كتب نائب الأسقف في هيتا واسمه خوان رويث «كتاب الحب الشريف» متأثراً بكتاب ابن حزم «طوق الحمامة في الألفة والألاف» في المضمون، وفي طريقة التعبير والسرد، وفي تنويع الشخصيات.

٤- وفي سنة ١٩١٩ نشر المستشرق الإسباني ميجيل أسين بالاثيوس في مدريد نظرية في كتابه «أصول إسلامية في الكوميديا الإلهية» تقول: إن الأديب الإيطالي دانتي - (1265 1331)م، استوحى في ملهاته الأدب العربي، وحادثة الإسراء والمعراج.

٥- وكان ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعالم(1253- 1284) م، قد أمر بنقل كتب العرب إلى القشتالية، فترجم معراج الرسول.

٦- كذلك غزت المقامات العربية قصص الشطار أو القصة الأوروبية الساخرة بنواحيها الفنية وعناصرها الواقعية، وكان لقصة ابن طفيل «حي بن يقظان» أكبر الأثر في قصة «النقّادة» للكاتب الإسباني بلتسار غراثيان (1601 - 1658)م.

٧- وكان للموشحات والأزجال الأثر الأكبر في شعر «التروبادور» وهم شعراء العصور الوسطى الأوروبية ظهروا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في جنوبي فرنسة ووسطها، وعاشوا في بلاط الملوك والأمراء يتغنون بالحب، وقد يكون بين شعراء التروبادور ملك أو أمير.

٨- لقد استقى التروبادور من الشعر الأندلسي نبعاً من الحقائق النفسية عملوا بها وطوروها، فقد صور ابن حزم حبّه الذي لم يكن وليد الساعة، وإنما سرى على مهل واستقر عماده، وبالمقابل فإن دوق أكيتانية غيوم التاسع (ت١١٢٧م) وصف شعوره في حبه وطول انتظاره بقوله: «ليس على الأرض شيء يوازي هذا الطرب، ومن شاء أن يتغنى به كما يستأهل فلابد أن تنقضي سنة كاملة قبل أن يحقق ما يريد».

٩- كذلك وجد التروبادور في الشعر العربي رقياً ونضجاً من حيث التنوع في الوزن والصقل والتعبير اللغوي، فحاولوا السير على منواله، ومن ذلك أن متوسط المقطوعات التي تتألف منها قصيدة التروبادور سبع وهو العدد الغالب على الموشح أو الزجل، وأن مجموع الغصن والقفل يسمى عند التروبادور بيتاً، وهو الاسم ذاته في الموشحات والأزجال.

١٠- إن هذا التشابه من حيث البساطة في المعنى، والأوزان والقوافي في الأسلوب، يدل على تأثير التروبادور بالنماذج العروضية والعاطفية في الشعر العربي، وقد انتقل هذا التأثير إلى أوروبا، فكان للعرب اليد الطولى في إغناء الشعر الأوروبي وإترافه برائع الصور والأساليب.

الباب الثالث

سمات الشعر الأندلسي

أولاً- دخول العرب إلى الأندلس:

يـــا أهـــل أنـــدلس لله دركـــم مـــاءٌ وظـــلٌ وأنهـــارٌ وأشـــجار

مـــا جنـــة الخلـــد إلاّ في ديـــاركم ولـــو تخـــيرتُ هـــذا كنـــت أختـــار

مـا إن انتهـى موسـى بـن نـصير مـن فـتح بـلاد المغـرب العـربي حتـى كلّـف أحـد قـادة الجيوش(طارق بن زياد) بالعبور إلى مضيق الجبل المسمى باسمه، والانطلاق إلى بـلادٍ جديـدة تتميز بالسحر والجمال والخير الوفير.

ذلك أن ملوك القوط وعلى رأسهم الملك (لذريق) كانوا قد سـيطروا عـلى الـبلاد سـيطرة ظلم وحاولوا إجبار اليهود المقيمين في تلـك الـبلاد عـلى التنـصر، فـما جعـل هـؤلاء اليهـود يتعاونون مع الفـاتح الجديـد ويقـدمون لـه الخـدمات ويقـودون الجيـوش الجديـدة إلى مـدن الأندلس إضافة إلى أن (يوليان) أحد ملوك مدن المغرب الساحلية قد أراد الانتقام لابنتـه التـي كانت تعمل وصيفة في بلاط الملك (لذريق) والـذي انتـزع هـذا الملـك عفتهـا بحيـث جعـل (يوليان) يقدم السفن للعرب الفاتحين ناهيك عن أنّ العـرب أنفـسهم كـانوا يحملـون رسـالة القرآن إلى البلاد الجديدة التي يريدون فتحها، ولم يمض عام (٩٢هـ) حتى أصـبح الأنـدلس إمارةً عربية كرّست بناء الدولة؛ إذ إنه أعاد الخلافة الأموية إلى الأرض الأندلـسية بعـد غيابهـا من الأندلس.

وهكذا استقر العرب المسلمون في تلك البلاد وسموا مدنها باسم مـدن المـشرق، ونهـضوا بعمرانها نهضة قوية، وحاولوا مطاولة الخلفاء العباسيين من حيث مقاومة الإفرنج والوصـول إلى مشارف مدينة (باريس) في معركة (بلاط الشهداء).

ومن حيث بناء المدن والقصور التي ما تزال شامخة إلى يومها هذا كقصر الحمراء.

ومن حيث الارتقاء الثقافي المعرفي والأدبي؛ حيث تشكلت نهضة كبيرة في الأدب والدين والفلسفة والغناء والموسيقا.

ثانياً- العوامل المؤثرة في تكوين الأدب الأندلسي:

أثَّر في تكوين الأدب الأندلسي عاملان:

١- اتكاء العرب في الأندلس على الأصول الموروثة لديهم بحيث اقتدى أدباء الأندلس بأدباء المشرق بكل كبيرة وصغيرة.

٢- تأثير الطبيعة الأندلسية والعقلية في هؤلاء الفاتحين بحيث جعلت عروقهم تجري دماءً جديدة.

ثالثاً- سمات الشعر العربي في الأندلس:

باعتبار أن عرب الأندلس قد حاولوا مجاراة المشارقة في أدبهم العربي، فقد اتسم شعرهم بسمات قريبة من سمات الأدب العربي في العصر العباسي، وعلى رأس هذه السمات:

١- **الغنائية العربية البعيدة عن الشعر التمثيلي والملحمي** وما نجده من نزعات قصصية أو حوارية أو تعليمية في هذا الأدب على يد ابن حمديس وابن عبد ربه، ليست إلا محاولات عارضة غير مبنية على أسس فنية.

٢- **الكتابة في أغراض** المديح والرثاء والهجاء والوصف والحكمة والغزل واللهو والمجون والزهد والتصوف على غرار الأدب العباسي.

٣- **تقليد المشارقة** في المعاني والأساليب حتى أوائل القرن الخامس الهجري، كما في شعر ابن عبد ربه وابن شهيد وابن درّاج القسطلي.

٤- **تمثل البيئة الجديدة**، والأخذ بالتجديد منذ أوائل القرن الخامس الهجري، حيث أخذ الشعر يصور الحياة الجديدة كما عند ابن زيدون والمعتمد بن عباد وابن حمديس وابن خفاجة ولسان الدين بن الخطيب.

٥- **تطرف الأندلسيين في وصف** الرياض والأزهار ومجالس المجون وقصور الخلفاء وفي شعر الزهد والتصوف والعزوف عن الدنيا.

٦- **ظهور فنون جديدة** كرثاء الممالك والمدن الزائلة، والشكوى والموشحات.

٧- **جاءت المعاني عندهم بسيطة**، بعيدة عن الإغراب في الفكر أو معالج الفلسفة والكلام.

٨- **اتسمت الصورة الفنية** باللطف والاتكاء على الثقافة العربية والشعر الجاهلي والإسلامي.

٩- **اتخاذ نهج القصيدة العربية أسلوباً له** مع استبدال المقدمة الطلية بوصف الطبيعة.

١٠- **بقي للبيت عندهم وحدة مستقلة بمعناه.**

١١- **أكثر الشعراء من الصنعة** والزخرف وفنون البديع والبيان.

١٢- **اتسمت اللغة بالرشاقة والسهولة**، وبقيت أضعف من لغة المشارقة وأكثر دقة ورقة منها.

١٣- **أثرت الموسيقا والغناء في الشعر الأندلسي**، وأكثر الشعراء من النظم على البحور القصيرة والمجزوءة والصالحة للغناء والرقص ونظموا (المزدوج – المخمس – الموشحات- الأزجال).

الباب الرابع
أغراض الشعر الأندلسي

كتب الأندلسيون في موضوعات شتى نقلوا بعضها معهم من المشرق واستحدثوا بعضها الآخر في الأندلس، فكان بعضها تقليداً وكان الآخر مستجداً، وقد نظم الأندلسيون الشعر في الأغراض التقليدية كالغزل والمجون والزهد والتصوف والمدح والهجاء والرثاء، وقد طوروا موضوع الرثاء فأوجدوا «رثاء المدن والممالك الزائلة» وتأثروا بأحداث العصر السياسية فنظموا «شعر الاستغاثة»، وتوسعوا في وصف البيئة الأندلسية، واستحدثوا فن الموشحات والأزجال.

١- الغزل:

من أبرز الفنون التقليدية، يستهل به الشعراء قصائدهم، أو يأتون به مستقلاً، وبحكم الجوار أولاً، ولكثرة السبايا ثانياً، شاع التغزل بالنصرانيات، وكثر ذكر الصلبان والرهبان والنساك، كذلك شاع التشبيب بالشعر الأشقر بدلاً من الشعر الفاحم، وكما أن الشعراء جعلوا المرأة صورة من محاسن الطبيعة، قال المقَّري: «إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصداغاً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً».

وانتشر شعر الغزل واللهو والمجون في الحياة الأندلسية بسبب وجود أموال كثيرة، وطبيعة رائعة ومجالس خمر وغناء وقيان، وقد كتب الشعراء الأندلسيون في ذلك، ولكنهم ظلوا مقلدين للشعراء المشارقة، يحنون إلى الأسلوب البدوي، كما صنع ابن شهيد مقلداً لعمر بن أبي ربيعة:

وأخرى اعتلقنا دونهنّ ودونها ... قصورٌ وحُجّابٌ ووالٍ ومعشرُ

يزينّها ماءُ النعيم، وحقّها ... من العيش فينان الأراكة أخضرُ

وقد اعتمد شعراء الأندلس في وصفهم للمرأة على الأوصاف الجسدية:

١- سهام الألحاظ.

٢- نرجس العيون.

٣- وصف الخد والجبين والقامة.

٤- وأغرقوا في وصف أحلامهم وذكرياتهم.

٥- واشتكوا من لوعة الشوق وعذاب الفراق.

٦- وذموا العواذل.

٧- واقتبسوا صورهم الشعرية من الطبيعة.

٨- بحيث اتحدت الطبيعة مع المرأة في الوصف.

يقول ابن زيدون واصفاً محبوبته بأنها راحته وعذابه:

متى أبثك ما بي ... يا راحتي وعذابي

الله يعلم أنّي ... أصبحت فيك لما بي

فلا يطيب منامي ... ولا يسوغ شرابي

وقد يخرج الغزل الأندلسي عن حدود الحياء أحياناً وينأى عن الوقار والحشمة، كما في شعر ابن حمديس، يقول داعياً هند جارية الشاطبي إلى مجلس خمر وعزف عود:

يا هند هل لك في زيارة فتية ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل

سمعوا البلابل قد شدوا فتذكروا ... نغمات عودك في الثقيل الأول

ويقول ابن خفاجة في وصف مجلس خمر:

وجاء بها حمراء أما زجاجها ... فنور، وأما موجها فكثيب

وغازلنا جفن هناك كنرجس ... ومبتسم كالأقحوان مشنبُ

ومنذ عصر ملوك الطوائف حتى نهاية حكم العرب في الأندلس، اتخذ بعضهم المجون مادة شعرهم، وأفرطوا فيه إلى حد الاستهتار بالفرائض، مع أنه ظهر في القرن الخامس الهجري في

ظل دول الطوائف عدد غير قليل من الشعراء الذين نظموا في الزهد، كـأبي إسحق الإلبيري (ت٤٦٠هـ)، وعلي بن إسماعيل القرشي الملقب بالطليطل، والذي كان أهل زمانه (المئة السادسة) يشبهونه بأبي العتاهية.

٢- الزهد:

كردٍّ فعلٍ على ظهور شعر المجون والترف اندفع بعض الشعراء الأندلسيين إلى توجيه الناس إلى الزهد بدافع ديني ينطلق من وجود تيار الفقهاء في الأندلس، وبدافع تقليدي لتصوف وزهد المشارقة إضافة إلى ما وقع لأهل الأندلس من مصائب في بلدانهم جعلتهم يميلون إلى الطعن بغدر الأيام وذم الدنيا والابتعاد عن المعاصي، وترك زخارف هذه الدنيا وكبح جماح النفس.

يقول ابن عبد ربه ذاماً الدنيا:

هي الدار ما الآمال إلا فجائعٌ عليها ولا اللذات إلا مصائب
فلا تكتمل عيناك منها بعبرةٍ على ذاهب منها فإنك ذاهب

ويقول ابن حمديس ناصحاً نفسه في الكف من المعاصي:

وعظت للمتك الشائبة وفقد شبيبتك الذاهبة
وسبعين عاماً ترى شمسها بعينيك طالعة غاربة
فويحك هل عبرت ساعة ونفسك عن زلةٍ راغبة

ويقول محيي الدين بن عربي متحدثاً عن الحب الإلهي:

سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغيران من ذاك في حرّان يبدي الأنين

٣- التصوف:

وهو دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة، فإن التصوف شظف وخشونة وانعزال عن الخلق في الخلوة إلى العبادة، ويتخذ الشعر الصوفي الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه،

ومن متصوفة الأندلس ابن عربي (ت٦٣٨هـ) وقد لقب «بمحيي الدين» و«بالشيخ الأكبر» وابن سبعين (ت٦٦٩هـ) وكان يلقب «بقطب الدين».

٤- المدح:

نظراً لمطاولة الشعراء الأندلسيين للشعراء المشارقة، فقد وفدوا على ملوكهم وأمرائهم يمدحون طالبين الكسب، وباعتبار أن الصفات التي يمتدح بها الملوك انتقلت معهم من المشرق، فقد حافظ شعراء المدح على الأسلوب القديم وعني هؤلاء.

وربما بدؤوا بالغزل أو وصف الطبيعة أو وصف الخمرة ومن أشهر شعراء المديح - ابن زيدون - ابن شهيد - لسان الدين بن الخطيب - ابن هانئ الأندلسي، الذي كان يقلد المتنبي، ويغالي في مدحه للخلفاء كما في قوله مخاطباً المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يحطّ الإصر والأوزارُ
فكأنما أنت النبي محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

وحافظ الشعراء على الأسلوب القديم، فاعتنوا بالاستهلال وحسن التخلص، وربما بدؤوا قصائدهم بوصف الخمر أو الطبيعة، أو بلوم الزوجة زوجها لسفره للقاء الممدوح، كما في شعر ابن درَّاج القسطلي (ت٤٢١هـ)، وهم لم يغرقوا في استعمال الغريب ما عدا ابن هانئ (ت٣٦٢هـ) الذي حاول تقليد المتنبي.

٥- الرثاء:

كان رثاء الأندلسيين كرثاء المشارقة، فكانوا يتفجعون على الميت، ويعظمون المصيبة، وكثيراً ما كانوا يبدؤون بالحكمة صنيع ابن عبد ربه (ت٣٢٨م).

وقد رثى الشعراء الأندلسيون الملوك والأمراء والقادة وأمهات الملوك وزوجاتهم وبناتهم وأصدقائهم مترسمين خطا المشارقة في طريقة الرثاء مع الإكثار من الحديث عن الأمم البائدة واستهلال المراثي بالحكم والتفجع على الموتى.

- يقول ابن زيدون راثياً ابن المعتضد:

عمـــــرت حينـــــاً ومـــــاء المـــــزن شـــــكلين ســـــواء

ثـــــم ولـــــت فوجـــــدنا أوج المـــــســـــك ثنـــــاء

جمعـــــت تقـــــوى وإحـــــسانا وفـــــضلاً ووفـــــاء

وتميز الأندلسيون برثاء الممالك الزائلة، فقد كانت بلدانهم تتساقط في أيدي الأعداء واحدة واحدة، وقد بكى أبو البقاء الرندي الأندلسي بأسرها.

يقول ابن اللبانة في سقوط إشبيلية:

نـــسيتِ إلا غـــداة النهـــر كـــونهم في المنـــسآت كـــأموات بألحـــاد

ســـاءت ســـفائنهم والنّـــوح يـــصحبها كأنّهـــا إبـــل يحـــدو بهـــا الحـــادي

ويقول أبو البقاء الرندي:

دهـــى الجزيـــرة أمـــرٌ لا عـــزاء لـــه هـــوى لـــه أحـــد وانهـــد ثهـــلان

فاســـأل بلنـــسية مـــا شـــأن مرســـية وأيـــن شـــاطبةٌ أم أيـــن جيّـــان

ثم يدعو إلى القتال لاستعادة الأندلس:

يـــا راكبـــين عتـــاق الخيـــل ضـــامرة كأنّهـــا في مجـــال الـــسبق عقبـــان

أعنـــدكم نبـــأ مـــن أهـــل أنـــدلسٍ فقـــد سرى بحـــديث القـــوم ركبـــان

ثم يستنجد الشاعر ابن الإبّاء القضاعي بصاحب تونس لحماية تونس:

أدرك بخيلـــك خيـــل الله أندلـــسا إن الـــسبيل إلى منجاتهـــا درســـا

واضرب لهـــا موعـــداً بـــالفتح ترقبـــه لعـــلّ يـــوم الأعـــادي قـــد أتـــى وعـــسى

وقد تميز هذا اللون من الرثاء بالسمات التالية:

أ- صدق العاطفة.

ب- الابتعاد عن التكلف.

ج- مرارة الوجدان.

د- الواقعية في الوصف.

٦- الشعر التعليمي:

ويراد به الأراجيز والمنظومات التاريخية والعلمية، وهو لا يلتقي مع الشعر الفني الذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة إلا في صفة النظم، ويستقل في الرجز كل شطر بقافية، فمن الأراجيز التاريخية:

١- أرجوزة يحيى بن حكم الغزال (ت٢٥٠هـ) شاعر عبد الرحمن الثاني (الأوسط) وهي في فتح الأندلس.

٢- وأرجوزة تمام بن عامر بن علقمة (ت٢٨٣هـ) في فتح الأندلس، وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها.

٣- وأرجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الثالث.

٤- وأرجوزة أبي طالب عبد الجبّار (القرن الخامس الهجري) وكان مواطنوه يلقبونه بالمتنبي، وقد قصر شعره على الوصف والحرب والتاريخ.

٥- وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) «رقم الحلل في نظم الدول» وهو تاريخ شعري للدولة الإسلامية في المشرق والأندلس، ويلي كل قصيدة شرحها.

٧- وصف الطبيعة:

ألهبت طبيعة الأندلس الجميلة قرائح الشعراء، فرسموا لوحات شعرية متنوعة أودعوها أخيلتهم وعواطفهم.

- رأى عبد الرحمن الداخل نخلة بالرصافة (شمالي قرطبة)، فلم يصفها في طولها ولا في التفافها ولا في ثمرها، وإنما عقد بينه وبينها شبهاً في النوى والبعد عن الأهل، ووصف ابن عبد ربه الطبيعة بمعناها العام المتمثل في الرياض وأزهارها، فخلع على صياغته من نفسه ومهارته ما جعلها مصورة البيئة الأندلسية أدق تصوير وأحلاه.

وقد ردد ابن حمديس (ت٥٢٧هـ) أصوات القدماء في الطبيعة كما ردد أصوات المحدثين، ووصف الخيل والإبل والغيث والبرق، وأقحم عبارات امرئ القيس، ثم حاكى أبا نواس في الدعوة إلى نبذ الوقوف على الأطلال، ودعا إلى الشراب، وكثيراً ما وصف ترحاله وتغربه عن صقلية التي أبعد عنها وهو حدث (٤٧١هـ) لما غزاها النورمان.

- تغنّى الشعراء الأندلسيون بجمال الطبيعة الأندلسية، فابن سفر المريني يتعلق بالأندلس فيراها روضة الدنيا وما سواها صحراء، وابن خفاجة الذي لقب «بالجنّان» و«بصنوبري الأندلس» يشبهها بالجنة فهو يقول:

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأنهار وأشجار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ... ولو تخيرت هذي كنت أختار

ووصف شعراء الأندلس أقاليم الأندلس وربوعها وصفاً دقيقاً، فحمدة بنت زياد (من شواعر القرن الخامس الهجري) تصف وادي آش القريب من غرناطة فترسم أكثر من صورة متحركة.

وبدافع من التطور الحضاري أدخل الأندلسيون إلى قصورهم المنيعة الماء ليملأ البرك في باحتها، ولينتشر من أفواه التماثيل كما في وصف ابن حمديس بركة في قصر المتوكل بن أعلى الناس بإفريقيا.

أما وصف مجالس الأنس فقد بدأ ظاهرة اجتماعية في أخريات الدولة الأموية في الأندلس، ثم أخذت المجالس بالانتشار والشيوع ويغلب على هذا الشعر الارتجال، وفيه وصف للساقي والخمر.

٨- ثنائية المرأة والطبيعة

صورة من محاسن الطبيعة، وقد ألح ابن زيدون في ديوانه على ثنائية ولادة والطبيعة.

٩- رثاء الممالك الزائلة:

وهو تجربة إنسانية قلَّ نظيرها في الأدب العربي لما اتصف به من حدة وحماسة، وجرأة في نقد المجتمع، ودعوة لاسترجاع ما ذهب، لقد رثى المشارقة المدن التي استبيح حماها، لكن هذا اللون لم يظهر في الأدب المشرقي كما ظهر في الأدب الأندلسي فناً قائماً بذاته يسير في ثلاثة اتجاهات:

١- الأول هو رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت أو ضاعت، ويمثل له بشعر أبي إسحق الألبيري يصف إلبيرة وما أصابها من دمار وخراب.

٢- أما الثاني فرثاء الدويلات التي زالت في أثناء الحكم العربي في الأندلس، وفيه يعدد الشعراء ما حل بأرباب نعمتهم من أسر أو قتل أو تشريد، كما في رثاء ابن اللبانة (ت٥٠٧هـ) دولة بني عباد، ورثاء ابن عبدون (ت٥٢٧هـ) دولة بني الأفطس في قصيدته الرائية «البسّامة».

٣- وأما الاتجاه الثالث فهو الشعر الذي نظمه أصحابه في رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو كما في قصيدة أبي البقاء الرندي (ت٦٨٤هـ) التي تتوزعها ثلاث فكر هي:

أ- الاعتبار بزوال الدول.

ب- وتصوير سقوط المدن.

ج- ثم دعوة المسلمين إلى الجهاد.

١٠- شعر الاستغاثة:

ويقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب والمسلمين لنجدة إخوانهم في الأندلس أو التصدي للاجتياح الإسباني، وقد أورد المقري في نفح الطيب قصيدة ابن الأبّار (ت٦٥٨هـ) التي استغاث فيها بسلطان تونس أبي زكريا الحفصي سنة ٦٣٦هـ ومطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

فاستوعبت معظم الاتجاهات والمعاني التي أتى بها شعراء الاستغاثة.

١١- الفخر والحماسة:

بقي شعر الفخر والحماسة قليلاً في الأدب الأندلسي بسبب ظروف الحياة الجديدة، والتي لا يتناسب معها وجود الفروسية والبطولة، إذ إن رخاء العيش قد دفع الشعراء إلى اتجاهات أخرى، ولا نعثر على الفخر والحماسة إلا ما كانت في قصائد مدح الملوك ووصف المعادل، وقد يفتخر الشاعر بشعره، أو قد يفتخر بصبره على نوائب الأيام.

يقول ابن حمديس مفتخراً بشعره:

إني امرؤ أبني القريض ولا أرى زمناً يحاول هدم ما أنا باني

ويقول ابن زيدون مفتخراً بصبره:

فـــإن يجـــدب مـــن الـــدنيا جنـــابٌ طالمـــا أمـــرع

فـــما إن غـــاض لي صـــبر ومـــا إن فـــاض لي مـــدمع

١٢- الهجاء:

لم ينقطع الشعراء الأندلسيون عن كتابة الشعر الهجائي بصورة عامة، ولكن الهجاء بوجهه السياسي لم يكن رائجاً في الأندلس نظراً لقلة الأحزاب السياسية، ولم يسجل المؤرخون هجاءً مصرياً أو يمنياً، والسبب في ذلك مواجهة العرب الأندلسيين للفرنجة، كما أن الشعر الهجائي قد تحول إلى مواجهة الأعداء وبقي متجهاً إلى التكسب والتندر، كما صنع ابن حزمون في هجاء نفسه عندما نظر إلى صورة وجهه في المرآة:

تأمّلـــت في المـــرآة وجهـــي فخلتـــه كوجـه عجـوز قـد أشـارت إلى اللهـو

إذا شـــئت أن تهجـــو تأمـــل خليقتـــي فـــإن بهـــا مـــا قـــد أردت مـــن الهجـــو

١٣- الحكمة:

لم تكن الحكمة في الشعر الأندلسي تعتمد على التأمل، بسبب عـدم وجـود ثقافـات أخـرى كالهندية والفارسية والسريانية عند الشعراء الأندلسيين، وخاصة في القرون الأربعة الأولى؛ إذ كانت الحكمة في شعرهم ساذجة وسطحية ومقلدة للحكمة المشرقية وأكثـر الـشعراء اهتمامـاً بالحكمة في الأندلس ابن هانئ الذي قلّـد المتنبـي وقـصر عنـه، وبقيـت حكمتـه تـدور حـول الشكوى من الدهر والتحذير من الدنيا والاتسام بالابتـذال والبعـد عـن النـضج، يقـول ابـن هانئ:

إنّـــا وفي آمـــال أنفـــسنا طـــول وفي أعمارنـــا قـــصرُ

لنـــرى بأعيننـــا مـــصارعنا لـــو كانـــت الألبـــاب تعتـــبرّ

١٤- الوصف:

لم يخصص الشعراء الأندلسيون الوصف بقـصائد مـستقلة، وإنّـما ظهـر هـذا الوصـف في الأغراض الشعرية الأخرى، وأكثر ما وصـف الأندلـسيون الطبيعـة المحيطـة بهـم، ومظـاهر

العمران وقصور الخلفاء والجيوش والأسلحة والسفن، يقول ابن هانئ في وصفه لأسطول المعز لدين الله:

أقاد الجواري المنشآت التي جرت ... لقد ظاهرتها عدّةٌ وعديدُ
قبابٌ كما تزجي القباب على المها ... ولكنّ من ضمَّت عليه أسودُ
عليها غمام مكفهرٌ صبره ... له بارقاتٌ جمةٌ ورعودُ

١٥- الطبيعة:

انبهر العرب بجمال الطبيعة الأندلسية، ووقفوا مشدوهين أمام سحرها الذين بدا كأنه قطعة من الجنة، فوصفوها قائلين: (ابن خفاجة)

يا أهل أندلسٍ لله درّكم ... ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنة الخلد إلاّ في دياركم ... ولو تخيَّرت هذا كنت أختارُ
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً ... فليس تدخل بعد الجنّة النارُ

كما وصف الأندلسيون الطبيعة المصطنعة من قبل الملوك والزعماء كقصر المنّصور، وحديقة القصر والأسود التي أقعت على أدبارها.

قال ابن حمديس:

وضراغم سكنت عرين رئاسةٍ ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
وتخالها والشمس يجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلَّت سيوف جداولٍ ... ذابت بلا نار فعدن غديرا

ومن ذلك وصف الغروب لابن سهل الأندلسي الذي يذكرنا بوصف الغروب عند ابن الرومي:

انظر إلى لون الأصيل كأنه ... لا شك كون مودّع الفراق
والشمس تنظر فوقه مصفرة ... قد خمَّشت خداً من الإشفاق
لا قت بخمرتها الخليج فألّفا ... خجل الصبا ومدامع العشاق

سقطت أوان غروبها محمرةً كالخمر خرّت من أنامل ساقِ

ومن ذلك ما صنعه ابن زيدون في مزج الطبيعة بالغزل قائلاً:

يا نسيم الصبا بلّغ تحيتنا من لو على القرب حياً كان يحيينا

١٦- الشكوى والاستعطاف:

وهو الشعر الذي زفر به أصحاب المحن من الملوك والوزراء ممن أنزلهم الدهر على حكمه، وجعلهم في المكانة الحضيضة كما حصل مع المعتمد بن عبّاد الذي خلعه يوسف بن تاشفين واقتاده إلى سجن أعماق فقال شاكياً:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

١٧- شعر الحنين والشوق:

وقد استغرق هذا النوع كثيراً من طاقات الأندلسيين وخاصة في الرحلة الأولى لهم، فهذا عبد الرحمن الداخل يحن إلى المشرق قائلاً:

يا أيّها الراكب المِيمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي

إنّ جسمي كما تراهُ بأرضٍ وفؤادي ومالكيه بأرض

قدّر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي

كما أنّ الأندلسيين حنوا إلى أطفالهم كما صنع ابن حمديس حاناً إلى أطفاله في المغرب:

وفرخٍ صغيرك لا نهوض كمثله يراطن أشكالاً ملاقطها صفرُ

يظنّ أباه واقعاً ماذا أبى وقوعاً عليه شبَّ في قلبه جمرٌ

من ذلك الحنين على الديار، وكما في قول لسان الدين بن الخطيب متذكراً زمان الأحبة في الأندلس بعد أن نفي إلى المغرب:

جـادك الغيـث إذا الغيـث همـى يـا زمـان الوصـل بالأندلـس

لم يكـن وصـلك إلاّ حلمـا في الكـرى أو خلـسة المختلس

ومن ذلك ما كتبه ابن زمرك حاناً إلى غرناطة:

الله حـسبي لكـم أقـاسي مـن وحـشة الـصّحب والبنـين

الباب الخامس

خصائص الشعر الأندلسي

تميز الشعر الأندلسي بخصائص متعددة مع أنه بقي تابعاً لأدب العرب المشارقة، ومن خصائص الشعر الأندلسي:

١- تقليد المشارقة:

فكان منذ الفتح حتى أوائل القرن الخامس الهجري يمثل شعر التقليد لأدب المشرق، ولم يكن التقليد عجزاً عن الابتكار، وإنما لشعور الانتماء إلى الأصل، وقد أولع الأندلسيون بكل ما هو شرقي، وفي هذا يقول ابن بسام (ت٥٤٢هـ): «إن أهل هذا الأفق - يعني الأندلس- أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام أو العراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً».

وبسبب هذه المحاكاة للمشارقة في أساليبهم ومعانيهم قيل للرصافي ابن رومي الأندلس، ولابن دراج متنبي المغرب، ولابن هانئ متنبي الأندلس، ولابن زيدون بحتري المغرب والأندلس، كشعر ابن عبد ربه، وابن هانئ وابن شهيد، وابن دراج القسطلي، ويمثل هذا التطور شعر ابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن الحداد، والأعمى التطيلي.

٢- تصوير البيئة الأندلسية:

أما في القرن السادس الهجري وما بعده، فقد صور الشعراء بيئتهم، وبرزت العوامل الأندلسية الذاتية كما في شعر ابن حمديس، وابن عبدون، وابن خفاجة، وابن سهل، وأبي البقاء الرندي، وابن خاتمة الأنصاري، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك، ويوسف الثالث ملك غرناطة، وابن فركون، وعبد الكريم القيسي البسطي.

٣- ظاهرة الانتقاء من التراث:

وكانت ظاهرة الانتقاء من التراث من خصائص الأدب الأندلسي، فكانوا يضمنون قصائدهم أقوال السابقين وأشعارهم وأمثالهم وما صادف هوى في نفوسهم.

٤- حب الجديد:

الذي صار مستحباً في نفوس الأندلسيين، فلم يتقيد أغلبهم بأساليب الأعراب ومعانيهم وأوصافهم، ولم تكن لغتهم محكمة كلغة المشارقة والأقدمين لبعد صقعهم عن البادية، ولوجود جيل لم يكن عربياً صرفاً، وقد نفروا من الألفاظ الوحشية إلى الألفاظ المأنوسة الرقيقة، وكانت القافية الواحدة، وأوزان العروض الستة عشر، ومثلها أكثر المعاني والأساليب المتوارثة قوام الشعر التقليدي في الأندلس.

الباب السادس

شعر البحرية الإسلامية

أولاً- ثقافة العرب الأندلسيين البحرية:

١- أضحى الأسطول العربي السيد المتحكم في البحر الأبيض المتوسط دون منازع، ولقد تم ذلك في عهد مبكر، فلما دانت الأندلس للعرب وخضعت للمسلمين اقتضت طبيعتها الجغرافية ألا يقتصر أمر حمايتها على الجيوش وحدها، وإنما بات من الضرورة أن يكون لها أسطول بحري منيع يحمي شواطئها البالغة الطول المتوزعة بين البحر الأبيض المتوسط شرقاً وجنوب شرق، وبين المحيط الأطلنطي- أو بحر الظلمات كما كان يسمى آنذاك- غرباً وجنوب غرب.

٢- فلما كان عهد عبد الرحمن الأوسط، وهو الأمير الشجاع المثقف الفنان الحصيف قام بإنشاء دار الصناعة بإشبيلية، وبنى المراكب الكبيرة بأعداد وفيرة، وجند رجال البحر من أبناء السواحل الأندلسية وأمدهم بآلات الحرب البحرية والنفط ووسع عليهم وأجزل رواتبهم.

٣- إن عبد الرحمن الأوسط يمكن أن يعتبر منشئ البحرية الأندلسية، أما مؤسسها ومدعمها فهو عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر من بعده، فقد بلغ عدد سفن الأسطول في عهد عبد الرحمن الناصر ثلاثمئة قطعة بحرية وزاد في عهد ابنه المستنصر إلى ستمئة قطعة، وكانت قيادته في عهد كل من الملكين الكبيرين معقوداً لواؤها على القائد المظفر أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس.

٤- على أنه لابد من فترات انحسار ولو قصيرة تمر بها كل قوة من القوى، بل كل دولة من الدول، فلقد مرت بالأسطول الأندلسي فترة خمول في عهد بني عباد – وإن لم تستمر طويلاً – كان البحر فيها للروم دون العرب بحيث كان يتعذر على العربي الذي يسكن صقلية أن يبحر إلى الأندلس، وآية ذلك أن المعتمد بن عباد أراد أن يستدعي الشاعر الصقلي مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي من صقلية إلى بلاطه في الأندلس، وبعث

إليه بخمسمئة دينار يتجهز بها الطريق، فلم يجرؤ على الإبحار خشية أن يتعرض لأذى أسطول الروم، وكتب للمعتمد قائلاً:

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى ... واعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا يجري السفين به ... إلا على غرر والبر للعرب

ثانياً- وصف الشعراء السفن والأساطيل:

لقد كانت العداوة تقليدية متصلة بين الفاطميين الشيعة الإسماعيلية، وبين الخلافة الأندلسية ذات الأصل الأموي حسب ما هو معروف، وفي واحد من هذه المعارك اقتحم الأسطول الفاطمي المرية حيث يربض أسطول عبد الرحمن الناصر، ودمر المدينة وأحرق الأسطول الأندلسي، واستولى على أكبر قطعة في الأسطول الناصري وكانت في الوقت نفسه أكبر سفينة في البحر المتوسط على الإطلاق كان عبد الرحمن الناصر قد أمر ببنائها لقد كانت المعارك سجالاً بكل أسف بين الأسطولين الكبيرين، ولكن يبدو أن أسطول الفاطميين كان دائم التجدد كثير التدريب والهجوم.

وقد سلف القول أنه انتصر على أسطول الروم في موقعة بحرية هائلة هي موقعة ((المجاز)) وظل يطارد الأسطول البيزنطي التابع لنقفور فوقاس سنة ٣١٥ هـ، وكان البحارة المسلمون يرمون بأنفسهم في الماء لكي يحرقوا سفن البيزنطيين، وكان هذا الأسطول نفسه قد هاجم جنوة وفتحها قبل ذلك ببضعة وعشرين عاماً، وعلى وجه التحديد سنة ٣٢٣ هـ، بقيادة أمير البحر يعقوب بن إسحق.

١- إن الشاعر ابن هانئ يصف هذا الأسطول غازياً محارباً يمخر العباب ويبث الرعب ويرمي بالشرر ويزفر بالجحيم مع مدح للمعز أنف أن يبالغ فيه حين لا يكون الموقف شبيهاً بهذا الذي يصفه فيقول:

لك البر والبحر العظيم عبابه ... فسيان أغمار تخاض وبيد

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد

قباب كما تزجي القباب على المها ... ولكن من ضمّت عليه أسود

ولله ممـــــا لا يـــــرون كتائـــــب مـــسومة تحـــدو بهـــا وجنـــود
ومـــا راع ملـــك الـــروم إلا اطلاعهـــا فتنـــشر تحـــدو بهـــا وبنـــود
عليهـــا غـــمام مكفهـــر صـــبره لـــه بارقـــات جمـــة ورعـــود
مـــواخر في طـــامي العبـــاب كأنـــه لعزمـــك بـــأس أو لكفـــك جـــود
أنافـــت بهـــا أعلامهـــا وســـماها بنـــاء عـــلى غـــير العـــراء مـــشيد
إذا زفـــرت غيظـــاً ترامـــت بـــمارج كـــما شـــب مـــن نـــار الجحـــيم وقـــود
فأنفاســـهن الحاميـــات صـــواعق وأفـــواههن الزافـــرات حديـــد

٢- ويصف ابن دراج الأسطول البحري في أكثر من مناسبة، وقد جعل منه وسيلة انتقال إلى ممدوحه خيران العامري، فيجعل من الفلك بديلاً عن الناقة ويصف صعوبة الرحلة وما اعتورها من مشقة وخطورة على صفحة الماء تعلو على لجة كأنها ثبير وتهوي كأنها غربان، مكثراً من الصور البحرية والتشبيهات المائية، وإن غلبت روح المديح على طبيعة القصيدة، وذلك في قوله:

لـــك الخـــير قـــد أوفى بعهـــدك خـــيران وبـــشراك قـــد آواك عـــز وســـلطان
هـــو الـــنجح لا يـــدعى إلى الـــصبح شـــاهد هو الفـــوز لا يبغـــي عـــلى الـــشمس برهـــان
إليـــك شـــحنا الفلـــك تهـــوي كأنهـــا وقد ذعرت عـــن مغـــرب الـــشمس غربـــان
عـــلى لجـــج إذا هبـــت الـــصبا ترامـــى بنـــا فيهـــا ثبـــير وثهـــلان
موائـــل ترعـــى في ذراهـــا مـــواثلا كـــما عبـــدت في الجاهليـــة أوثـــان
وفي طـــي أســـمال الغريـــب غرائـــب ســـكن شـــغاف القلـــب شـــيب وولـــدان
يـــرددن في الأحـــشاء حـــر مـــصائب تزيـــد ظلامـــا ليلهـــا وهـــي نـــيران
يقلـــن ومـــوج البحـــر والهـــم والـــدجى تمـــوج بنـــا فيهـــا عيـــون وآذان
ألا هـــل إلى الـــدنيا معـــاد وهـــل لنـــا ســـوى قـــبر أو ســـوى المـــاء أكفـــان
وهبنـــا رأينـــا معلـــم الأرض لنـــا من الأرض مـــأوى أو مـــن الإنـــس عرفـــان

ظعـــائن عمـــران المعاهـــد مقفـــر بهـــن وقفـــر الأرض مـــنهن عمـــران

هـــوت أمهـــم مـــاذا هـــوت برحـــالهم إلى نـــازح الآفـــاق ســـفن وأظعـــان

كواكـــب إلا أن أفـــلاك ســـيرها زمـــام ورحـــل أو شراع وســـكان

٣- إن للشاعر الكبير مشاركة في وصف السفن الحربية والمعارك البرية أيضاً، ولقد كان مجيداً في تناول هذا الطراز من موضوعات الشعر، لقد أنشأ ابن دراج قصيدة طويلة لامية القافية على طراز قصيدة المتنبي في سيف الدولة:

ليـــالي بعـــد الظـــاعنين شـــكول طويـــل وليـــل العاشـــقين طويـــل

٤- غير أن قصيدة ابن دراج كانت في مديح المنصور بن أبي عامر يمدحه ويصف الأسطول الذي حمله من الأندلس إلى إفريقيا عابراً إلى حيث يشن حربا على زيري بن عطية منشئ دولة بني زيري مطلعها:

لـــك الله بالنـــصر العزيـــز كفيـــل أجـــد مقـــام أم أجـــد رحيـــل

هـــو الفـــتح أمـــا يومـــه فمعجـــل إليـــك وأمـــا صـــنعه فجزيـــل

ويمضي ابن دراج في وصف سفن الأسطول متأثراً تأثيراً بينا بوصف المعارك البرية؛ إذ لا تزال الخيول والجياد والهوادج والأراقم في خاطره يستعملها في صوره وتشبيهاته وصنعته التي تبدو واضحة من خلال الأبيات، ولا عليه في ذلك، فلقد كان وصف الأساطيل في المياه الأندلسية لا يزال ميداناً جديداً للشعر والشعراء، إن ابن دارج يمضي في هذا الجزء من قصيدته على هذا النحو:

تحمـــل منـــه البحـــر بحـــراً مـــن القنـــا يـــروع بهـــا أمواجـــه ويهـــول

إذا ســـابقت شـــأو الريـــاح تخيلـــت خيـــولاً مـــدى فرســـانهن خيـــول

ســـحائب تزجيهـــا الريـــاح فـــإن وفـــت أنافـــت بأجيـــاد النعـــام فيـــول

ظبـــاء ســـمام مـــا لهـــن مفـــاحص وزرق حمـــام مـــا لهـــن هـــديل

ســـواكن في أوطـــانهن كـــأن ســـما بهـــا المـــوج حيـــث الراســـيات تـــزول

كـــما رفـــع الآل الهـــوادج بالـــضحى غـــداة اســـتقلت بـــالخيط حمـــول
أراقـــم تقـــري نـــاقع الـــسم مـــا لهـــا بـــما حملـــت دون الغـــواة مقيـــل
إذا نفثـــت في زور زيـــري حماتهـــا فويـــل لهـــا مـــن نكزهـــا وأليـــل

ثالثاً- وصف الشعراء المعارك البحرية:

لقد كان لابن صمادح أسطول بحري كبير قام بدور كبير في تاريخ البحرية الإسلامية الأندلسية، وإن واحدة من سفن هذا الأسطول الصمادحي قد خاضت معركة بحرية ضارية، وحققت فيها عدداً من الانتصارات الأمر الذي أعلى شأنها، ورفع ذكرها.

١- فوصفها الشاعر ابن الحداد هذا الوصف الذي جمع فيه بين رهبة الحرب ومتعة الشعر.

هام صرف الردى بهام الأعادي إن سمت نحوهم لها أجياد

وتـــراءت بـــشرعها كعيـــون دأبهـــا مثـــل خائفيهـــا ســـهاد
ذات هـدب مـن المجـاذيف حـاك هـــدب بـــاك لدمعـــه إســـعاد
حمـــم فوقهـــا مـــن البـــيض نـــار كـــل مـــن أرســـلت عليـــه رمـــاد

ويعبر الأمير أبو محمد عبد المؤمن بن علي سلطان الموحدين من الشاطئ الإفريقي إلى الشاطئ الأندلسي فيسارع الشعراء إلى تحيته ومدحه وذكر فضائله وأمجاده.

٢- ويتقدم الشاعر الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي ليدلي بدلوه في الحلبة، ويخلد استبسال أسطول الموحدين تجاه أسطول الروم وإيقاع الهزيمة بهم وبث روح الفزع بينهم:

حـدث عـن الـروم في أقطـار أنـدلس والبحـر قـد مـلأ العـبرين بـالعرب
مـن كـل مـن يـترك الهيجـاء في حالـك جمـر إذا اخـضرت الغـبراء بالعـشب
مقلـــب بـــين مـــشتاة وهـــاجرة تقلـــب الـــسيف بـــين المـــاء واللهـــب
يرمـي بهـم ظهـر طـرف بطـن سـابحة فـــالبر في شـــغل والبحـــر في صـــخب
وتعـــبر المـــاء مـــنهم نـــار عاديـــة يـــصلى بهـــا عابـــد الأوثـــان والـــصلب

وطـــود طـــارق قـــد حـــل الإمـــام بـــه كـــالطور كـــان لموســـى أيمـــن الرتـــب
لـــو يعـــرف الطـــود مـــا غـــشاه مـــن كـــرم لم يبـــسط الغـــور فيـــه الكـــف للـــسحب
ولـــــو تـــــيقن بأســـــاً حـــــل ذروتـــــه لعـــاد كـــالعهن مـــن خـــوف ومـــن رهـــب
منـــــه يعـــــاود هـــــذا الفـــــتح ثانيـــــة أصـــناف مـــا حـــدثوا في ســـالف الحقـــب
ملـــك إذا مـــا دعتـــه الحـــرب مـــن بعـــد طـــار الـــسفين أمـــام الجحفـــل اللجـــب
مـــا بـــين مخـــضرة الأقطـــار نازحـــة وأخـــضر في غـــمار الـــريح مـــضطرب

٣- ولم يختلف الوزير الشاعر الوشاح الكاتب المؤلف المؤرخ لسان الدين بن الخطيب عن وصف معارك الأسطول الأندلسي على زمانه، والحق أن لسان الدين عاش مرحلة الاحتضار السياسي والانحسار الحضاري الإسلامي عن الأندلس، وعلى الرغم من المحاولات اليائسة التي بذلها المسلمون للإبقاء على حكمهم ووطنهم الأندلسي، فإن شيئاً مما فعلوا في هذا الصدد لم يجد فتيلاً فكأن الخرق اتسع على الراقع، وكأن قد سبق السيف العذل حسبما يرددون في الأمثال، ولكن لسان الدين ينشد الأمير أبا عبد الله إبراهيم بن نصر قصيدة بلغت مئتي بيت مديح يخصص بعضاً من أبياتها في وصف الأسطول الأندلسي وخوضه المعارك البحرية، وقد وقعت من نفس الأمير موقعاً كريماً، مما جعله يأمر بكتابتها على قصر الحمراء.

الحـــق يعلـــو والأباطيـــل تـــسفل والله عـــــن أحكامـــــه لا يـــــسأل
والأمـــر فـــيما كـــان أو هـــو كـــائن كالعلـــة القـــصوى فكيـــف يعلـــل

٤- وفي سفن الأسطول يقول لسان الدين:

واســـتقبلتك الـــسابحات مـــواخرا تهـــوي إلى مـــا تبتغـــي وتؤمـــل
تبـــدي جوانبهـــا العبـــوس وإن تكـــن بالنـــصر منـــك وجوههـــا تتهلـــل
هـــن الجـــواري المنـــشآت قـــد اغتـــدت تختـــال في بـــرد الـــشباب وترفـــل
مـــن كـــل طـــائرة كـــأن جناحهـــا وهـــو الـــشراع بـــه الفـــراخ تظلـــل
جوفـــاء يحملهـــا ومـــن حملـــت بـــه مـــن يعلـــم الأنثـــى ومـــاذا تحمـــل

أطلعــن صــبحاً مــن جبينــك مــسفرا يجلــو الظــلام وهــن ليــل أليــل
وطلعــن منــك عــلى الــبلاد بطــارق للفــتح والنــصر الــذي يــستقبل

رابعاً- وصف الشعراء سفن الأسطول الأندلسي

١- فابن حمديس الصقلي الشاعر الوصاف يمدح الأمير الحسن بن علي من أمراء بني زيري ويخاطبه مثنياً عليه لبنائه أسطولاً ضخماً، ويصف الشواني التي تشبه المدن ضخامة وبروجها الشاهقة التي يحسبها المرء قمم الجبال، ترمي العدو بالنفط فتحرقه وعتاده، ولا تبقي على شيء:

أنــشأت شــواني طــائرة وبنيــت عــلى مــاء مــدنا
بــبروج قتــال تحــسبها في شــم شــواهقها قننــا
ترمــي بــبروج إن ظهــرت لعــدو محرقــة بطنــا
وبــنفط أبــيض تحــسبه مــاء وبــه تــذكي الــسكنا

٢- ويقول القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى بن غالب من شعراء المئة الثامنة يمدح السلطان أبا فارس عبد العزيز ويصف الأسطول ويبدي اهتماماً خاصاً بالشواني:

بعثــت لتــأمين البحــور جنودهــا بهــا أمنــت كــالبر منهــا بحورهــا
شــواني تحكيهــا انقــضاضاً شــواهن وإن صرصرت يومــاً حكاهــا صريرهــا
وإن قيــل غــر بــان فمــن أجــل أنهــا نواعــب أرواح العــدا إذ تغيرهــا
وإن قيــل عقبــان فغــير حقيقــة وإلا عــلى التحقيــق فهــي وكورهــا
تخطــف إذ تــنقض كــالنجم يرتجــي بغــاث العــدا عقبانهــا وصــقورها
تجاذبهــا أجناحهــا شــبهاً كــما نواظرهــا زرق العيــون وحورهــا
لهــا صــفحات المــاء مثــل صــحائف وتلــك الجــواري المنــشآت ســطورها

وبجيد أحمد بن محمد بن الأبار أحد شعراء المعتضد بن عباد وصف الشواني، ويستعمل لها اسمها الآخر وهو الغربان:

يـــا حبـــذا مـــن بنـــات المـــاء ســـابحة تطفـــو لمـــا شـــب أهـــل النـــار تطفئـــه
تطيرهـــا الـــريح غربانـــاً بأجنحـــة الـــ حمـــائم البـــيض للأشـــواك تـــرزؤه
مـــن كـــل أدهـــم لا يلفـــى بـــه جـــرب فـــما لراكبـــه بالقـــار يهنـــؤه
يـــدعى غرابـــاً وللفتخـــاء سرعتـــه وهـــو ابـــن مـــاء وللـــشاهين جؤجـــؤه

٣- ويصف أبو عمر بن حربون الشاعر سفينة من نوع الغراب ولكنه يصفها من خلال مدحه السيد الأعلى أبا محمد عبد الله بن أبي حفص، وكان رجلاً فاضلاً، عمل والياً على إشبيلية لعبد المؤمن، واستشهد في موقعة مرج الرقاد سنة ٥٥٧ هـ:

يـا مـن رأى الفلـك فـوق المـوج طافيـة كـما كفـأت قبابـا وسـطها العمـد
ينـساب مـنهن في أعـلى غواربـه أسـاور سـكنت أجوافهـا أُسُـد
بحـر كـأن أبـا حفـص بـصهوته لقـمان والمركـب الجـاري بـه لبـد
تعجبـوا مـن غـراب فـوق غاربـة ثهـلان ذو الهـضبات الـشم أو أحـد
وعـاين البحـر منـه فـوق لجتـه بحـراً خـضماً لـه مـن فـضة زبـد
فـالآن قـل لـذوي الإلحـاد شـأنكم فـما لكـم دون هـذا الأمـر ملتحـد

٤- لقد شاهد ابن حمديس ((الحربية)) وهي تخوض معركة بحرية ضارية سنة ٥١٢ هـ، تقذف الحمم وترمي اللهيب وكأنها بركان ينفث جحيماً. يقول ابن حمديس في أبياته هذه:

رأوا ((حربيـة)) ترمـي بـنفط لإخمـاد النفـوس لـه اسـتعار
كـأن المهـل في الأنبـوب منـه إلى شيّ الوجـوه لـه ابتـدار
كـأن منـافس البركـان فيهـا لأهـوال الجحـيم بهـا اعتبـار
نحـاس ينـبري منـه شـواظ لأرواح العلـوج بـه بـوار

خامساً- وصف الشعراء البحارة والأساطيل

١- لم يقتصر الشعراء على وصف الأساطيل وسماتها، ولم يكتفوا بوصفها وهي تخوض المعارك، وإنما ولعوا بوصفها أيام السلم ولعهم بذلك أيام الحرب، وفي أيام السلام كان قواد

الأساطيل ينظمون مهرجانات كبيرة تستعرض سفنهم خلالها حركات الكر والفر، ويقوم الملاحون بحركات خفيفة سريعة في أعالي المراكب وأسافلها، وكانت السفن في أيام المهرجانات تبدو في أكمل زينة، كما كان البحارة يلبسون أجمل الثياب وأبهى الحلل.

٢- ومن الشعراء الذين أجادوا وصف المهرجان أبو بكر محمد بن عيسى الداني – نسبة إلى الدانية – وشهرته ابن اللبانة، وكان مختصاً بالمعتمد بن عباد، فقد رأى ابن اللبانة أسطول مبشر في يوم مهرجان الذي يجمع بين الترفيه والتدريب فوصفه وصفاً بارعاً وتأنق في وصف حركات السفن، وهي تغدو وتروح على صفحة ماء البحر:

بشرى بيوم المهرجان فإنه ... يوم عليه من احتفائك رونق
طارت بنات الماء فيه وريشها ... ريش الغراب وغير ذلك شوذق
وعلى الخليج كتيبة جرارة ... مثل الخليج كلاهما يتدفق
وبنو الحروب على الجواري التي ... تجري كما تجري الجياد السبق
ملأ الكماة ظهورها وبطونها ... فأتت كما يأتي السحاب المغدق
عجباً لها ما خلت قبل عيانها ... أن يحمل الأسد الضواري زورق
هزت مجاديفاً إليك كأنها ... أهداب عين للرقيب تحدّق
وكأنها أقلام كاتب دولة ... في عرض قرطاس تخط وتمشق

الباب السابع

الشعر يرثي الأندلس

أولاً- الأندلس من الثريا إلى الثرى

أ- صعود وهبوط في القوة العسكرية:

١- هذه هي الحضارة الأندلسية بكل مقوماتها وعطاءاتها وإنجازاتها، فقد مضت ثمانية قرون مجيدة عاشها العرب المسلمون في الأندلس تحت رايات التمدن وبنود التسامح وأعلام الحضارة، وانسحب تمدنهم على جيرانهم الأوروبيين وانساحت حضارتهم إلى ساحاتهم، وتغلغلت صنوف معارفهم إلى قلوبهم وعقولهم وألبابهم.

ولقد بدأ مجتمع المجد والعلم والشعر والسحر والعمران والجمال الموهوب والمصنوع والمحسن والمبتكر يذوي وينهدم، فكان أمراً طبيعياً أن يرافق الشعر هذه المراحل كلها، ومراحل الحسن والجمال والثقافة والبناء، ومراحل الهدم والانحسار والهزيمة والتحلل والفناء.

٢- إن مجد المسلمين في الأندلس بلغ الذروة على أواخر عهد بني أمية الأندلسيين، وخاصة في عصر الناصر وولده المستنصر، وما إن زالت دولة الأمويين وانقسمت الجزيرة المنيعة إلى دويلات صغيرة، وطوائف متنافرة فيما يسمى بعصر ملوك الطوائف حتى بدأ المد ينحسر، والقوة تشيخ، ولألاء النور يخفت ويخبو.

٣- لقد أهمل العرب الفاتحون الظافرون الاستيلاء على منطقة شمالي غربي الجزيرة ((جلبيقية)) وهي ناحية خيراتها لا تغري على الاستيلاء أو الفتح، فظلت منطقة نصرانية منعزلة.

أ- الأمر الذي شجع بعض الطامحين من أبنائها أن ينشئ حركة للمقاومة ضد العرب الوافدين، ثم ضد المسلمين من عرب وأندلسيين.

ب- وبمرور الزمان بدت الدائرة تتسع إلى أن استطاع ألفونسو الأول أن يسيطر على المنطقة ويحيطها بسلسلة من القلاع والحصون، فلما كان القرن الرابع الهجري كانت الفكرة التي خامرت بلاي الزعيم الأول لخطة المقاومة قد نضجت.

ج- ونشأت إمارة على حدود الدولة الأندلسية الإسلامية عرفت باسم قشتالة، وهي نفسها الكلمة الإسبانية أي القلاع.

كانت هذه الإمارة دائمة التسلل إلى الأراضي الأندلسية الإسلامية الأمر الذي جعل الأمراء الأندلسيين يخوضون غمار حروب طاحنة ضدهم، وخاصة عبد الرحمن الناصر الذي ردهم إلى صوابهم بكثرة ما أوفد إليهم من غزوات، وما أوقع بهم من هزائم.

د- ولكن لا يكاد القرن الخامس ينتصف حتى ينجح النورمان في الاستيلاء على بربشتر من أعمال الثغر الأعلى، وكان ذلك سنة ٤٥٦ هـ، وقبل أن يمضي ربع قرن من الزمان تسقط طليطلة في أيديهم سنة ٤٧٩ هـ.

٤- ويستنجد ملوك الطوائف – وبصفة خاصة المعتمد بن عباد – بالمرابطين في إفريقيا الذين يلبون النداء ويعبرون البحر إلى الأندلس ويلتحمون هم وحليفهم المعتمد بن عباد الملك الفارس الشاعر بجيوش النصارى بقيادة ألفونسو السادس في معركة سهول الزلاقة بعد عام واحد من سقوط طليطلة أي سنة ٤٧٩ هـ، ويحقق المسلمون المتحالفون نصراً حاسماً على جيوش ألفونسو، ويخلد التاريخ معركة الزلاقة وبطلها الحقيقي المعتمد بن عباد الذي صمد فيها صمود أبطال الأساطير رغم ما ناله من بعض الجراح.

٥- ولكن الأصدقاء القادمين من شمال إفريقيا لتقديم العون إلى حلفائهم في الأندلس لا يلبثون أن يطمعوا في هذه البلاد لسحرها وجمالها فيقوضون ملك بني عباد ويأسرون المعتمد سنة ٤٨٤ هـ، أي بعد الزلاقة بخمس سنين، ويقضون على إمارة بني المظفر – أو بني الأفطس – سنة ٤٨٥ أي بعد عام من القضاء على بني عباد.

ب- كآبة الأدب (الشعر):

١- كان الثمن غالياً فهام الشعر حزيناً لرثاء إمارتين من أرقى إمارات الطوائف؛ لأن كلاً من ملكيهما كان أديباً فارساً شاعراً، وينشأ شعر رثاء الإمارات بعد شعر رثاء المدن أو معه في وقت واحد.

٢- ويتوالى سقوط المدن الأندلسية في أيدي الفرنجة في نطاق ما أطلق عليه حركة الاسترداد.

٣- فتسقط سرقسطة سنة ٥١٢ هـ، ثم طرطوسة سنة ٥٤٣ ويتجه النشاط المعادي للمسلمين إلى الغرب فتسقط إشبونة وشنترين سنة ٥٤٢ وماجة سنة ٥٥٦ ويابرة سنة ٥١٦هـ.

٤- إنها سلسلة من الهزائم، بل قافلة من النكبات تحل بالأندلس المسلمة لا يوقفها إلا نهاية دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين على أنقاضهم في إفريقيا والأندلس، وكانت من القوة بحيث أوقفت سقوط المدن الإسلامية.

ج- عودة المجد للأندلس:

عاد المجد إلى الأندلس لمدة تقارب قرناً من الزمان، وحارب العرب المسلمون أعداءهم، وأحرزوا انتصارات حاسمة على الفرنجة في عديد من المعارك التي أهمها معركة الأراك سنة ٥٩٣ هـ، بقيادة الخليفة يعقوب بن منصور الموحدي، وقدر عدد القتلى من النصارى الإسبان فيها بما يقارب مئة وخمسين ألفاً، والأسرى بما يناهز ثلاثين ألفاً، وقد بلغ ما استولى عليه المسلمون من الخيول وحدها ثمانين ألفاً، ومن البغال التي كانت تحمل المؤن والعتاد للإسبان مئة ألف بغل.

كانت معركة الأراك المجيدة شبيهة بمعركة الزلاقة الشهيرة من حيث ضخامة حجم الانتصار الذي أحرزه المسلمون، ومن حيث شراسة الهزيمة التي لحقت بنصارى الأندلس.

د- عودة للهبوط:

ولا يكاد ينقضي على هذه الموقعة بضعة عشر عاماً حتى ينتكس جيش المسلمين حينما أخذ على غرة في معركة - العقاب - الشهيرة، سنة ٦٠٩ هـ، وليست كلمة العقاب هنا بمعناها اللغوي، وإنما هي اسم للمكان الذي جرت على أرضه المعركة على مقربة من - جيان- حيث تحطم معظم جيش الموحدين في الأندلس، وقد اعتبرت هذه المعركة ذروة ما أطلق عليه حركة الاسترداد النصرانية.

١- فبعد العقاب بسنوات قلائل أخذت المدن الإسلامية المهمة في الأندلس تتهاوى الواحدة بعد الأخرى شرقاً وغرباً.

٢- ففي شرق الأندلس سقطت ميورقة سنة ٦٢٧، وبياسة سنة ٦٢٣، وقرطبة ذات الأمجاد سنة ٦٣٣، وبلنسية سنة ٦٣٦، ودانية سنة ٦٤١، وشاطبة سنة ٦٤٤، ومرسية سنة ٦٤٠ وجيان سنة ٦٤٣، وإشبيلية سنة ٦٤٦ هـ- ١٢٤٨ م.

٣- وكانت الكارثة تسرع في نهش مدن الأندلس الغربية إسراعها في التهام مدن الشرق، سقطت بطليوس سنة ٦٢٧، وماردة سنة ٦٢٨، وشلب سنة ٦٤٠ ولبلة سنة ٦٥٥، وقادس سنة ٦٥٩، وشريش سنة ٧٠٢ هـ- ١٢٦٤ م.

هـ- مسلمو الأندلس أسقطوا أنفسهم بأيديهم:

إنها سلسلة من الهزائم، بل من الكوارث، بل من الإهانة والذل والفناء لحق بمسلمي إسبانيا بأسرع ما يتوقع عقل العاقل، لقد أسقطوا أنفسهم بأيديهم وليس بأيدي أعدائهم؛ لأن الذي يعطي عدوه وسائل الغلبة، ويسلمه أدوات الانتصار، بتصميمه على بث التفرقة، وإنماء التباعد، وتوسيع شقة الخصام ومحاربة أخيه وابن عمه والاعتداء على بني قومه في عقر دارهم، والتوسع على حسابهم فتحاً وأرضاً عوضاً عن أن يبسط يده للاتحاد، ويفتح قلبه للحب، ويشد أزر أخيه، ويؤلف قلبه، وينطلق الجميع صفاً واحداً لحرب العدو، لقد كان عدد من حكام الأندلس موسومين بهذه الصفات، وكان الناس يستنكرون فعلهم ولا يجرؤون على المجاهرة بآرائهم فيهم، وكانوا يسطرون خواطرهم ضد حاكميهم، ثم يخفونها حتى لا يقع عليها الحاكم الظالم الذي يسير بقومه في طريق الهزيمة والفناء.

إن الكاتب الأديب الشاعر أبا عبد الله محمداً الفزازي يكتب بعض خواطره شعراً ويخفيها، ولقد وجدت هذه الأبيات في جيبه بعد وفاته:

الروم تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقى والمغرم

والمال يورد كله قشتالة ... والجند تسقط والرعية تظلم

وذوو التعين ليس فيهم مسلم ... إلا معين في الفساد مسلَّم

أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطف بالجميع ويرحم

و- صمود غرناطة:

وما إن انتصف القرن السابع الهجري حتى كانت كل ولايات شرق ووسط وغرب الأندلس في يد إسبانيا النصرانية ولم تصمد إلا ولاية غرناطة في الجنوب وظلت تكافح من أجل البقاء غير ناسية رسالة الحضارة والتمدن زهاء قرنين ونصف قرن من الزمان في بطولة واستبسال قل أن يجد التاريخ له مثيلاً، وكانت هذه الإمارة بحجمها الصغير قد كثفت على مساحتها الكثير من أمجاد الأندلس.

غرناطة آخر معقل للإسلام في إسبانيا، ورحل آخر ملك مسلم عن قصر الحمراء في قصة فريدة في التاريخ هماً وحزناً وحسرة وألماً وندماً في اليوم الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ، الموافق الثاني من يناير (كانون الثاني) سنة ١٤٩٢ م.

ثانياً- رثاء المدن الأندلسية الذاهبة

رثى الأدباء والشعراء الممالك الأندلسية بكثير من التفجع والحزن والأسى فكان:

١- رثاء طليطلة:

أ- صدمة سقوط طليطلة:

وهي واحدة من أكبر القواعد الإسلامية في الأندلس، وكان سقوطها في وقت مبكر في سنة ٤٧٨ هـ، ولكن أسباب سقوط الدول لا تخضع للزمان بقدر ما تخضع لصلاح الحاكم أو فساده وسلامة السكان أو فسادهم.

لقد كان سقوط طليطلة صدمة كبرى أصابت المسلمين في الأندلس بالذهول الذي ما لبث أن ترجم إلى الحقيقة المريرة التي عبر عنها الشعراء.

ب- أسباب سقوطها:

إن من أسباب سقوط طليطلة:

١ - فساد الحكم.

٢ - وانتشار الظلم والجور والمصادرات.

٣- وذيوع الفاحشة بين الناس.

٤- وتعفن المجتمع بالانحلال.

٥- والإقبال على الشهوات.

٦- واقتراف المعاصي.

٧- وخور الحكام وتفرقهم وجبنهم.

٨- والاستهانة بأخطار العدو، إما كبراً وغروراً، وإما غفلة وغباء.

ج- التعبير عن سقوطها:

١- عبر الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن الغسال تعبيراً مثقلاً بالشؤم متنبئاً بغروب شمس الأندلس، ومنطقه يكمن في هذه الأبيات المخفية أو بالأحرى التي كانت مخفية لمن سمعها من معاصريه:

يـا أهـل أنـدلس شـدوا رحـالكم ... فـما المقـام بهـا إلا مـن الغلـط

الـسلك ينثـر مـن أطرافـه وأرى ... سـلك الجزيـرة منثـوراً مـن الوسـط

الثـوب ينـسل مـن أطرافـه وأرى ... ثـوب الجزيـرة منـسولاً مـن الوسـط

مـن جـاور الـشر لا يـأمن عواقبـه ... كيـف الحيـاة مـع الحيـات في سـفط

٢- وهذا شاعر آخر أكثر تشاؤماً، بل إنه داعية إلى الخراب، متطوع لبث روح الهزيمة يستعمل اصطلاحات لاعبي الشطرنج في قوله:

يـا أهـل أنـدلس ردوا المعـار فـما ... في العـرف عاريـة إلا مـردات

ألم تـروا بيـدق الكفـار فرزنـه ... وشـاهناً آخـر الأبيـات شـهمات

٣- ويورد المقري في رثاء طليطلة قصيدة من عيون الشعر لم يذكر قائلها تزيد على سبعين بيتاً ضمنها الشاعر كل أحاسيسه بالحسرة، ومدها بكل ما رفدته به شاعريته:

لثكلـك كيـف تبتـسم الثغـور ... سروراً بعـدما بئـست ثغـور

أمـا وأبي مـصاب هـد منـه ... ثبـير الـدين فاتـصل الثبـور

لقد قصمت ظهور حين قالوا أمير الكافرين له ظهور
ترى في الدهر مسروراً بعيش مضى عنا لطيته السرور
ألـيس بنا أبي النفيس شهم يدير على الدوائر إذ تدور
لقد خضعت رقاب كن غلبا وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل وسامح في الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الكفر منها حماها إن ذا نبأ كبير
فليس مثالها إيوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيد تناولها ومطلبها عسير
ألم تك معقلاً للدين صعبا فذا الله ما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير
فعادت دار كفر مصطفاة قد اضطرمت بأهليها الأمور
مساجدها كنائس أي قلب على هذا يقر ولا يطير

د- أسباب سقوطها: حسبما ذكر الشاعر في قصيدته أن فساد الحكم، وانتشار الظلم والجور والمصادرات، وذيوع الفاحشة بين الناس، وتعفن المجتمع بالانحلال والإقبال على الشهوات واقتراف المعاصي، وخور الحكام وتفرقهم وجبنهم والاستهانة بأخطار العدو، إما كبراً وغروراً، وإما غفلة وغباء دفع المدينة للسقوط:

وكان بنا وبالقينات أولى لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بحالتهن عين وكيف يصح مغلوب قرير
لئن غبنا عن الإخوان إنا بأحزان وأشجان حضور
نذير كان للأيام فيهم بملكهم فقد وفت النذور
فإن قلنا العقوبة أدركتهم وجاءهم من الله النكير

فإنـــا مـــثلهم وأشـــد مـــنهم نجـور وكيـف يـسلم مـن يجـور
أنأمـــل أن يحـــل بنـــا انتقـــام وفينـــا الفـــسق أجمـع والفجـــور
وأكـــل للحـــرام ولا اضـــطرار إليـــه فيـــسهل الأمـــر العـــسير
أصـــبراً بعـــد ســـبي وامتحـــان يـــلام علـــيهما القلـــب الـــصبور
فـــأم الـــصبر مـــذكار ولـــود وأم الـــصقر مقـــلات نـــزور
نخـــور إذا دهينـــا بالرزايـــا ولـــيس بمعجـــب بقـــر يخـــور
ونجـبن لـيس نـزأر لـو شـجعنا ولـــو نجـــبن لكـــان لنـــا زئـــير
لقـد سـاءت بنـا الأخبـار حتـى أمـــات المخـــبرين بهـــا الخبـــير
أتتنـــا الكتـــب فيهـــا كـــل شر وبـــشرنا بأنحـــسنا البـــشير
وقيـــل تجمعـــوا لفـــراق شـــمل طليطلـــة تملكهـــا الكفـــور

ويقع الشاعر في حيرة شديدة وهو يذكر طليطلة الجميلة الأسيرة المحتلة وحين يذكر الأهل والحقل والبستان والديار، ويرثي الحال المقيم ويبكي لمصير النازح، وتتمثل له كل المعاني السحر والجمال في وطنه:

كفـى حزنـا بـأن النـاس قـالوا إلى أيـــن التحـــول والمـــسير
أنـــترك دورنـــا ونفـــر عنهـــا ولـــيس لنـــا وراء البحـــر دور
ولا ثـم الـضياع تـروق حـسنا نباكرهـــا فيعجبنـــا البكـــور
وظـــل وارف وخريـــر مـــاء فـــلا قـــر هنـــاك، ولا حـــرور
ويؤكـــل مـــن فواكههـــا طـــري ويـــشرب مـــن جـــداولها نمـــير
لقـد ذهـب اليقـين فـلا يقـين وغـــر القـــوم بـــالله الغـــرور
فـــلا ديـــن ولا دنيـــا ولكـــن غـــرور بالمعيـــشة مـــا غـــرور
رضـــوا بـــالرق يـــا لله مـــاذا رآه ومـــا أشـــار بـــه مـــشير
مـضى الإسـلام فابـك دمـا عليـه فـما ينفـي الجـوى الـدمع الغزيـر

ويحس الشاعر من جانبه بالضياع فيستنهض الهمم ويستنفر المتقاعس ويبحث عن قائد زعيم شجاع غيور باسل يخوض معركة التحرير:

ألا رجل له رأي أصيل ... به مما نحاذر نستجير
عظيم أن يكون الناس طرا ... بأندلس قتيل أو أسير
أذكر بالقراع الليث حرصا ... على أن يقرع البيض الذكور
يوسع للذي يلقاه صدرا ... فقد ضاقت بما تلقى الصدور
تنغصت الحياة فلا حياة ... وودع جيرة إذ لا مجير
فليل فيه هم مستكن ... ويوم فيه شر مستطير

٢- رثاء مدينة بلنسية:

أ- رحلة السقوط:

وهي من أجمل المدن وأرقاها، ومنها عدد من الشعراء المرموقين من أمثال ابن خفاجة وابن أخته ابن الزقاق البلنسي، والرصافي الرفاء البلنسي وغيرهم كثيرين.

ولقد سقطت بلنسية في أيدي نصارى الأندلس مرتين.

١- المرة الأولى سنة ٤٧٨ هـ، وظلت محتلة حتى سنة ٤٩٥ هـ، أي سبعة عشر عاماً حتى حررتها جيوش يوسف ابن تاشفين، وكانت يومئذ بقيادة الأمير محمد مزدلي.

٢- وأما السقطة الثانية والأخيرة فكانت في فترة الانهيار الطاغي في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وعلى وجه التحديد سنة ٦٣٥ وقيل سنة ٦٤٠ هـ، بعد أن ظل الأعداء يحاصرونها ويضيقون الخناق عليها عدداً من السنين.

ب- رثاء الشعراء لها:

١- تفجع الشعراء:

لقد رثى الشعراء بلنسية مرتين كما لو كانت إنساناً مرموقاً مات مرتين، ويبدو أن أهل بلنسية كانوا على شيء من الإهمال والغفلة، وكانوا جاهلين بشؤون الحرب مقبلين على الملذات والأكل والشراب.

٢- سقوط مدينة - بطرنه-:

ذلك أن مدينة – بطرنه – وهي غير بعيدة عن- بلنسية- كانت قد سقطت قبل ذلك بحوالي ثلاثين سنة.

٣- السقوط الأول لمدينة بلنسية:

كان على البلنسيين أن يعيشوا حياة استعداد وحذر، ولكنهم ما برحوا يقيمون الاحتفالات متجمعين خارج مدينتهم في ثيابهم الأنيقة المترفة ومعهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر يأكلون ويشربون، فكمن لهم الفرنجة وأعملوا فيهم القتل والأسر الأمر الذي جعل:

أ- أحد الشعراء يصف هذه الحادثة الأسيفة مشيراً إلى احتلال بطرنة وسقوطها قبل زمن قصير قائلاً:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنه ما كانا

ب- وحين تم للفرنجة إخضاعها والاستيلاء عليها سنة ٤٧٨ هـ، وقتلوا أهلها، وأحرقوا دورها وعاثوا فيها الفساد، وشوهوا نضرتها، بكاها شاعرها وابنها ابن خفاجة قائلاً:

عاثت بساحتك الظبا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

إن ابن خفاجة لم يطق أن يرى جنته بلنسية تخرب وتنقلب إلى جحيم وخراب فكانت هذه النفثة الساحرة التي تعطي عبرة وتذرف عبرة.

٤- السقوط الثاني لبلنسية:

ثم كانت الهجمة الثانية للفرنجة على بلنسية، وكانت هجماتهم ضارية وحشية، يعملون الحرق والقتل والسبي، دون تفريق بين شيخ كبير أو ولد صغير أو طفل رضيع أو امرأة عزلاء.

٥- هزيمة شنيعة:

والحق أنه منذ معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ، التي سبقت الإشارة إليها، وأمر الأندلس بات سائراً على درب الفناء، فإن المسلمين لم يهزموا في الأندلس على مدى عيشهم فيها بمثل هذه الهزيمة، فقد قدر المؤرخون قتلى المسلمين بعدد تراوح بين مئة ألف عند بعضهم ومئة وخمسين ألفاً عند البعض الآخر، فكانت نذير شؤم وزوال فزلزلت أفكار الناس وبلبلت أحوالهم وأدخلت اليأس إلى قلوبهم كما عبر عنها:

أ- أبو إسحق بن إبراهيم الدباغ في أبياته المفزعة:

وقائلة أراك تطيل فكرا ... كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر في عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب

كان على المسلمين الأندلسيين أن يستنجدوا بالمسلمين من ملوك إفريقيا، وكانوا على حال من القوة والمنعة، فكان أن استصرخ زيان ابن مردنيش أمير بلنسية بأبي زكريا عبد الواحد بن حفص صاحب إفريقيا.

ب- والشاعر المبدع والعالم المثقف المؤرخ أبو عبد الله ابن الأبار القضاعي البلنسي المتوفَّى سنة ٦٥٨ هـ، الذي أرسل إليه وأنشد بين يديه القصيدة السينية المشهورة:

فقد انقلبت المساجد إلى كنائس، وانهدمت مدارس القرآن فصارت خرائب، وذوت حضارة المدينة وخبا نورها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكـــل غاربـــة إجحـــاف نائبـــة تثني الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الـروم لا نالـت مقاسـمهم إلا عقائلهـــا المحجوبـــة الأنـــسا
وفي ســـــنة منهـــــا وقرطبـــــة ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مـــدائن حلهـــا الإشراك مبتـــسما جـذلان وارتحـل الإيـمان مبتئـسا
وصـيرتها العـوادي العابثـات بهـا يستوحش الطرف منها ضـعف مـا
يـا للمـساجد عـادت للعـدا بيعـا وللنـــداء غـــدا أثناءهـــا جرســـا
لهفـي عليهـا إلى اسـترجاع فائتهـا مدارسـاً للمثـاني أصـبحت درسـا

يمضي الشاعر في استصراخه الأمير مبدياً حسرة على ما انهدم من محاسن المدينة:

فـــأين عـــيش جنينـــاه بهـــا خـــضرا وأيـــن عـــصر جلينـــاه بهـــا سلـــسا
محـــا محاســـنها طـــاغ أتـــيح لهـــا مـا نـام عـن هـضمها حينـا ولا نعـسا
ورج أرجاءهـــا لمـــا أحـــاط بهـــا فغـــادر الـــشم مـــن أعلامهـــا خنـــسا
خـــلا لـــه الجـــو فامتـــدت يـــداه إلى إدراك مـــا لم تطـــأ رجـــلاه مختلـــسا
وأكثـــر الـــزعم بالتثليـــث منفـــردا ولـــو رأى رايـــة التوحيـــد مـــا نبـــسا

٣- رثاء إشبيلية:

أ- هجمة صليبية جديدة وتأبِّي المدينة على السقوط:

ومن المدن التي كافحت غزو النصارى ببسالة وضراوة وعـزم وإيـمان وتـصميم، إشـبيلية العتيدة قلعة المعتضد بن عباد وعرين ابنه المعتمد؛ فلقد جمع فرناندو قوات هائلـة جنـدها مـن كل أطراف إسبانيا النـصرانية، ووسـم المعركـة بميـسم صـليبي صريـح حـين جمـع الأمـراء والمطارنة والقساوسة وبثهم بين جيشه البري، ثـم جلـب أسـطولاً بحريـاً عـسكر بـه في نهـر الوادي الكبير ليشدد النكير على المدينة المتأبية على سقوط، وكان من المخجل حقـاً أن يـشترك ((أمير)) مسلم هو ابن الأحمر في مساعدة النصارى بالمـدد والعـدد انتقامـاً مـن أهـل إشـبيلية لرفضهم الخضوع لطاعته، ولم يكن ابن الأحمر الوحيد من بين أمراء المسلمين الـذين سـاعدوا

ملوك الحروب الصليبية الأندلسية، وإنما وجد بين الحكام المسلمين عدد من الخونة كانوا على شاكلة ابن الأحمر، كانوا يفعلون ذلك انتقاماً من خصومهم السياسيين بغض النظر عن إخوتهم جميعاً في العروبة والدين.

لقد استعصت المدينة على جموع الجيوش والأساطيل الإسبانية النصرانية، وامتنعت عليهم رغم خيانة ابن الأحمر، ومن صفحات الشرف الخالدة لهذه المدينة أن الذين دافعوا عنها هم أهلها من أبناء الشعب دون قيادة ملك أو أمير، وظلت تقاوم في ضراوة مدة ثمانية عشر شهراً رغم الحصار الرهيب.

ب- استسلام المدينة:

فلما نفد الزاد والطعام والسلاح، لم تجد المدينة بداً من الاستسلام في جمادى الأولى سنة ٦٤٥ هـ، مقابل حقن دماء أهليها وحفظ أموالهم وأن يمهلوا شهراً لتسوية أمورهم وإخلاء دورهم.

- خلال تلك المقاومة الباسلة كتب شاعر إشبيلية إبراهيم بن سهل الإسرائيلي قصيدة رائية يستنهض همم المسلمين في إفريقيا ويستصرخ نخوتهم:

نادى الجهاد بكم بنصر مضمر ... يبدو لكم بين القنا والضمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا ... عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل في السرى ... تروا بماء الحوض غير مكدر
يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... ولكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذاك البناء بكل لدن أسمر

ج- أحقاد كامنة:

إن امتناع إشبيلية على الغزاة فترة طويلة جعلت فرناندو الثالث الذي حشد الحشود للاستيلاء عليها يرتب موكباً فخماً لدخولها، وكان أول عمل أقدم عليه:

١- هو تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة.

٢- وإزالة كل معالم الإسلام فيها.

د- سقوط مدن أخرى:

وكان سقوط المدينة التليدة نذيراً بسقوط مدن أخرى كبيرة وزوال حصون إسلامية حصينة، (شريش - وشذونة - وقادس - وشلوقة - وروضة - وأركش -وشنتمريه)، وإن هذا الاكتساح الرهيب والهدم والحرق والتخريب، والقتل والسبي والانتقام جعل الشعراء يبعثون بالعديد من قصائد الاسترحام، وطلب النجدة من مسلمي إفريقيا حتى - إن أبا الحكم بن المرحل كتب قصيدة ميمية بعث بها إلى المغرب فقرئت على منبر جامع القرويين في فاس في يوم جمعة من سنة ٦٦٢ هـ، فلما سمعها الناس انهمرت دموعهم وعلا نشيجهم وانفجر بكاؤهم، يقول في بعض أبياتها:

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فإنكم إن تسلموه يسلم

لاذت بكم أندلس ناشرة ... برحم الدين ونعم الرحم

فاسترحمتكم فارحموها إنه ... لا يرحم الرحمن من لا يرحم

ما هي إلا قطعة من أرضكم ... وأهلها منكم وأنتم منهم

٤- ويرثي الشعر الأمارات الغاربة:

إذا كان الشعر قد رثى المدن وبكاها وهي تسقط في ربوع الأندلس العريضة الواحدة بعد الأخرى، فإن هذه المدن كانت تنتمي إلى ممالك وإمارات غير أن أكثر هذه الإمارات لم تسقط تحت وطأة جيوش الفرنجة، وإنما سقطت تحت وطأة جيوش مسلمة وافدة من إفريقيا حيناً ومنطلقة من بقاع الأندلس نفسها حيناً آخر.

أولاً- رثاء دولة بني عباد:

قامت دولة بني عباد كما هو معروف في إشبيلية سنة ٤٢٦هـ، ورسخت أركانها واشتد بنيانها وامتد سلطانها في عهد عباد بن محمد بن عباد المعروف بالمعتضد، واستولى على غرب الأندلس، وكان سياسياً محنكاً ومحارباً جباراً، ثم خلفه ابنه الملك الشاعر الفارس، بل ملك

شعراء الأندلس وشاعر ملوكها محمد المكني بأبي القاسم الملقب بالمعتمد على الله، وقد امتد ملكه حتى شمل قرطبة وجزءاً كبيراً من الأندلس، وهو بطل موقعة الزلاقة المشهورة.

وكان حوله من الشعراء نوابغ شعراء الأندلس مثل ابن زيدون وابن حمديس وابن عبد الصمد وابن اللبانة وابن عمار الذي اتخذه أخاً ووزيراً، ثم قتله، وغيرهم. حتى إنه لم يجتمع بباب ملك من ملوك الأندلس من الشعراء ما اجتمع بباب المعتمد وانتهت دولة بني عباد على يد ابن تاشفين حسبما ذكرنا قبل قليل، وحمل أسيراً إلى أغمات في المغرب سنة ٤٨٤، ثم مات في سجنه ٤٨٨هـ وبموته انقضت دولة جديرة بالبكاء عليها حَرية بالرثاء.

ب- تعبير الشعراء عن سقوط المدينة:

١ - لقد كان المعتمد أول من رثى نفسه، وهو لم يصنع هذا الرثاء على طريقة من يئسوا من حياتهم لمرض عضال أو أمل ضائع مثلما صنع ابن شهيد وغيره، وإنما كان يرثي ملكه ويبكي دولته حين أمر أن يكتب على قبره وقد أحس باقتراب منيته في الأسر هذه الأبيات:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا ... بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي
نعم هو الحق وافاني به قدر ... من السماء ووافاني لميعادي
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ... أن الجبال تهادى فوق أطواد
فلا تزل صلوات الله دائمة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

٢ - لقد نشط الشعر أسيفاً في رثاء المعتمد، ورثاء مملكة بني عباد، بل إن كتباً ألفت في رثائهم، فمن القصائد الجيدة في رثاء المعتمد قول ابن اللبانة جامعاً بين المعنى الرصين الحزين والصنعة اللفظية البديعية:

لكل شيء من الأشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده ... وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقـــل لعالمهـــا الأرضي قـــد كتمـــت سريـــرة العـــالم العلـــوي أغـــمات
طـــوت مظلتهـــا، لا بـــل مـــذلتها مـــن لم تـــزل فوقـــه للعـــز رايـــات

٣- ومن مراثي ابن اللبانة أبي بكر الداني هذا في دولة بني عباد والمعتمد قصيدة دالية جيدة يستهلها بهذه الأبيات:

تبكـــي الـــسماء بـــدمع رائـــح غـــادي عـــلى البهاليـــل مـــن أبنـــاء عبـــاد
عـــلى الجبـــال التـــي هـــدت قواعـــدها وكانـــت الأرض مـــنهم ذات أوتـــاد
والرابيـــات عليهـــا اليانعـــات ذوت أنوارهـــا فغـــدت في خفـــض أوهـــاد
عريـــسة دخلتهـــا النائبـــات عـــلى أســـاور لهـــم فيهـــا وآســـاد
وكعبـــة كانـــت الآمـــال تعمرهـــا فـــاليوم لا عـــاكف فيهـــا ولا بـــاد

وفيها يقول وقد لون معانيه بصبغة داكنة من الحزن والأسى مصوراً حزن الناس حين رأوا بني عباد مأسورين في الطريق إلى المنفى:

نـــسيت إلا غـــداة النهـــر كـــونهم في المنـــشآت كـــأموات بألحـــاد
والنـــاس قـــد ملـــؤوا العـــبرين واعتـــبروا مـــن لؤلـــؤ طافيـــات فـــوق أزبـــاد
تفرقـــوا جـــيرة مـــن بعـــد مـــا نـــشؤوا أهـــلاً بأهـــل وأولاداً بـــأولاد
حـــان الـــوداع فـــضجت كـــل صـــارخة وصـــارخ مـــن مفـــداة ومـــن فـــادي
ســـارت ســـفائنهم والنـــوح يتبعهـــا كأنهـــا إبـــل يحـــدو بهـــا الحـــادي
كم سـال في المـاء مـن دمـع وكـم حملـت تلـك القطـائع مـن قطعـات أكبـاد
مـــن لي بكـــم يـــا بنـــي مـــاء الـــسماء إذا مـــاء الـــسماء أبـــى ســـقياً حـــشا الـــصادي

٤- ومن الشعراء الأوفياء لبني عباد الذين أجادوا رثاءهم ابن عبد الصمد شاعر المعتمد الذي سعى إلى قبره في أول عيد مر على وفاته، وكان جمع من الناس سعوا لزيارة القبر وقف ابن عبد الصمد على القبر، وأنشد قصيدة دالية من عيون الشعر استهلها قائلاً:

ملـــك الملـــوك أســـامع فأنـــادي أم قـــد عـــدتك في الـــسماع عـــواد

لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وتخذت قبرك موضع الإنشاد

وهنا خر الشاعر على الأرض يبكي ويعفر وجهه في تراب القبر فبكى الناس من حوله حتى اخضلت ملابسهم وارتفع نشيجهم وعويلهم

مضى ابن عبد الصمد بعد أن استعاد أنفاسه في إنشاد قصيدته الطويلة الجيدة الحزينة التي تزيد كثيرا على مئة بيت وكل بيت عين من عيون الشعر يتمول في بعضها مشيرا إلى سعة ملكة:

عهدي بملكك وهو طلق ضاحك متهلل الصفحات للقصاد
أيام تخفق حولك الرايات فو ق كتائب الرؤساء والأجناد
والأمر أمرك والزمان مبشر بمالك قد أذعنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنحني بين الصوارم والقنا الميادا

ومنها قوله في شجاعة المعتمد وسماحته وثقافته:

من يفتح الأمصار بعد محمد من يعقد الرايات للقواد
من يفهم المعنى الخفي ومن له صدق الحديث وصحة الإيراد
من يبذل الآلاف للزوار والـ ـمداح والقصاد والرواد

وكانت زوجة المعتمد قد ماتت قبله، فلما مات دفن معها في قبر واحد، الأمر الذي يوحي إلى الشاعر أن يوجه إليها في قبرها هذا القول الأسيف الحزين:

أم الملوك أما علمت بزائر لك ذي وفاء مخلص ووداد
أبكى العلا والمجد فقد كما الذي لبست له الدنيا ثياب حداد
لهفي على تلك السجايا إنها زهر الربا موشية الإيراد

ج- رثاء الدولة كان دون رثاء شخص المعتمد:

- هذا ما كان من أمر رثاء بني عباد ولعلنا لاحظنا أن رثاء الدولة كان دون رثاء شخص المعتمد، وليس ذلك بغريب فلقد كان المعتمد ملكا شاعراً، وكان هو نفسه عصب الدولة

وعنوان مجدها، وكان سخيا كريما مع الشعراء وغير الشعراء، وكان صاحب شمائل وأمجاد، فلا غرو أن يكون حجر الزاوية في رثاء الشعر لدولته ولبني قومه، وربما كانت هناك حقيقة أخرى ضاعفت من حزن الناس بعامة والشعراء خاصة على بني عباد فقد رأى الناس أبناء الملك العظيم، وقد تحولوا إلى حرفيين يكتسبون قوت يومهم بعرق جبينهم، بل إن بعض بناته قد رآهن الناس يلبسن الأسمال البالية ويمشين حافيات الأقدام؛ لأنهن لا يملكن ثمن ما تحتذي أقدامهن.

ثانياً- رثاء دولة بني المظفر:

أ- محمد بن المنصور بن الأفطس:

١ - أنشأ محمد بن المنصور بن الأفطس التجيبي في بطليوس وماردة ويابرة وسنرين وإشبونة وما حولها دولة متميزة بالعلم والأدب، وكان ملكاً عليها – أي أنه كان ملكاً على البرتغال الحالية وجزء غير صغير من إسبانيا - وكان يلقب بالمظفر، وكان فارساً أديباً عالماً مؤرخاً وهو معاصر للمعتمد، وكانا على خلاف بعض الوقت، وإذا كان المعتمد كبير الملوك الشعراء فقد كان المظفر كبير الملوك الأدباء، فعلى الرغم من اهتمامه بشؤون الحرب والملك ألف كتاباً على نمط عيون الأخبار لابن قتيبة واسماه (التذكير المظفري) وجعله في خمسين جزءاً كما كتب تفسيراً للقرآن الكريم.

٢ - ولما مات المظفر سنة ٤٦٠ هـ، تولَّى الملك من بعده ابنه المنصور يحيى، ولم يكن ذا شأن كبير مثل أبيه، فلما توفِّي المنصور سنة ٤٧٣ تولى الملك بعد أخوه عمر الذي تلقب بالمتوكل، وكان أديباً شاعراً فارساً سياسياً محنكاً، وقد مارس الفروسية والشعر منذ فجر شبابه، ومن شعره العذب ما قاله حين بلغه أنه ذكر في مجلس أخيه المنصور- وكان ملكاً بعد أبيه - بسوء لقد كتب إلى أخيه آنذاك:

فما بالهم لا نعم الله بالهم ... ينيطون بي ذما وقد علموا فضلي
يسيئون بي القول جهلاً وضلة ... وأني لأرجو أن يسوءهم فعلي
لئن كان حقاً ما أذاعوا فلا مشت ... إلى غاية العلياء من بعدها رجلي
ولم ألق أضيافي بوجه طلاقة ... ولم أمنح العافين في زمن المحل

٣- إن الذي يدعو إلى الأسى أن المتوكل هذا وابنيه الفضل والعباس- وكانا فارسين عظيمين- قد قتلوا تحت سنابك خيل ابن تاشفين سنة ٤٨٩ هـ أي بعد عزل المعتمد بخمس سنوات وبعد وفاته بسنة واحدة، وقد حزن الناس عليهم لفضلهم، وفيهم وفي دولتهم.

ب - تعبير الشعراء عن سقوط الدولة:

١- أنشأ الوزير أبو محمد ابن عبدون قصيدته الرائية التي تعتبر من أشهر قصائد الشعر الأندلسي، وخاصة في رثاء الدول ومطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

إن الشاعر الوزير المثقف الحكيم ابن عبدون يسلك نهجاً جديداً في بناء قصيدته من حيث استيحاء تجارب الحياة واستقراء أحداث التاريخ والاستفادة من دروسه وأخذ الحكمة من غيره، ولكن ابن عبدون لا ينسى صيغ التفجع يتبع الواحدة منها الأخرى وأنات التوجع يوردها متتالية متوالية متهماً الدهر بالختل والليالي بالخديعة، والدنيا بالغرور والناس بالشرور:

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسمر مثل البيض والسمر
الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسمر مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بـ (دارا) وفلت غرب قاتله ... وكان غضباً على الأملاك ذا أثر

واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحقت أختها طسماً وعاد على عاد وجرهم منها ناقص المرر

ويمضي ابن عبدون في مرثيته النفسية الحكيمة آخذاً العبر من التاريخ الذي يستعرض أحداثه الجسام التي أودت بدول كان نجمها ملتمعاً في ذرى المجد، ويضرب المثل بالشهداء والقتلى من الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المطهرين:

يذكر استشهاد جعفر وحمزة عمي الرسول عليه الصلاة والسلام، ومقتل الراشدين عمر وعثمان وعلي، ومصرع الزبير واستشهاد الإمام الحسين.

إن الشاعر يسوق خمسة وثلاثين بيتاً مصدرها أحداث التاريخ ومادتها الحكمة وهدفها العبرة لكي ينتهي من ذلك كله إلى غدر الدنيا ببني المظفر، وهو إذ يصل إلى هذه المرحلة من مرثيته يعتمد إلى طرح القضية الأبدية التي تتمثل في أن الحياة الدنيا مراحل والإنسان فيها ومنها على سفر، ثم لا يكاد يصمد الشاعر قليلاً أمام هذا المعنى الجليل؛ لأنه يسارع إلى إبداء اللوعة والارتماء في خضم الحسرة على بني المظفر دهاة الحكم والسياسة، وقمة الفصاحة والسماحة، وسادة الفرسان ورؤوس الحرب والفتح والطعان.

بني المظفر والأيام ما برحت مراحلاً والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت بمثله ليلة في غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو من للأسنة يهديها إلى الثغر
من لليراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع آزفة أو قمع حادثة تعيا على القدر

ويبكي ابن عبدون الدولة المظفرية ممثلة في الملك بالمتوكل الأديب الفارس الشاعر، وفي ولديه الفضل والعباس وكانوا قد استشهدوا دفاعاً عن ملكهم أمام جحافل المرابطين، ويشيد بالمعاني الجليلة التي كانت كامنة فيهم والقيم العليا التي كانوا يستمسكون بها من مهابة ووفاء، وجلال وإباء، ويفتقد الشاعر مواقف الاستقرار في الحكم، فقد كانوا موازين للاستقرار وصمامات للأمان، فذهب الاستقرار وغاب الأمان.

يقول الشاعر في هذا القسم من مرثيته:

ويح السماح وويح البأس لو سلما وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية تعزى إليهم سماحا لا إلى المطر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا عني مضى الدهر لم يربع ولم يحر
أين الجلال الذي غضت مهابته قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذي أرسوا قواعده على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا عنها استطارت بمن فيها ولم تقر

٢- **وكتب أبو البقاء الرندي** أبو الطيب صالح بن شريف أشهر قصائد الرثاء في الأندلس: وهي قصيدة قيلت في رثاء الأندلس الضائعة – نونية – مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

كتبت القصيدة إبان محنة سقوط المدن والثغور بالجملة سنة ٦٥٥ هـ، حين نزل ابن الأحمر لنصارى الأندلس عن عدد كبير من القواعد الأندلسية هذا ولقد توفِّي ابن الرندي سنة ٦٨٤هـ، أي قبل سقوط الأندلس نهائياً، وخروج المسلمين منها بحوالي قرنين من الزمان.

وقصيدة ابن الرندي على جودتها لا تخرج عن كونها تقليداً ومزيجاً من قصيدة ابن عبدون الرائية في رثاء بني المظفر سنة ٤٨٩ هـ، وقصيدة ابن الأبار السينية في البكاء على بلنسية سنة ٦٣٥هـ أي قبل أن ينظم ابن الرندي قصيدته بعشرين عاماً فقط، ولا شك أنه قرأ القصيدتين، بل حفظهما، هذا وتمتاز قصيدة ابن الرندي بأنها مخططة ممنهجة، فقد جعل قسماً منها وهو:

أ- الأول:

في شكوى الدهر وغدره، وضرب المثل بالدول التي سقطت والملوك الذين قتلوا قبل ذلك:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وهـــذه الـــدار لا تبقـــي عـــلى أحـــد ... ولا يـــدوم عـــلى حـــال لهـــا شـــان
يمـــزق الـــدهر حـــتماً كـــل ســـابغة ... إذا نبـــت مـــشرفيات وخرصـــان
أيـــن الملـــوك ذوو التيجـــان مـــن يمـــن ... وأيـــن مـــنهم أكاليـــل وتيجـــان
وأيـــن مـــا شـــاده شـــداد في إرم ... وأيـــن مـــا ساســـه في الفـــرس ساســـان
و أيـــن مـــا حـــازه قـــارون مـــن ذهـــب ... وأيـــن عـــاد وشـــداد وقحطـــان
أتـــى عـــلى الكـــل أمـــر لا مـــرد لـــه ... حتـــى قـــضوا فكـــأن القـــوم مـــا كـــانوا
دار الزمـــان عـــلى ((دارا)) وقاتلـــه ... وأم كـــسرى فـــما آواه إيـــوان
كـــأنما الـــصعب لم يـــسهل لـــه ســـبب ... يومـــاً ولا ملـــك الـــدنيا ســـليمان
فجـــائع الـــدهر أنـــواع منوعـــة ... وللزمـــان مـــسرات وأحـــزان
دهـــى الجزيـــرة أمـــر لا عـــزاء لـــه ... هـــوى لـــه أحـــد وانهـــد ثهـــلان

ب- الثاني:

تحسر على المدن الجميلة العظيمة العزيزة التي سقطت، وكانت تتلو الواحدة منها الأخرى، وكأنها في سباق إلى الهاوية، يذكر كل مدينة بأجل صفاتها وأشهر معالمها، يبكيها جميعها ويرثيها رثاء:

فاســـأل بلنـــسية مـــا شـــأن مرســـية ... وأيـــن شـــاطبة أم أيـــن جيـــان
وأيـــن قرطبـــة دار العلـــوم فكـــم ... مـــن عـــالم قـــد ســـما فيهـــا لـــه شـــان
وأيـــن حمـــص ومـــا تحويـــه مـــن نـــزه ... ونهرهـــا العـــذب فيـــاض ومـــلآن
قواعـــد كـــن أركـــان الـــبلاد فـــما ... عـــسى البقـــاء إذا لم تبـــق أركـــان

ج- الثالث:

مرحلة العاطفة الدينية وإظهارها وتجسيمها حتى تبدو المصيبة صارخة تغبر الوجوه وتعكر النفوس وتصم الآذان، فقد صارت المساجد كنائس واستبدلت النواقيس والصلبان بالقبلة، وبكت المحاريب وشكت المنابر:

تبكـي الحنيفيـة البيـضاء مـن أسـف ... كـما بكـى لفـراق الإلـف هـيمان
عـلى ديـار مـن الإسـلام خاليـة ... قـد أقفـرت ولهـا بـالكفر عمـران
حيـث المساجد قـد صـارت كنـائس مـا ... فـيهن إلا نـواقيس وصـلبان
حتـى المحاريـب تبكـي وهـي جامـدة ... حتـى المنـابر ترثـي وهـي عيـدان
يـا غـافلاً ولـه في الـدهر موعظـة ... إن كنـت في سـنة فالـدهر يقظـان
وماشـياً مرحـاً يلهيـه موطنـه ... أبعـد حمـص تغـر المـرء أوطـان
تلـك المـصيبة أنـست مـا تقـدمها ... ومـا لهـا مـع طويـل الـدهر نـسيان

د- الرابع:

مرحلة استنفار المسلمين الذين يقيمون في شمال إفريقيا، يسخر من تقاعسهم، بل إنه يذهب إلى مدى أبعد وهو تقريعهم وتوبيخهم باسم الأخوة الإسلامية والرابطة الدينية فيقول:

يـا راكبـين عتـاق الخيـل ضـامرة ... كأنهـا في مجـال الـسبق عقبـان
وحـاملين سـيوف الهنـد مرهفـة ... كأنهـا في ظـلام النقـع نـيران
وراتعـين وراء البحـر في دعـة ... لهـم بأوطـانهم عـز وسـلطان
أعنـدكم نبـأ مـن أهـل أنـدلس ... فقـد سرى بحـديث القـوم ركبـان
كـم يـستغيث بنـا المستـضعفون وهـم ... قـتلى وأسرى فـما يهتـز إنـسان
مـا ذا التقـاطع في الإسـلام بينـكم ... وأنـتم يـا عبـاد الله إخـوان

هـ- الخامس:

يخاطب إنسانية المسلم بعد أن أثار نخوته الدينية، ويصف حال القوم وما قد انحدروا إليه من ذل بعد عز، وعبودية بعد سيادة، وضياع بعد منعة:

ألا نفـوس أبيـات لهـا همـم ... أمـا عـلى الخـير أنـصار وأعـوان
يـا مـن لذلـة قـوم بعـد عـزهم ... أحـال حـالهم كفـر وطغيـان

بـــالأمس كـــانوا ملوكـــاً في منـــازلهم واليـــوم هـــم في بـــلاد الكفـــر عبـــدان
فلـــو تـــراهم حيـــارى لا دليـــل لهـــم علـــيهم مـــن ثيـــاب الـــذل ألـــوان
ولـــو رأيـــت بكـــاهم عنـــد بـــيعهم لهالـــك الأمـــر واســـتهوتك أحـــزان
يـــا رب أم وطفـــل حيـــل بيـــنهما كـــما تفـــرق أرواح وأبـــدان
وطفلـة مثـل حـسن الـشمس إذ طلعـت كـــأنما هـــي يـــاقوت ومرجـــان
يقودهـــا العلـــج للمكـــروه مكرهـــة والعـــين باكيـــة والقلـــب حـــيران
لمثـل هـذا يـذوب القلـب مـن كمـد إن كـــان في القلـــب إســـلام وإيـــمان

خاتمة سيئة:

وبعد ذلك كله فقد ضاعت الأندلس جنة العرب ومشعل ثقافة المسلمين، الأنـدلس التـي ألهمت فتنة جمالها معظم الشعراء، إنها الأندلس الجنة التي وصفها ابن خفاجة البلنسي في هـذه الكلمات:

إنّ للجَنّـــــــةِ في الأنـــــــدَلسِ مجـــتلى حـــسنٍ وريّـــا نفـــسِ
فـــسنا صـــبحتها مـــن شـــيبِ ودُجـــى ظلمتهـــا مـــن لعـــسِ
فـــإذا مـــا هبّـــتِ الـــريحُ صـــبا صـــحتُ واشـــوقي إلى الأنـــدلسِ

الباب الثامن

شعر الطبيعة الأندلسي

مقدمة:

كان الشعر دائماً صدى للبيئة اجتماعية كانت أو طبيعية فان الشعر الأندلسي في هذا النطاق يعتبر صوره أمينه دقيقة أنيقة لبيئة الأندلس، وبرغم أن شعراء الطبيعة الأندلسيين بدؤوا تلامذة لأساتذتهم المشارقة في أول أمرهم، فإن ذلك لم يمنعهم من أن يجوّدوا في فنهم ويحسّنوا في أعمالهم بحيث يمكن أن نقرر أنهم أتوا بشيء جديد في موضوعات شعر الطبيعة، ومن الطريف في الأمر أن الأندلسيين لتعلقهم بشعر الطبيعة إلى حد الشطط والهوس جعلوا يطعِّمون المراثي بشعر الطبيعة فبينما تقرأ مرثية لفقيد، وتتوقع أن تسمع أنات محزون وغصص مكلوم، إذ بك تسمع أبياتاً في وصف الرياض والورد والأزاهير.

أولاً: وصف الطبيعة:

تفوق الأندلسيون في ميدان وصف الطبيعة على شعراء المشرق، وأتوا بالروائع الخالدة؛ لما وهبهم الله من طبيعة ساحرة خلابة، فقد كانت الأندلس من أغنى بقاع الدنيا منظراً وأوفرها جمالاً، ولذا شُغِف الأندلسيون بها، فأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها، ويستمتعون بمفاتنها، فوصفوا الرياض والبساتين، والأشجار والثمار، والأزهار والطيور، ووصفوا السحاب والرعد، والبرق والطيف، والأنهار والبحار، وقد وصفها ابن خفاجة بقوله:

يا أهل أندلس لله دركم ... ماء وظل وأشجار وأنهار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ... ولو تخيرت هذا كنت أختار

لا تخشوا بعد هذا أن تدخلوا سقرا ... فليس تدخل بعد الجنة النار

ثانياً: عوامل ازدهار شعر الطبيعة في الشعر الأندلسي:

* ازدهار الحضارة العربية في الأندلس ازدهاراً كبيراً، وهذا الازدهار شمل جميع جوانب الحياة الأندلسية.

* جمال الطبيعة الأندلسية التي افتتن بها شعراء الأندلس، وتعلقوا بها وفصَّلوا في وصفها والتغني بمفاتنها.

* ازدهار مجالس الأنس والبهجة واللهو حيث كانت هذه المجالس تُعقدُ في أحضان الطبيعة.

ثالثاً: أهم شعراء الطبيعة الأندلسية:

ابن خفاجة، وابن زيدون، ابن رشيق، ابن شهيد، وابن الزقاق، والرصافي الرفاء، وابن زمرك، ولم يكن هؤلاء الشعراء وحدهم الذين فتنوا بالطبيعة، ولكننا نجد أكثر شعراء الأندلس يتجهون إلى الطبيعة ويتغنون بها، ووصل بهم الأمر إلى إضفاء الحياة عليها، وفي ذلك يقول الدكتور فوزي عيسى مبيناً أثر الطبيعة في شعراء الأندلس: "فتن شعراء الأندلس بطبيعة بلادهم، فتوافروا على وصفها، وأكثروا من التغني بمناظرها الجميلة، وعبروا عن كلفهم بها في لوحات شعرية بديعة، وتفننوا في هذا المجال تفنناً واسعاً حتى صار وصفهم للطبيعة من أهم الموضوعات التي طرقوها، وأحرزوا قصب السبق فيها على المشارقة".

رابعاً: مظاهر وصف الطبيعة في الأندلس:

لم يترك الشاعر الأندلسي مظهراً من مظاهر الطبيعة أحسه بحواسه وتفاعل معه بمشاعره إلا صوره وأبدع التصوير ووصفه فأحسن الوصف فوصفوا:

١) الطبيعة الحية.

٢) الطبيعة الصامتة (القصور - الحدائق).

٣) وصف الطبيعة كمقدمة لغرض آخر.

أ- وصف الطبيعة الحية:

١- يوسف بن هارون يصف حمامة:

أذاتَ الطَّوقِ في التَّغريدِ أشهى ... إلى أُذُني من الوَتر الفصيحِ

إذا هتفتْ علَى غصنٍ رفيعٍ ... تنوْحِ أوْ علَى غصنٍ مريحِ

تضمُّ عليه منقاراً ونحرا ... كما خرَّ الفجيعُ علَى الضَّريحِ

٢- وقال محمد بن الحسين:

قُمْريَّةٌ دعتِ الهَوَى فكأنَّما ... نطقَتْ وليس لها لسانٌ ناطقُ

غنَّـــتْ فحبيـــتِ الأراكَ كـــأنَّما فـــوق الغُـــصونِ حبابـــةٌ ومخـــارقُ

ب- وصف الطبيعة الصامتة:

١- وصف المباني والقصور الجميلة

مثل الزهراء والزاهرة وما يلحق بها من بساتين ومن تماثيل على هيئة الأسود تقذف الماء من أفواهها إلى غير ذلك من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائفها.

ومن ذلك قول محمد بن شخيص يصف مباني الزهراء:

هـذي مبـاني أمـير المـؤمنين غـدتْ يُـزري بهـا آخـر الـدُّنيا عـلَى الأُولِ
كذا الدَّراري وجدْنا الـشَّمسَ أعظمَهـا قـدراً وإنْ قـصُرتْ في العلْـو عـن زُحـلِ
لقـد جـلا مـصنعُ الزَّهـراءِ عـن أثـرٍ موَّحـدِ القـدر عـن مثـلٍ وعـنْ مثـلِ
فاتـت محـاسنها مجهـود واصفهـا فـالقول كالـسكت والإيجـاز كالخطـل
بـل فـضلها في مبـاني الأرض أجمعهـا كفـضل دولـة بانيهـا عـلى الـدول
كـادت قـسيَ الحنايـا أن تـضارعهـا أهلـة الـسعد لـولا وصـمة الأفـل
تألقـت فغـدا نقـصانها كـملا وربمـا تنـقص الأشيـاء بالكـمل
كـم عاشـقين مـن الأطيـار مـا فـتئـا فيهـا يـرودان مـن روض إلى غلـل

وقال يوسف بن هارون واصفاً القصور:

فيهـا مجـالسُ مثـلُ الحـور قـد فُرشـتْ فيهـا الرِّيـاضُ ولم يحلـلْ بهـا مطَـرُ
إلى سـطوحِ تـرى إفريزَهـا شَرَقـا مثـلَ المرائـي يُـرى في مائهـا الـصُّور
كـأنَّما خَفـرتْ مـنْ طـول مـا لُحظـتْ فقـد تعـدَّى إلـى أبهائهـا الـخفـر
وقبـةٌ مـا لهـا فـي حـسنها ثمـنٌ لـو أنَّـه بيـعَ فيهـا العـزّ والـعمـرُ
كـأنَّما فُرشـتْ بالـوردِ متّـصلا في الفـرْش فاتَّخـذتْ منـه لهـا أُزرُ
كـأنَّما ذُعـرتْ مـن خـوفِ سـقطتها في بحرهـا فبـدا في لونهـا الـذُّعر

بحـــرٌ تفجّـــرَ مـــن لَيْثـــينِ مُلتـــطِمٌ يـــا مَـــن رَأَى البحـــرَ مِـــن لَيْثـــين ينفجـــرُ

٢- وصف الرياض بما فيها من خضرة وحمرة وصفرة وشذا وعبير، وهذا ابن خفاجة استولت على لبه الحدائق الفيح، والمروج الخضر، حيث كان يمرح ويلهو مع أصدقائه في جو بهيج، وشاركه الغصن هذا الإحساس والذي توج هذا الجمال ظهور الهلال بعد الغروب كأنه طوق من ذهب يزين برد الغمامة، حين ذاك وصف هذه اللوحة بقوله:

واهتـز عطـف الغـصن مـن طـرب بنـا وافـتر عـن ثغـر الهـلال المغـرب
فـكـأنـه والـحـسن مقـتـرن بـه طـوق عـلى بـرد الغمامـة مـذهب

أ- قال مازن بن عمرو واصفاً الأزهار:

وروضـةُ تـدمارٍ يروقُـكَ حـسنُها عليهـا ريـاطُ الـوَشْي والحلـلُ الـصُّفْرُ
تـرى زَهـراتِ النَّـوْرِ فيهـا كأنَّهـا عيـونٌ أجالَتْهـا بهـا الخـرَّدُ الخفـرُ

ب- قال المصحّفي في وصف سوسنة:

يـا ربّ سوسـنة قـد بـتُّ ألثُمُهـا ومـا لهـا غـيرُ طعـم المسك مـن ريـق
مـصفرة الوسْـطِ مبـيضّ جوانبهـا كأنهـا عـاشقٌ في حِجْـرِ معـشُوق

ج- قال ابن خفاجة واصفاً نهراً في الأندلس:

لله نهـرٌ سـال في بطـحاءِ أشـهى ورداً مـن لمـى الحـسناءِ
مُتعطـفٌ مثـلَ الـسوارِ كأنـه والزهـرُ يَكنُفُـه مَجَـرُّ سمـاءِ
قـد رق حتـى ظُـن قوسـاً مفرغـا مـن فـضةٍ فـي بُـردةٍ خـضراءِ
وغـدت تُحـف بـه الغـصونُ كأنهـا هُـدب تحـف بمقلـةٍ زرقـاءِ
ولطالمـا عاطيـتُ فيـه مدامـةً صـفراء تَخـضبُ أيـديَ الندمـاءِ
والـريحُ تعبـثُ بالغـصونِ وقـد جـرى ذهـبُ الأصـيلِ عـلى لُجـينِ المـاءِ

د- وهذا ابن هاني الأندلسي يصف المطر قائلاً:

ألؤلـؤٌ دمـعُ هـذا الغيـثِ أم نقـطُ مـا كـانَ أحـسنهُ لـو كـان يُلتقـطُ

أهـدى الربيـعُ إلينـا روضـةً أنفـا كـما تـنفسَ عـن كـافورهِ السفـطُ
غمائـمٌ في نـواحي الجـو عالقـةٌ حفـلٌ تحـدر منهـا وابـلٌ سبـطُ
بـين السحابِ وبـين الـريحِ ملحمـةٌ معـامعٌ وظبـي في الجـو تخـترطُ
كأنـه سـاخطٌ يـرضي عـلى عجـلٍ فـما يـدومُ رضـاً منـه ولا سـخطُ

هـ- وكذلك أيضاً قول ابن هذيل يصف تعانق قضبان الرياض عند هبوب الرياح:

هبـت لنـا ريـح الـصبا فتعانقـت فـذكرت جيـدك في العنـاق وجيـدي
وإذا تألـف في أعـاليـها النـدى مـالـت بـأعنـاقٍ ولـطـفِ قـدود
وإذا التقـت بـالريح لم تبـصر بهـا إلا خـدوداً تـلتـقـي بـخدود
فكـأن عـذرة بيتهـا تحكـي لـنا صـفة الخـضوع وحالـة المعمـود
تيـجانهـا ظـل وفـي أعنـاقهـا منـه نظـام قـلائـد وعـقـود
فـترشنـي منـه الـصبا فكـأنه مـن مـاء ورد ليـس للتـصعيـد

٣- وصف الطبيعة كمقدمة لغرض آخر:

لعل أشهر قصيدة في هذا المجال هي رائية أبي بكر بن عمار في مدح المعتضد بن عباد إلا أنها لم تنل شهرتها الكبيرة؛ لأنها مجرد قصيدة مدح، بل لأنها ضرب متجدد من ضروب المديح الذي استهل بشيء طريف، وهذا الطريف هو وصف الطبيعة بصورته البهيجة الذي حلّ محل الأطلال والدمن بصورتها الكئيبة.

يقول ابن عمار:

أدر الزجاجـة فالنـسيم قـد انـبرى والـنجم قـد صرف العِنَـانَ عـن الـسُّرى
والـصبح قـد أهـدى لنـا كـافوره لـمـا اسـتـرد الليـل منـا العـنبرا

هكذا افتتح قصيدته بوصف الطبيعة حتى وصل إلى مدح ابن عباد حيث قال:

عبـادٌ المخـضرُّ نائـلُ كـفّـهِ والجـو قـد لـبس الـرداء الأخـضرا
أنـدى عـلى الأكبـاد مـن قطـر النـدى وألـذ في الأجفـان مـن سِـنَةِ الكـرى

أثمـرت رمحـك مـن رؤوس ملـوكهم لمـا رأيـت الغـصن يعـشق مثمـرا

ولقد اقتحمت الطبيعة في الأندلس ميداناً من ميادين الشعر يبدو للمرء ألا رباط بينهما، ونعني به ميدان القول في الشكوى والتحسر، فالطبيعة بسمة ومتعة وأمل وإشراق، والشكوى حسرة ويأس وكآبة وحزن، ولكن الشاعر الأندلسي الموهوب استطاع أن يجمع بين الضدين، وأن يؤلف بين النقيضين، كما نرى عند ابن زيدون في رائيته الرقيقة:

عـذري إن عـذلت في خلـع عـذري غـصن أثمـرت ذراه بـدر

والذي يعنينا من هذه القصيدة قول الشاعر:

ليـت شـعري والـنفس تعلـم أن ليـ ـس بمجـد عـلى الفتـى ليـت شـعري

هـل لخـالي زماننـا مـن رجـوع أم لمـاضي زماننـا مـن مكـر

أيـن أيامنـا وأيـن ليـال كـرياض لبـسن أفـواف زهـر

٤- مزج الطبيعة بفنون الشعر المختلفة:

أ- مزج الغزل بالطبيعة: أمر مألوف وخير من فعل ذلك من الشعراء بن زيدون وعبر عن مشاعره لولادة بقافية بعثها إليها وهو مختبئ في الزهراء:

إنـي ذكرتـك بالـزهـراء مـشتاقا والأفـق طلـق ومـرأى الأرض قـد راقـا

وللنـسيم اعـتلال في أصائلـه كـأنه رق لـي فـاعـتـل إشـفـاقـا

والـروض عـن مائـه الفـضي مبتـسم كمـا شـقـقـت عـن اللبـات أطواقـا

نلهـو بـما يـستميـل العـين مـن زهـر جـال النـدى فيـه حتـى مـال أعناقـا

كـأن أعينـه إذ عـاينـت أرقـي بكـت لمـا بي فجـال الـدمع رقراقـا

ورد تـألق فـي ضاحـي منابتـه فـازداد منـه الـضحى في العـين إشراقـا

سـرى ينـافحـه نيلـوفر عـبق وسنـان نبـه منـه الـصبح أحـداقا

كـل يـهيـج لنـا ذكـرى تـشوقـنا إليـك لم يعـد عنهـا الـصدر إذ ضـاقا

لا سكـن الله قـلبـاً عـن ذكـركم فلـم يـطـر بجنـاح الـشوق خفاقـا

لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى وافاكم بفتى أضناه ما لاقى

ومن ذلك أيضاً قول ابن شهيد:

خليليَّ ما انفكّ الأسى منذ بينهم حبيبيَ حتى حلّ بالقلب فاختطا

أريد دُنُواً من خليلي وقد نأى وأهوى اقتراباً من مزار وقد شطا

سعى في قياد الريح يسمح للصبا فألقت على غير التلاع به مرطا

وعنت له ريح تساقط قطره كما نثرت حسناء من جيدها سمطا

ب- مزج المدح بالطبيعة:

فظاهرة مزج المدح بالطبيعة ظاهرة مشرقية قبل أن تكون أندلسية، (فقد كان أول من حاول ذلك ولكن في حذر شديد مسلم بن الوليد، ثم بدا ذلك واضحا كل الوضوح في شعر أبي تمام والبحتري، فإذا كانت هذه المحاولات عند المشارقة تجري في حذر شديد عند بعضهم وقصد وتروّ عند بعضهم الآخر، فإنها عند الأندلسيين صريحة واضحة عالية الصوت شديدة الجلبة عذبة الجرس) ومن أمثلة هذا اللون من الوصف قول:

١- أبي المطرّف بن أبي الحباب

وقد كان قد دخل على المنصور في المنية العامرية:

لا يوم كاليوم في أيامنا الأولِ بالعامرية ذات الماء والظِّلل

هواؤها في جميع الدهر معتدل طيباً وإن حل فصل غير معتدل

٢- ومنه أيضاً قول أبي بكر بن عمار في مدح المعتضد بن عباد حيث قال:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العِنَانَ عن السُّرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

هكذا افتتح قصيدته بوصف الطبيعة حتى وصل إلى مدح ابن عباد حيث قال:

عبادٌ المخضرُّ نائلُ كفّهِ والجو قد لبس الرداء الأخضرا

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ في الأجفان من سِنَةِ الكرى

أثمـــرت رمحـــك مـــن رؤوس ملـــوكهم لمـــا رأيـــت الغـــصن يعـــشق مثمـــرا

ج- مزج الرثاء بالطبيعة:

وتعتبر هذه قفزة جريئة تحتاج لعبقرية وإبداع كي تؤدى بأكمل وجه، وذلك لأنهم مزجـوا الرثاء بوصف الطبيعة، حيث ألبسوا الطبيعة حلل همومهم، وآلامهم الدفينة، وعلى رأس مـن قاموا بهذه التجربة "ابن خفاجة" حين رثى الـوزير أبـا عبـد الله بـن ربيعـه حيـث يقـول في مطلعها:

في كـــل نـــاد منـــك روض ثنـــاء وبكـــل خـــد فيـــك جـــدول مـــاءِ
ولكـــل شـــخص هـــزة الغـــصن النـــدي غِـــبَّ البكـــاءِ وَرِنَّـــه المُكَّـــاءِ
يـــا مطلـــع الأنـــوار إنّ بمقلتـــي أســـفاً عليـــك كمنـــشأِ الأنـــواء
وكفـــى أســـىً أنْ لا ســـفيراً بيننـــا يمـــشي وأن لا موعـــداً للقـــاء
فـــإذا مـــررت بمعـــهـــد لـــشبيبة أو رســـم دارٍ للـــصديقِ خـــلاءِ
جالـــت بطرفـــي للـــصبابـة عبـــرةٌ كـــالغيم رق فجـــال دون ســـماءِ
ورفعـــتُ كفَـــي بـــين طـــرفٍ خاشـــعٍ تنـــدى مـآقيـــه وبيـــن دعـــاء
وبـــسطت في الغـــبراء خـــدي ذلـــة أســـتنزل الرحمـــى مـــن الخـــضراءِ
لا هـــزني أمـــل وقـــد حـــل الـــردى بـــأبي محمـــد المحـــل النـــائي

خامساً- خصائص شعر الطبيعة:

أ- أفرد شعراء الطبيعة في الأندلس قصائد مستقلة ومقطوعات شعرية خاصة في هذا الغرض بحيث تستطيع هذه القصائد استيعاب طاقة الشاعر التصويرية وخياله التـصوري، غـير الالتـزام الذي تسير عليه القصيدة العربية، فلم يترك الشاعر زاوية من زوايا الطبيعة إلا وطرقها.

ب- يعتبر شعر الطبيعة في الأندلس صورة دقيقة لبيئـة الأنـدلس ومـرآة صـادقة لطبيعتهـا وسحرها وجمالها، فقد وصفوا طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية مُمَثِّلة في الحقـول والريـاض والأنهار والجبال وفي القصور والبرك والأحواض.

ج- تُعد قصائد الطبيعة في الأندلس لوحات بارعة الرسم أنيقة الألوان محكمة الظلال تشد انتباه القارئ وتثير اهتمامه.

د- أصبح شعر الطبيعة نظراً للاهتمام به يحل محل أبيات النسيب في قصائد المديح، بل إن قصيدة الرثاء لا تخلو من جانب من وصف الطبيعة.

هـ- أصبحت الطبيعة بالنسبة لشعراء الأندلس ملاذاً وملجأ لهم يبثونها همومهم وأحزانهم وأفراحهم وأتراحهم، إلا أن جانب الفرح والطرب غلب على وصف الطبيعة فتفرح كما يفرحون وتحزن كما يحزنون.

و- المرأة في الأندلس صورة من محاسن الطبيعة، والطبيعة ترى في المرأة ظلها وجمالها فقد وصفوا المرأة بالجنة،

الباب التاسع

المرأة في الشعر الأندلسي

أولاً- تمهيد:

الباحث في المجتمع الأندلسي يكتشف:

١- انتشار الدين والتقوى والورع في الغالب.

٢- الجهر بالمتع الحسية وهذا كثير.

٣- الجمود والتزمت في المناطق المتاخمة للأندلسيين.

٤- الشذوذ والانحلال في العناصر المستهترة.

٥- تعدد العناصر والأجناس والطبقات التي كان يتكون منها.

٦- الفتن والحروب التي لا تهدأ إلا لفترات محدودة.

٧- والتقلبات السياسية المذهلة.

٨- مستحدثات الحضارة الأندلسية الباذخة في الأوساط المترفة، من طرب ولهو ومجالس خمر، ورقص، وجواري...إلخ.

ومن هنا، كانت غزارة شعر الغزل والخمريات، والدعوة إلى التمتع بالحياة... وتقاسم الولاء للقيم الدينية وتعاليم الإسلام والاستسلام للذائذ الحياة، حيث مغريات الدنيا من جواري وغلمان ومجالس طرب وخمر إضافة إلى جمال الطبيعة الذي يدفع إلى الإقبال على الحياة، وقد انعكس ذلك في أشعار الأندلسيين على مستوى تباين الرؤية الفنية وتعدد المواقف.

ثانياً- المرأة بين المعنى والجسد:

أ- المرأة المحبوبة:

تختلف مكانة المرأة عند الشعراء بحسب وضع المرأة ونفسية الشعراء، فالمرأة الجارية، وساقية الخمر، لا يرى فيها الشاعر سوى المفاتن الجسدية، والمرأة المحبوبة تأتي ممتزجة بين الجمال الجسدي واللواعج النفسية التي تخلقها في قلب الشاعر، وهي صور تركز على مواضع الجمال الجزئي في المرأة:

١- لون العيون، وشكلها.

٢- حمرة الخدود.

٣- لون البشرة.

٤- دقة الخصر.

٥- ضخامة الأرداف.

من ذلك قول أحد القضاة يصف زهرة النيلوفر:

كأنما النيلوفر المستحسن الفض البهج
مقلة خود ملئت سمراً وغنجاً ودعج
أو خاتماً من فضة وفصه من السيج

أو مثل وصف المرأة كوسيلة للهو والمتعة:

فالورد وجنة خود بيضاء غراء بضه
كما البنفسج خد أبقى به الهشم عضه

وكان ابن زيدون أكثر الشعراء سمواً في غزله في ولادة:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وكان أكثر الشعراء مثالية في حبه ابن حزم القرطبي، ويكفي أن نستشهد بهذه الأبيات لتتضح المكانة المحترمة التي تحتلها المرأة المحبوبة في قلبه:

وددت بأن القلب شت بمدية وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى ملتقى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

مظاهر النظرة الجسدية للمرأة:

١- اتخاذ المرأة كهدية:

خاصة الجواري اللواتي كن يقدمن أحياناً هدايا كبقية الهدايا المادية، قال ابن خفاجة:

زفت أبا بكر إليك محاسنا جاءتك تحمل عذرة الأبكار

٢- النظر إليها جسدياً:

بوصف جمالها الجسدي، والنظر إليه عضواً، من قمة الرأس إلى أخمص القدم، كقول أبي القاسم المنيشي:

وعجـــزاء لفـــاء وفـــق الهـــوى تحـــيرت فيهـــا وفي أمرهـــا

غلاميـــة لـــيس في جـــسمها مكـــان رقيـــق ســـوى خـــصرها

والمرأة عند ابن حمديس، غانية تسلب الألباب، قوامها كالغصن، أردافها كالنقا، وثغرها كالأقاح، وهي كالمهاة حين ترنو في نقابها، كالظبية في التفاتتها وجمال عنقها رضابها كالطل، كالروضة تعبق نشراً، كما في قصيدة له:

بـــأبي مـــن أقبلـــت في صـــورة لـــيس للتائـــب عنـــها مـــن متـــاب

كـــل حـــسن كامـــل في خلقهـــا ليتهـــا تنجـــو مـــن العيـــن بعـــاب

فـــالقوام الغـــصن والـــردف النقـــا والأقـــاح الثغـــر والطـــل الرضـــاب

طيبـــة في العقـــد إمـــا التفتـــت ومهـــاة حيـــن ترنـــو فـــي النقـــاب

وتصبح المرأة مرتبطة بتجربة الغربة التي عاناها ابن حمديس منذ أن خرج من وطنه صقلية:

رشـــأ أحـــن إلى هـــواه كأنـــه وطـــن ولـــدت بأرضـــه ونـــشيت

كما تصير المرأة رمزاً للجنة الموعودة التي ظل يحن إليها، ويمني نفسه دوما بلقائها:

ســنحت في الــسرب مــن حــور الجنــان ظبيـــة تبـــسم عـــن ســـمطي جمـــان

وقد قدم لنا وصفاً لفتاة تشبه إحدى حوريات الجنة، ذات أسنان بيضاء منتظمة ولامعة وعيون ساحرة النظرات، تغوي الناسك المتعبد، فلا يستطيع التوبة، فهي في الرابعة عشرة من العمر وهو في الواحدة والخمسين:

بنـــت ســـبع وثـــمان وجـــدت عمـــري ضربـــك ســـبعاً في ثـــمان

٣- تشخيص الطبيعة بالمرأة:

من خلال تجسيد صورة المرأة في الطبيعة، فالجارية التي تقترن بلحظة اللهو الآنية، هي أفضل من الحسناء وتتوب عنها في المجلس، لها عيوب كالنرجس وراحة كالسوسن وهي

قوراء، بيضاء المحاسن، إنها حسناء مثقلة بأنواع الحلي والدمالج والأسورة قدها كالغصن، نهودها كالرمان:

وقوراء بيضاء المحاسن طلقة لبست بها الليل البهيم نهارا

هززت لأغصان القدود معاطفا بها ولرمان النهود ثمارا

وتتحول القصيدة إلى تمنيات وحسرات تتمنى رجوع إلى الزمن إلى الوراء، فلا يدعوها يا: "ابنتي؟" ولا تدعوه: "يا عمي"؟

فيا ليتني كنت ابن عشر وأربع فلم أدعها بنتاً ولم تدعني عما

ب- المرأة الزوجة أو الأم:

وهي المرأة المثالية خاصة في الرثاء والمودة.

ج- المرأة رمز الأشواق:

تحولت صورة المرأة إلى رمز للأشواق العارمة حنين جارف نحو نساء رمزيات لا يعرفن الشاعر في الواقع، لكن يعرفن كرموز من خلال الوجدان كهند وسلمى وليلى، هذه الأسماء الثلاثة هي الأكثر حضوراً، وهي أسماء لها قداسة تجذرت في وجدان العربي المسلم، وغالباً ما يأتي ذكرهن مرتبطاً بأماكن في الجزيرة العربية خصوصاً بالحجاز، "كرامة" و"سلع" و"تهامة" و"نجد" وغيرها من الأماكن التي يحن إليها هؤلاء الشعراء حنيناً عارماً لما تمثله لوجدانهم من قداسة، ومعظم الشعراء توجهوا بأشواقهم العارمة، إلى امرأة مثالية في جمالها غالباً ما تسمى سلمى أو ليلى، تذهب بعقل الشاعر وترحل عنه بعيداً، وتتركه يعاني الوحدة والأشواق الملتهبة:

سل البان عنها أين باتت ركائبها ولم رفعت فوق المطي قبابها

ولم تركت منا قلوباً مشوقة بقلبها طوع الغرام التهابها

وكم يشكو الشاعر من لواعج الهوى الذي خلفته في قلبه تلك الظبية النافرة التي تشبه هلال الدجى، والتي أنسته أهله ووطنه، ثم يتحسر على تلك الفتاة / الجنة/ ويتمنى عودة اللقاء بينهما في آلم وحرقة:

فيا جنة ما زلت منذ فراقها بنار الأسى بعد اتصالي صاليا

الباب العاشر

رموز الشعر الأندلسي

شاعرات الأندلس

- أ -

المرأة الأندلسية والثقافة الأدبية

أ- بطء قافلة الشعر النسائي:

١ - تسير قافلة الشاعرات قليلة العدد بطيئة السير والسرى: فلا نكاد نقع في القرنين الثالث والرابع إلا على عدد قليل من الشاعرات، هنَّ قمر، وعائشة بنت أحمد القرطبية، وحفصة بنت حمدون الحجارية.

٢ - التزام جانب المحافظة: وإذا كانت الشاعرتان: حسانة التميمية، والجارية العجفاء قد التزمتا جانب المحافظة في قول المعاني وصياغتها.

٣- عند شاعرات مثل قمر، وعائشة بنت أحمد القرطبية، وحفصة بنت حمدون الحجارية، تراوح الشعر بين الجد والمحافظة وبين الانطلاق والتحرر.

٤ - ازدانت البيئة الأندلسية بعدد غير قليل من النساء الشاعرات اللائي أسهمن في إثراء الأدب الأندلسي، ففرضن وجودهن فرضاً على موكب الشعر في الأندلس.

ب- تفاعل المرأة بشكل أكثر:

١ - شاركت المرأة الشاعرة في كل فنون الشعر وأكثر أبوابه.

٢ - فكانت الشواعر تتغزل في الرجل تماماً، كما يتغزل الرجل فيها، وكانت تلح في إغرائه وتصف محاسنها، وتذهب إليه زائرة تطرق بابه وتنادمه.

٣- كما كانت الشواعر تمدح، وتفتخر، ولكن في ظل أنوثتها، وتهجو، ولا تتورع عن استعمال أساليب الرخيصة، فلم تتحرج من ذكر العورات، ولم تستح من تريد بعض الألفاظ غير النظيفة التي يتحرج المحتشمون من الرجال عن ذكرها.

٤ - وكانت الشواعر تساجل الرجل قصيدة بقصيدة وقافية بقافية، جادة حينا وهازلة أحياناً.

٥- عدد الشاعرات في الأندلس كان من الوفرة.

٦- والنضوج الشعري عند الشواعر واضح بحيث شكل ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي.

٧- وكان فنهن من ناحية القول والصوغ والجرس والإشراق والجرأة والرصانة والجزالة والإطراف بمكانة كبيرة.

٨- إن المرأة الشاعرة الأندلسية كلما كانت قريبة العهد بزمان الفتح كانت أقرب إلى عروبتها، وبالتالي إلى حشمتها والارتباط بأسباب التحرز في القول والتردد في الجرأة والابتعاد عن الإسفاف وتجنب الإفحاش.

٩- وكلما بعد العهد بالشاعرة عند عهد الفتح انغمست كانت أقرب إلى التحرر الذي هو في حقيقته تحلل أكثر منه تحرراً.

١٠- وأصبحنا نقرأ للمرأة في موضوعات الشعر وأساليبه من خلال جرأة القول والهجوم على معاني الفحش.

١١- وأول شاعرة ظهرت على الأرض الأندلسية لم تكن أندلسية المولد أو المنشأة، وإنما كانت واحدة من الجواري الوافدات من المشرق المدربات على الإنشاء الأدبي والعزف والغناء.

١٢- الحكام الأندلسيون من أمراء بني أمية كانوا يستوردون الجواري الأديبات المدربات على حفظ الشعر وإنشائه وإنشاده لحناً جميلاً معزوفاً على عود أو قيثارة من أمثال ((فضل)) و((علم)) و((قلم)) وغيرهن وكلهن قيان جميلات أديبات عازفات، وقد ازداد عددهن شيئاً فشيئاً حتى أنشئت لهن دار ملحقة بقصر الأمير عرفت بدار المدنيات.

١٣- ويطلع القرن الخامس الهجري على بلاد الأندلس، فإذا الأدب من شعر ونثر قد جرى على الألسنة إنشاداً من فيض القرائح ساعد على ذلك تعدد الملوك والعواصم، فقد كانت هذه الفترة فترة ملوك الطوائف وحرص كل ملك على أن يجمع حوله أكبر عدد من الأدباء والشعراء، فكانت الوفرة الهائلة من نوابغ الشعر الأندلسي، ومن الشاعرات الأندلسيات تمثلت في وفرة عددهن واختلاف بلادهن ونفاسة إنشائهن وتجديد فنونهن، فكان

في مدينة المرية من الشاعرات المجيدات الشاعرة الغسانية وزينب المرية وغاية المنى وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح التي لم تكتف بإنشاد القصيد، وإنما أسهمت في إنشاء الموشحات، وفي غرناطة تزدان ندواتها وضواحيها بنزهون القلاعية وحمدونة بنت زياد التي لقبت بخنساء الأندلس وأختها زينب وكانتا تترددان بين مدينة غرناطة ومقرهما الساحر في وادي آش الذي يكاد يتوسط المسافة بين المدينين الشهيرتين غرناطة والمرية.

١٤- وفي إشبيلية شاعرات كمريم بنت يعقوب الأنصاري وعلى الأميرة الجميلة بثينة بنت كبير ملوك الطوائف وكبير الملوك الشعراء في الأندلس المعتمد ابن عباد.

١٥- في مجريط (مدريد الحالية) أو إلى مدينة طليطلة التي كانت تفوق مجريط في وادي الحجارة تزين رحابه الشاعرة أم العلاء بنت يوسف الحجارية.

١٦- في قرطبة نجد فيها كبيرة شاعرات الأندلس الأميرة - ولادة بنت المستكفي ورفيقتها إلى حين - مهجة بنت التيان القرطبية كل هذه الكوكبة الناعمة من الشاعرات عاشت في قرن واحد هو القرن الخامس الهجري بعد قرنين مضيا كان وجود المرأة الشاعرة خلالهما نادراً في الأندلس.

الباب العاشر
رموز الشعر الأندلسي
- ب-
شاعرات الأندلس

أولاً: الجارية العجفاء:

إن أول شاعرة بأرض الأندلس كانت من الجواري الوافدات من المشرق، ولا نعرفها باسمها وإنما بصفتها التي بها عرفت وذاع صيتها وأصبحت تعرف بالجارية العجفاء. لقد كانت بالفعل عجفاء هزيلة ضعيفة نحيلة، ربما لأن سيدها كان رجلاً فقيراً اسمه مسلم بن يحيى مولى بني زهرة، وكان يسكن معها في بيت صغير حقير لا يكاد يضم من الأثاث سوى نمرقتين قد ذهب عنهما اللحمة وبقي السدى، حشيتا بالليف، وكرسيين قد تفككا من قدمهما.

لقد كانت الجارية العجفاء تتقن من قول الشعر والغناء ما قد تعودت على قوله القيان أي الشعر الوجداني الغنائي الذي يخاطب العاطفة ويهز المشاعر، ومثل هذا الشعر يكون عادة من الغزل المهتاج الذي ترفده الشكوى بمعاني آسرة ويوشيه الحرمان بأنغام حزينة، وهذا بطبيعته الحال يختلف اختلافاً واضحاً عن شعر الحرائر الذي إن التزم الموضوع فليس عليه بالضرورة أن يلتزم المعاني ويلح على خلق جو الحزن الوجداني والكآبة النفسية في نطاق معاني الحب المقرون بالحرمان والغزل الموغل في الشكوى الحزينة، كانت الجارية العجفاء الدميمة شكلاً الساحرة فناً تنشد وتغني:

برح الخفاء فأيها بك تكتم ... ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
مما تضمن من عزيز قلبه ... يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا ... تلقي المراسي طائعاً وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه ... ونكون إخواناً فماذا تنقم

ثم انتقلت العجفاء على عودها إلى آخر وشعر آخر:

يـــا طـــول لـــيلي أعـــالج الـــسقما أدخـــل كـــل الأحبـــة الحرمـــا

مـــا كنـــت أخـــشى فـــراقكم أبـــدا فـــاليوم أمـــسى فـــراقكم عزمـــا

ومن الطريف أن عبد الرحمن الداخل عندما سمع بأدبها وفنها بعث إلى صاحبها فاشتراها وحملت إليه، ومن المعروف أن عبد الرحمن بن معاوية ((الداخل)) توفِّي عام ١٧٢ هـ.

ثانياً: حسانة التميمية:

مولودة في الأندلس في إلبيرة وليست وافدة، فضلاً عن كونها من الحرائر وليست من القيان، هذا فضلاً عن أن ملكة الشعر عندها موروثة عن أبيها أبي الحسين الشاعر أحد من مدحوا الحكم الربضي.

عاشت في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث فقد مدحت الحكم بن هشام مسترفدة إياه بعد موت أبيها فوقع شعرها منه موقعاً حسناً، وكان الحكم رغم قسوته شاعراً يطرب للشعر الحسن، فوصلها وأجرى عليها راتباً، فلما مات – وكان ذلك سنة ٢٠٦هـ – أوقع عامل البيرة عليها بعض الحيف فشكته إلى وارث ملكه عبد الرحمن بن الحكم ((الأوسط)) وألقت بين يديه أبياتاً جمعت بين المديح والاستنجاد فرق لها وأجازها، وعزل الوالي الذي أوقع الغبن عليها، وظلت بعد ذلك تبعث إليه بالمدائح.

فإذا كانت حسانة قد مدحت كلاً من الحكم وعبد الرحمن، فمن اليسير أن نستنتج أنها عاشت في العقد الأخير من القرن الثاني ومطلع القرن الثالث.

فأما قصيدتها في مدح الحكم فعمودية الشعر مشرقية السمات، ولكنها متسمة بعمق الشكوى التي تمس شغاف القلب خاصة تلك التي تصدر عن امرأة كسيرة الجناح حديثة فقد العائل، وهي بعد ذلك قد غلفت شكواها بغلالة رقيقة من نسيج المديح في قولها:

إني إليـــك أبـــا العـــاصي موجعـــة أبـــا الحـــسين ســـقته الواكـــف الـــديم

قـــد كنـــت أرتـــع في نعـــماه عاكفـــة فـــاليوم آوى إلى نعـــماك يـــا حكـــم

أنـــت الإمـــام الـــذي انقـــاد الأنـــام لـــه وملكتـــه مقاليـــد النهـــى الأمـــم

لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفا آوي إليه ولا يعرو لي العدم

لا زلت بالعزة القعساء مرتديا حتى تذل إليك العرب والعجم

إن حسانة محسنة ولا شك في عرض شكايتها وفي غزو مقام العدالة من الحكم، فقد جعلت منه مأوى لها وعائلاً بعد أن فقدت الراعي، والعائل.

وحركت في نفسه نخوة المروانية وعزة الملك حين طرقت هذه المعاني التي كان لا شك يحفظ نصوصها حفظها إياها في قولها المماثل لقول سابقيها:

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له وملكته مقاليد النهى الأمم

ثم استطردت في ذكاء حين اتخذت منه أباً وكنفاً:

لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفا آوي إليه ولا يعرو لي العدم

ثم تمضي في دعاء لا يدعي به إلا للملوك بقولها:

لا زلت بالعزة القعساء مرتديا حتى تذل إليك العرب والعجم

القصيدة أموية في صوغها ونهجها وأسلوبها وهي أنثوية من حيث طريقة التغير التي تنبه القلب وتنفيذ إليه للأخذ بيد الضعيف، ويقع على حسانة من حيف قبل الوالي الذي ربما انتهز فرصة موت الحكم، فحجب عنها راتبها وضيق عليها حصاد جائزتها وبذكاء وفطنة باهرتين تتحرك حسانة نحو الأمير الجديد تشكو عامل بلدتها وتستنجد بمروءته وتخلق أسباباً تربطها به فقد كانت تحت رعاية أبيه وحمايته، فهل يكون موته سبباً لوقوع الظلم عليها:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تصلى بنار الهواجر

ليجبر صدعي إنه خير جابر ويمنعني من ذي الظلامة جابر

فإني وأيتامي بقبضة كفه كذي ريش أضحى في مخالب كاسر

جدير لمثلي أن يقال مروءة لوت أبي العاصي الذي كان ناصري

سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى علي زمان باطش بطش قادر

ثالثاً: قمر:

إن (قمراً) واحدة من الشاعرات العازفات المغنيات اللائي كن لا يزلن يجلبن من المشرق من المدينة والبصرة وبغداد، وكانت ((قمر)) جارية جلبت من بغداد لإبراهيم بن الحجاج الذي خرج على الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط واستقل بإشبيلية في الوقت نفسه الذي كان ابن حفصون خارجاً على الدولة الأموية محتمياً بحصونة محتلاً ضواحي قرطبة والبيرة ومناطق أخرى من الأندلس، وكان ابن حجاج يتصرف كما لو كان ملكاً يستقبل الشعراء يمدحونه فيجزل لهم العطاء، وقد توفِّي إبراهيم هذا عام ٢٨٨ هـ.

إن قمراً إذن شاعرة عاشت في إشبيلية في القرن الثالث وهي قينة جميلة الظرف والأدب والحفظ مع الرواية مع فهم بارع وفصاحة وبيان، وكان الشعر يجري على سجيتها مطواعاً رائقاً فيه نعومة وإيقاع إنها تمدح مولاها إبراهيم بن حجاج فتقول:

ما في المغارب من كريم يرتجى ... إلا حليف الجود إبراهيم

إني حللت عليه منزل نعمة ... كل المنازل ما عداه سقيم

إنها تحية بارعة من قينة ذكية مدربة على حسن القول ورقة، فقد كان يحتفل بالشعراء الذين يقصدونه من الخارج فمن كان تحت سقفه ممن يقول الشعر أولى بالاحتفال وأجدر بالتكريم.

وتشوقت قمر إلى بغداد مدينة السحر والجمال وعاصمة الدنيا آنذاك وتحسرت لوعة على فراق العراق وتمزقت نفسها من الحنين إليهما فقالتا:

آه على بغدادها وعراقها ... وظبائها والسحر في أحداقها

ومجالها عند الفرات بأوجه ... تبدو أهلتها على أطواقها

متبخترات في النعيم كأنما ... خلق الهوى العذري من أخلاقها

نفسي الفداء لها فأي محاسن ... في الدهر تشرق من سنا إشراقها

رابعاً: عائشة بنت أحمد القرطبية:

شاعرة قديرة عفة جريئة أديبة خطاطة دينة كانت حسنة الخط تكتب المصاحف، وكانت تمدح الملوك في غير ما خنوع أو مذلة وكانت ترتجل الشعر ارتجالاً وماتت عذراء لم تتزوج بعد

أن عاشت حياتها كلها في الطرف الآخر من القرن الرابع؛ لأنها توفِّيت سنة أربعمئة، وكانت رغم أنوثتها ذات إباء وهمة وترفُّع لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها فهماً وأدباً وشعراً وفصاحة والذي يتابع صفاتها لا يملك إلا الإعجاب بها.

خطبها بعض الشعراء فلم تر أنه كفء لها ويبدو أنه كان ملحّاً في رغبته فكتبت إليه:

أنا لبوة لكنني لا أرتضي ... نفسي مناخاً طول دهري من أحد

ولو أنني أختار ذلك لم أجب ... كلباً وكم غلقت سمعي عن أسد

إن بها إباء المرأة العربية وكبرياءها قبل أن تفسدها الحضارة المستوردة لقد كانت عائشة ذات مقدرة فذة في ارتجال الشعر فقد دخلت على المظفر ابن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ابن له فخطر لها أن تحييه وتجعلها مناسبة لمدحه، فقالت ارتجالاً:

أراك الله فيه ما تريد ... ولا برحت معاليه تزيد

فقد دلت مخايله على ما ... تؤمله وطالعه السعيد

وكيف يخيب شبل قد نمته ... إلى العليا ضراغمه أسود

فسوف تراه بدراً في سماء ... من العليا كواكبه الجنود

فأنتم آل عامر خير آل ... زكا الأبناء منكم والجدود

وليدكم لدى رأيٍ كشيخ ... وشيخكم لدى حرب وليد

ولم يؤثر أي من شعر الغزل عن عائشة، وهذا يسير الاستنتاج من سيرتها واستقامتها إلى الحد الذي حدا بها إلى العزف من مخالطة الرجال والامتناع عن الزواج، وأما من الناحية الفنية فلا نكاد نخطئ سمات القوة وملامح عن شاعريتها في نطاق المحافظة الكاملة على النمط الشعري البكر الذي لا يصدر إلا عفو الخاطر ودفن البديهة دون ما تزيين أو تحوير.

خامساً: حفصة بنت حمدون الحجارية

عاشت حفصة بنت حمدون الحجارية في وادي الحجارة وهو واد نبغ منه عدد من الشعراء والأدباء فهي شاعرة مكثرة من أهل المئة الرابعة أي من أهل القرن الرابع، وبذلك تكون معاصرة لعائشة القرطبية على رغم الفروق الأخرى البينة بينهما فحفصة حجارية وعائشة

قرطبية وحفصة منطلقة عن نطاق العقال نافضة عن كاهلها تقاليد الحرائر، أما عائشة فقابضة على تقاليدها مستمسكة بكل ما يدفع عن المرأة مغبة الظنة وظلال الشبهة، ويبدو أن حفصة كانت من بيت غنى وثراء، وأنها كانت ذات مال وعبيد فهي تقول شاكية من سلوكهم:

يـــا رب إني مـــن عبيـــدي عـــلى جمـر الغـضا مـا فـيهم مـن نجيـب
إمـــا جهـــول إبلـــه متعـــب أو فطـــن مـــن كيـــده لا يجيـــب

إنها رائدة شعر الغزل تمدح العظماء كابن جميل، ويبدو أن عاطفة ما كانت بها تجاهه تحايلت من خلال مديح إياه وألقت عليه بغلالة خفيفة من نسيج الغزل فقالت:

رأى ابـن جميـل أن يـرى الـدهر مجمـلا فكـل الـورى قـد عمهـم سـيب نعمتـه
لـه خلـق كـالخمر بعـد امتزاجهـا وحـسن فـما أحـلاه مـن حـين خلقتـه
بوجـه كمثـل يـدعو ببـشره عيونـا ويعـشيها بـإفراط هيبتـه

ومن طريف ما أنشأت في مقام الغزل إظهار شخصيتها كامرأة وإبداء الدلال والتيه على من يدل عليها أو يتيه مستمسكة كل الاستمساك بكبرياء المرأة ذات الجمال تقول حفصة:

لي حبيـب لا ينثنـي بعتـاب وإذا مـا تركتـه زاد تيهـا
قـال لي هـل رأيـت لي مـن شـبيه قلـت أيـضاً وهـل تـرى لي شـبيها

إن حفصة الحجارية شاعرة رقيقة بارعة محسنة في نسج شعرها وانتقاء ألفاظها واختيار معانيها وتحسس قوافيها إلا أن الأهم من ذلك كله أنها طرقت للمرأة الأندلسية بابا لم تكن قد جرت على طرقه بعد، إنه باب الغزل طرقته بخفة وتردد وتحفظ.

سادساً: الشاعرة الشلبية

التي كتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من ولاة بلده:

نـادِ الأمـير إذا وقفـت ببابـه يـا راعيـاً إنّ الرعيـة فانيـة
أرسـلتَها همـلاً ولا مرعـى لهـا نهـبَ الـسباع الـضاريات العاديـة

سابعاً: حفصة الركونية

وهي من ذوات الحسب والجمال والأدب والشعر، كانت منافسة لولادة بنت المستكفي ولها من الشعر اللطيف والرقيق ما يذهل، ومن الشعر الفاحش ما يخجل من ذلك قولها:

أزورك أم تـــــزورُ فـــــإنّ قلبـــــي إلى مـــــا تـــــشتهي أبـــــداً يميـــــل

معجّـــــل بـــــالجواب فـــــما جميـــــلٌ إبـــــاؤك عـــــن بثينـــــة يـــــا جميـــــل

ثامناً: مريم الأنصارية

وهي إشبيلية محتشمة تعتز بدينها وفضلها وتعلم الناس الأدب، ومن شعرها تشكو الشيخوخة:

ومـــا يرتجـــى مـــن بنـــت ســـبعين حجـــةً وســـبع كنـــسج العنكبـــوت المهلهـــل

تـــدبُّ دبيـــب الطفـــل تـــسعى إلى العـــصا وتمـــشي بهـــا مـــشي الأســـير المكبَّـــلِ

تاسعاً: الغسانية البجانية:

عاشت الشاعرة الغسانية في منطقة بجابة من أقاليم المرية، في القرن الخامس الهجري وشعرها يتسم بالأصالة والعمق ولها على القول تمرس وسلطان، وأبياتها التي بين أيدينا قيلت في الغزل وشكوى الفراق، غير أنها تجري بها في مسارب الحكمة متأرجحة بين الجزع والتصبر فتقول:

أتجـــزع أن قـــالوا ســـترحل إظعـــان وكيـــف تطيـــق الـــصبر ويحـــك إذ بـــانوا

عهـــدتم والعـــيش في ظـــل وصـــلهم أنيـــق وروض الوصـــل أخـــضر فينـــان

فيـــا ليـــت شـــعري والفـــراق يكـــون هل يكونون من بعد الفراق كما كانوا

شعر جميل فيه كبرياء وحب، وفيه تصبر ولوعة، وفيه استسلام وجزع على قلة عدد الأبيات، وهو إلى ذلك فيه قوة وفحولة وتمكن.

عاشراً: زينب المرية:

تقدم لنا زينب المرية شعراً ناضجاً كل النضوج نابضاً بالحياة صافي الأسلوب في غير عسر، صادق الحس في غير خفاء، وهذه الأبيات الثلاثة تنبئ عن الطاقة الشعرية الكامنة في جوانح زينب.

يـــا أيهـــا الراكـــب الغـــادي لطيتـــه عـــرج أنبئـك عـــن بعـــض الـــذي أجـــد
مـــا عـــالج النـــاس مـــن وجـــد تـــضمنهم إلا ووجـــدي بهـــم فـــوق الـــذي وجـــدوا
حـــــسبي رضـــــاه وأني في مـــــسرته ووده آخـــــر الأيـــــام أجتهـــــد

حادي عشر: غاية المنى:

جارية قدمها قيان إلى المعتصم بن صمادح صاحب المرية وأحد ملوك الطوائف لكي يختبرها قبل أن يشتريها، فسألها: ما اسمك؟ فقالت: غاية المنى. قال لها الأمير: أجيزي

اسألوا غاية المنى

فقالت في سرعة بديهة ورقة خاطر:

من كسا جسمي الضنا

وأراني مولها

سيقول الهوى أنا

ولمس المعتصم بن صمادح في هذه القينة الذكاء وقول الشعر وحسن المحاضرة، فأمر أن تحمل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها وكان مكفوفاً، فلما وصلته سألها: ما اسمك؟ فقالت: غاية المنى، فقال: أجيزي

ســـــل هـــــوى غايـــــة المنـــــى مـــــن كـــــسا جـــــسمي الـــــضنا

فقالت تجيزه:

وأراني متـــــــــــــــــــــــيما ســـــــــيقول الهـــــــوى أنـــــــا

وقد ارتبط ذكرها بالمرية لصلتها بابن صمادح.

ثاني عشر: أم الكرم

بنت المعتصم بن صمادح:

أم الكرم أميرة من بيت الملك وكان من عادة ملوك الأندلس أن يعهدوا ببناتهم ونسائهم لمعلمات يتعهدنهن بالتعليم والتهذيب وقراءة الشعر وحفظة، فاعتنى المعتصم بتأديب ابنته لما رآه فيها من ذكاء حتى نظمت الشعر الجميل، وأسهمت في إنشاء الموشحات، ولكن شعرها القليل الذي وصل موضوعه الغزل وكانت تشهر بحبها وتصرخ طالبة خلوة بحبيبها، ولم يكن هذا الحبيب الذي أخرج الأميرة أم الكرم عما ينبغي أن تلوذ من أناة وكتمان واحتشام سوى فتى من فتيان قصر أبيها عرف بالسمار.

تقول أم الكرم:

يـــا معـــشر النـــاس ألا فـــاعجبوا ... ممـــا جنتـــه لوعـــة الحـــب

لـــولاه لم ينـــزل ببـــدر الـــدجى ... مـــن أفقـــه العلـــوي للـــترب

حـــسبي بمـــن أهـــواه لـــو أنـــه ... فـــارقني تابعـــه قلبـــي

إن أم الكرم شاعرة رقيقة بارعة الغزل حسنة التعبير، وهي فنانة صناعة بغير شك فقد أثر أنها كانت تصنع التوشيح، ولا يستطيع ذلك إلا الشاعر ذو القدرة والفنان ذو الصبر والصنعة لما تخضع له الموشحة من نسق بعينة يتكرر بين أقفال وأغصان وأدوار وتشطير الأمر الذي يجعل من الصمادحية الشاعرة فنانة بارعة وأديبة بارزة.

ثالث عشر: حمدونة بنت زياد:

نشأت حمدونة في واد جميل غير بعيد عن غرناطة، وغرناطة وما حولها مسافة تقارب الأربعين ميلاً تغطيها والأشجار وتتخللها السواقي والجداول والأنهار، وما يستتبع ذلك من طيور وظلال وأفياء ونسائم وأنداء؛ مما يبعث الشعر رقيقاً أخاذاً به إلى رحاب الأسماع دفع لقد عاشت حمدونة في وادي آش، وهي مدينة جميلة ساحرة تعرف أيضاً بوادي الأشات في بيت فيه علم وآداب، فقد كان أبوها زياد الوادي أشي يعرف بزياد المؤدب، وقد نشأ ابنتيه حمدونة التي تسمى أيضاً ربما على سبيل التمليح حمدة وأختها زينب على الأدب والعلم، فكانتا

شاعرتين من شهيرات شاعرات الأندلس إلا أن حظ زينب في التاريخ لم يكن كحظ أختها حمدونة، ففي الوقت الذي حفلت فيه كتب الأدب بنماذج من شعر حمدونة وإشادة باسمها حتى لقبت بخنساء المغرب وشاعرة الأندلس.

كان نصيب زينب من الشهرة لا يزيد عن ذكر اسمها مرتبطاً باسم أختها فيقال: حمدونة بنت زياد وأختها زينب الشاعرتان، وفي بعض الأحيان كان يقال: زينب بنت الوادي أشي وأختها حمدة.

تقول الشاعرة حمدونة في وصف الوادي:

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم

حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم

يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

لقد رسمت حمدونة أكثر من صورة متحركة بهيجة الألوان والظلال الجميل الذي يشبه حصاه حبات اللؤلؤ، فيروع العذارى الحاليات خشية أن تكون عقودهن قد انفرط نظمها، فيسارعن في ذعر إلى تلمس مكان العقود من لباتهن.

ومن أوصافها لهذا الوادي:

أباح الدمع أسراري بوادي ... له للحسن آثار بوادي

فمن نهر يطوف بكل روض ... ومن روض يرف بكل وادي

ومن بين الظباء مهاة أنس ... سبت لبي وقد ملكت فؤادي

لها لحظ ترقده لأمر ... وذاك الأمر يمنعني رقادي

إذا سدلت ذوائبها عليها ... رأيت البدر في أفق السواد

كأن الصبح مات له شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد

ولم يقف الأمر بحمدونة عند وصف الطبيعة وحسب، ولكنها جعلت لقلبها الذي كان يخفق لا شك لإحساس ما نصيباً من شعرها فقالت أبياتاً غزلية لم تخل من عاطفة:

ولمـــا أبـــى الواشـــون إلا فراقنـــا وما لهـم عنـدي وعنـدك مـن ثـار
وشـــنوا عـــلى أســـماعنا كـــل غـــارة وقـــل حمـــاتي عنـــد ذاك وأنـــصاري
غـــزوتهم مـــن مقلتيـــك وأدمعـــي ومـن نفـسي بالـسيف والـسيل والنـار

هذا، ولم يعرف عن حمدونة أي لون من ألوان الانحراف أو الميل عن الجادة، بل كانت عفة رغم غزلها متصوفة رغم إسهامها في قول التشبيب، فهي من المتأدبات المتصوفات المتغزلات المتعففات.

رابع عشر: نزهون بنت القلاعي الغرناطية:

تعد نزهون الغرناطية رائدة الأدب المكشوف فهي تراسل الرجال شعراً وتساجلهم نظماً وتهاجيهم قولاً فاحشاً تسمع شعراً يقال فيها يخدش حياء الحرائر وينال من مشاعر العفة عندهن، وترد بشعر أكثر جرأة وأفحش معنى غير متحرجة من استعمال ألفاظ العورات استعمالاً ساقطاً، وبالجملة: إنها ابنة للمدينة وصدى لقيمها تماماً.

ومهما كان الأمر من نزهون فهي شاعرة "المدينة الأندلسية" في القرن الخامس الهجري، وصورة دقيقة لجوانب عديدة من شعر ذلك القرن يستوي في ذلك شعر الرجال وشعر النساء شاعرة ماجنة كثيرة النوادر خفيفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق، والحق أن نزهون قد غمست نفسها في الحياة الأدبية في غرناطة غمساً كاملاً حتى لقبت بشاعرة غرناطة.

ولشعر نزهون جانبان: جانب مشرق نظيف، وجانب جريء عنيف غير عفيف، وهي في كل ذلك صاحبة مطارحات ومشاغبات مع أعيان قرطبة وشعراء الأندلس المشاهير، مثل الوزير ابن قزمان الشاعر الزجال المشهور، لقد التحمت معهم جميعاً لحمة المودة حيناً والتحام التهاجي حيناً آخر، ورجحت كفتها عليهم، ولولا أنها امرأة لصرعتهم كلاً في ميدانه، ولكن المفحشين منهم كانوا يضايقونها بما يذكرون من ألفاظ السوقة وكلمات الساقطين في شعرهم؛ الأمر الذي دفع بها اختياراً أو اضطراراً إلى مواجهتهم حيناً شعراً بشعر ومناقضتهم حيناً آخر عهراً بعهر.

فمن جوانب الإشراق واللين في حياة نزهون الشعري ما جرى من مساجلات بينها وبين الوزير أبي بكر بن سعيد الذي أولع بأدبها، فكتب إليها هذين البيتين الطريفين:

يـــا مـــن لـــه ألـــف خـــل ... مـــن عاشـــق وصـــديق

أراك خليـــت للنـــاس ... منـــزلاً في الطريـــق

ولكنها تطمئنه على مكانته من قلبها، وكان بينهما روابط عشق، وتؤكد له أنه الحبيب المقدم الذي يحتل مكان الصدارة من ودها وتجيبه:

حللـــت أبـــا بكـــر محـــلاً منعتـــه ... سـواك وهـل غـير الحبيـب لـه صـدري

وإن كـــان لي مـــن حبيـــب فـــإنما ... يقـــدم أهـــل الحـــق حـــب أبي بكـــر

وفي الشطر الأخير من البيت الثاني تورية معنوية طريفة، ولفظ " أبي بكر" ينصرف إلى صديق الرسول، كما ينصرف إلى أبي بكر بن سعيد، لقد صدق من وصفها بالظرف.

إنها تصف ليلة من ليالي مباذلها عن انحراف حجب إعجابنا عنه:

لله در الليـــالي مـــا أحيـــسنها ... ومـــا أحيـــسن منهـــا ليلـــة الأحـــد

لـــو كنـــت حاضرنـــا فيهـــا وقـــد غفلـــت ... عـــين الرقيـــب فلـــم تنظـــر إلى أحـــد

أبصرت شمس الضحى في ساعدي قمر ... بـــل ريـــم خازمـــة في ســـاعدي أســـد

خامس عشر: مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري:

أديبة شاعرة كانت تعلم النساء الأدب على طريقة أهل الأندلس في ندب نساء أديبات بناتهم، وكانت مريم محتشمة متدينة على خلاف ما نتوقع من شاعرة عاشت في مدينة الخلاعة، فهي الأصل من مدينة شلب في غرب الأندلس كانت تمدح عبيد الله بن محمد المهدي الأموي، وكان يجيزها من ماله ويساجلها شعراء وتساجله، وكان في مساجلاته معها يبدي لها الكثير من الاحترام والإجلال، ويشبهها بمريم العذراء في ورعها وبالخنساء في شعرها.

ويبدو أنها كانت أرسلت في إحدى المرات قصيدة تمدح المهدي الذي مر ذكره، فبعث إليها برده عدداً من الدنانير وعدداً آخر من أبيات الشعر قال منها:

ما لي بشكر الذي أوليت من قبل أو أنني حزت نطق اللسن في الحلل
يا فذة الظرف في هذا الزمان ويا وحيدة العصر في الإخلاص والعمل
أشبهت مريم العذراء في ورع وفقت خنساء في الأشعار والمثل

وشعر المهدي يدل على تلطف وأريحية إزاء شاعرة أديبة حسنة السيرة، وأما مريم فإنها تنشئ قصيدة من البحر نفسه والقافية نفسها لكي تمدح الأمير الذي بعث إليها من ماله وخلع عليها من أدبه قائلة:

من ذا يجاريك في قول وفي عمل وقد بدرت إلى فضل ولم تسل
ما لي بشكر الذي نظمت في عنقي من اللآلي وما أوليت من قبلي
لله أخلاقك الغر التي سقيت ماء الفرات فرقت رقة الغزل

لقد عمرت مريم طويلاً وبلغت سبعاً وسبعين سنة فيما تروي هي عن نفسها، واصطدمت بهموم الكبر وأرق الشيخوخة وذيول الشيب، وافتقاد العافية، فشكت زمانها، والشكوى الصادقة لون من ألوان غناء النفس، فماذا قالت مريم؟ قالت:

وما ترتجي من بنت سبعين حجة وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا وتمشي بها مشي الأسير المكبل

سادس عشر: بثينة بنت المعتمد بن عباد:

إنها الأميرة التي شهدت مباهج ملك أبيها المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف وكبير الشعراء الملوك وبطل الأبطال في معركة الزلاقة، والأسير بأغمات، إن المعتمد يشكل صفحات من المجد والترف والبطولة والإباء والشعر، ولقد أورثَ ابنته بثينة روحه الشاعرة فهو شاعر الملوك وملك الشعراء، وورثت الشعر أيضاً والجمال عن أمها الرميكية.

إن لبثينة شعراً كثيراً كان مشهوراً بالمغرب، ولم يبق منه إلا هذه القصيدة الرقيقة إنه لما دلت النكبة بالمعتمد وأسر وحمل وزوجته إلى أغمات في المغرب وتعرض قصره للنهب والسلب كانت بثينة في جملة من سبي من نساء القصر وصباياه فاشتراها أحد تجار إشبيلية، وهو لا يعلم من أمرها شيئاً ظاناً أنها واحدة من الجواري وأهداها لابنه، فلما أراد الابن الدخول بها امتنعت

امتناع الحرائر، وأظهرت له نسبها، وقالت: لا أحل لك إلا بعقد الزواج إن رضي أبي بذلك وأشارت عليه وعلى أبيه بتوجيه كتاب منها إلى أبيها وانتظار جوابه، وكان هم أبويها لفقدها أسوأ وقعا عليهما من زوال الملك فقد كانا متعلقين بها تعلقاً شديداً لقد وافق الشاب ووالده على رأي بثينة، فكتبت خطاباً فريداً في بابه بين الخطابات التي كتبت في التاريخ لقد ضمنت خطابها قصتها كاملة في نطاق من الفطنة وإطار من السداد، وجعلت منه قصيدة موشاة بحكمة الشيوخ وكانت في عمر أزهار الربيع مرنقة بالفخر الرائق، وهي الأسيرة المغلوبة على أمرها مفعمة بالصدق الذي كان ثمرة لعناية أبويها بتنشئتها عليه إبّان الملك السليب:

اسمع كلامي واستمع لمقالتي ... فهي السلوك بدت من الأجياد

لا تنكروا أني سبيت وأنني ... بنت لملك من بني عباد

ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للإفساد

لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى من زاد

قام النفاق على أبي في ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجت هاربة فحازني امرؤ ... لم يأت في إعجاله بسداد

إذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني إلا من الأنكاد

وأرادني لزواج نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الأنجاد

ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ... ولأنت تنظر في طريق رشادي

فعساك يا أبتي تعرفني به ... إن كان ممن يرتجى لوداد

وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والإسعاد

إن الأميرة الصغيرة الغريرة كانت من الفطنة بحيث أقنعت الفتى وأباه بالانتظار، وكانت من الاعتراف بالجميل بحيث حسنت لأبيها الموافقة على الزواج، وكانت من الكبرياء بحيث لم تنس أنها أميرة وابنة ملك، وكانت من الواقعية بحيث ارتضت حكم القدر في مصيرها، وكانت أخيراً من الشاعرية والصفاء بحيث دبجت بيراعها الرقيق قصة واقعية من أكثر القصص في التاريخ أسى.

لقد تهلل وجه أبويها مرة في سجنهما بعيداً في شمال إفريقيا، ووافق أبوها على زواجها واعتبرها هدية القدر الثمينة إلى هذا الفتى الرشيد وأبيه الماجد، وكتب لها موافقة استهلها بما يستهل به الأب العاقل نصائحه لابنته الأميرة الأثيرة المقبلة على الزواج:

بنيتي كوني به برة ... فقد قضى الدهر بإسعافه

سابع عشر: أم العلاء بنت يوسف

يقدم القرن الخامس لنا شاعرة مجيدة هي أم العلاء بنت يوسف الحجارية ممن تفخر به بلدها وقبيلتها، وهي في رقة شعرها وبراعة غزلها امتداد طبيعي لحفصة، فلنستمع إلى ضرب من أقوالها في الغزل:

كل ما يصدر منكم حسن ... وبعلياكم تحلى الزمن

تعطف العين على منظركم ... وبذكراكم تلذّ الأذن

من يعش دونكم في عمره ... فهو في نيل الأماني يغبن

وتشكو أم العلاء شكوى رائعة فتقول:

افهم مطارح أحوالي وما حكمت ... به الشواهد واعذرني ولا تلم

ولا تكلني إلى عذر أبينه ... شر المعاذير ما يحتاج للكلم

وكل ما جئته من ذلة فبما ... أصبحت في ثقة من ذلك الكرم

ولم تخل أم العلاء من ظرف ودعابة، ولكنها حتى في دعابتها تحرص على أن تقدمها مغلفة بنسيج ناعم من الحكمة، وإنه لشيء طريف أن تجتمع الدعابة والحكمة فتكونا مزاجاً طريفاً من فكر وقول، إن رجلاً أشيب يقع في حب أم العلاء يحاول أن يلفت نظرها إليه بطرق شتى، ولكنها تبعث إليه ببيتين ناعمين مشتملين بالحكمة متلفعين بالدعابة، وكأنها تربت على كتفه في نعومة وبسمة قائلة:

الشيب لا يخدع فيه الصبا ... بحيلة فاسمع إلى نصحي

فلا تكن أجهل من في الورى ... يبيت في الجهل كما يضحي

وهذه صورة جذابة خلابة لقصب واديها، لقد جعلته يهفو نادياً في كف الرياح، فبدا كالبنود ترفرف على خفقات النسيم وقد ارتكزت قوائمها الواحد يتلو الآخر، تقول أم العلاء كأنما أرادت أن تلفت انتباهنا إلى أنها صاحبة قدرات ليس في المعاني الناعمة العذبة وحسب، وإنما هي أيضاً صاحبة قدرة في التلاعب بالألفاظ، تطوعها في يسر للمعنى الذي تنشد وتجعل منها ألواناً بهيجة في يدها تزين بها الصورة التي تزيد، وتقدم هذا التشبيه البارع من خلال وصف الطبيعة في واديها المتواضع:

لله بستاني إذا يهفو به القصب المندى

فكأنما كف الرياح قد أسندت بندا فبندا

ثامن عشر: حفصة بنت الحاج

وتعرف أيضاً بحفصة الركونية، وهي شاعرة غرناطة في القرن السادس، كانت جميلة ذات حسب ومال، وكانت من أشراف بلدتها غرناطة، وحفصة في غرناطة على زمانها مثل ولادة في قرطبة على زمانها أيضاً، بل إن حفصة أشعر، وهي في غزلها أكثر جرأة في الهجوم على معاني العشق والإثارة والغيرة، وإذا كانت ولادة قد ارتبطت بالوزير الشاعر الكاتب أبي جعفر أحمد بن سعيد وزير بني عبد المؤمن.

وإذا كان ابن زيدون قد لقي منافساً في حبه ولادة، فإن ابن سعيد قد صادف هو الآخر منافساً أقوى في حبه حفصة، لقد كان المنافس لابن زيدون وزيراً مثله هو أبو عامر ابن عبدوس، أما منافس ابن سعيد فهو الملك نفسه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن علي الذي كان يلقب بأمير المؤمنين، وإذا كان الدهر قد قلب ظهر مجنه لابن زيدون، فإن ذلك كان في حرمانه من ولادة وانقلابها عليه واغترابه منفياً من بلده، وأما أبو جعفر فقد كان حظه من حفصة أوفر من حظ ابن زيدون من ولادة، فقد ظل معشوقاً طول عمره إلا في فترات الدلال وهي قصيرة، بل لعله كان أكثر وقته مطلوباً وليس طالباً، ولكنه لسوء الحظ وقع في حبه لحفصة في منافسة كان أهلاً لها من حيث الجمال والعقل والشعر، ولكن لم يكن أهلاً لهذه المنافسة من حيث السلطة والقوة فما زال به الملك العاشق المنافس حتى تلمس له أسباباً مفتعلة وقتله.

لقد ترعرعت حفصة في أكناف غرناطة الجميلة وكانت حفصة على أدب وفضل وحسب فاختيرت مؤدبة لنساء بني عبد المؤمن الذين تملكوا غرناطة على عهد مروان بن سعيد والد أبي جعفر.

وكانت حفصة إلى أدبها وعلمها وجمالها تستطيع أن تقول شعراً جيداً عن طريق الارتجال، فقد صادفت عبد المؤمن بن علي في القصر حيث كانت تعمل مؤدبة لنسائه على ما ذكرنا فارتجلت بين يديه:

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفدهْ
امنن علي بطرس ... يكون للدهر عدهْ
تخط يمناك فيه ... الحمد لله وحدهْ

وهي في ذلك تشير إلى شعار دولة الموحدين، فقد كانت العلامة السلطانية أن يكتب السلطان بخط غليظ في أعلى المنشور ((الحمد لله وحده)).

ولا شك أنها بديهة حاضرة وخاطرة مجيبة تلك التي تسعف الشاعرة الذكية بهذه الأبيات التي ردد محتواها مرج الكحل الشاعر بعد ذلك بقرن من الزمان في مدحه السلطان الناصر حفيد عبد المؤمن بن علي في قوله:

ولما توالى الفتح من كل وجهة ... ولم تبلغ الأوهام في الوصف حده
تركنا أمير المؤمنين لشكره ... بما أودع السر الإلهي عنده
فلا نعمة إلا تؤدي حقوقها ... علامته بالحمد لله وحده

على أننا نلاحظ الفرق الكبير في الكبير في رونق الصياغة بين الشاعرة، فعلى الرغم من أن حفصة ارتجلت أبياتها فإنها تبدو أرق وألطف من أبيات ابن مرج الكحل.

وكان في حفصة لطف وخفة روح وصفاء بديهة، لقد كانت لشهرتها يستوقفها بعض الناس ويطلبون منها تسطير شيء من شعرها على أوراق يحملونها، وذلك على سبيل التذكرة تماماً يحدث في أيامنا هذه مع بعض المشهورين أرسلت إليها سيدة من أعيان غرناطة أن تكتب لها شيئاً بخطها إليها بهذين البيتين:

يـا ربـة الحـسن بـل يـا ربـة الكـرم غـضي جفونـك عـما خطـه قلمـي
تـصفحيه بلحـظ الـود منعمـة لا تحفـلي بـرديء الخـط والكلـم

على أن أرق شعر حفصة وأكثر جرأة هو ما قالته غـزلاً في أبي جعفـر بـن سـعيد العنـسي الوزير الشاعر أو ما أنشأته في مقام المساجلة معه، ولم تخـرج معانيهـا في ذلـك كلـه عـن إطـار الغزل الذي يتأرجح بين الاعتدال تارة والشطط تارات أخرى.

وتكثر اللقاءات بين حفصة وأبي جعفـر ويلتقيـان مـرة في بـستان "حـور مؤمـل" وقـت انصراف كل منهما إلى حيث يقيم، فيوحي اللقاء إلى الوزير الشاعر بهذه الأبيات:

رعـى الله لـيلاً لم يـرح بمـذمم عـشية وارانـا بحـور مؤمـل
وقـد خفقـت مـن نحـو نجـد أريجـة إذا نفحـت هبـت بريـا القرنفـل
وغـرد قمـري عـلى الـدوح وانثنـى قـضيب مـن الريحـان مـن فـوق جـدول
يـرى الـروض مـسروراً بـما قـد بـدا لنـا عنـاق وضـم وارتـشاف مقبـل

ويرسل أبو جعفر بهذه الأبيات الرقيقة المتفائلة المرحة إلى حفصة، فتجيبـه عـلى عـادتها في التراسل شعراً، ولكن نظرتها إلى الرياض الكاسية والمياه الجارية والأطيار الـصادحة والنجـوم المنورة تختلف تماماً نظرة الوزير العاشق المرح أنها بنظرة المرأة تغار من كل شيء، وتعتبره حائلاً أو راصداً أو واشياً أو حاسداً، ومن ثم فإنها ترد عليه بأبيات تحمل هذه المعاني المتشائمة، النابع تشاؤمها من الغيرة وخوف الحسد:

لعمـرك مـا سر الريـاض بوصـلنا ولكنـه أبـدى لنـا الغـل والحـسد
ولا صـفق النهـر ارتياحـاً بقربنـا ولا غـرد القمـري إلا لمـا وجـد
فـلا تحـسن الظـن الـذي أنـت أهلـه فـما هـو في كـل المـواطن بالرشـد
فـما خلـت هـذا الأفـق أبـدى نجومـه لأمـر سـوى كـيما يكـون لنـا رصـد

إنها غيرة المرأة العاشقة تعبر في جرأة وتشـاؤم، وتلح على هـذا المعنـى في علاقتهـا بـالوزير الوسيم، فتقول ما هو أكثر إلحاحاً على هذا الجانب من مشاعر العشاق:

أغـار عليـك مـن عينـي رقيبـي ومنـك ومـن زمانـك والمكـان

ولـــــو أني وضـــــعتك في عيـــــوني إلى يـــــوم القيامـــــة مـــــا كفـــــاني

هذا لون جديد من غزل المرأة أكثر اندفاعاً من طبيعة المرأة المحبة، ولكن في حفصة جرأة على الغزل ونهم إلى الحب يدفع بها إلى الغيرة، ثم ينتقل بها من مرحلة الغيرة إلى مرحلة الأثرة والأنانية، إنها تغار من كل شيء على صاحبها، من المرئي وغير المرئي ومن المادة والمعنى، من الزمان والمكان.

وفي حب أبي جعفر تفقد حفصة دلال المرأة وكبرياءها فالمرأة مهما لج بها العشق ومهما صنعت بها الصبابة، فإنه يجمل بها ولو من باب المراعاة لجنسها أن تخفي بعض ما تجد، وأن تكون مطلوبة لا طالبة ومرغوبة لا راغبة، وأن تتظاهر بكونها معشوقة لا عاشقة، ولكن حفصة تضرب بكل ذلك عرض الحائط، ويستبد بها الشوق إلى صاحبها، وربما لم يكن مضى على فراقهما طويل وقت فتبعث إليه بهذه الأبيات:

أزورك أم تـــــزور فـــــإن قلبـــــي إلى أن تـــــشتهي أبـــــداً يميـــــل
وقـــد أمنـــت أن تظمـــى وتـــضحى إذا وافى إلي بـــــك القبـــــول
فثغـــــري مـــــورد عـــــذب زلال وفـــــرع ذؤابتـــــي ظـــــل ظليـــــل
فعجـــــل بـــــالجواب فـــــما جميـــــل أناتـــــك عـــــن بثينـــــة يـــــا جميـــــل

لقد كان أبو جعفر على حبه الشديد لحفصة في نهاية من الاتزان قولاً وسلوكاً، وكانت هي في منتهى الرعونة قولاً وسلوكاً إن غزلها بالرجل قد فاق غزل الرجال بالنساء، هذا بغضِّ النظر عن أشكال الإثارة التي تضمنتها رسائلها الشعرية إلى صاحبها وأي شاعرة أنثى تفوق حفصة في قولها هذا في الغزل؟

ثنـــائي عـــلى تلـــك الثنايـــا لأننـــي أقـــول عـــلى علـــم وأنطـــق عـــن خـــبر
وأنـــصفها - لا أكـــذب الله - إننـــي رشـــفت بهـــا ريقـــاً مـــن الخمـــر

إننا نكاد نتمثل قصة ولادة وابن زيدون، ونحن نستعرض صلة حفصة وأبي جعفر ولكن بصورة عكسية، لقد علا صوت حفصة بحب أبي جعفر، وذاع شعرها فيه ذلك الشعر الجديد في معدنه الجريء في نوعه الرقيق.

لقد كان أبو جعفر ملكاً يجلس على عرش قلب حفصة، وكان هناك ملك آخر يجلس على عرش الحكم ويطمع في عرش ذلك القلب،فلم يفلح في أحلامه ولم يكن يملك مؤهلات تمهر قلب الشاعرة، فاستغل سلطانه وأزاح منافسه من أمامه قتلاً، وهناك بيتان لحفصة ما إخالهما إلا صدرا عنها رثاء للوزير الشاعر الرقيق، العاشق المعشوق:

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظري وقد غبت عنه مظلماً بعد نوره

سلام على تلك المحاسن من شج تناءت بنعماه وطيب سروره

تاسع عشر: أسماء العامرية:

اسمها أسماء العامرية شاعرة لم يصل إلينا من شعرها الأبيات قليلة بعثت بها إلى عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين انتسبت فيها إليه، وطلبت رفع ما وقع على أموالها من اعتقال، تقول في أبياتها:

عرفنا النصر والفتح المبينا لسيدنا أمير المؤمنينا

إذا كان الحديث عن المعالي رأيت حديثكم فينا شجونا

وفيها تقول:

رويتم علمه فعلمتموه وصنتم عهده فغدا مصونا

عشرون: أم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عطية

شاعرة كان والدها يلقب بالشيخ الإمام، وذلك أنه كان من العلماء الأجلاء، وأم الهناء تشبه أباها، كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل ولها تأليف، والقاضي ابن عطية هو صاحب البيتين المشهورين في وصف قرطبة:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم أكبر شيء وهو رابعها

وكان الشيخ ابن عطية شديد التعلق بوطنه قرطبة حتى إنه لما عين قاضياً للمرية أنشد في وداع موطنه:

أســـــتودع الله أهـــــل قرطبـــــة حيـــث وجـــدت الحيـــاء والكرمـــا
والجـــامع الأعظـــم العتيـــق ولا زال مـــدى الـــدهر مأمنـــاً حرمـــا

يبلغ الشيخ ابن عطية خبر تعيينه قاضياً للمرية فيدخل داره وعيناه تذرفان الدموع وجداً لمفارقة وطنه وتلمح أم الهناء الدمع يترقرق في عين أبيها الشيخ العالم الوقور فتنشد على سبيل التأسي:

يـــا عـــين صـــار الـــدمع عنـــدك عـــادة تبكـــــين في فـــــرح وفي أحـــــزان

وهذا البيت الذي تمثلت به أم الهناء هو جملة أبيات غزلية رقيقة بعيدة عن هجر القول وفحشه، وإنما تحمل في حواشيها حياء العذارى وبراءة الغرائر مع توشية خفيفة من زينة لفظية بديعية فتقول:

جـــاء الكتـــاب مـــن الحبيـــب بأنـــه ســـــيزورني فاســـــتعبرت أجفـــــاني
غلـــب الـــسرور عـــليَّ حتـــى أنـــه مـــن عظـــم فـــرط مـــسرتي أبكـــاني
يـــا عـــين صـــار الـــدمع عنـــدك عـــادة تبكـــــين في فـــــرح وفي أحـــــزان
فاســـتقبلي بالبـــشر يـــوم لقائـــه ودعـــي الـــدموع لليلـــة الهجـــران

الشاعرة الشلبية نسبة إلى مدينة شلب غربي الأندلس وهي شاعرة جادة جريئة على الحكام والملوك تكشف خطاياهم وتكافح ظلم عمالهم على الأقاليم، لقد استبد ظلم الحكام وصاحب الخراج في بلدتها، وكان لابد أن يرتفع صوت يشكو الظلم ويكافح الفساد، فكان هذا الصوت الجريء لشاعرة رصينة جريئة حين لم تستطع أصوات أخرى أن ترتفع فقالت موجهة شعرها إلى السلطان يعقوب المنصور أحد ملوك الموحدين:

قـــد آن أن تبكـــي العيـــون الآبيـــه ولقـــــد أرى أن الحجـــــارة باكيـــــه
يـــا قاصـــد المـــصر الـــذي يرجـــى بـــه إن قـــــدر الـــــرحمن رفـــــع كراهيـــــة
نـــــاد الأمـــــير إذا وقفـــــت ببابـــــه: يـــــا راعيـــــاً إن الرعيـــــة فانيـــــة
أرســـلتها همـــــلاً ولا مرعـــــى لهـــــا وتركتهـــــا نهـــــب الـــــسباع العاديـــــه

"شـلب " كـلا شـلب وكانـت جنـة فأعادهـا الطـاغون نـاراً حاميـه

خـافوا ومـا خـافوا عقوبـة ربهـم والله لا تخفـى عليـه خافيـه

ونلمس في شعرها السلاسة والسلامة والجزالة، ونحس أنها صاحبة شخصية جادة غير ماجنة ولا متخاذلة، فمثل هذا الشعر الذي يشرح قضايا طرقها محوط بالمكاره؛ لأنه يمثل ثورة على طغيان لابد أن يكون صادراً عن شخصية عزيزة النفس عالية الهمة متسمة بالشجاعة والاستقامة.

على أن الأمر الذي يدعو إلى الرضا أن المنصور، وقد ألقيت القصيدة على مصلاه في يوم جمعة حيث الجموع محتشدة أخذها فتصفحها وتابع القضية ووقف على حقيقتها ورفع الظلم عن المدينة وأمر للشاعرة بصلة.

ولقد هيأ جو التسامح الديني الذي بسط لواءه على الأندلس لشاعرات غير مسلمات أن يأخذن نصيبهن من الثقافة وأن يقلن شعراً رقيقاً شبيهاً بشعر غيرهن من الشاعرات العربيات والمسلمات.

الباب الحادي عشر

أبرز أعلام الأدب الأندلسي

- أ -

استعراض موجز للشعراء

- جولة أندلسية:

١ - إذا كان الأدب الأندلسي يعدُ امتداداً لأدب المشارقة، فإنه قد برز فيه مجموعة من الشعراء والأدباء تركوا أثراً بارزاً في الحياة الثقافية الأندلسية والعربية وبقيت أسماؤهم أعلاماً متميزة، كابن هانئ وابن شهيد وابن خفاجة والمعتمد بن عباد ولسان الدين الخطيب، وإذا كان الناس في عصر الولاة لم يهتموا بصناعة الأدب لانشغالهم بالفتوح، وإن لم يخل العصر ممن نظموا الشعر في بعض المناسبات، فقد حفظت المصادر اسم أبي الأجرب جعونة ابن الصمة، وأبي الخطار حسام بن ضرار الذي وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م.

٢ - وفي عصر الإمارة نشط الشعر، وكان العدد الأكبر من الأمراء الأمويين في الأندلس شعراء منهم عبد الرحمن الداخل (١١٣ - ١٧٢هـ) وتبدو في شعره رقة الشعر الأموي وجزالته، وقد طرق موضوعات عدة، لكنه تعمق في الفخر والحنين.

٣- كما اشتهر من العامة يحيى بن حكم الغزال، وقد ترك شعراً يصنف في ثلاث مراحل: الأولى: مرحلة الشباب، وتغلب عليها موضوعات الغزل وما يتصل بذلك من دعابة ومجون، وقد سافر إلى بلاد النورمان أيام عبد الرحمن الأوسط فأعجب بملكتهم «تيودورا» وابنها فوصفها في شعره، والثانية هي مرحلة التعقل والأناة، وتغلب عليها موضوعات النقد الاجتماعي، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الزهد التي يذكّر فيها بالموت والفناء.

٤ - وفي عصر الخلافة ظهر ابن عبد ربه الذي طرق الأغراض الشعرية المعروفة، ولما تناهت به السن نظم «الممحصات» وهي قصائد نقض فيها ما قاله في الصبا، فجاء بأشعار تغص بالمواعظ والزهد.

٥- أما جعفر بن عثمان المصحفي، وقد استخدمه الحكم المستنصر في الكتابة، فهو الحاجب الشاعر الذي فتن بالطبيعة فوصفها، وله أشعار يشكو فيها الزمان، وأما ابن فرج الجيَّاني فقد اشتهر بالكتابة والتأليف، وله أشعار غزلية تمثل الغزل العذري العفيف.

٦- وأما ابن هانئ، ويقال له الأندلسي تمييزاً له من ابن هانئ الحكمي (أبي نواس)، فقد نشأ بإشبيلية، ثم غادرها إلى المغرب لتألب الناس عليه بسبب أفكاره الفلسفية، فلقي جوهراً قائد المعز لدين الله الفاطمي ومدحه، ثم اتصل بالمعز، وغادر معه إلى مصر بعد أن بني جوهر القاهرة، ثم استأذن بالعودة إلى المغرب لاصطحاب أسرته، لكنه قتل في الطريق، فقال المعز لما علم بنبأ قتله: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا».

٧- وفي مرحلة الحجابة عرفت طائفة من الشعراء عاصر بعضهم المرحلة السابقة كالمصحفي، ولمع آخرون منهم المرواني الطليق (ت٤٠٠هـ) وكان شاعراً مكثراً، قال عنه ابن حزم: «إنه في بني أمية كابن المعتز في بني العباس».

ومنهم يوسف بن هارون الرمادي (ت٤٠٣هـ) اشتهر عند الأندلسيين بلقب (متنبي المغرب) لغوصه على المعاني، وفنون شعره هي المدح والوصف والغزل.

ومنهم ابن دراج القسطلي (نسبة إلى قسطلة دراج من أعمال مدينة جيَّان) وهو يعد من أوفر الأندلسيين نتاجاً، وقد تقلب في ظلال نعمة المنصور بن أبي عامر، وخلد الكثير من غزواته.

٨- وفي عصر الفتنة كان الشعراء أقل عدداً من شعراء المراحل السابقة، وقد مزج بعضهم الشعر بكثير من النثر؛ لأنهم عملوا في الدواوين، وكان بعض الخلفاء شعراء كالخليفة المستعين.

من شعراء هذه المرحلة ابن شهيد، وابن حزم:

أ- شهد ابن شهيد (ت٤٠٦هـ) عصر الفتنة الذي كان فاصلاً بين توحد الأندلس تحت ظل العامريين (حجّاب دولة بني أمية) وبين ظهور دول الطوائف، وقد ترك آثاراً نثرية وشعرية.

ب- أما ابن حزم (ت٤٥٦هـ) فقد ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ، ونهل من معين الثقافة مبكراً، وكان عالماً بالشعر، وصاحب مذهب حر في النقد، وكان في عصره صوتاً يغاير ما كان عليه جمهرة فقهاء الأندلس (كان المذهب السائد هو مذهب مالك) فقد تمذهب أول حياته بمذهب الشافعي، ثم مال إلى المذهب الظاهري، فاحتج له، وألف فيه، فأمر المعتمد بن عباد بحرق كتبه بتحريض الفقهاء.

٩- واجتهد ملوك الطوائف في رد قرطبة الغربية إلى المشرق فتشبهوا بخلفاء المشرق، وتباروا في اجتذاب العلماء والأدباء والشعراء، ومن شعراء هذه المرحلة:

أ- أبو إسحق الإلبيري وكان فقيهاً زاهداً له قصيدة حرض فيها صنهاجة (قبيلة باديس بن حبوس) على الوزير المتنفذ في غرناطة ابن النغريلة اليهودي، فكانت السبب في قتله.

ب- ومنهم ابن زيدون وكان متقدماً في علوم العربية وفي رواية الشعر، أدرك أواخر عهد الدولة المروانية، وخدم دولتي بني جهور في قرطبة، وبني عباد في إشبيلية، أحب ولادة ابنة المستكفي، وتغنَّى بحبها، ومن فنونه الشعرية الوصف والمدح والاستعطاف والشكوى، ومنهم ابن عمار (ت٤٧٧هـ) الذي صحب المعتمد بن عباد منذ صباه، ثم ساءت العلاقة بينهما، فلقي حتفه على يد المعتمد، له شعر في الوصف والغزل والمدح والشكوى والاستعطاف.

ج- ومنهم ابن الحداد الوادي آشي (ت٤٨٠هـ) صاحب إشبيلية، نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات في المغرب بعد تغلبه على الأندلس، من فنونه الشعرية الغزل والوصف والشكوى.

د- ومنهم ابن اللبانة (نسبة إلى أمه التي كانت تبيع اللبن) اختص بمدح عدد من ملوك الطوائف ومنهم المعتمد، ومن شعراء عصر المرابطين الأعمى التطيلي، وابن خفاجة، وابن الزقاق، نبغ الأعمى التطيلي في الشعر والموشحات، إلا أن شهرته في الموشحات أكثر منها في القصائد.

أما ابن خفاجة (ت٥٣٢هـ) فهو شاعر الوصف الأول في الأندلس، وقد لقب بالجنان، وبصنوبري الأندلس، وقد مدح شخصيات معاصرة له.

وأما ابن الزقاق (ت٥٢٩هـ) فقد نزع منزع خاله ابن خفاجة في الغزل ووصف الطبيعة، وله مدح ورثاء وهجاء.

١٠- وفي عصر الموحدين سيطر على الناس حب الأدب، وقرض الشعر، فالرصافي البلنسي (ت٥٧٢هـ) ولد في رصافة بلنسية، وبها قضى شطراً من حياته، ثم تحول إلى مالقة، وترسم خطوات أستاذه ابن خفاجة في الوصف والمدح، وله شعر في الحنين، وابن مرج الكحل (ت٦٣٤هـ) كان شاعراً مطبوعاً يغلب على شعره الوصف والغزل، وابن عربي، محيي الدين كان شاعراً ووشاحاً، من آثاره الشعرية ديوانه وترجمان الأشواق، وابن سهل الإشبيلي، إبراهيم كان والده يهودياً، وقد أسلم وحسن إسلامه، اشتهر بقوة الحافظة والقدرة على نظم الشعر، وقد ضم ديوانه قصائد في الغزل والوصف والزهد، واشتهر بموشحاته، وابن الأبار عرفت أشعاره في موضوعات الوصف والغزل والرثاء، وشعر الاستغاثة، ومنهم حازم القرطاجني الذي كان شاعراً ونحوياً وناقداً، وفنون شعره المدح والغزل والوصف.

ومن شعراء بني الأحمر: أبو البقاء الرندي، واسمه صالح بن يزيد، اشتهر برثاء الأندلس، وله شعر في المدح والغزل، وابن جزي (ت٧٥٨هـ) أبو عبد الله محمد بن محمد، وكان كاتباً بارعاً وشاعراً مشهوراً يغلب على شعره المدح، وهو الذي دون رحلة ابن بطوطة وصاغها بقلمه بأمر من أبي عنان المريني سلطان المغرب.

وابن خاتمة الأنصاري اشتهر مؤلفاً مصنفاً، وشاعراً، وأبرز أغراضه الشعرية التأمل والنسيب والغزل والإخوانيات ووصف الطبيعة، وقد أكثر من التورية في شعره، وجمعها ابن زرقاله تلميذه في مصنف سماه «رائق التحلية في فائق التورية».

ومنهم لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ولسان الدين لقب عرف به، كما عرف بذي العمرين، وذي الميتين، وذي الوزارتين، وقد ولد في لوشة على مقربة من غرناطة، ترك أكثر من ستين مؤلفاً في الأدب والتاريخ والتصوف والطب والرحلات وديوان شعر عنوانه «الصَّيِّب والجهام والماضي والكهام»، وابن زمرك، وقد شارك في فنون أدبية مختلفة كالكتابة والشعر والموشحات، ويعرف بشاعر الحمراء؛ لأن مقر الحمراء في غرناطة مزدان بشعره.

ويوسف الثالث (ت٨٢٠هـ) اشتهر أميراً، ثم ملكاً شجاعاً، وشاعراً أصيلاً تبدو في أشعاره الحماسة العارمة والروح الدينية الوثابة، وابن فركون القيسي، وقد أدرك شطراً من القرن الثامن الهجري، وقدراً من القرن التاسع، ومن ممدوحيه يوسف الثالث، وجمع ما قيل فيه في كتاب سماه «مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر»، ترك ديوان شعر فيه المدح والغزل والوصف والإخوانيات والعتاب.

وعبد الكريم القيسي البسطي من شعراء القرن التاسع الهجري، وكانت ثقافته شرعية وأدبية، ويصور شعره جوانب العصر (أيام الأندلس الخيرة) التاريخية والاجتماعية.

- ب -

استعراض مفصل للشعراء

- آ- ابن هانئ:

علمٌ من أعلام الأدب الأندلسي، ولد في إشبيلية عام (٣٢٦هـ) وتوفِّي مخموراً مقتولاً في المغرب العربي عام (٣٦٢هـ) ولم يتجاوز السادسة والثلاثين، كان ميالاً إلى اللهو والمجون والزندقة والتمذهب بمذهب الفلاسفة، التقى بحاكم إشبيلية فأكرمه، ولكن أهلها سخطوا عليه، فأشار عليه أميرها بالنزوح لينسى خبره فهاجر إلى المغرب واتصل بجوهر الصقلي قائد المنصور الفاطمي وقرّبه المعز بن المنصور، وطلب منه جوهر أن يلتحق بمصر، فوجد مقتولاً في اليوم التالي.

ويعد من شعراء الطبقة الأولى، ترسَّم خطا المتنبي وأكثر من وصف الجيوش والمعارك، واعتمد على تغليب اللفظ على المعنى مشبهه المعري(برحىً تطحن القرون) ألفاظه فيها قعقعة، تكلّف الصنعة البديعية والتوشية في شعره واستعمل الجناس، ولم يصور البيئة الأندلسية، بل لجأ إلى تقليد شعراء الجزيرة، من ذلك قوله:

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظهرتها عدّةٌ وعديد

قبابٌ كما تزجى القباب على المها ... ولكنّ من ضمّت عليه أسود

ومن ذلك قوله في المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنّما أنت النبي محمدٌ ... وكأنّما أنصارك الأنصار

ومن رثائه قوله:

إنا وفي آمال أنفسنا ... طولٌ وفي أعمارنا قصرُ

لنرى بأعيننا مصارعنا ... لو كانت الألبابُ تعتبرُ

- ب- ابن شهيد الولادة (٣٨٢هـ):

ولد أحمد بن أبي مروان بن شهيد في أسرة شريفة في مدينة قرطبة، وقد كان كاتباً وشاعراً، طريف المعشر، يهوى النكتة والدعابة، ويحب مجالس الأنس، قرّبه إليه حاكم قرطبة المؤتمن، كتب في المدح والوصف والغزل، له باع طويل في النثر فقد كتب رسائل عدة في الحلواء ورسالة في وصف البرد والنار، وأهم رسائله (التوابع والزوابع) كتبتها على غرار رسالة الغفران للمعري، وقد امتاز شعره ونثره ببراعة الأسلوب وسعة الاطلاع والميل إلى القصص والفكاهة، وشاكل في شعره الجاحظ وابن المقفع، واتسم نثره بالسجع توفِّي عام (٤٢٦هـ).

- ج- المعتمد بن عباد:

أشهر ملوك الطوائف، والده المعتضد بالله ولد عام (٤٣١هـ) وتولى ملك إشبيلية عام(٤٦١هـ)استوزر ابن عماد الشاعر وأكرم الأدباء والعلماء، وبلغ ملكه إلى مرسية.

استنجد بيوسف بن تاشفين بعد أن هدده ألفونس السادس فدخل ابن تاشفين الأندلس وطرد القشتاليين وضم الأندلس إلى ملكه، وسجن المعتمد في سجن (أغمات) قرب مراكش.

توفِّي المعتمد في السجن عام (٤٨٨هـ).

اتخذ الشعر أداة للتعبير عن مشاعره، فوصف الطبيعة والخمر والملاهي، وكتب في الغزل، وأحبّ المعتمد (اعتماد الرميكية) وتزوجها وعاش أيامه الأخيرة سجيناً في أغمات كما عاش أبو فراس سجيناً في (خرشنة).

كانت أشعاره زافرات متقطعة من ذلك قوله:

غريبٌ بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسرير

مضى زمنٌ والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليوم وهو نفور

- د- ابن خفاجة:

ولد إبراهيم في جزيرة (شُقر) البلنسية عام ٤٥٤هـ. وعاش في أيام ملوك الطوائف على اللهو وكتب شعراً ونثراً في المدح والرثاء والشكوى والوصف وأولع بجمال الطبيعة

الأندلسية، وقد شخّص هذه الطبيعة فأحالها إلى نفوس ذات إحساس تنطق وتشكو، من ذلك قوله في وصف الجبل:

وأرعـــن طـــماح الذوابـــة بـــاذخ يطـــاول أعنـــان الـــسماء بغـــارب
وقـــورٌ عـــلى ظهـــر الفـــلاة كأنّـــه طـــوال الليـــالي مفكـــر في العواقـــب
أســـخط إليـــه وهـــو أخـــرس صـــامتٌ ليـــــل الـــــسرى العجائـــــب

وقد قلّد ابن خفاجة في نثره ابن العميد وبديع الزمان الهمذاني والتزم السجع والمحسنات اللفظية.

- هـ- لسان الدين الخطيب:

ولد محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني في غرناطة (٧١٣هـ) وأكبّ على العلم وصاحب العلماء والأدباء، فدرس اللغة والأدب والفلسفة والطب، وعمل وزيراً لأبي الحجاج يوسف ملك غرناطة، ثم لابنه.

اتهمه حسّاده بالزندقة، وقتل في سجن فاس ومن مؤلفاته (الإحاطة في تاريخ غرناطة) وفي (الحلل المرموقة) وكتاب الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) وكتاب (ريحانة الكتاب وبخعة المنتاب)، وقد كتب في التصوف والموسيقا والطب وشغف بأسلوب المجاز والبديع ومال الزخرف في كلامه له ديوان إن شعر يحتوي موشحات منها:

جـــادك الغيـــث إذا الغيـــث همـــى يـــا زمـــان الوصـــل في الأنـــدلس
لم يكـــــن وصـــــلك إلا حلـــــماً في الكـــــرى أو خلـــــسة المخـــــتلس

- و- ابن زيدون (٣٩٤هـ- ٤٦٣هـ)

١- حياته ومعالم شخصيته:

ولد ابن زيدون في قرطبة لوالد هو أحمد وجوه الفقهاء، فتثقف ثقافة جعلت ملكته الشعرية تستحكم، وهو في العشرين، انحاز إلى ابن جهور في الفتنة التي دارت ضد الأمويين وأصبح وزيراً في قرطبة، ثم بقي سفيراً بينه وبين ملوك الأمويين حتى وفاته.

تردد في مقتبل شبابه على منتدى ولادة بنت المستكفي فأعجب بها وأعجبت به، وجرت بينه وبين ابن عبدوس منافسات حول ولادة، فكاد له ابن عبدوس عند ابن جهور فاتهم بالخيانة وتدبير المؤامرات ونزع السلطة عنه وسجن ابن زيدون، ثم فرّ من السجن، وبقي متوارياً إلى أن توفِّي ابن جهور، وخلفه ابنه الوليد فاستوزره، ولكنه خشي انقلابه عليه فتركه وطاف في الجزيرة الأندلسية، فاستوزره المعتضد بن عباد، ثم ابنه المعتمد، وتوفِّي في فتنة ثورة إشبيلية على اليهود، بعد أن مرض أثناء سفارته لإخماد هذه الثورة ودفن في إشبيلية.

٢- الأغراض الشعرية:

كتب ابن زيدون معظم شعره في المديح والرثاء والغزل والشكوى:

أ- الغزل:

كتب معظم شعره الغزلي في ولادة بنت المستكفي ذلك أنه أحبها وتعلق بها تعلقاً شديداً، وأمضى أيامه مسترضياً إياها وهي التي كانت تقول:

أنا والله أصلحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وقد تلّون غزله بها بألوان الإشراق حيناً والبهجة والسرور حيناً آخر والحزن واليأس تارة ثالثة، وأكثر ما أثّر في نفسه القطيعة المرة عنها والتي أورثته حزناً بليغاً، فكان يظهر الحزن في قصائده التي يرسلها لها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا

يا ساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والودِّ يسقينا

ويا نسيم الصَّبا بلّغ تحيتنا من لو على البعد حيّاً كان يحيينا

فهي المنبع لغزل ابن زيدون، فمعظم ما قاله الشاعر في هذه الدائرة، ولم يعهد من الشاعر أنه كتب غزلاً في غيرها.

ب- الوصف:

فيأتي هذا الغرض عند ابن زيدون من خلال حديثه عن ولادة؛ إذ نجد الشاعر يصور لنا صداقته مع الطبيعة، وصداقة الطبيعة له وابتهاجها لحبه أحياناً، وحزنها على فراقه لولادة

أحياناً أخرى، والطبيعة الأندلسية مواتية لذلك، فهي تملك عناصر الرقة والجمال والافتتان، يقول ابن زيدون متغنياً بأيام الحبّ التي قضاها مع ولادة في حدائق الزهراء الساحرة:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله ... كأنّه رقّ لي فاعتلَّ إشفاقا
نلهو بما يستحيل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
وردٌ تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضّحى في العين إشراقا

ج- المديح:

وقد كتب ابن زيدون المديح كغيره من شعراء الأندلس استعطافاً وإبرازاً لعظمة ملوك الأندلس، ومن ذلك مديحه لابن جهور عندما كان سجيناً لديه:

إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ ... قد يودع الجفن حدُّ الصارم الذّكر
وَإِنْ يُثَبِّتْ أَبا الحَزْمِ الرِّضا قَدَرٌ ... عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلا عَتْبٌ عَلى القَدَرِ
من لم أزل تأتّيه على ثقة ... ولم أبت من تجنيه على حذر
وَزيرُ سِلْمٍ كَفاهُ يُمْنُ طائِرِهِ ... شُؤْمَ الحُروب ورأْيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ

د- الشكوى:

هو عرض كتب فيه ابن زيدون متذمراً مما حلَّ به بالسجن وإقصائه عن الوزارة وتحول قلوب الملوك عنه، وقد كان الشعر متنفساً له، من ذلك سينيته المعروفة:

ما على ظني بأس ... يجرح الدهر وياسو

٣- نظرة عامة في شعر ابن زيدون:

ظهر ابن زيدون كشاعرٍ من أهم شعراء الأندلس، ولقب بـ (بحتري المغرب) ساعده على ذلك نشأته في بيت علم؛ إذ اعتنى والده بتربيته اعتناءً كبيراً، فكانت شخصية ابن زيدون السياسية والفكرية والأدبية متألقة. استمد شاعرنا أفكاره من موردين أساسيين:

الأول: اطلاعه على الثقافة المعاصرة له.

الثاني: التجارب المستمدة من أحداث عصره.

وقد تلونت أفكار الشاعر بألوان شخصيته فجاء شعره متصفاً بالصفات التالية:

أ- عذوبة الأسلوب.

ب- حلاوة التعبير.

ج- حلاوة الموسيقا.

د- رشاقة الصورة.

هـ- التنسيق في فنون البديع (الترصيع – المقابلة).

و- ترتيب الألفاظ وتنسيق الجمل في بوح واحدة.

الباب الثاني عشر

نماذج من الشعر الأندلسي

١- عبد الرحمن الداخل:

تبـدّت لنـا وسْـط الرّصـافة نخلـةٌ ... تنـاءت بـأرض الغـرب عـن بلـد النخـل
فقلـت: شـبيهي في التغـرّب والنـوى ... وطـول التنـائي عـن بنـيّ وعـن أهـلي
نـشأت بـأرض أنـت فيهـا غريبـةٌ ... فمثلـك في الإقـصاء والمنتـأى مـثلي
سـقتك غـوادي المـزن في المنتـأى الـذي ... يـسُحُّ ويـستمري الـسماكين بالوبـل
يـا نخـلُ أنـت فريـدةٌ مـثلي ... في الأرض نائيـة عـن الأهـل
تبكـي وهـل تبكـي مكمّمـةٌ ... عجـماء لم تجبَـل عـلى جـبْلي
ولـو أنهـا عقلـت إذاً لبكـت ... مـاء الفـرات ومنبـت النخـل
لكنهـا حرمـت وأخرجنـي ... بغـضي بنـي العبـاس عـن أهـلي

٢- (رثاء الأندلس): أبو البقاء الرندي

لكـل شيءٍ إذا مـا تـم نقـصانُ ... فـلا يُغـرُّ بطيـب العـيش إنـسانُ
هـي الأيـامُ كـما شـاهدتها دُولٌ ... مَـن سَرَّهُ زَمـنٌ سـاءَتهُ أزمـانُ
وهـذه الـدار لا تُبقـي عـلى أحـد ... ولا يـدوم عـلى حـالٍ لهـا شـان
يُمـزق الـدهر حـتماً كـل سـابغةٍ ... إذا نبـت مـشْرفيّاتٌ وخُرصـانُ
وينتـضي كـلّ سـيف للفنـاء ولـوْ ... كـان ابـنَ ذي يـزَن والغمـدَ غُمـدان
أيـن الملـوك ذَوو التيجـان مـن يمـنٍ ... وأيـن مـنهم أكاليـلٌ وتيجـانُ
وأيـن مـا شـاده شـدَّادُ في إرمٍ ... وأيـن مـا ساسـه في الفـرس ساسـانُ
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب ... وأيـن عـادٌ وشـدادٌ وقحطـانُ

أتـــى عـــلى الكُـــل أمـــر لا مَـــرد لـــه ... حتـــى قَـــضَوا فكـــأن القـــوم مـــا كـــانوا

وصـــار مـــا كـــان مـــن مُلـــك ومـــن مَلِـــك ... كـــما حكـــى عـــن خيـــال الطّيـــفِ وسْـــنانُ

دارَ الزّمـــــانُ عـــــلى (دارا) وقاتِلِـــــه ... وأمَّ كـــــسرى فـــــما آواه إيـــــوانُ

كـــأنما الـــصَّعب لم يـــسْهُل لـــه ســـببُ ... يومـــاً ولا مَلـــكَ الـــدُنيا سُـــليمانُ

فجـــائعُ الـــدهر أنـــواعٌ مُنوَّعـــة ... وللزمـــان مـــسرّاتٌ وأحـــزانُ

وللحـــوادث سُـــلوان يـــسهلها ... ومـــا لمـــا حـــلّ بالإســـلام سُـــلوانُ

دهـــى الجزيـــرة أمـــرٌ لا عـــزاءَ لـــه ... هـــوى لـــه أُحـــدٌ وانهـــد ثهـــلانُ

أصـــابها العـــينُ في الإســـلام فامتحنـــتْ ... حتـــى خَلـــت منـــه أقطـــارٌ وبُلـــدانُ

فاســـأل (بلنـــسيةً) مـــا شـــأنُ (مُرســـيةً) ... وأيـــنَ (شـــاطبةٌ) أمْ أيـــنَ (جَيَّـــانُ)

وأيـــن (قُرطبـــةٌ) دارُ العلـــوم فكـــم ... مـــن عـــالمٍ قـــد ســـما فيهـــا لـــه شـــانُ

وأيـــن (حمـــصُ) ومـــا تحويـــه مـــن نـــزهٍ ... ونهرهُـــا العَـــذبُ فيـــاضٌ ومـــلآنُ

قواعـــدٌ كـــنَّ أركـــانَ الـــبلاد فـــما ... عـــسى البقـــاءُ إذا لم تبـــقَ أركـــانُ

تبكـــي الحنيفيـــةَ البيـــضاءُ مـــن أســـفٍ ... كـــما بكـــى لفـــراق الإلـــفِ هـــيمانُ

عـــلى ديـــار مـــن الإســـلام خاليـــة ... قـــد أقفـــرت ولهـــا بـــالكفر عُمـــرانُ

حيـث المساجد قـد صـارت كنـائسَ مـا ... فـــيهنَّ إلا نـــواقيسٌ وصُـــلبانُ

حتـــى المحاريـــبُ تبكـــي وهـــي جامـــدةٌ ... حتـــى المنـــابرُ ترثـــي وهـــي عيـــدانُ

يـــا غـــافلاً ولـــه في الـــدهرِ موعظـــةٌ ... إن كنـــت في سِـــنَةٍ فالـــدهرُ يقظـــانُ

وماشـــياً مرحـــاً يلهيـــه موطنـــهُ ... أبعـــد حمـــصٍ تَغـــرُّ المـــرءَ أوطـــانُ

تلـــك المـــصيبةُ أنـــستْ مـــا تقـــدمها ... ومـــا لهـــا مـــع طـــولَ الـــدهرِ نـــسيانُ

يـــا راكبـــين عتـــاق الخيـــلِ ضـــامرةً ... كأنهـــا في مجـــال الـــسبقِ عقبـــانُ

وحـــاملين ســـيُوفَ الهنـــدِ مرهفـــةً ... كأنهـــا في ظـــلام النقـــع نـــيرانُ

وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ ... فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ما ذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ ... وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ

ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

يا من لذلةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ ... أحال حالهمْ جورُ وطُغيانُ

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفر عُبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهمْ ... عليهمُ من ثيابِ الذلِ ألوانُ

ولو رأيتَ بكاهُم عندَ بيعهمُ ... لهالكَ الأمرُ واستهوتكَ أحزانُ

يا ربَّ أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما ... كما تفرقَ أرواحٌ وأبدانُ

وطفلة مثل حسنِ الشمسِ إذ طلعت ... كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ

يقودُها العلجُ للمكروه مكرهةً ... والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

٣- وقال ابن خفاجة:

(وأرعن طماح الذؤابة باذخ)

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بغارب

يسد مهب الريح عن كل وجهة ... ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب

وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالي مفكر في العواقب

يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب

أصخت إليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ليل السرى بالعجائب

وقال إلى كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتل تائب

وكم مر بي من مدلج ومؤوب ... وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب
فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ... ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعي وإنما ... نزفت دموعي في فراق الصواحب
فمتى متى أبقى ويظعن صاحب ... أودع منه راحلاً غير آيب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهرا ... فمن طالع أخرى الليالي وغارب
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع ... يمد إلى نعماك راحة راغب
فأسمعني من وعظه كل عبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلَّى بما أبكى وسرَّى بما شجا ... وكان على عهد السرى خير صاحب
وقلت وقد نكبت عنه لطية ... سلام فإنا من مقيم وذاهب

٤- قال الحصري القيرواني:

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده
رقد السمار فأرقه ... أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له ... مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذي هيف ... خوف الواشين يشرده
نصبت عيناي له شركا ... فى النوم فعز تصيده
وكفى عجباً أنى قنص ... للسرب سباني أغيده
صنم للفتنة منتصب ... أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى فمه ... سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفا ... وكأن نعاساً يغمده

فيريـــــق دم العـــــشاق بـــــه ... والويـــــل لمـــــن يتقلـــــده

كـــــلا لا ذنـــــب لمـــــن قتلـــــت ... عينـــــاه ولـــــم تقتـــــل يـــــده

يـــا مـــن جحـــدت عينـــاه دمـــي ... وعلـــــى خديـــــه تـــــورده

خـــداك قـــد اعترفـــا بدمـــي ... فعـــــلام جفونـــــك تجحـــــده

إني لأعيـــــذك مـــــن قتلـــــي ... وأظـنـــــك لا تتـعـمـــــده

بـــالله هـــب المـــشتاق كـــرى ... فلعـــــل خيالـــــك يـــــسعده

مـــا ضرك لـــو داويـــت ضـــنى ... صـــــب يدنيـــــك وتبعـــــده

لم يبـــق هـــواك لـــه رمقـــا ... فليبـــــك عليـــــه عـــــوده

وغـــدا يقـــضى أو بعـــد غـــد ... هـــل مـــن نظـــر يتـــزوده

يـــا أهـــل الـــشوق لنـــا شـــرق ... بالدمـــــع يفيـــــض مـــــورده

يهـــوى المـــشتاق لقاءكـــمُ ... وصروف الدهـــــر تبعـــــده

مـــا أحـــلى الوصـــل وأعذبـــه ... لـــــولا الأيـــــام تنكـــــده

بالبيـــــن وبالهجـــــران فيـــــا ... لفـــــؤادي كيـــــف تجلـــــده

الباب الثالث عشر

الموشحات الأندلسية

أولاً: مصطلحات شعرية وتوشيحية:

أ- مقدمة:

اختلف الدارسون في فن الموشحات، فاعتبره البعض رديفاً للترابدور، وعزاه بعضهم الآخر إلى أصول عربية تنطلق من النشيد الذي استقبل به أهل المدينة المنورة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في ثنية الوداع ونسبه بعض آخر لابن المعتز العباسي.

ب- معنى الموشح:

١- لغة:

الوشاح: الثوب أو القلادة التي تتشح به الفتاة، ويكون مرصعاً بالجواهر ويشد من بين العاتق والخصر.

٢- اصطلاحاً:

كلام منظوم على أوزان مخصوصة مخالفة لبحور الخليل، وقد جمع ابن سناء الملك في كتابه (دار الطراز) حوالي مئة وثمانين وزناً.

ج- نشوء الموشحات:

نظراً لوجود الطبيعة الجميلة وانتشار اللهو والغناء فقد نشأ على ألسنة العامة لون جديد من الشعر الغريب المنوع القوافي والقريب من الزجل، وقد بقي هذا الفن مسموعاً لا مكتوباً حتى جاء الدارسون فأطّروه في الكتب، وقد اختلف الأقدمون في نسبة هذا اللون من الشعر إلى محمد بن محمود القبري الضرير، ومقدم بن معافى، ولم يذكر لهذين الرجلين شأن حتى جاء عبادة بن ماء السماء فجعل الموشحة فناً قائماً بداية له أسسه وتقاليده.

د- أقسام الشعر:

ومن المعروف أن الشعر العربي يقسم من حيث القافية إلى أجناس (قصيد - ورجز - ومسمط)، وكلها فنون قديمة.

١- فالقصيدة:

أبيات متوالية ومختومة بمجموعات متماثلة من الأحرف تدعى قافية، وتكون هذه المجموعات كلها مبنية على حرف واحد مخصوص يسمى (روياً).

٢- أما الرجز:

فهو بحر من بحور الشعر تنظم عليه الأراجيز تتكرر فيه تفعيلة (مستفعلن) ست مرات، والأرجوزة أشطر وتر (مفردة) مبنية كلها على حرف روي واحد، تجيء الأشطر شفعاً (مزدوجة) ويكون لكل شطرين (الصدر والعجز) في كل بيت من أبياتها قافية على روي واحد.

٣- أما المسمط:

فيقوم على اختلاف القوافي والأوزان معاً، فالتسميط هو تنوع القوافي والأوزان في المقطوعة الشعرية الواحدة، وهو أن يبتدئ الشاعر ببيت مصوغ، ثم يأتي بأربعة أقسام على غير قافيته، ثم يعيد قسماً واحداً من جنس ما ابتدأ به مثل قول امرئ القيس:

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

مرابع من هند خلت ومصائف يصيح بمغناها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رداف

بأسحم من نوء السماكين هطال

٤- أما الموشح:

قطعة شعرية طويلة في الأغلب تتألف من مقاطع تترتب فيها الأشطر والقوافي على نسق مخصوص، فإذا اختار الوشاح نسقاً ما في المقطع الأول من موشحته، وجب عليه أن يلتزم ذلك النسق بعينه في سائر مقاطع تلك الموشحة.

ثانياً - نشأة الموشحات:

أ- الموشحات تطور جديد في تاريخ الشعر العربي منذ الجاهلية وحتى انطلاقة الثورة الشعرية الثانية في الخمسينيات من القرن العشرين أي – حركة شعر التفعيلة – ونجد بينهما

إرهاصات ثورية فردية، لكن هذه الإرهاصات التي سبقت الموشحات، أو سبقت حركة الشعر الحر لم تتجاوز الإطار الفردي لظواهر جنينية، يمكن تأطيرها في مجال المقدمات.

ب- لقد نشأت الموشحات في القرن التاسع الميلادي في إسبانيا، نتاجاً لتفاعل.

د- الثقافة العربية مع البيئة الأندلسية والثقافة الإسبانية المحلية، وقد نشأت الموشحات عن هذا التفاعل فجاءت مختلفة عن الشعر العربي القديم، رغم أنها لم تنقطع تماماً عنه.

ج- وولدت الموشحات أيضاً من تفاعل عدة لغات ولهجات منها: (العربية الفصحى- والعامية العربية الأندلسية- ولغة الرومانثي) الإسبانية المتفرعة عن اللاتينية والعامية الرومانثية، حيث تتفاعل أربعة مستويات لغوية لتنتج الموشحات، وبما أن اللغة العربية كانت هي اللغة الرسمية في إسبانيا، فقد كان الموشح مطبوعاً بطابعها، مما جعل التأثيرات اللغوية الأخرى ثانوية، ثم حين ترسخت العامية العربية الأندلسية الجديدة نشأت عن الموشحات وتفرعت منها قصائد الزجل العامية، وقد تولدت مجموعة من الإشكاليات نتجت عن ظهور الموشحات.

د- يقال:

١- إن مخترع الموشحات الأول: هو مقدم بن معافي القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني.

٢- وقيل: إنه أول من نظم الموشحات بالمغرب الإمام أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد.

٣- عدد الموشحات المحفوظة يصل إلى ٤٤٧ موشحة لسبعين وشاحاً، ولكن المؤكد أنها أكثر من ذلك.

٤- ومن شعراء الموشحات: (أبو بكر بن ماء السماء – أبو عبادة القزاز – الأعمى التطيلي – ابن بقي – ابن اللبانة – لسان الدين بن الخطيب – ابن زمرك – ابن سهل الإشبيلي – ابن زهر – والفيلسوف ابن باجة...إلخ).

ثالثاً- الإشكاليات والموشحات:

أ- تعريف الموشح:

كلام منظوم على وزن مخصوص من الوزن.

ب- ممَّ يتألف الموشح؟

ويتألف من ستة أقفال ويقال له التام، وفي الأقل خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع.

١ - فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال.

٢ - والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات.

٣- والأبيات هي أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر.

٤ - والقفل يتردد في الموشح ست مرات في التام، وخمس مرات في الأقرع.

٥ - أقل ما يتركب القفل من جزأين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء، وقد يوجد في النادر ما قفله تسعة أجزاء وعشرة أجزاء.

٦ - والبيت لابد أن يتردد في التام وفي الأقرع خمس مرات، وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء، وقد يكون في النادر من جزأين، وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف، وهذا لا يكون إلا فيما أجزاؤه مركبة وأكثر ما يكون خمسة أجزاء.

٧- والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً.

٨- والجزء من البيت قد يكون مفرداً، وقد يكون مركباً من القفل ولا يتركب إلا من فقرتين أو من ثلاث فقر، وقد يتركب في الأقل من أربع فقر.

ج- أقسام الموشحات:

وتنقسم الموشحات إلى قسمين:

١- الأول: ما جاء على أوزان أشعار العرب

وينقسم إلى قسمين:

أ- ما لا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري، وما كان من الموشحات على هذا النسيج فهو المرذول وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء، اللهم إلا إن كانت قوافي قفله مختلفة فإنه يخرج باختلاف قوافي الأقفال من المخمسات، وفي شجعان الوشاحين من يأخذ بيت شعر مشهوراً، فيجعله خرجة ويبني موشحه عليه، وفي الوشاحين من أهل الشطارة من يأخذ بيتاً من أبيات المحدثين فيجعله بألفاظه في بيت من أبيات موشحه.

ب- ما تخللت أقفاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة، تخرجه عن أن يكو ن شعراً صرفاً وقريضاً محضاً، ومثال الحركة هو أن تجعل على قافية في وزن ويتكلف شاعرها أن يعد تلك الحركة عينها وبقافيتها.

٢- ثانياً: ما لا وزن له فيها

ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب

وهذا القسم منها هو الكثير، وأكثره مبني على تأليف الأرغن والغناء بها على غير الأرغن وعلى سواه مجاز، وموشحاته لا تنضبط على أوزان العرب وتنقسم **الموشحات من حيث الوزن إلى خمسة أقسام:**

١ – الأول ما كان على الوزن الشعري التقليدي.

٢ – والثاني ما أخرجته عن الوزن الخليلي حركة أو كلمة.

٣– والثالث ما اشترك فيه أكثر من وزن واحد.

٤ – والرابع ما له وزن غير الأوزان الخليلية ويدركه السمع عند قراءته.

٥ – والخامس ما ليس له وزن واحد يدركه السمع عند قراءته ولا يوزن إلا بالتلحين، وذلك بمد حرف وقصر آخر وإدغام حرف في حرف وغير ذلك من فنون التلحين.

هـ- والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين:

١ – قسم لأبياته وزن يدركه السمع ويعرفه الذوق.

٢ – وقسم مضطرب الوزن، مهلهل النسج، مفكك النظم وهذا لا يعلم صالحه من فاسده إلا بميزان التلحين، فيجبر التلحين كسره.

و- والموشحات تنقسم من جهة (رابعة) إلى قسمين:

١- قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه وهو أكثرها.

٢- وقسم لا يحتمله التلحين ولا يمشي به إلا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغني، فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول: (لا لا) بين الجزأين من هذا القفل.

ومما سنه القول في أكثر الموشحات المدحية أن يختم الموشح بالغزل ويخرج من المدح إليه وبالعكس، وهذا هو الأكثر والموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد (المكفر).

وهذه قائمة بأسماء شعراء الموشحات ((ممن سبق إلى التوشيح، وسبق إلى الغاية من أهل المغرب)):

ز- شعراء الموشحات في الأندلس:

١- عبادة بن ماء السماء.

٢- أبو بكر بن عبادة القزاز.

٣- عبادة بن محمد بن عبادة الأقرع.

٤- أبو العباس التطيلي.

٥- أبو بكر بن بقي.

٦- أبو بكر الأبيض الشاعر.

٧- ابن عبد ربه (صاحب العقد).

٨- أبو بكر بن اللبانة.

٩- أبو عبد الله محمد بن رافع رأسه.

١٠- علي بن عبد الغني الحصري.

١١- محمد بن الحسن البطليوسي الكميت.

١٢- أبو عبد الله محمد بن شرف.

١٣- أبو القاسم منيشي.

١٤- أبو بكر يحيى بن الصيرفي.

١٥- يونس بن أبي عيسى المرسي الشاعر الخباز.

١٦- أبو بكر السرقسطي الجزار.

١٧- ابن الفرس.

١٨- أبو عيسى بن لبون.

١٩- أبو بكر بن رحيم.

٢٠- أبو عامر بن ينق.

٢١- أبو بكر محمد بن زهر الحفيد.

٢٢- أحمد بن مالك السرقسطي.

٢٣- ابن حمديس.

٢٤- أبو بكر بن ملوك قرطبة.

٢٥- ابن جاخ الصباغ.

٢٦- علي بن الحسن بن معبد القرشي المعروف بتلل الغد.

٢٧- ابن هاني الأصغر.

٢٨- ذو الوزارتين أبو عمار.

٢٩- ابن أبي الرحال.

٣٠- ابن الزقاق.

٣١- أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المرحل.

٣٢- إبراهيم بن سهل الإسرائيلي.

ح- وقد قسم الدارسون الموشح إلى:

١- **المطلع والمذهب:** مطلع الموشح ويسمى مذهبه: هو المجموعة الأولى من الأقسام وأقلها اثنان، ولا يشترط أن يكون لكل موشح مطلع فإن وجد سمي الموشح تاماً وإلا فهو أقرع.

٢- **القفل:** تتردد قوافي المطلع بالعدد والنظام نفسه في الموشح بطريقة معينة وتسمى حينئذ بالأقفال، وليس لها عدد محدود، وأغلب الموشحات لها خمسة أقفال.

٣- **الخرجة:** هي آخر قفل في الموشح ومع أن المطلع ليس ركناً أساسياً في الموشح إلا أن الأقفال والخرجة في غاية الأهمية ودونها لا يستوفي الموشح شروطه ويجوز للوشاح أن يجعل خرجته باللفظ العجمي، ولما كانت الخرجة في أغلب الأحوال قولاً يورده الوشاح في صورة الحديث المباشر، فإن الدور الذي يسبق الخرجة يتضمن اللفظ ((قلت وقالت.. أو غنى وشدا))، وهو تقليد لم ينفرد به الوشاحون؛ لأنه موجود في الشعر العربي القديم السابق للموشحات.

٤- **الدور:** يعقب المطلع في الموشح التام أقسام تختلف عن قوافي المطلع والقفلة والخرجة والحد الأدنى لهذه الأقسام ثلاثة وقد تكون أربعة وخمسة ولا تتجاوز ذلك إلا نادراً، ولكن ليس في شروط الوشحة ما تمنع وصولها لأي عدد، وبعد كل – دور – يأتي قفل ويختتم الموشح بالخرجة.

٥- **البيت:** يختلف البيت في الموشح عنه في القصيدة والأرجوزة والمسمطة، في القصيدة هو مصراعان، وفي الأرجوزة قسيم واحد وفي المزدوجة قسيمان، وفي المسمطة هو عدد من القوافي الفرعية مع واحدة من القوافي التي تسمى عمود القصيدة، أما في الموشح فالبيت هو الدور مع القفل الذي يليه.

٦- **الغصن:** هو القسم الواحد من المطلع أو القفلة أو الخرجة وأقل عدد الأغصان المطلع اثنان من القافية نفسها.

٧- **السمط:** يكون السمط مفرداً، وقد يكون مركباً من فقرتين فأكثر، وتكون قوافي الأسماط متماثلة، والبيت يشتمل على أسماط وأغصان.

وللموشح طريقة خاصة في التقفية هي التي تميزه عن غيره من ألوان النظم العربي وزعم بعض النقاد: أن الموشح مرحلة انتقالية في طريقة النظم العربي من حيث التقفية، والمعروف أن الرجز هو أقدم ألوان النظم العربي بعد أن كانت القوافي في أول الأمر صوتية، وقد كان هذا اللون من النظم خاصاً في أول الأمر ببحر الرجز، ثم انتقل إلى غيره من بحور الشعر كالمتقارب والهزج والسريع، وأقدم ما نجده من الأراجيز الأندلسية أرجوزة لعبد الرحمن الداخل.

ثم دخلت التقفية في مرحلة جديدة هي التي نراها في القصيدة، وهي إرسال الأقسام الفردية (ما عدا الأول أي صدر مطلع القصيدة) وجعل الأقسام الزوجية من القافية نفسها، وشملت هذه الطريقة كل بحور الشعر حتى بحر الرجز، وقد تلت هذه الخطوة، خطوة أخرى بظهور الأرجوزة المزدوجة التي لكل قسمين منها قافية خاصة، وقد استعملها الشعراء والعلماء لتيسير حفظ العلوم والمعارف كما فعل ابن إبَّان بن عبد الحميد اللاحقي في نظم كتاب كليلة ودمنة.

ومن قدامى الأندلسيين الذين نظموا على هذه الطريقة – يحيى الغزال، وكانت الخطوة التي تلت هذه أن زاد عدد الأقسام التي لها القافية نفسها عند اثنين، فأصبحت القصيدة بصورتها الجديدة: ثلاثية أو رباعية أو خماسية، والرباعيات تطور لفن المزدوجة مثل المثلثات، أما المسمط: فهو أن تجمع عدة سلوك في ياقوتة – ثم تنظم كل سلك منها على حدته باللؤلؤ، ثم تجمع السلوك كلها في زبرجدة، ثم تنظم كل سلك على حدته وتصنع به كما صنعت أولاً، إلى أن يتم السمط.

- **ومن أنواع السمط:** – المثلث– والمربع– والمخمس: وهو الأكثر انتشاراً والشرط في الشعر المسمط أن تتكسر قافية واحدة تسمى عمود القصيدة، وللشاعر بعد ذلك الحرية في اختيار العدد الذي يروق له من القوافي الفرعية، وأقصى ما وصل إليه هو المثمن، ويرجح أن التسميط، تطوير عباسي للتسهيم وقدامة يسميه التوشيح، وقد كان معروفاً منذ العصر الجاهلي.

أ– مثل قول امرئ القيس:

١ - أفاد

٢ - فساد

٣- وقاد

٤ - فزاد

٥ - وساد فجاد

٦ - وعاد فأفضل.

ب- أو قوله:

١ - فتور القيام

٢ - قطوع الكلام

٣- تفتَّر عن ذي غروب أشر

ج- أو قول الخنساء:

١ - حمال ألوية

٢ - هباط أودية

٣- شهاد أندية

٤ - للجيش جرار.

ويعمد الوشاحون إلى حيل كثيرة ليخرجوا بها موشحاتهم عن مشابهة عن مشابهة أوزان الشعر التقليدية إذا حدث مثل هذا الشبه بأن يقحموا كلمة يخرج بها الوزن عما هو مألوف، ويعمدون أيضاً إلى التنويع في الأوزان الموشحة الواحدة، ومن صور التنويع في الوزن: اختلاف عدد تفعيلات البحر الواحد بين غصن وآخر وفي فقر السمط الواحد، كأن يكون في غصن أو فقرة تفعيلة واحدة وفي الغصن أو الفقرة التالية تفعيلتان، وإذا لجأ الوشاحون إلى الأوزان التقليدية لجؤوا للبحور المهملة والمجزوءة مثل: مخلع البسيط والرمل والمجتث والمقتضب.

ط- وقسم البعض الموشح إلى أنساق على النحو التالي:

أولاً: النسق المؤتلف: يكون عادة في الموشحات التي على الأبحر المألوفة من الرمل في الأغلب، ويكون للموشح مطلع، ثم تليه أبيات، ويكون كل بيت من أسماط وقفل (أو قفلة) وهناك ثلاث درجات من الموشح المؤلف:

١- الموشحة المفردة: مثل موشحة أبي بكر بن زهر الحفيد (أيها الساقي)، فالمطلع في الموشحة المفردة يتركب من سمطين لكل سمط منهما قافية مستقلة، أما البيت فيتركب من خمسة أسماط: ثلاثة أسماط على روي واحد، ثم سمطين: قافية كل منهما على روي السمط المقابل له في المطلع.

٢- الموشحة المثناة: تكون الأسماط في مطلعها أربعة أي مضاعفة ويبنى صدرا المطلع على روي وعجزاه على روي آخر، وكذلك يكون البيت في الموشحة المثناة مضاعفاً(ستة أسماط بروي لصدورها وروي آخر لأعجازها، ثم أربعة أسماط في القفلة تقابل بقوافيها قوافي المطلع، مثل موشحة ابن سهل (هل درى ظبي الحمى).

٣- الموشحة المتعددة: يكون المطلع فيها مركباً من ستة أسماط مجزوءة ويكون البيت فيها بالتالي ثلاثة أضعاف البيت في الموشحة المفردة، مثل موشحة ابن زهر (ما للموله من سكره لا يفيق).

ثانياً: النسق المختلف: هي موشحات لم يتبع الوشاحون فيها قاعدة ما، بل كان كل وشاح يختار من ترتيب الأشطر، ومن ترتيب القوافي ما كان يروق له أو يتفق له من أجل ذلك قلَّ أن نجد موشحتين على نسق مختلف واحد، وخصوصاً إذا كان الوشاح قد تصرف في الأوزان، فأتى ببحور الشعر مجزوءة على أقدار متفاوتة أو إذا خرج من موشحته عن أوزان العرب جملة، ومن أمثلة النسق المختلف – موشحة أبي بكر بن الأبيض: ((ما لذ لي شراب راح)).

وأما (الأعاريض) فهي: الكلمة الأخيرة في كل شطر من أشطر الموشحة (القافية والخرجة هي: القفل أو الأشطر الأخيرة في الموشحة، وتكون في العادة باللغة الفصحى، غير أن بعضهم

يستعمل الخرجة باللغة العامية، وربما جعلوا هذه الألفاظ أو الأشطر باللغة الأعجمية (لغة نصارى الأندلس، وهي لهجة رومانثية: مزيج من اللاتينية العامية ومن بقايا المحلية).

١- خرجة لابن بقي (عامية):

قـــــد بلينـــــا وابتلينـــــا (واش) يقـــول النـــاس فينـــا

قـــم بنـــا يـــا نـــور عينـــي نجعـــل الـــشك يقينـــا

٢- خرجة لأبي بكر بن رحيم (أعجمية):

لمـــــرني أو كـــــدش دبيـــــب حـــسب ســـم بغـــاد رد مـــسيد

ثالثاً- موضوعات الموشحات ومعانيها

استوعب فن الموشحات قسماً من أغراض الشعر العربي كالغزل والرثاء والفخر والمجون والزهد والوصف والخمرة، وتأتي قيمة هذه الموشحات من كونها ثورة على الشعر العربي تبحث عن التجديد في النقاط التالية:

١ - التحرر من رتابة الأوزان إلى تنويعها.

٢ - استعمال اللغة العذبة والعبارات الغنائية.

٣ - الاحتفاء بالزخارف والهندسة البيانية والبديعية.

٤ - التجديد في الشكل والمضمون.

وتكاد موضوعات الموشحات ومعانيها تكون الموضوعات والمعاني نفسها التي طرقها الأقدمون إضافة إلى مواضيع جديدة لم تنقطع تماماً في جدتها عن الماضي.

والموشحات تنقسم إلى قسمين: قسم أقفاله وزن أبياته حتى كأن أجزاء الأبيات من أجزاء الأقفال، وقسم: أقفاله مخالفة لأوزان أبياته، وهذا القسم لا يجسر على عمله إلا الراسخون في العلم من أهل هذه الصناعة، فأما من كان طفيلياً فتظهر فضيحته فيه وقت غنائه، والمعنى يحتاج إلى أن يغير شد الأوتار عند خروجه من القفل إلى البيت وعند خروجه من البيت إلى القفل.

الباب الرابع عشر

نماذج من الموشحات

١- قال أبو العلاء ابن زُهر:

أيهـــا الـــساقي، إليـــك المُـــشتكى ... قـــد دعونـــاك وإن لم تـــسمع
ونـــديمٍ هِمْـــتُ في غُرّتـــه ... وبـــشرب الـــراح مـــن راحـــته
كلـــما اســـتيقظ مـــن سكرتـــه ... جـــذب الـــزقّ إليـــه واتـــكى
وســـقاني أربعـــاً في أربـــع ... مـــا لعينـــي عَـــشِيَت بـــالنظر
أنكـــرَت بعـــدَك ضـــوءَ القمـــر ... فـــإذا مـــا شـــئت فاســـمع خـــبري
عَـــشِيَت عينـــاي مـــن طـــول البُكـــا ... وبـــكى بعـــضي عـــلى بعـــضي معـــي
غـــصن بـــانٍ مـــال مـــن حيـــث التـــوى ... بـــات مـــن يهـــواه مـــن فـــرط الجـــوى
خفـــق الأحـــشاء موهـــون القِـــوى ... كلـــما فكّـــر في البـــين بكـــى
ويحـــه يبكـــي لمـــا لم يـــقـــع ... لـــيس لي صـــبرٌ ولا لي جلـــدُ
يـــا لقـــومي عـــذلوا واجتهـــدوا ... أنكـــروا دعـــوايَ ممـــا أجـــدُ
مثـــلُ حـــالي حقّـــه أن يُـــشتكى ... كمـــدُ اليـــأس وذلّ الطمـــعِ
كبـــدٌ حَـــرّى ودمـــعٌ يَكـــف ... يـــذرفُ الـــدمعَ ولا ينـــذرف
أيهـــا المعـــرضُ عـــمّا أصـــفُ ... قـــد نـــما حبـــي بقلبـــي وزكـــا
لا تخـــل في الحـــب أني مُـــدّعي

٢- قال إبراهيم بن سهل الأندلسي:

هـــل درى ظبـــي الحـــمى أن قـــد حمـــى ... قلـــبَ صـــبٍّ حلّـــه مـــن مكنـــسِ
فهـــو في حـــر وخفـــق مـــثلما ... لعبـــت ريـــحُ الـــصبا بـــالقبس

يـــا بـــدوراً أشرقـــت يـــوم النـــوى ... غُـــرراً تـــسلكُ بي نـــهجَ الغـــرر
مـــا لنفـــسي في الهـــوى ذنـــب ســـوى ... مـــنكمُ الحـــسنى ومـــن عينـــي النظـــر
أجتنـــي اللـــذات مكلـــومَ الجـــوى ... والتـــــداني في حبيبـــــي بـــــالفكر
كلـــما أشـــكوه وجـــدي بـــسما ... كـــالربى بالعـــارض المنجـــبس
إذ يقـــيم القطـــرُ فيهـــا مأتمـــا ... وهـــي مـــن بهجتهـــا في عُـــرُس
غالـــبٌ لي غالـــبٌ بـــالتُوءدة ... بـــأبي أفديـــه مـــن جـــافٍ رقيـــق
مـــا علمنـــا مثـــلَ ثغـــرٍ نـــضّدنه ... أُقحوانـــاً عُـــصرت منـــه رحـــيق
أخـــذت عينـــاه منـــه العربـــدة ... وفـــؤادي ســـكره مـــا إن يفيـــق
فـــاحم اللمـــة معـــسول اللمـــى ... ســـاحر الغـــنج شـــهيَ اللَّعـــس
وجهـــه يتلـــو "الـــضحى" مبتـــسماً ... وهـــو مـــن إعراضـــه في "عـــبس"
أيهـــا الـــسائل عـــن جُرمـــي لديـــه ... لي جـــزاء الـــذنب وهـــو المـــذنبُ
أخـــذت شـــمس الـــضحى مـــن وجنتيـــه ... مَـــشرقاً للـــشمس فيـــه مغـــرب
ذهـــب الـــدمع بأشـــواقي إليـــه ... ولـــه خـــدٌ بلحظـــي مُـــذهَبُ
ينبِـــتُ الـــوردُ بلحظـــي كلـــما ... لاحظتـــه مقلتـــي في الخُلَـــس
ليـــت شـــعري أيّ شيء حرّمـــا ... ذلـــك الـــوردَ عـــلى المغـــترس
كلـــما أشـــكو إليـــه حُرقـــي ... غـــادرتني مقلتـــاه دنِفـــا
تركـــت ألحاظـــه مـــن رمقـــي ... أثـــر النمـــل عـــلى صُـــمّ الـــصفا
وأنـــا أشـــكره فـــيما بَقـــي ... لـــستُ ألحـــاه عـــلى مـــا أتلفـــا
فهـــو عنـــدي عـــادل إن ظلـــما ... وعـــذولي نطقُـــه كـــالخرس
لـــيس لي في الأمـــر حكـــم بعـــدما ... حـــل مـــن نفـــسي محـــلّ الـــنفس
أضرم النـــار بأحـــشائي ضِرام ... تتلظـــى كـــلّ حـــين مـــا تـــشاء

هـــي في خدّيـــه بـــردٌ وســـلام وهـــي ضُرّ وحريـــق في الحـــشا
أتقـــي منـــه عـــلى حكـــم الغـــرام أســـداً ورداً وأهـــواه رشـــا
قلـــت لمـــا أن تبـــدّى مُعلـــما وهـــو في ألحاظـــه في حـــرس
أيهـــا الآخـــذ قلبـــي مغـــنما اجعـــل الوصـــل مكـــان الخُمُـــس

ولقد عارض هذا الموشح شعراء كثيرون قديماً وحديثاً أشهرهم:

٣- قال الوزير لسان الدين ابن الخطيب:

جـــادكَ الغيـــث إذا الغيـــث هـــمى يـــا زمـــانَ الوصـــل بالأنـــدلسِ
لم يكـــن وصـــلك إلا حلُـــما في الكـــرى أو خِلـــسة المختـــلس
إذ يقـــود الـــدهر أشـــتات المنـــى ينقـــل الخطـــو عـــلى مـــا يرســـم
زمَـــراً بـــين فُـــرادى وثُنـــى مـــثلما يـــدعو الوفـــودَ الموســـمُ
والحيـــا قـــد جلـــل الـــروض ســـنا فثغـــور الـــروض عنـــه تبـــسم
وروى الـــنعمان عـــن مـــاء الـــسما كيـــف يـــروي مالـــك عـــن أنـــس
فكـــساه الحـــسن ثوبـــاً مُعلّـــما يزدهـــي منـــه بـــأبهى ملـــبس
في ليـــالٍ كتمـــت سر الهـــوى بالـــدجى لـــولا شـــموسُ الغـــرر
مـــال نجـــم الكـــأس فيهـــا وهـــوى مـــستقيمَ الـــسير ســـعد الأثـــر
وطـــرٌ مـــا فيـــه مـــن عيـــب ســـوى أنـــه مـــرّ كلمـــح البـــصر
حـــين لـــذّ الأنـــس شـــيئاً أو كـــما هجـــم الـــصبح هجـــوم الحـــرس
غـــارت الـــشهب بنـــا أو ربـــما أثـــرت فينـــا عيـــون النـــرجس
أي شيء لامـــرئ قـــد خلـــصا فيكـــون الـــروضُ قـــد مكـــن فيـــه
تنهـــب الأزهـــار منـــه الفرصـــا أمنـــت مـــن مكـــره مـــا تتقيـــه
فـــإذا المـــاء تنـــاجى والحـــصا وخـــلا كـــل خليـــل بأخيـــه

تبـــصر الـــورد غيـــوراً برمـــا ... يكتـــسي مـــن غيظـــه مـــا يكتـــسي
وتـــــرى الآس لبيبـــــاً فهـــــما ... يـــسرق الـــسمع بـــأذني فـــرس
يـــا أهيـــل الحـــي مـــن وادي الغـــضا ... وبقلبـــــي منـــــزل أنـــــتم بـــــه
ضاق عن وجـدي بكـم رحـب الفـضا ... لا أبـــــالي شرقـــــه مـــــن غربـــــهِ
فأعيـــدوا عهـــد أنـــس قـــد مـــضى ... تُنقـــذوا عـــانيَكم مـــن كربـــه
واتقـــــوا الله وأحيـــــوا مغرمـــــا ... يتلاشـــــى نفـــــساً في نفـــــس
حـــبس الـــنفْس علـــيكم كرمـــا ... أفترضَـــــوْن عفـــــاء الحـــــبس
وبقلبـــــي مـــــنكم مقـــــتربُ ... بأحاديـــث المنـــى وهـــو بعيـــد
قمـــــر أطلـــــع منـــــه المغـــــربُ ... شـــقوة المُغـــرى بـــه وهـــو ســـعيد
قـــد تـــساوى محـــسن أو مـــذنب ... في هـــواه بـــين وعـــد ووعيـــد
ســـاحر المقلـــة معـــسول اللمـــى ... جـــال في الـــنفْس مجـــال الـــنفَس
ســـدد الـــسهم فأصـــمى إذ رمـــى ... ففـــؤادي نبلـــة المفـــترس
إن يكـــن جـــار وخـــاب الأمـــلُ ... وفـــؤادي الـــصبّ بالـــشوق يـــذوبْ
فهـــو للـــنفس حبيـــبٌ أولُ ... لـــيس في الحـــب لمحبـــوب ذنـــوبْ
أمـــــرُهُ معتمـــــل ممتثـــــلُ ... في ضـــلوع قـــد براهـــا وقلـــوب
حكّـــم اللحـــظ بهـــا فـــاحتكما ... لم يراقـــب في ضـــعاف الأنفـــس
منـــصف المظلـــوم ممـــن ظلـــما ... ومجـــازي الـــبر منهـــا والمـــسي
مـــا لقلبـــي كلـــما هبـــت صـــبا ... عـــاده عيـــد مـــن الـــشوق جديـــد
كـــان في اللـــوح لـــه مُكتتبـــا ... قولـــــه إنّ عـــــذابي لـــــشديد
جلـــب الهـــم لـــه والوصـــبا ... فهـــو للأشـــجان في جهـــد جهيـــد
لاعـــجٌ في أضـــلعي قـــد أضرمـــا ... فهـــي نـــار في هـــشيم اليـــبس

لم يـــدع مـــن مهجتـــي إلا ذمـــا ... كبقـــاء الـــصبح بعـــد الغلـــس
سـلمي يـا نفـس في حكـم القـضا ... واعمـري الوقـت برُجعـى ومتـاب
دعْـك مـن ذكـر زمـان قـد مـضى ... بـين عُتبـى قـد تقـضّت وعتـابْ
واصرفي القـول إلى المـولى الرضـا ... مُلهَـمِ التوفيـق في أم الكتـاب
الكـريم المنتهـى والمنتمـى ... أسـد الـسرج وبـدر المجلـس
ينـزل النـصر عليـه مـثلما ... ينـزل الـوحي بـروح القـدس
مـصطفى الله سـميّ المـصطفى ... الغنـي بـالله عـن كـل أحـد
مـن إذا مـا عقـد العهـدَ وفى ... وإذا مـا قـبُحَ الخطـب عقـد
مـن بنـي قـيس بـن سـعد وكفـى ... حيـث بيـتُ النـصر مرفـوع العمـد
حيـث بيـت النـصر محمـي الحمـى ... وجنـى الفـضل زكـي المغـرس
والهـوى ظـلٌّ ظليـل حينـما ... النـدى هـب إلى المغـترس
هاكهـا يـا سـبط أنـصار العـلا ... والـذي إن عثـر الـدهر أقـال
غـادة ألبـسها الحـسن مـلا ... تبهـر العـين جـلاء وصـقال
عارضـت لفظـاً ومعنـى وحـلى ... قـولَ مـن أنطقـه الحـبّ فقـال
(هـل درى ظبـي الحمـى أن قـد حمـى ... قلـب صـبّ حلـه عـن مكـنس
فهـو في حـر وخفـق مـثلما ... لعبـت ريـح الـصبا بـالقبس)

٤- قال ابن زمرك:

١-

أبلـغ لغرنـاطـة الـسلامْ ... وصـفْ لهـا عهـديَ الـسليمْ
فلـو رعـى طرفهـا ذمـام ... مـا بـتّ في ليلـة الـسليمْ
كـم بـثّ فيهـا عـلى اقـتراح ... أُعـلّ مـن خمـرة الرضـاب

أديـــــر فيهـــــا كـــــؤوس راح ... قـــد زانهـــا الثغـــر بالحبـــاب
أختـــال كـــالمهر في الجـــماح ... نـــشوانَ في روضـــة الـــشباب
أضـــاحك الزهـــر في الكـــمام ... مباهيـــاً روضـــه الوســـيم
وأفـــضح الغـــصن في القـــوام ... إن هـــبّ مـــن جوّهـــا النـــسيم
بينـــا أنـــا والـــشباب ضـــافْ ... وظلـــله فوقنـــا مديـــد
ومـــورد الأنـــس فيـــه صـــافْ ... وبُـــرده رائـــق جديـــدْ
إذ لاح في الفـــود غـــيرَ خـــاف ... صـــبحٌ بـــه نُبّـــةَ الوليـــد
أيقـــظ مـــن كـــان ذا مـــنام ... لمـــا انجـــلى ليلـــه البـــهيم
وأرســـل الـــدمع كالغمـــام ... في كـــل وادٍ بـــه أهـــيم
يـــا جـــيرةً عهـــدُهم كـــريم ... وفعلهـــم كـــله جمـــيل
لا تعـــذلوا الـــصّب إذ يهـــيم ... فقبلـــه قـــد صـــبا جميـــل
القـــرب مـــن ربعكـــم نعـــيم ... وبعـــدُكم خطبـــه جليـــل
كـــم مـــن ريـــاض بـــه وســـام ... يزهـــى بهـــا الـــرائض المـــسيم
غـــديرها أزرق الجـــمام ... ونبتهـــا كـــله جمـــيم
أعنـــدكم أننـــي بفـــاس ... أكابـــد الـــشوق والحـــنين
أذكـــر أهـــلي بـــها ونـــاسي ... واليـــومُ في الطـــول كالـــسنين
الله حـــسبي فكـــم أقـــاسي ... مـــن وحـــشة الـــصب والبنـــين
مُطارحـــاً ســـاجع الحـــمام ... شـــوقاً إلى الإلـــف والحمـــيم
والـــدمع قـــد لـــجّ في انـــسجامْ ... وقـــد وهـــى عِقـــدُه النظـــيم
يـــا ســـاكني جنـــة العريـــفْ ... أســـكنتمُ جنـــةَ الخلـــود
كـــم ثَـــم مـــن منظـــر شـــريف ... قـــد حُـــف بـــاليمن والـــسعود

ورب طـــــود بـــــه منيـــــف أدواحـــــه الخـــــضر كـــــالبنود
والنهـــــر قـــــد سُـــــل الحـــــسام لـراحـــــة الـــــشرب مـــــستديم
والزهـــــر قـــــد راق بابتـــــسام مقـــــبّلاً راحـــــة النـــــديم

٢-

لـــو ترجـــع الأيـــام بعـــد الـــذهاب لم تقـــدح الأيـــام ذكـــرى حبيـــبْ
وكـــل مـــن نـــام بليـــل الـــشبابْ يوقظـــه الدهـــر بـــصبح المـــشيب
يـــا راكـــب العجـــز ألا نهـــضةٌ قـــد ضـــيق الـــدهر عليـــك المـــجالْ
لا تحـــسبن أن الـــصبى روضـــة تنـــام فيهـــا تحـــت فيء الظـــلال
فـــالعيش نـــوم والـــردى يقظـــة والمـــرء مـــا بيـــنهما كالخيـــال
والعمـــر قـــد مـــر كمـــرّ الـــسحابْ والملتقـــى بـــالله عمـــا قريـــبْ
وأنـــت مخـــدوع بلمـــع الـــسراب تحـــسبه مـــاء ولا تـــستريب
والله مـــا الكـــون بـــما قـــد حـــوى إلا ظـــلالاً تُـــوهم الغـــافلا
وعـــادة الظـــل إذا مـــا اســـتوى تبـــصره منـــتقلاً زائـــلا
إنـــا إلى الله عبيـــد الهـــوى لم نـــعرف الحـــق ولا البـــاطلا
فكـــل مـــن يرجـــو ســـوى الله خـــاب وإنـــما الفـــوز لعبـــدٍ منيـــبْ
يـــستقبل الرُّجعـــى بـــصدق المتـــاب ويرقـــب الله الـــشهيد الرقيـــب
يـــا حـــسرةً مـــرّ الـــصبا وانقـــضى وأقبـــل الـــشيب يقـــصّ الأثـــرْ
واخجلتـــا والرَّحـــلُ قـــد قُوّضـــا ومـــا بقـــي في الخـــير غـــير الخـــبر
وليتنـــي لـــو كنـــت فـــيما مـــضى أدخـــر الـــزاد لطـــول الـــسفر
قـــد حـــان مـــن ركـــب التـــصابي إيـــاب ورائـــد الرشـــد أطـــال المغيـــب
يـــا أكمـــه القلـــب بغـــير الحجـــاب كـــم ذا أناديـــك فـــلا تـــستجيب

٥- قال أبو بكر الأبيض الوشاح (كان معاصراً لابن باجة):

-١

مما أباد القلوبا ... ما لذّ لي شربُ راحٍ

يمشي لنا مستريبا ... على رياض الأقاح

يا لحظه ردّ نُوبا ... لولا هضيمُ الوشاحِ

ولا لماه الشنيبا ... إذا أسا في الصباحِ

بردْ غليل ... أو في الأصيلْ

صبّ عليل ... أضحى يقول:

لا يستحيل ... ما للشمول

فيه عن عهدي ... لطمتُ خدي

ولا يزال ... وللشمال

في كل حال ... هبّت فمالْ

يرجو الوصالْ ... غصن اعتدال

وهو في الصدّ ... ضمّه بردي

٦- قال أبو بكر بن زهر:

ما للمُولّه

من سكرهِ لا يُفيق؟

يا له سكران

من غير خمر!

ما للكئيب المشوق

يندب الأوطان؟

هـل تستعاد

أيامنا بالخليج

وليـاليـنا؟

أو يُستفاد

من النسيم الأريجْ

مسكُ دارينـا

وإذ يـكاد

حسن المكان البهيج

إن يحيينـا

نهـرٌ أظلّه

دوحٌ علـيه أنيق

مُورقٌ فـينان

والماء يجـري

وعائم وغريق

من جـنى الريـحان

أو هل أديبْ

يحيي لنا بالغروسْ

ما كـان أحـلى،

معَ الحبيب

وصافـيـات الكؤوس

فاسقني وآمـلا

عيشٌ يطيبْ

ومنزه كالعروس

عـندما تُجلى

عيشٌ لعلّه

يعود منه فـريق

كالذي قـد كان

أضغاث فـكر

تحـدو بـه وتسوق

هـذه الألحـان

يا صاحبيّا

إلى متى تعذُلاني؟

أقصرا شيّاً

قد متُّ حياً

والمُبتلى بالغواني

ميّتٌ حيّا،

جـنى عَليّا

عذب اللمـى والمـعاني،

عـاطر ريـّا

هـلاله كلّـه،

غـزال أنس يفوق

سائرَ الغزلان

يا ليت شعري،

هل لي إليه طريقْ

أو إلى السُلوان؟

بعضهم

ما لي شـمولْ

بـلا شـجـون

مزاجـهـا في الكـاس

دمـع هَتونْ

لله ما بـذَرْ

مـن الدمـوع

صبٌّ إذا اسـتعـبـر

مـن الولـوع،

أودى بـه جُؤذر

يـوم الطـلوع

فهو قتيـل،

لا بـل طـعيـن

بـين الرجـا والياس

لـه مـنون

جرحت للحَينِ

كـفي بـكفي

وحـيل ما بيْني

وبـين إلـفي

لا شـك بالبَيْن

يـكون حتـفي

حان الرحـيل،
ولـي ديـونْ
إن رَدّهـا العباس
فـهو الأمـين
أما تـرى البـدرا
بـدر السُّعود
قد اكتسى خُضـرا
مـن البُرود
إذا انثنى نضـرا
مـن القـدودْ
أضحـى يـقـول:
مُت يـا حـزيـن،
قد اكتسى بالآس
اليـاسـمـيـن
قلتُ، وقـد شَرَد
النـوم عـني
وأيـأس العوّد
السـقم مـني
جـسمي نـحـيل
لا يـستبيـن
يـطـلبه الجُلاس
حيثُ الأنـين

يـجاوز الحـد
قـلبي اشتياقا
وكُلّف السـهد
مـن لا أطـاقا
قلت، وقـد مـدّ
ليـلي رُواقاً:
ليـلي طـويل
بـلا مـعين؛
يـا قـلبَ بعض الناسْ
أمـا تـلـين؟
عبادة القـزاز
بدرٌ تمّ، شـمس ضُحى
غصن نقا، مسكُ شَمّ
ما أتم، مـا أوضـحـا
مـا أورقـا، مـا أنمّ!

لا جـرمْ، مـن لمحـا
قـد عشـقا، قـد حُرِمْ

الباب الخامس عشر

الفنون الشعبية

الأزجال- عروض البلد- الكان كان

أ- مقدمة:

وهو الموشح الذي يعتمده أكثر من وزن وأكثر من قافية، فيعمد الوشاح فيه إلى ضرب من التنويع والافتنان العروضي.

نشأ هذا الفن في القرن الثالث الهجري على يد رجلين من قرية قبرة بالأندلس هما: محمد بن حمود الضرير، ومقدم بن معافى، كما قال ابن بسام وابن خلدون، وإن كان بعض الدارسين، ومنهم المستشرقان الإسبانيان خوليان ريبيرا وغارثيا غومث، يرون أن الموشح تقليد لشعر رومانسي كان الإسبان يتغنون به، وقد أبقوا منه الخرجة الأعجمية، فالموشح يتألف من مطلع ومجموعة أدوار وخرجة، فالمطلع هو القفل الأول، أما الدور فيتألف من مجموع القفل والغصن، ويأتي القفل على سمط أو اثنين أو أكثر، وكذلك الغصن، أما الخرجة فهي القفل الأخير من الموشحة.

نظم الموشح في الأغراض المختلفة، وظهرت أسماء لامعة لوشاحين كان أغلبهم شعراء من أمثال أبي بكر عبادة بن ماء السماء (ت٤٢٢هـ)، وعبادة القزاز (ت٤٨٤هـ)، وابن اللبانة (ت٥٠٧هـ)، والأعمى التُّطيلي (ت٥٢٠هـ)، وابن بقي (ت٥٤٠هـ)، وابن زهير الحفيد (ت٥٩٥هـ)، وابن سهل الإشبيلي (ت٦٥٩هـ)، وأبي الحسن الششتري (ت٦٦٨هـ)، وأبي حيان الغرناطي (ت٧٤٥هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، وابن زمرك (ت٧٩٧هـ)، وابن عاصم الغرناطي.

ب- الزجل:

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، نسجت العامة على منواله بلغة غير معربة قريبة إلى اللغة التي يتكلم بها الناس في مخاطباتهم اليومية ما سموه بالزجل، وقد مرت الأزجال بأدوار

متلاحقة أولها دور الأغنية الشعبية، ثم دور القصيدة الزجلية، واتسعت الأزجال لأغراض كثيرة كالمديح والغزل والتصوف والوصف.

وإذا كان استحداث الشعراء لفن الزجل، والتزامهم النظم فيه على مناحيهم، فإنهم قد جاؤوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية، أبو بكر بن قزمان، وهو إمام الزجّالين على الإطلاق، وابن قزمان هذا أول من تكلم بالزجل، وكان وحده أدباً وظرفاً ولوذعية، وكان أديباً بارعاً حلو الكلام مليح النثر مبرزاً في نظم الزجل.

قال: وهذه الطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع وتنفسح لكثير مما يضيق على الشاعر سلوكه، وبلغ فيها أبو بكر رحمه الله مبلغاً حجره الله عمن سواه، فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة، وفارسها المعلم، وقد شاعت أزجال ابن قزمان وأولع بها الناس واشتهر مع ابن قزمان من معاصريه بهذه الطريقة عيسى البليدي، وأبو عمرو بن الزاهر الإشبيلي، وأبو الحسن المقري [الداني] وأبو بكر بن [مدين]، وابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، وللمصريين تاريخ في الزجل؛ لأن هذه الطريقة توافق في طباعهم من اللين ومشايعة الكلام بشيء من التهكم تبعث علة صفة [الفتور] الطبيعية فيهم.

وهي التي يقال فيها: إنها ذوق حلاوة، ولم يزل فن الزجل مشهوراً، ولأهله فيه إحسان كثير وهم يرتجلونه ويحاصرون به؛ والزجل اليوم أحد أنواع الشعر العامي الباقية لعهدنا.

ج- عروض البلد:

وكان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب، مطلعها:

أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام على الغصن في البستان قريب الصباح

فاستحسنه أهل فارس وأولعوا به، ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم وفرعوه أصنافاً:

١ - المزدوج.

٢- والكاري.

٣- والملعبة.

٤- والعزل.

واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيها، ونقل قطعة كبيرة من هذه الملعبة تشبه الشعر التاريخي المعروف بالقصصي، حتى ذهب بعض المتأخرين إلى أن أمثال هذه الملاعب تعتبر نوعاً من الشعر القصصي وإن كانت عامية.

د- كان وكان:

وهما كما قال أصحاب الفنون فرعان من الزجل، وإنما أفردوهما نوعين لتغيرات فيها لا تكون في الزجل، فلا نعرف من تاريخهما شيئاً، بعضه له وزن واحد وقافية واحدة، ويستعملونه كثيراً في الوعظ ونحوه من المعاني التي تدخل فيها الحرفة والحدة ونحو ذلك، كقول بعضهم:

ما ذقت عمري جرعة أمر من طعم الهوى الله يصبر قلبي على الذي يهواه

هـ- القوما:

وهو فن من اختراع البغداديين، قيل: كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان كما يفعل المسحرون بالقصص والأدعية لعهدنا، وسمي بذلك من قول المغنيين: (قوما نسحر قوما) وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث، ثم فرعوا فروعاً دعوها الزهري والخمري وغيرهما على حسب المعاني التي ينظمون فيها، ومن هذا النوع ما نظمه الصفي الحلي يسحر بعض الخلفاء:

لا زال سعدك جديد دائم وجدك سعيد

و- الحماق:

وهو نوع يدخلونه في الزجل، ولكن أكثرهم على أنه منفرد، وهم ينظمونه قطعاً، كل بيتين من القطعة في قافية، **ومن أشهر الزجالين:**

١- ابن قزمان (٥٥٤هـ)، وله ديوان أزجال كبير.

٢- ابن راشد، وكان إمام الزجل قبل ابن قزمان.

٣- ومدغلّيس (أحمد ابن الحاج) الذي كان شاعراً وشاحاً.

٤- والششتري وقد برع في القصيدة والموشح، وهو أول من استخدم الزجل في التصوف.

٥- كما استخدم محيي الدين بن عربي التوشيح فيه.

الباب السادس عشر

دراسة نص أدبي

أضْحَى التَّنَائي بَدِيْلاً مِنْ تَدانِيْنا
ابن زيدون
وولادة بنت المستكفي

أ- توطئة:

هو أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي الأندلسي، ولد في قرطبة سنة ٣٩٤هـ،ونشأ في بيئة علم وأدب، توفِّي أبوه، وهو في الحادية عشرة من عمره، فكفله جده وساعده على تحصيل علوم عصره، فدرس الفقه والتفسير والحديث والمنطق، كما تعمق باللغة والأدب وتاريخ العرب، فنبغ في الشعر والنثر.

أقام ابن زيدون علاقة وثيقة بشاعرة العصر وسيدة الظرف والأناقة ولادة بنت المستكفي أحد ملوك بني أمية، وكانت قد جعلت منزلها منتدى لرجال السياسة والأدب، وإلى مجلسها كان يتردد ابن زيدون، فقوي بينهما الحب، وملأت أخبارهما وأشعارهما كتب الأدب، وتعددت مراسلاتهما الشعرية.

ولم يكن بد في هذا الحب السعيد من الغيرة والحسد والمزاحمة، فبرز بين الحساد الوزير ابن عبدوس الملقب بالفار، وكان يقصر عن ابن زيدون أدباً وظرفاً وأناقة، ويفوقه دهاء ومقدرة على الدس لابن زيدون ديوان شعر حافل بالقصائد المتنوعة، طبع غير مرة في القاهرة وبيروت، وأهم ما يضمه قصائده الغزلية المستوحاة من حبه لولادة، وهو غزل يمتاز بصدق العاطفة وعفوية التعبير وجمال التصوير، ومن بين تلك القصائد (النونية المشهورة) التي نسج اللاحقون على منوالها:

قال ابن زيدون:

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيْلاً مِنْ تَدانِيْنا ... وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا

ألا وقد حانَ صُبح البَيْنِ صَبَّحنا ... حِينٌ فقام بنا للحِين ناعِينا

مَـــن مُبلـــغ المُبْلِـسينا بانتزاحِهـــم ... حُزنـاً مـع الدهـــر لا يَبلـى ويُبلينـا

إن الزمـان الـذي مـا زال يُـضحكنا ... أنـساً بقربهـم قـد عـاد يُبكينـا

غِيظَ العِدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بـأن نَغُـصَّ فقـال الدهـر آمينـا

فانحـلَّ مـا كـان معقـوداً بأنفسنا ... وانبـتَّ مـا كـان موصـولاً بأيدينا

لم نعتقـد بعدكـم إلا الوفـاءَ لكـم ... رأيـاً ولـم نتقلـد غيـرَه دينـا

مـا حقنـا أن تُقـروا عيـنَ ذي حسـد ... بنـا، ولا أن تـسروا كاشـحاً فينـا

كنـا نـرى اليـأس تُـسلينا عوارضُـه ... وقـد يئـسنا فمـا لليـأس يُغرينـا

بِنتـم وبنـا فمـا ابتلـت جوانحُنـا ... شـوقاً إليكـم ولا جفـت مآقينـا

نكـاد حيـن تُناجيكـم ضمائـرُنـا ... يَقـضي علينـا الأسـى لـولا تأسِّينـا

حالـت لفقدكـم أيامنـا فَـغَـدَتْ ... سُـوداً وكانـت بكـم بيـضاً ليالينـا

إذ جانـب العـيش طَلْـقٌ مـن تألُّفنـا ... ومـوردُ اللهـو صـافٍ مـن تـصافينا

وإذ هَـصَرْنا غُـصون الوصـل دانيـة ... قطوفُهـا فجنينـا منـه مـا شِينـا

ليـسقِ عهـدكم عهـد الـسرور فمـا ... كنتـم لأرواحنـا إلا رياحينـا

لا تحـسبوا نَأْيكـم عنـا يُغيِّـرنـا ... أن طالمـا غيَّـر النـأي المحبينـا

والله مـا طلبـت أهواؤنـا بـدلا ... مـنكم ولا انـصرفت عنكـم أمانينـا

يـا سـاريَ الـبرقِ غـادِ القـصرَ فاسـق بـه ... مـن كـان صِرفَ الهـوى والـود يَـسقينا

واسـأل هنـاك هـل عنَّـي تذكرنـا ... إلفـاً، تـذكـره أمـسى يُعنِّينـا

ويـا نـسيمَ الـصِّبا بلـغ تحيتنـا ... مـن لـو عـلى البعـد حيّـاً كـان يُحيينـا

فهـل أرى الدهـر يَقـصينا مُـساعَفـةً ... منـه ولـم يكـن غِبّـاً تقاضينـا

ربيـــب ملـــك كـــأن الله أنـــشأه ... مـسكاً وقـــدَّر إنـشاء الـــورى طينـــا

أو صاغـــه ورِقـــاً محـــضاً وتَوَّجَـــه ... مِـــن ناصـــع التبـــر إبـــداعاً وتحـــسينا

إذا تَـــــأَوَّد آدتـــــه رفـاهيَـــــة ... تُـــومُ العُقُـــود وأَدْمَتـــه البُـــرى لِينـــا

كانـت لـه الـشمسُ ظِئْـراً فـي أَكِلَّتِـه ... بـــل مـــا تَجَلَّـــى لهـــا إلا أحايينـــا

كـأنما أثبتـــت فـــي صحـــن وجنتـــه ... زُهْـــرُ الكواكـــب تعويـــذاً وتزيينـــا

مـــا ضَرَّ أن لم نكـــن أكفـــاءَه شرفـــا ... وفـــي المـــودة كـــافٍ مـــن تَكَافينـــا

يـــا روضـــةً طالمـــا أجْنَـــتْ لَوَاحِظَنـــا ... ورداً أجـــلاه الـــصبا غَـــضّاً ونَـــسْرينا

ويـــا حيـــاةً تَمَلَّيْنـــا بزهرتـهـــا ... مُنَـــى ضُرُوبـــاً ولـــذَّاتٍ أفانِينـــا

ويـــا نعـــيماً خَطَرْنـــا مـــن غَـــضَارته ... فِي وَشْيِ نُعمـــى سَـــحَبْنا ذَيْلَـــه حِيـــنا

لـــسنا نُـــسَمِّيك إجـــلالاً وتَكْـرِمَـــة ... وقـــدرك المعتلـــى عـــن ذاك يُغنينـــا

إذا انفـردتِ ومـا شُـورِكْتِ فـي صفـةٍ ... فحـسبنا الوصـــف إيـــضاحاً وتَبيينـــا

يـــا جنـــةَ الخلـــد أُبدلنـــا بسَلْـسلها ... والكـــوثر العـــذب زَقُّومـــاً وغِـــسلينا

كأننـــا لـــم نَبِـــت والوصـــل ثالثنـــا ... والـسعد قـد غَـضَّ مـن أجفـان واشينـا

سِرَّانِ فِي خاطـــرِ الظَّلْمـــاء يَكتُمُنـــا ... حتـى يكـاد لـسان الـصبح يُفـشينا

لا غَـرْوِ فِي أن ذكرنـا الحـزن حِـينَ نَهَـتْ ... عنـه النُّهَـى وتَركْنـا الـصبر ناسِينـا

إذا قرأنـا الأسـى يـومَ النَّـوى سُـوَراً ... مكتوبـــة وأخذنـــا الـــصبر تَلْقِينـــا

أَمَّـــا هـــواكِ فلـــم نعـــدل بمنهلـــه ... شِرْبـــاً وإن كـــان يروينـــا فيُظمينـــا

لم نَجْـفُ أفـق جمـال أنـت كوكبـه ... ســالين عنـــه ولـــم نهجـــره قالينـــا

ولا اختيـــاراً تجنبنـــاه عـــن كَثَـــبٍ ... لكـــن عدتنـــا علـــى كـــره عواديـــنا

نأســـى عليـــك إذا حُثَّـــت مُشَعْـشَعـةً ... فينـــا الـــشَّمُـول وغنَّـانـــا مُغَنِّينـــا

لا أَكْـؤُسُ الـراحِ تُبـدى مـــن شمائلنـــا ... سِـــيَا ارتيـــاحٍ ولا الأوتـــارُ تُلهينـــا

دُومِـي عـلى العهـد، مـا دُمْنـا، مُحَافِظـةً ... فـالحُرُّ مَـــنْ دان إنـصافاً كمـــا دِينَـــا

فـما اسْتَعَـضْنا خليـــلاً مِنـــك يَحْبـسنـا ... ولا استفدنـــا حبيبـــاً عنـــك يُثْنينـــا

ولـو صَـبَا نَحْوَنـا مـــن عُلْـــوِ مَطْلَعِـــه ... بـدرُ الـدُّجَى لم يكـن حاشـــاكِ يُـصْبِينا

أَوْلِي وفـــاءً وإن لـــم تَبْذُلِـــي صِلَـــةً ... فالطيـــفُ يُقْنِعُنـــا والذِّكْـــرُ يَكْفِينـــا

وفي الجـوابِ متـاعٌ لـــو شفعـــتِ بـــه ... بِـيْضَ الأيـادي التـي مـا زلْـــتِ تُولِينـا

عليـكِ مِنـــي ســـلامُ اللهِ مـــا بَقِيَـــتْ ... صَبَابـــةٌ منـــكِ نُخْفِيهـــا فَتُخفينـــا

دراسة أدبية مبسطة
شرح قصيدة نونية ابن زيدون

أ- الفكرة العامة

محافظة الشاعر على حبه لولادة.

ب- الأبيات (١- ١٠) الشاعر في هذه الأبيات، يذوب أسى وألماً على فراق ولادة بن المستكفي حبيبته وعشقته، ويحترق شوقاً إليها وإلى الأوقات الصافية الممتعة التي أتيحت له معها، وفي ظلال هذه العاطفة المتأججة الملتهبة يقول شعره نابضاً بالحياة مترجماً عن الحب كاشفاً عن الشوق، مختصر الفكرة: وصف لحال الحاضر ووصف الماضي ويتخلل هذا القسم أبيات الوفاء والحب والتجلد على الواقع الأليم:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

يستهل الشاعر قصيدته بالتوجع والتحسر على ما صارت إليه حاله فقد تغيرت من قرب بينه وبين محبوبته إلى بعد ونأي يتزايد مع الأيام، لقد تحول القرب بعداً، وصار اللقاء جفاء، وهو أمر يشقيه ويعذبه، نجد الشاعر أنه استخدم ألفاظاً جزلة في التعبير عن مدى وطول البعد وقوة الشوق حيث استخدم ألفاظ ذات حروف ممدودة يمتد فيها النفس ليعبر عن ألمه.

ونجد ذلك في جميع ألفاظ البيت الأول، فهو يقول: إن التباعد المؤلم بينه وبين محبوبه أضحى هو السائد بعد القرب الذي كان وحل مكان اللقاء والوصل الجفاء والهجر.

ومن الصور البيانية في البيت: الطباق بين (التنائي) وتدانينا (التداني) وبين (لقيانا وتجافينا)

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا

في هذا البيت يستفهم الشاعر بغرض التوجع والتحسر والألم الذي حل به، ويطلب من أحد أن يبلغ الذي ألبسه هذا الحزن الدائم المتجدد وابتعد عنه (ويقصد الواشين الذين فرقوا بينه وبين محبوبته) والصورة البيانية هي تشبيه الشاعر سيطرة الحزن على نفسه باللباس أو

بثوب يلبسه ويكسو جسمه لا يقدم ولا يبلى بل دائم التجدد، الغرض من الاستفهام في البيت إظهار الحزن والتوجع.

إن الزمان الذي ما زال يضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يبكينا

هذه هي الرسالة التي أراد الشاعر أن يوصلها إلى محبوبته حين قال في البيت السابق: من مبلغ الملبسينا ماذا يبلغهم يا ترى؟ يبلغهم أن ضحكه قد تحول إلى بكاء دائم، أو أن الزمان السابق والذي ما يزال يضحكنا مؤنساً لنا بذكراه الجميلة مع المحبوبة قد عاد وتبدل الحال فهو اليوم يبكينا، ونلاحظ الشاعر لا يتطرق إلى ذكر اسم محبوبته وذلك إجلالاً لها وتعظيماً لشأنها ووفاء لها، والصورة البيانية تشبيه الزمان بإنسان يضحك وتشخيصه والتجسيم بالاستعارة المكنية، كما يوجد بين (يضحكنا ويبكينا) مقابلة.

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر: آمينا

وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا

ويواصل بث رسالته إلى محبوبته وإلى مستمعيه فيقول: إن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه وحقق لهم ما أرادوا من إيقاع بين حبيبين وأصابهم الحزن والألم، فلم يعودا يرجوان التلاقي بعد أن كانا لا يخشيان الفراق، والصور البيانية: تشبيه الهوى بمشروب يتبادله الحبيبان عن طريق (الاستعارة المكنية) وتشخيص الدهر وتشبيه بإنسان يتكلم ويقول: آمين كذلك عن طريق (الاستعارة المكنية)، ويوجد بين (تفرقنا وتلاقينا) طباق إيجاب.

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

يبدأ الشاعر بعد وصفه لحال الحاضر المؤلم ومقارنته بالماضي السعيد يتحدث عما يكنه من وفاء لولادة ويبثها الآمه ولوعته فيقول:

ابتعدتم عنا وابتعدنا عنكم ونتيجة هذا البعد فقد جفت ضلوعنا وما تحوي من قلب وغيره، واحترق قلبنا بنار البعد في الوقت الذي ظلت فيه (مآقينا: جمع مؤق وهو مجرى العين من الدمع) عيوننا مبتلة بالدمع من تواصل البكاء؛ لأنه مشتاق محروم فلا أقل من أن يخفف همه بالبكاء ويسلي نفسه بالدموع، الصور البيانية: بين ابتلت وجفت يوجد مقابلة، في قوله فما

ابتلت جوانحنا هنا كناية عن شوق الشاعر، وفي قوله ولا جفت مآقينا كناية عن حزن الشاعر.

نكـــاد حـــين تنـــاجيكم ضـــمائرنا يقـــضي علينـــا الأســـى لـــولا تأســـينا

ويستمر الشاعر في وصف الصورة الحزينة القاتمة فيقول: يكاد الشوق إليكم يودي بحياتنا لولا التصبر والأمل والتسلي في اللقاء حينما تعود به الذكرى على الأيام الخوالي فيتصور الجمال والفتنة والحب والبهجة والأمل والسعادة ويهتف ضميره باسمها ويناجيها على البعد في المسافات؛ لأنها قرينة روحه وجزء نفسه حينما يعيش أبعاد التجربة العذبة المؤلمة، ويوازن بين ما كان عليه وما صار إليه تقرب روحه أن تفارق جسده بسبب الحزن المفرط الذي يملأ جوانحه لولا أنه يمني نفسه بالأمل ويعزي روحه عن المحنة بالصبر، والصور البيانية: يجسد ويشخّص الضمائر والأسى ويجعل للضمائر لساناً يناجي وللأسى قدرة على القضاء والقتل وذلك عن طريق (الاستعارة المكنية).

حالـــت لفقـــدكم أيامنـــا فغـــدت ســـوداً وكانـــت بكـــم بيـــضاً لياليـنـــا

لقد تبدلت الحياة وأظلمت الدنيا، الأيام المشرقة الباسمة المضيئة جللها السواد وعمها الظلام ببعد ولادة، وقد كانت الليالي المظلمة الطويلة مضيئة قصيرة بقربها، الصور البيانية يوجد في البيت مقابلة من خلال الكلمات (أيامنا فغدت سواداً وكانت بكم بيضاً لياليـنا).

إذ جانـــب العـــيش طلـــق مـــن تألفنـــا ومـــورد اللهـــو صـــاف مـــن تـــصافينا

وإذ هـــصرنا فنـــون الوصـــل دانيـــة قطافهـــا فجنينـــا منـــه ماشـــينا

وفي هذين البيتين يصف الشاعر ويتذكر أيامه مع محبوبته حيث كانت الحياة صافية متفتحة، وحيث كانا يجنيان ثمار الحب ما يشاءان ومتى يشاءان فهو يقول: إن عيشنا الماضي كان طلق (مشرق) من شدة الألفة بيننا وقوة الترابط حيث اللهو والسمر والتخلي فيما بينهم وبين أنفسهم لا يعكره حزن ولا هم ولا شقاق ولا خلاف، ولهذا فهو صاف مثل المورد العذب الجميل من شدة تصافينا وخلو المودة مما يكدرها.

وإذ قطفنا أو أملنا(هصرنا) فنون الوصل (أنواع وطرق الوصل(وفنون التواصل من كلام عذب وتغزل وغيرها حيث أنها وبالمودة كانت قريبة وأخذوا منه ما شاء منها ومتى شاء،

الصور البيانية: شبه اللهو بالمورد العذب وعدم التكدر بصفاء المورد، وشبه الوصل بشجرة بها من الثمار القريبة الدانية عن طريق الاستعارة المكنية، كما يوجد اقتباس من القرآن في قوله: دانية قطافها.

ج- الأبيات من (١١- ١٣): - تأكيد الشاعر محافظته على عهد محبوبته والوفاء لها

ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إذ طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ويطوف بالشاعر طائف الذكرى الحلوة فيدعو لعهد الوفاء بينهما بالحياة والتجدد؛ لأنه عاش فيه وصفت روحه به وتلقى من محبوبته مشاعل الأمل وحياة النفس وهو دعاء يكشف عن الحنين إلى العهد الماضي وجمال الذكرى، وإذا كان الفراق يغير المحبين ويجعلهم ينسون حبيبات قلوبهم، فلن يستطيع أن ينسى الشاعر هواه، بل يزيده البعد وفاء وإخلاصاً فمازالت أمانيه متعلقة بولادة وهواه مقصوراً عليها، فقد كانت الرياحين لروحه وما زالت كذلك، والشاعر يؤكد هذا المعنى ويثبته بالقسم بالله، الصور البيانية: استخدام فعل الأمر ليسق وقصد به الدعاء والغرض منه الحنين، وشبه محبوبته ولادة بالرياحين. يوجد بين أرواحنا ورياحينا جناس ناقص استخدام القسم للتأكيد.

د- الأبيات: ١٤- ١٥: مناجاة وإشراك الشاعر الطبيعة أحاسيسه ومشاعره:

يا ساري البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حياً كان يحيينا

يناجي الشاعر الطبيعة ويشرك بعضها في هواه ويستعين بها لتشاركه في حمل عبئه وتخفيف آلامه والوقوف بجانبه، فيدعو المطر في ترفق ورجاء أن يباكر ويبكر في إرواء قصر محبوبته بماء المطر العذب الصافي؛ لأنها كثيراً ما سقته الهوى خالصاً نقياً من الخداع والزيف، ولا يكتفي الشاعر بالمطر، بل يقصد نسيم الصبا ليبلغ تحيته إلى من يهواه؛ لأنه على الرغم من بعده فأنه لو ألقى لي ورد لي التحية لبعث في روحي الحياة مرة أخرى، أو لينقل تحياته إلى محبوبته التي لو ردت التحية فإنها ستمنحه الحياة مهما كانت بعيدة عنه.

الصور البيانية: فقد أبدع الشاعر في مناجاته (ساري البرق) (ونسيم الصبا) وفي طلبه السقيا من المطر للقصر ومن فيه، وفي طلب تبليغ التحية إلى من يحب من (نسيم الصبا) فهو في ذلك يشخص الطبيعة ويأنس إليها ويبثها نجواه وأحاسيسه، ومن الصور الكناية عن ولادة في قوله (من كان صرف الهوى والود يسقينا)، والاستعارة المكنية في بلغ (بلغ تحيتنا)، والاستعارة التصريحية في (من لو على القرب حياً كان يحيينا) حيث توحي بأن لقاءه بمن يحب حياة وبعده عنه موت وبهذا شبه اللقاء بالحياة والبعد بالموت، أسلوب النداء الغرض منه إظهار الشوق والحنين، والغرض من النداء في البيت هو الرجاء والتمني:

هـ- الأبيات من (١٦- ١٩) تأكيد الشاعر احترامه لمحبوبته وعودته للمناجاة مع مقارنة الحاضر المقيم بالماضي الآفل، وتأكيد للوفاء ينهي إلى الاستعطاف والاستسلام لهدوء ذليل.

لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة وقدرك المعتلي عن ذاك يغنينا

يؤكد الشاعر في هذا البيت احترامه لمحبوبته فهو لا يذكر اسمها تكريماً لها وتشريفا لقدرها العالي.

ما إعراب إجلالاً:

مفعول لأجله منصوب بالفتحة الظاهرة على آخره.

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

دومي على العهد ما دمنا محافظة فالحر من دان إنصافاً كما دينا

عليك منا سلام الله ما بقيت صبابة منك نخفيها وتخفينا

يتابع الشاعر أساه ويبرز لوعته على حرمانه الجنة التي تفيأ ظلالها ونعم بها مع من يحب، ثم إذا به يستبدل بجنته ناراً. وطعامه الطيب ومائه العذب زقوماً وغسلينا، ولن يرد الشاعر نفسه القلقة ولن يعيد إليه روحه المعذبة إلا بقاؤها على الود وحفاظها على العهد، ولذلك يدعوها في استعطاف أن توفي بعهدها معه؛ لأنه وفي به وحافظ عليه وشيمة الأحرار الوفاء بالعهد وهي منهم حتى لا يكون لأحد عليه فضل، ولكنه لا ينسى أن هذا قد أصبح من الماضي الذي

لن يعود فيرسل لها سلاماً يبقى ما بقيت لديه بقية من حب ونحوها، وودعها وفي نفسه ذلة وانكسار وفي الجو الذي خلقه ارتجاف وحسرة.

الصور البيانية: الاستعارة التمثيلية في البيت يا جنة أبدلنا...إلخ، حيث شبه صورة زمن الوصل وما فيه من ألوان المتعة وتنوع مظاهر السعادة بالعيش في جنة الخلد والتمتع بكل مظاهر السرور، كما أنه شبه حياة الفراق وما فيها من عذاب وجروح وآلام بالحياة في النار ليس فيها إلا الإحراق والزقوم والغسلين، ثم استعار التعبير في الجانبين فالاستعارة هنا تمثيلية، كما يوجد اقتباس من القرآن في: جنة الخلد، وزقوم، وغسلين...إلخ.

الغرض من فعل الأمر دومي هو الاستعطاف والرجاء والاستمالة، والمقابلة بين(نخفيها فتخفينا)، والغرض من النداء في قوله: يا جنة الخلد إظهار التحسر.

الباب السابع عشر
النثر الفني والأدبي
في الأندلس

أ- مقدمة:

نسج الكتاب الأندلسيون نثرهم على منوال النثر المشرقي ويسير على نهجه وكبار النثر في الأندلس هم كبار شعرائها أمثال ابن زيدون وابن شهيد وابن حزم وأبي حفص ابن برد وابن دراج القسطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم، وهذا على عكس أساتذة النثر في المشرق حيث كان شعرهم أقل جودة من نثرهم، ونذكر منهم على سبيل المثال أبا الفضل بن العميد والصاحب ابن عباد وأبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، ولذلك فقد نشأ في المشرق ما يسمى بشعر الكتاب أي شعر هذه الطبقة الممتازة من الكتَّاب الذين لا يرقى شعرهم إلى مستوى نثرهم.

واتسعت أبواب التأليف والتصنيف في العهد الأندلسي وأخذ الأندلسيون يؤطرون للعلوم المعرفية والطبيعية والفلسفية والأدبية.

ب- ما خلفه الكتاب من آثار:

ترك كتاب الأندلس آثاراً ضخمةً من المؤلفات:

١ - فكتب ابن سيده كتاب (المخصص) في معاني الألفاظ.

٢ - وكتب الزهراوي في الطب والصيدلة.

٣- وصنف ابن حزم (طوق الحمامة) في فلسفة الحب.

٤ - وكتب لسان الدين بن الخطيب (الإحاطة في تاريخ غرناطة).

٥ - وكتب الإدريسي في الجغرافيا (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).

٦ - وابن بسام الأندلسي (الذخيرة في محاسن الجزيرة).

٧- وكتب ابن عبد ربه في الأدب (العقد الفريد).

٨- وكتب ابن عصفور في فن الصرف.

ويمكن القول بأنّ النثر الأندلسي كان ينسج على منوال النثر المشرقي ويسير على نهجه وكبار النثر في الأندلس هم كبار شعرائها أمثال:

١- ابن زيدون

٢- وابن شهيد

٣- وابن حزم

٤- وأبي حفص ابن برد

٥- وابن دراج القسطلي

٦- ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم.

وهذا على عكس أساتذة النثر في المشرق حيث كان شعرهم أقل جودة من نثرهم، ونذكر منهم على سبيل المثال أبا الفضل بن العميد والصاحب ابن عباد وأبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، ولذلك فقد نشأ في المشرق ما يسمى بشعر الكتاب أي شعر هذه الطبقة الممتازة من الكتّاب الذين لا يرقى شعرهم إلى مستوى نثرهم.

ج- سمات الكتابة وأسباب رقيها:

لما استقر العرب في الأندلس ووطدت أركان الدولة، وهدأت الفتن، ونامت الأحداث، سطعت شمس الحضارة، وانتشرت أضواء العلم والمعرفة، واتسعت دائرة العلم، وإن كان ذلك في حدود الدين واللسان؛ لأنهم كانوا أشد الناس حباً لهما، وتفانياً فيهما، وغيرة عليهما، وهو طابع غلب على فترات الضعف في عهد الفاتحين والمرابطين، أما ما عدا ذلك من العهود الأخرى فقد أبدوا فيها من ضروب القول، وفنون البلاغة وألوان الأدب، ومعاني الكلام المعجب المرقص. وأغراهم بهذا أن جهودهم كانت مصروفة له، مقصورة عليه، وأن ملكتهم العربية الأصيلة قد امتزجت بملكات أخرى هي وليدة تلك البيئة الطيبة، والتربة المخصبة، والبساتين الغناء، والجبال الشماء.

وكان من حظ الأدب أن لم تزاحمه الفلسفة فيغلب عليه التعقيد والتعمق، أو تسري إليه لوثة السكان الأصليين فتخالطه العجمة، وتطارده العامية، كما كان الحال عند المشارقة، وإلى جانب هذا كله فإن اعتزاز الفاتحين بلغتهم وحرصهم عليها، وزهوهم بها ضمن للأدب القوة والخلود، والذيوع والانتشار، وجعل الأنظار تتجه إليه من السادة والسوقة، والعلية والدهماء.

على أن هناك عوامل - أخرى- ثانوية كان لها أثر واضح في ازدهار الأدب ونموه، وكثرة محصوله، وجودة أنواعه، فإن الخلفاء الذين كانوا يستقدمون العلماء والأدباء، للانتفاع بأفكارهم، والاستعانة بآرائهم، والاستفادة من جهودهم، والاقتباس مما أفاء الله به عليهم، كانوا يبذلون مثل ذلك للموسيقا والغناء، ونحن نعلم أن عبد الرحمن الثاني خف بنفسه لاستقبال "زرياب" وكان يوم قدومه عليه من أعياد الشعب الذي أسهم في الحفاوة به، والابتهاج لحلوله، والسعادة بطلعته، والخلفاء أنفسهم كانوا على جانب عظيم من الثقافة الأدبية خولت لهم أن يتقدموا الصفوف ويتصدروا المجالس، ويتزعموا المعارك التي تكون بين إنسان وآخر من جهابذة اللسان والبيان.

وكانت المناصب الكبرى والمراكز العليا، والمسؤوليات العظمى، لأولئك الذين عرفوا بالفصاحة، واشتهروا بالبلاغة، ورفعوا لواء الأدب وكان لهم فضل سبق على سواهم في مجال العلم والمعرفة، فلم نر وزيراً تقلد الوزارة ولا فقيهاً أسندت إليه وظيفة الإفتاء والقضاء دون أن يكون له في هذا الميدان تبريز وفوق؛ ذلك لأن العلم عندهم من غير أن يكون ممزوجاً بالأدب جاف جامد لا قيمة له، ولا ثمرة فيه، ولا جدوى منه.

وإذا كان التاريخ السياسي تنعكس مرآته على التاريخ الأدبي، فإن الذي يتقصى أحوال الأندلس يستطيع أن يقول: إن هذه الحياة الحافلة بجلائل العبر والعظات، كان يعتريها من الجزر والمد، والهبوط والارتفاع والخمول والنشاط، والصحة والمرض، ما يحتم علينا أن نقول: إنها مر بها شباب وشيخوخة، وهرم وموت، ولذلك فإن المتحدثين عن التاريخ الأدبي للكتابة الأندلسية لا يستطيعون أن يفروا من تلك الحقيقة المرة.

وكان لأهل الأندلس حرص على حفظ كلام العرب، ورواية أخبارهم، وعد مفاخرهم كما كانت لهم عناية بالعلوم الإسلامية وغيره يحصلونها برغبة أكيدة، ويجمعون كتبها بشغف زائد، فنشأ عن ذلك في رسائلهم ثلاث ظواهر.

١- ما ضمنوه كلامهم من مثل أو حكمة أو شعر مشهور أو ما اقتبسوه من آي القرآن الكريم، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلون به صدور كلامهم وفصوله، وقد بالغوا في هذا المقام حتى رأينا لابن زيدون رسائل تكاد لا يكون له فيها غير التأليف بين شارد هذه الأمثال والحكم، ولكنه كان في ذلك بارعاً كل البراعة لاستطاعته أن يؤلف من شتات ما جمع صورة تدل على ما في نفسه من معانٍ وأغراض.

٢- ما كثر في رسائلهم من الإشارة إلى حادثة تاريخية، أو مفخرة مأثورة، أو يوم مشهود، حتى غمض كلامهم بسبب ذلك على من كان قليل البضاعة في هذا الباب، واحتاج الدارس له إلى التعقيب والتفصيل لما أجمل، وقد استلزم هذا في بعض الرسائل أن يكون شرحها كتاباً جليلاً يحتوي على كثير من أيام العرب ومفاخرهم والتعريف بأعلام رجالهم، وترى ذلك في كتاب "سرح العيون" لابن نباتة المصري في "شرح رسالة ابن زيدون الهزلية".

٣- ما شاع في كتاباتهم من التورية بأسماء العلوم ومصطلحاتها، وقد توسعوا في ذلك حتى لم يكتفوا بالإشارة الظاهرة، والمصطلح الشائع بل تغلغلوا إلى ما يستعصي على غير المبرزين فيه.

وكان لأهل الأندلس زهد في علوم الفلسفة ورغبة عن منطقها تأبى ذلك طبيعتهم الحرة المطلقة من كل قيد، كما يأباه عليهم دينهم الذي اشتد تمسكهم به، وحرصهم على أوامره ونواهيه، ولقد كان لهم في ذلك شدة لم تعرف لغيرهم، حتى لقد كانت تهمة الزندقة سريعة إلى كل من انحرف عن الجادة، أو ظهر برأي يخالف جماعتهم، فما كان أسرع أن يقتلوه أو ينفوه من بلادهم، ويحرقوا كتبه في ميادين المدن.

ولقد كان لهذا الحال أثر بارز في كتابتهم فقد برئت من تعقيد أساليب المنطق، والتواء عبارات الفلسفة، وغموض إشاراتها، وكثرة ما احتاجت إليه في المشرق من ألفاظ دخيلة، وعبارات نابية، جرتها عليهم الترجمة عن اليونان وغيرهم.

لذلك كانت صفحة الكتابة عند الأندلسيين نقية تتمثل فيها:

١ - الفطرة ساذجة أو مهذبة التهذيب الذي تسمح به ثقافة عربية خالصة.

٢- شاع الإطناب، وكثر الترادف، من أثر الفطرة السليمة، واتساع الأساليب أمامهم، وغناهم بالألفاظ، كما كان لاعتمادهم على الخيال، وسعة معرفتهم بالتاريخ أثر في هذا الطول.

٣- وترى أثر هذه العروبة والفطرة ظاهراً جلياً في عدم احتفالهم كالمشارقة بأنواع البدء والختام في الرسائل، وبتعويلهم في الخطاب على الكاف والتاء، كما ظهر في الصياغة اللفظية واستعمال أنواع البديع.

٤- تناولوا من أنواع البديع ما يلتئم مع الطبع، ولا يتنافى مع الفطرة، فأكثروا من السجع الذي ترتاح إليه الأسماع، وكثر في كلامهم.

٥- كثرت الكتابة المسجعة وسجع الأندلسيين خفيف مقبول قصير الفقرات قد انقاد لهم فأدوا به أدق المعاني، وصوروا ما خفي من الأغراض، وكتبوا به التاريخ وتراجم الرجال، فما اضطرتهم السجعة إلى نقص في الحكم أو زيادة، وهذان كتابا "قلائد العقيان" و"مطمح الأنفس" للفتح بن خاقان يمثلان ما نريد تسجيله بسجع الأندلس من دقة في الأداء، وخفة في الروح، وجمال في الإيقاع.

٦- اللغة في بلاد الأندلس نبتت فتية، لأن العرب بالأندلس نزحوا إليها ولغتهم تامة السليقة، بريئة الملكة، ثم كانوا بهذه البلاد جمهرة غالبة، وعنصراً شائعاً، وللوكهم الغلبة، وعز السلطان، وهم في الجزيرة في أمن من الطارئين وكذلك كان لنوع ثقافتهم وعزوفهم بطبعهم عن الفلسفة وعلومها كان له في نقاء سليقتهم، وصفاء طبعهم، وسلامة لسانهم أثر غير منكر.

د- كتب برامج العلماء: وتضم شيوخ مؤلفيها، وما أخذوه عنهم من الروايات، وما قرؤوه عليهم من الكتب، وما حصلوا عليه من الإجازات.

واختلفت تسمية البرنامج بحسب المؤلِّفين، فيقال له المعجم، والمشيخة، والفهرس، والثبت، والسند والتقييد.

ومن هذه الكتب فهرس ابن جبير الإشبيلي (ت٥٧٥هـ)، وبرنامج المجاري (ت٨٦٢هـ)، وثبت البلوي الوادي آشي (ت٩٣٨هـ).

الباب الثامن عشر
النثر الفني الأندلسي

أولاً- مسيرة وحركة:

تطور النثر في مختلف أطوار العصر الأندلسي وعرفت في الصدر الأول من الفتح نماذج قليلة من النثر اقتضتها ظروف الفتح، كالخطابة التي تطلبتها مناسبات سياسية ودينية، والكتابة التي اقتضتها ظروف الحكم، وكتابة العهود والرسائل والتوقيعات، وهو نثر تغلب عليه المسحة المشرقية من حيث الميل إلى الجزالة وقوة العبارة وعدم اللجوء إلى المحسنات، ما عدا خطبة طارق بن زياد التي يدور الشك حول نسبتها إليه.

١- **ففي عهدي بني أمية والطوائف** ظهر نوع من النثر المتأثر بنثر الجاحظ، وكان للحكام دور في تشجيع الأدباء على التأليف، وإسناد الوزارة إلى أصحاب الحذق والمهارة، فقد ألف ابن فرج الجيّاني كتاب «الحدائق» وقدمه للحكم المستنصر، وقد انتدب المعتضد العبادي الأديب الشاعر ابن زيدون لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسمي بذي الوزارتين: وزارة السيف، ووزارة القلم.

٢- **وفي عهدي المرابطين والموحدين** ظهرت طائفة من الكتاب عنيت بالكتابة الإنشائية والتأليف في مختلف الأغراض، كما انتشرت في عهد الموحدين المكتبات التي تضم الكتب النفيسة، وعكفت طائفة من الكتّاب على تأليف كتب جديدة منها «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ت٦٣٣هـ)، أو اختصار القديمة منها «اختصار الأغاني» للأمير أبي الربيع الموحدي (ت٦٠٤هـ)، أو تدوين رسائل تشيد بما وصلت إليه الأندلس من تقدم ثقافي وازدهار علمي منها «رسالة في فضل الأندلس» للشقندي (ت٦٢٩هـ).

٣- **وفي عهد بني الأحمر** اتسعت النماذج النثرية فصدر عن الكتاب النثر الديواني الذي يضم الرسائل، والكتابات على شواهد القبور، والعلامة السلطانية والنثر الإخواني بين

الكتاب وذوي السلطة، أو بين الكتاب أنفسهم، والنثر الوصفي الذي يتناول وصف الشخصيات والأعلام، ووصف المدن والرحلات مثل رحلة البلوي خالد بن عيسى (ت٧٦٨هـ) وعنوانها «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، ورحلة القلصادي علي بن محمد (ت٨٩١هـ).

وكثر التأليف في المقامات التي عنيت بتسجيل هموم الحياة، وخرجت عن الكدية والاستجداء إلا في القليل ومنها «مقامة العيد» التي استكدى فيها الأزدي خروف العيد ليرضي زوجته.

ثانياً- خصائص وميزات النثر الأندلسي

الشعر في الأندلس امتداد للشعر العربي في المشرق؛ فقد كان الأندلسيون متعلقين بالمشرق، ومتأثرين بكل جديد فيه عن طريق الكتب التي تصل إليهم منه، أو العلماء الذين يرحلون من الشرق أو الأندلسيين الذين يفدون إلى الشرق للحج أو لطلب العمل، فكانت حبال الود ووشائج القربى قوية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

وكان الأندلسيون ينظرون إلى الشرق وما يأتي منه نظرة إعجاب وتقدير؛ فكانوا في غالب أمرهم مقلدين للمشارقة، ويبدو ذلك واضحاً في ألقاب الشعراء وفي معارضاتهم لشعراء المشرق.

ولكن هذا التقليد لم يمنعهم من الإبداع والابتكار، والتميز بميزات تخصهم نتيجة لعوامل كثيرة، أهمها البيئة الأندلسية الجديدة الجميلة التي طبعت الأدب الأندلسي بطابع خاص.

ويمتاز الشعر الأندلسي في ألفاظه ومعانيه وأخيلته بسمات تبدو واضحة في مجمله، ومنها:

١- تنوع أساليب الإنشاء بتنوع الموضوعات.

٢- الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف.

٣- الإكثار من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة.

٤- البلاغة في إبراز الصور البيانية.

٥- استعمال المحسنات البديعية.

٦- الارتقاء بأسلوب التعبير.

وفي العصور الأخيرة تنوعت أساليب الأداء الفني فاتخذت مستويين:

١- أولهما مستوى الكاتب نفسه كما في نثر ابن الخطيب المُرْسَل، والمسجع.

٢- والثاني الاختلاف على مستوى الكتاب، وقد سار في اتجاهين.

أ- يغلب على الأول الإفراط في الزخرفة اللفظية ورائده إسماعيل بن الأحمر (ت٨٠٧هـ) في كتبه «نثير الجمان» و«نثير فرائد الجُمان» و«مستودع العلامة».

ب- ويغلب على الثاني الميل إلى الأسلوب المرسل، ويبدو في رسالة القاضي أبي الحسن النباهي التي يعدد فيها معايب لسان الدين بن الخطيب، وفي كتاب «الخيل» لعبد الله بن محمد بن جُزَيّ.

٧- وضوح المعنى، والبعد عن التعقيد الفلسفي أو الغوص على المعاني وتشقيقها.

٨- سهولة الألفاظ وسلاستها، والبعد عن التعقيد والغموض، وذلك ناتج عن بساطة الأندلسيين وبعدهم عن التعقيد في كل شيء، ويستثنى من ذلك شعر ابن هانئ وابن دراج، فهما يقربان من شعر المشارقة من حيث الجزالة والقوة.

٩- قلة الألفاظ الدخيلة والأعجمية؛ مع التمسك بالعربية الفصحى.

١٠- التجديد في بعض أغراض الشعر والتفوق فيها، ويبدو ذلك واضحاً في رثاء الممالك الزائلة، وفي وصف الطبيعة.

١١- الخيال المجنح، وبراعة التصوير، والاندماج في الطبيعة، ووصف مناظرها الخلابة، وذلك أثر من آثار جمال الطبيعة الأندلسية، وتعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم، وانعكاس ذلك على شعرهم سواء من ناحية الألفاظ المنتقاة أو الخيال أو التصوير والتشخيص.

١٢- التجديد في الأوزان، وذلك باختراع الموشحات، وسوف نتحدث عن الموشحات حديثاً مفصلاً.

١٣- البعد عن المحسنات اللفظية المتكلفة والمبالغة، وبروز التشبيهات الجميلة والاستعارات الدقيقة وحسن التعليل.

والخلاصة: إن الأندلسيين قد قلدوا المشارقة، ولكن هذا لم يمنعهم من الابتكار والتفوق في مجالات عديدة ورد ذكرها فيما سبق.

الباب التاسع عشر
الخطابة الأندلسية

أولاً- مقدمة:

أ- رؤيا:

تعددت فنون النثر العربي في الأندلس، فتناول الأندلسيون ما كان معروفاً في المشرق من خطب ورسائل ومناظرات ومقامات، وزادوا عليها بعض ما أملته ظروف حياتهم وبيئاتهم، وقد شاع فيهم تصنيف كتب برامج العلماء، التي تضمنت ذكر شيوخهم ومروياتهم وإجازاتهم، وكان للكتاب مزية الجمع بين الشعر والنثر والإجادة فيهما، فعندما دخل العرب الأندلس فاتحين كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة.

ثم إن عصر الولاة كان عصر اضطراب وحروب وصراع بين العصبيات العربية، فكان ذلك داعياً إلى ازدهار الخطابة في الأندلس في ذلك العصر، فكانت الوسيلة الفعالة في إشعال الحروب وتأييد العصبية القبلية عندما تكون الحروب والنزاعات بين العرب العدنانيين والقحطانيين، وكانت الوسيلة فعالة في الحث على الجهاد وقتال الكفار عندما تكون الحروب ضد نصارى الأندلس.

ولقد كانت الخطابة وليدة الفتح، فقد استدعت الغزوات التي قام بها العرب المسلمون قيام الخطباء باستنهاض الهمم، وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله.

ولما تمزقت البلاد، واستحالت إلى دويلات كثيرة، واستعان بعض أصحابها بالأعداء، كان الخطباء يقفون في المحافل العامة للدعوة إلى لم الشمل وترك التناحر.

ومنذ عصر المرابطين، حتى آخر أيام المسلمين في الأندلس، ظهرت الخطب المنمقة، ومنها التي تتضمن التورية بأسماء القرآن الكريم، كما في خطبة للقاضي عياض (٥٤٤هـ) التي يقول فيها: «الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه، وبين في سورة البقرة أحكامه، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه... ».

وكانت الخطابة في تلك الفترة تتميز بالسهولة والوضوح والإيجاز والبعد عن التكلف؛ لأن الخطباء من الولاة والأمراء والقادة كانوا عرباً مطبوعين على الخطابة والارتجال.

ولكن عندما استقرت الأمور ومال الناس إلى الدعة ضعفت الخطابة الأندلسية، وتفوق الشعر والنثر الفني عليها، وإن كانت الخطابة الدينية قد ازدهرت بفضل بعض العلماء الذين كانوا يجيدون الخطابة كالقاضي منذر بن سعيد البلوطي.

وعندما عادت الأندلس إلى عصر الاضطراب والحروب في عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين كانت الملكة والسليقة العربية قد ضعفت، فلم تزدهر الخطابة من جديد مع وجود دواعي الازدهار، بل دخلها كثير من الصنعة اللفظية، وامتلأت بالسجع المتكلف فضعفت، ولم يعد لها تأثير يذكر.

ب- نماذج للخطابة:

١- خطبة طارق بن زياد فاتح الأندلس:

"أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدت لكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت.

وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص فيها متاع النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي.

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً... ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة،

وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذلون".

نفح الطيب للمقري ج١ ص٢٢٥.

شرح المفردات الصعبة:

- وزر: حمل تحملونه.
- ذهبت ريحكم: ذهبت قوتكم.
- المناجزة، سرعة المقاتلة والاشتباك.
- نجوه: منجاة، أي إنني معكم في هدأ الأمر الخطير.
- العقيان: الذهب.
- عزبان: جمع أعزب وعازب أي الذي لم يتزوج.
- أصهار: جمع صهر، القريب وزوج بنت الرجل أو أخته.
- أختان: جمع ختن، وهو أبو امرأتك أو أخوها، فالأحماء من قبل الزوج، والأختان من قبل الزوجة، والأصهار تجمعهما.

ج- أشهر خطباء الأندلس:

١- طارق بن زياد فاتح الأندلس.

٢- والأمير عبد الرحمن الداخل المؤسس الأموي في الأندلس.

٣- ومنذر بن سعيد البلوطي.

٤- والقاضي عياض.

٥- ولسان الدين بن الخطيب.

ثانياً- الخطابة الدينية في الأندلس

تعددت أنواع الخطابة الأندلسية، وتنوعت موضوعاتها، فشملت أغراضاً شتى من شؤون الحياة ما بين:

١- خطابة دينية:

أ- ماهيتها:

كان المجال الديني من أرحب المجالات التي تجلت فيها قوة الخطابة ونهضتها، إذ شهد ميدان الخطابة الدينية- سواء أكانت شفوية أم مكتوبة - نمواً واضحاً، فكثر أعلامها، حتى أصبح عددُ من الخطباء يتناوبون فيما بينهم، فكان كل واحد يخطب جمعة في الشهر، وكان يشترط في الخطيب إلى جانب فصاحته وعلمه التحلي بالتقوى والفضل والصلاح وفي إطار حركة الهداية والوعظ التي تزعمها الأتقياء من أهل الورع والزهد دعا الخطباء إلى مجاهدة النفس وكبح جماحها، حتى لا تتهالك على متاع الدنيا الزائل، لترتدع عن أهوائها، وتتبين عاقبة هواها عساها أن ترعوى عن الشر، وترتد عن الباطل.

ب- أشهر خطبائها:

وينتمي إلى عصر المرابطين والموحدين أشهر خطباء الوعظ الديني في الأندلس، منهم:

١ - أبو الحسن بن شريح الذي شهد له تلميذه ابن عبد الغفور بالإحسان والفصاحة والبيان في فن الخطابة ورأى " أن هذا الفن من البلاغة قد عفا بالكلية ودرس، ولكنه أي ابن شريح - قد أعاد إليه جدته وبهاءه، وملك وحده أرضه وسماءه "

٢ - والخطيب القاضي عياض الذي شاعت خطبه على ألسنة الناس.

٣- والخطيب الواعظ أبو بكر الطرطوشي.

٤ - والخطيب الكاتب أبو المطرف بن عميرة الذي كان قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وغيرهم كثر.

ج- مضامين الخطب الدينية: ترددت في الخطب الدينية كثير من معاني الزهد وأفكاره، وكانت في الغالب تدور حول:

١ - ازدراء الدنيا.

٢ - والندب إلى الاعتبار بالموت.

٣- والتذكير بيوم البعث والحساب، وغيرها من المضامين الزهدية التي ذاعت على ألسنة الزهاد في الأندلس.

والحق أن الخطبة الزهدية الواحدة كانت في العادة تشتمل على غير مضمون زهدي، وقلما استقلت خطبة زهدية بمضمون زهدي واحد، ولعل من أبرز المضامين الزهدية التي دارت حولها خطب الزهاد والوعاظ: التنفير من الدنيا، وتعداد مثالبها، وكشف حقيقتها الزائفة حتى لا ينخدع المسلم ببرقها الخلب، وسرابها الخادع.

د- أبرز خطبها:

١- خطبة ابن الجنان:

يقول ابن الجنان في خطبة طويلة: "... ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها المموهة، وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث، وإلمام الآلام، دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام، ووجودها فناء وانعدام وبناؤها تضعضع وانهدام، ينادي كل يوم بناديها منادي الجمام، فلا قرار بهذه الغرارة ولا مُقام، ولا بقاء لساكنها ولا دوام... ".

تحليل الخطبة:

١ - مدار هذه الخطبة وفكرتها الجوهرية هو زوال الدنيا، وحوادثها المتقلبة وأن نهايتها الموت والفناء.

٢ - هي في جملتها معان واضحة، قريبة الفهم، سهلة المأخذ.

٣- صيغت في لغة عذبة لينة.

٤ - اتسمت بالبساطة واليسر.

٥ - تأنق صاحبها في اختيار ألفاظها، وشاكل بينها وبين معانيها مشاكلة قوية طبيعية.

٦- سلك الخطيب في التعبير عن معانيه الأسلوب الخطابي.

٧- إثارة عواطفه، وتحريك مشاعره، فهو يرسم صوراً متنوعة للدنيا، ويعرض المعنى الواحد بأثواب مختلفة.

٨- الاستعانة بالتكرار والترادف الذي يتولد عنه بالضرورة الإطالة والإطناب.

٩- السجع هو الإيقاع الغالب على هذه الخطبة، وقد التزمه الخطيب في كل أجزائها، قصد تجويد كلامه وتحسينه، وتوليد القيم الصوتية المعبرة، إذ عمد إلى تقسيم الفقرة الواحدة إلى فواصل متساوية، فتبدوا وكأنها القافية في قصيدة متنوعة القوافي، وهو سجع صادر عن طبع، لا أثر فيه لصنعه أو تكلف، استدعته طبيعة الموضوع، لأن " للأسجاع موسيقا صوتية خاصة تتناسب مع العواطف الدينية، والأداء بها يكون أبلغ تأثيراً، وأشد وقعاً ".

١٠- الإفادة من أنواع البديع الأخرى من مقابلة وجناس، إذ بنى فقرات خطبته على المقابلات المتتابعة: " دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار". ليبرز معاني التغير والتحول في الدنيا، فلا تطمئن لها نفس، ولا ينخدع بمتاعها الزائل عاقل.

١١- الصور الخيالية التي تجلو المعاني وتبرزها، فالاستعارة "ينادي بناديها الحمام" جسمت المعنى وجعلته قادراً على التأثير في نفوس المتلقين.

١٢- ربط الخطيب بين صورة الدنيا الفانية وبين الموت بصفته النهاية الطبيعية لهذه الرحلة الطويلة في الدنيا، ليثير في وجدان المتلقي وإحساسه الخوف والرهبة من الموت، وليدفعه إلى العظة والعبرة.

١٣- المبالغة في التزهيد في الدنيا، وكشف غرورها، ولعل مبعثه ما كان عليه الناس في عهد الخطيب من تهافت على حب الدنيا، وانصراف إلى التمتع بشهواتها، في الوقت الذي تتهاوى فيه قواعد الإسلام في الأندلس تحت ضربات النصارى الإسبان، فيتحقق بذلك الارتباط القوى بين موضوع الخطبة وبين الظرف الذي قيلت فيه، ما أكسبها ذلك تأثيراً عظيماً في النفوس، وجعلها تعبر عن حياة الأندلسيين أصدق تعبير.

١٤- كانت صدى لبيئة الخطيب وظروف مجتمعه، "إذ يُستحب للخطيب أن يشير في خطبته إلى ما شاكل الحين والحال، فإن ذلك أنطق بحذاقته وبراعته، وأدل على وفور بضاعته

وصناعته"، والواقع أن نزعة الزهد قد واكبت حركة الجهاد في الأندلس ضد النصارى الإسبان، فحذر الكتاب الزهاد أهل الأندلس من الإقبال على الدنيا، والتهافت على متاعها، وحرضوهم على جهاد ديني تكون عاقبته الجنة، وثمرته ديار الخلد.

٢- خطبة ابن أبي الخصال:

يقول ابن أبي الخصال في خطبة له محذراً من الاستنامة إلى الدنيا، حاثاً على الزهد في حطامها: "... كلا! لا عَتْبَ لكم عليها! قد أمتكم جهاراً بأحجارها، ولدغتكم مراراً من أحجارها، وعمتكم صغاراً بذحولها وأوتارها، وأنتم - على ذلك - تتهافتون تهافت الفَراش على حطامها ونارها، أي مصون منكم لم تنله بهتك، أم أي منيع لم تَغُلْهُ بفتك، أم أي مصاف لها لم تُذِلْهُ بنبذ وترك؟! فانفضوا - رحمكم الله - بها نفضاً، وأجمعوا لها - كما رفضتكم - رفضاً، واستبدلوا من نصب غرورها بالزهد فيها دعة وخفضاً فاستقيلوا - رحمكم الله - عثاركم واستقبلوا عدوكم وخذوا ثأركم، وخلدوا في صحف القبول آثاركم، وأخلصوا لله طاعتكم، وحققوا إنابتكم وضراعتكم".

تحليل الخطبة:

١ - رسخ الخطيب مفهوم أن الدنيا فانية وأنها دار ممر، والآخرة دار مقر.

٢ - هوَّن الخطيب من شأن الدنيا وزينتها.

٣- ونبه من الغفلة والاغترار بمفاتنها الزائلة.

٤ - دعا إلى استلهام العظة من الأقوام التي حكمت بغرورها، فكان مآلها إلى الفناء والزوال.

٣- خطب القاضي عياض:

أ- الخطبة الأولى:

يقول القاضي عياض في إحدى خطبه الوعظية: " أيها الناس، اسلكوا جواد الحقائق، واتركوا بُنيان الطرائق، ولا تغرنكم الدنيا بكواذب المخارق، فإنها كثيرة البوائق، جمة العوائق... كم أهلكت قبلكم من الخلائق، وطوت من الفراعين والعمالق، وطوحت من القياصر والبطارق، وطرحت العصم من أعلى الشواهق، وأسقطت من الجو كل خرق الجناح خافق ".

تحليل الخطبة:

١ - هذه إحدى خطب الوعظ الديني الذي عُرف بها القاضي عياض.

٢ - استخدم في بنائها خصائص التعبير الخطابي للتأثير في نفوس السامعين وإقناعهم عن طريق.

أ- الاستدلال المنطقي.

ب- وضرب الأمثلة بالأقوام السالفة.

ج- وتوظيف الأسلوب التصويري.

د- توظيف وسائل تعبيرية أخرى مؤثرة.

٣- لجأ الخطيب إلى الأساليب الإنشائية مثل:

أ- النداء " أيها الناس، لتنبيه الغافلين، وتهيئة أذهانهم لموعظته.

ب- والأمر " اسلكوا " للإرشاد والتوصية.

ج- والنهى " لا تغرنكم ".

د- للتحذير والنصح.

هـ- و" كم " الخبرية للمبالغة والتهويل.

و- الأساليب الخبرية مثل " فإنها كثيرة البوائق " فجاءت لتقرير الحقائق، وتأكيدها في الأفهام.

٤ - كما وظف الأمثال العربية في نسيجه اللغوي فغدت وكأنها جزء منه، فقوله: "وطرحت العصم من أعلى الشواهق" مأخوذ من المثل العربي "ويحل العصم سهل الأباطح".

٥ - استخدم أسلوب المقابلة في أداء معانيه وتصويرها، للذين غرتهم الحياة الدنيا، وركنوا إليها، بين ما كانوا عليه، وما صاروا إليه "وكم ذي بسطة ومنظر فائق، بعيد الصيت في جميع المواقف، مغتراً بمساعدة دنياه واثق، فأصبح ذا بصر خاشع ونفس زاهق، وحيداً فريداً من كل مؤنس ومفارق، رهيناً بما اكتسبت يداه، وخط في المهارق".

٦- التزام السجع قصير الفقرات قصد توليد لون من ألوان الإيقاع الموسيقا المؤثر، فيما يشبه إلى حد بعيد القافية في القصيدة، إذ سادت الخطبة على وتيرة واحدة من التزام لحرف القاف المقيد الذي يفصل بينه وبين ألف التأسيس حرف مشكل بالكسر.

وبرغم ما حققه اختيار القاف حرفاً للسجعة من قيمة صوتية موحية، إذ يثير تردده في نهاية الفصل إحساساً بالفزع والرعب والخوف من المآل الذي يصير إليه الإنسان في هذه الدنيا، فإن التزامه في الخطبة كلها جاء أثراً من آثار التكلف والصنعة التي جعلت من السجع ثقيلاً رتيباً.

٧- الروح التي هيمنت على هذه الخطبة هي الروح الدينية الإسلامية، والتي تبدت في الحث على ازدراء الدنيا، والاتعاظ بالأمم السالفة، والاقتباس من القرآن الكريم في قوله "رهيناً بما اكتسبت يداه" مأخوذ من قوله تعالى:﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[سورة الطور:٢١]، وغلبة الاتجاه الديني على الخطبة العياضية " له ما يسوغه من واقع الأندلسيين الذين أصبحوا غافلين في ملذات الحياة من أحكام الشريعة مما أوجب لهجة الخطاب الغاضب والعاتب ".

ب- الخطبة الثانية:

وللقاضي عياض خطبة وعظية تدور جلّها حول معنى التوصل على الله يقول فيها: "... فأجملوا - رحمكم الله - في الطلب توفقوا، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا، وأريحوا أنفسكم من النصب في طلب الدنيا والكد، فإنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، ألا وإن التوكل على الله والثقة به أحد أبواب الإيمان، ومن أفضل درجات العدل والإحسان، وهو حقيقة العبودية والتوحيد، وموجب الرضا والتسليم للرقيب الشهيد".

تحليل الخطبة:

١- يؤمن الخطيب في هذه الخطبة بأن طريق السعادة إنما يمر التوكل على الله وحده.

٢- وهو يعبر في ذلك عن عاطفة دينية صادقة أفضت إلى طمأنينة نفسية، وإلى طرح الدنيا من قلبه طرحاً تاماً.

٣- ولحاجة الخطيب إلى الإقناع والتأثير وتأكيد معانيه في نفس المخاطب، فقد عمد إلى تضمين خطبته بعض أقوال الرسول الكريم بمعانيها، فقوله: " وتوكلوا على الله حق توكله

ترزقوا" مأخوذ من قول الحديث الشريف: " لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً..." ومثل ذلك قول الخطيب: " فإنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منك الجد"، اقتباس من قول الرسول الكريم: "اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد".

ج- الخطبة الثالثة:

يقول القاضي عياض: "أيها الإنسان، إن الله تعالى قد وهبك من عنايته حظاً اقتضى شرفك موفوراً، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود، واستودع عالمك المختص بدائع الحكمة ما يحار فيه عقل مجتليه، ونضد جواهره النفسية في سلك الازدواج فكل عضو إلى ما يليه".

د- الخطبة الرابعة:

يقول القاضي عياض: "... وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة، وانتظروا قوله: يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ذلك يوم تَذْهل فيه الألباب، وترجُف القلوب رجفا، وتُبدل الأرض، وتُنسف الجبال نَسْفاً، ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلاً ولا صرفاً، ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً، وعُرضوا على ربك صفاً، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أنْ لن نجعل لكم موعداً...".

تحليل الخطبة:

١- لقد سلكت هذه الخطبة سبيل الترهيب والتخويف لبلوغ الهدف المنشود، لعل المستمع يرتدع عن غيه، ويشفق من عذاب ربه وبطشه.

٢- شاع في هذه الخطبة الاستشهاد بآي الذكر الحكيم التي تناسب مقام الوعد والوعيد، والتذكير والتخويف، حتى يكون لخطبته من التأثير وشدة الوقع ما لهذه الآيات في نفوس المستمعين من القداسة والقوة.

٣- وقد بسط القرآن الكريم ظلاله على كثير من خطب القاضي عياض " فأكسبها رونقاً جمالياً، ومظهراً بلاغياً راقياً، فقد كان عياض - كما يبدو- مشدوداً بظمأ لاهب إلى توظيف الآيات القرآنية، واستخدام حقائقها وبلاغتها في التعبير عن آرائه ".

٤- وحين يعرض الخطيب لمشاهد يوم القيامة، وصوره المفزعة، فإنه يلجأ إلى ربط المستمع بكتاب الله، فمنه يستلهم المسلم مصادر العظة والعبرة، وفي آياته إيقاظ لغفلته، وهداية لحيرته يقول: " فما لك يا حيران، تتلى عليك آي القرآن ولا تزدجر بعظاتها ولا تفرق، ركبت في بحر التسويف ولم تبال التخويف، أخشى عليك أن تغرق، أما علمت أنه لابد من موقف القمر فيه يخسف، والبصر فيه يبرق ".

٥- ثم يعمد الخطيب إلى الموازنة يوم القيامة بين منزلة المطيعين ومنزلة العصاة، ليبرز التباين بين المنزلتين، ويحث المؤمن على الفوز بسعادة الدارين: " فهناك يمتاز الفريقان: فنهار أولئك بالشقاوة أظلم وليل هؤلاء بالسعادة أشرق ".

٦- ولنيل سعادة الدار الآخرة، والنجاة من النار وعذابها، فإن الخطيب يسوق طائفة من الوصايا والنصائح الإرشادية الوعظية، فيحذر من الغفلة في الدنيا، ويطلع الناس على حقيقتها، ويذكر بالموت وعذاب القبر، ويدعو إلى التعلق بصالح الأعمال:

"عباد الله، انتبهوا من غفلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يُراد بكم قبل حلول آجالكم وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا، فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عما قريب راحلون، وإلى ربكم راجعون، فاذكروا ألم الموت وسكرته، وعذاب القبر وظلمته، والصراط ودقته، والقصاص وحسرته والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فمن يطع الله ورسوله فله جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين".

٧- الربط بين الذنوب والمصائب التي حلت ببلاد الأندلس وأفضت إلى سقوط كثير من مدنها بأيدي النصارى تلح على أذهان بعض الخطباء الوعاظ فيرددونها في كثير من خطبهم، ويحثون المسلمين على الإقلاع عن المعاصي، ويرشدونهم إلى وجوب تطهير النفوس، وتنقية الضمائر، يقول ابن أبي الخصال في خطبة يحرض فيها على الجهاد، ويصور تفاهة الدنيا، ويذكر بالموت، ويظهر العلاقة بين الذنوب والمصائب التي حلت بالمسلمين: " ألا تستوحشون لتباريح العصر، وركود ريح النصر، وتداعي أمم الكفر، وإجفالنا عن مقاومتهم إجفال العُفْر، ألا نقلع عن الذنوب التي فَتَّتْ أعضادنا، وقَضَتْ باهتضامنا واضطهادنا".

٤- خطبة ابن عبد الغفور:

ومن الخطب الوعظية الشرقية التي أغرم بها الأندلسيون، وحاولوا محاكاتها قصد إظهار مقدرتهم الفنية خطبة " الفصيح " لأبي العلاء المعري، إذ عارضها ابن عبد الغفور في خطبة له سماها "الإصلاح" خاطب فيها الدنيا الزائلة، وحث الحائرين على التعلق بالعمل الصالح، والمبادرة إلى فعل الخيرات يقول: " يا أم دَفْر، أمن ثديك بطني، وما قلت حسبي ولا قطني، يا حار احفل بحفلك لأخيك وطفلك، ولا يكن سحابك صيفاً، ولا معروفك هيفاً يعيي الطالبين... ليس الجمال في شَعَر وَحْف لكن في بدارٍ إلى الخيرات وزحف... يفنى كل شيء ولا يبقى سوى الواحد الحي".

تحليل الخطبة:

من ملامح هذه الخطبة الوعظية:

١- اتسام بعض ألفاظها وتراكيبها بالغرابة إذ تحتاج إلى المعاجم اللغوية لمعرف معانيها ومدلولاتها.

٢- كما برز فيها التزام الخطيب بالسجع ذي الفواصل القصيرة، ليثبت براعته اللغوية، ومقدرته الأدبية على معارضة المعري في خطبته.

٣- سلوك الزاهد يجده يسعى جاهداً لتوطيد صلته بخالقه، فيقبل على طاعته وعبادته، ويروض نفسه ويجاهدها.

٥- خطبة ابن شريح:

ومن معاني الزهد التي تناولتها خطب الزهاد الدعوة إلى التأمل والنظر في مخلوقات الله الدالة على وجوده وقدرته، ليقر الإنسان بوحدانيته، وللتدليل على عظمة خالقها، وليصل من مظاهر الأشياء إلى جوهرها، ومن واقعها إلى مآلها، يقول ابن شريح في خطبة له يحث فيها على النظر الفعلي في آيات الله والاتعاظ بعجائب موجوداته: "... وتفكروا فكم في الأرض والسماء لذي الكبرياء من قدرة، واستدلوا فكل ذلك يدل بالمشاهدة والاختراع والفطرة، فاذكروا ما أمكنكم الادكار، واعتبروا يا أولي الأبصار، نجوم زاهرات، وبحار زاخرات، وسحاب مسخرات، ورياح ذاريات، وفُلك جاريات، وجبال راسيات، وأرض وسماء،

وظلام وضياء، وصباح يردفه مساء، وصيف يخلفه شتاء، ومولود يولد، وفقيد يفقد، والأعمار في خلال ذلك تنصرم كالصريح، والنبت يعود بعد نضرته إلى حال الهشيم، كل يدل على عدم الثبات وسرعة الانبتات، وعودة الجميع إلى الشتات، والجديد إلى حال الرفات ".

تحليل الخطبة:

إن النظرة المتأنية إلى هذا النص الوعظي تهدي إلى القول بأن الخطيب:

١- قد سلك مسلكاً قريباً من نهج القرآن في الإقناع.

٢- وسوق الأدلة والبراهين المنطقية التي تفضي إلى أن ما يُشاهد من عجائب الكون إنما يدل على عدم الثبوت والدوام، وفي هذا عبرة وعظة لمن يعتبر.

٣- كما أن هذه الخطبة تستدعي إلى الأذهان مسلك بعض الخطب الوعظية التي راجت في عصر ما قبل الإسلام على لسان بعض الخطباء من أمثال قس بن ساعدة، والمأمور الحارثي، ويبدو أن الخطيب قد ترسم خطاهما، يقول المأمور الحارثي في خطبة له: " إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر، أرض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب، وقمر تطلعه النحور، وتمحصه أدبار الشهور... إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر، البارئ المصور ".

٤- إن هذه التأملات الكونية التي تدعو إلى التدبر والتأمل في بديع خلق السماء والأرض ودلالة ذلك على الخالق القادرة، والتي تحض على التذكير بمشاهد الموت وما فيها من عبرة وعظة، إنما تشف عن عاطفة صادقة وعميقة امتلأت بها نفس الخطيب ففاضت على لسانه حكماً وعبراً وعظة.

٥- لجأ الخطيب لإقناع سامعيه إلى وسائل فنية مختلفة:

أ- من إيثار الفقرات القصيرة الموجزة.

ب- والإيقاع الموسيقا القائم على السجع والجناس.

ج- وتوشيح الخطبة بآية قرآنية للاستشهاد على صحة فكرته.

د- والتصوير التشبيهي الذي يزيد المعنى وضوحاً وجلاء.

٥- والطباق المتتابع لتأكيد معناه وترسيخه في الأذهان.

٦- واختار الخطيب لمعانيه ألفاظاً سهلة، وتراكيب واضحة.

٧- وجاءت أفكاره مرتبة تنسجم مع جلال الموقف وعظمته، وهي أفكاره مستقاة كما تبين من ثقافته الإسلامية المختزنة.

٨- التأمل في مخلوقات الله في الكون.

٩- حث الإنسان على التأمل في خلق الله تعالى ودقة صنعته، ليكون ذلك دافعاً له على طاعة الله وعبادته.

٦- خطبة المطرف بن عميرة:

يحث المطرف بن عميرة العصاة على التوبة، ويدفعهم إلى الإقلاع عن الذنوب والمعاصي، ويحفزهم إلى التماس المغفرة من الله: "يا هذا، مداد الذنوب، إنما يمحوه ماء الدمع، أفلا تعدله عيناً باكية، وخطر العقل يقتل غلام الهوى، وأنت تقول: أقتلت نفساً زكية، اعترضتك شبهة الغي، فهذا دليل الرشد قد تبين، وإن خرجت خائفاً من مصر المعصية، فاجهد نفسك على أن ترد ماء مدين".

تحليل الخطبة:

يهدف الواعظ من وراء دعوته إلى:

١- الإقلاع عن الذنوب.

٢- والإقبال على الله

٣- التأثير في نفوس المخاطبين.

٤- وإقناعهم بموقفه.

٥- استعان بالأسلوب التصويري في تجسيم فكرته، مثل قوله: "مداد الذنوب، غلام الهوى".

٦- توظيف الإشارات الدينية والتاريخية، لإثراء نسيجه اللغوي، وذلك عن طريق الاقتباس الخفي من القصص القرآني، وهو يدرج ما اقتبس ضمن موعظته بحيث تخفى

للوهلة الأولى على السامع، ولا يفطن إليها إلا الحافظ للقرآن الكريم، فقوله: أقتلت نفساً زكية إشارة دينية وتاريخية إلى قصة موسى - عليه السلام - وخروجه من مصر إثر قتله القبطي، وقوله: "اعترضتك شبهة الغي، فهذا دليل الرشد قد تبين" إشارة إلى قبول الله توبة موسى، وعفوه عنه فالقتل كان خطأ دون عمد أو قصد، وقوله: "وإن خرجت خائفاً من مصر المعصية فاجهد نفسك على أن ترد ماء مدين" إشارة إلى قصة خروج موسى - عليه السلام - من مصر قاصداً ماء مدين كما وردت في القرآن الكريم.

٧- خطبة ابن الزيات الخطيب المتصوف:

وخطب أحمد بن الحسن بن علي الزيات خطبة ألغيت الألف من حروفها على كثرة ترددها في الكلام وهي:

"حمد ربي جل من كريم محمود، وشكرته عز من عظيم معبود، ونزهته عن جهل كل ملحد كفور، وقدمته عن قول كل مفسد غرور، كبير لو تقدم في فهم لحد، قدير لو تصور في رسم لحد، لو عرته فكرة تصور لتصور، ولو حدته فكرة لتقدر، ولو فهمت له كيفية لبطل قدمه، ولو علمت له كيفية لحصل عدمه، ولو حصر في ظرف لقطع بتجسمه، ولو قهره وصف لصدع بتقسيمه، ولو فرض له شح لرهقه كيف عظيم من غير تركيب قطر، عليم من غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يمسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريم من غير عوض يلحقه، حكيم من غير عرض يلحقه، قوي من غير سبب يجمعه، علي من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعورض في قيوميته، ولو ثبت له حس لنوزع في ديمومته.

ومنها تقدس وعز فعله، وتنزه عن اسمه وفصله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكت بصيرة دينه لبه، ربط مسلك سلوكه وشد، وهدم صرح عتوه وهد، وحرس معقل عقله وحد وطرد غرور غرته ورذله، عَلِم عِلْم تحقيق فنحا نحوه، نقر له عز وجل، بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد - صلى ربه

وسلم عليه- رسوله وخير خلقه، ونعلق بنهوضه في تبيين فرضه، وتبليغ شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف يركنون ففازوا بقصده وسديد سعيه، بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقي بنقمته.

وبعد، فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون وبصرتكم لو كنتم تتبصرون، وذكرتكم لو كنتم تتذكرون، ظهرت لكم حقيقة نشركم، وبرزت لكم حقيقة حشركم، فكم تركضون في طلق غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم، والموت عليكم سيف مسلول، وحكم عزم غير معلول، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويشتغل بهمه وكربه عن صديقه وتربه، وتنشر له رقعة، وتعين له بقعة، فريح عبد نظر وهو في مهل لنفسه، وترسل في رضا عمل جنة لحلول رمسه، وكسر صنم شهوته، ليقر في بحبوحة قدسه.

ومنها:... فتنبه - ويحك- من سنتك ونومك، وتفكر فيمن هلك من صحبتك وقومك، هتف بهم من تعلم، وشب عليهم منه حرق مظلم، فخربت بصيحته ربوعهم، وتفرقت لهوله جموعهم، وذل عزيزهم، وخسئ رفيعهم، وصم سميعهم، فخرج كل منهم عن قصره ما رمى غير موسد في قبره فهم بين سعيد في روضة مقرب وبين مشقي في حفرة معذب، فنستوهب منه - عز وجل- عصمة من كل خطيئة، وخصوصية تقي من كل نفس جريئة".

تحليل الخطبة:

١- صاحب هذه الخطبة ابن الزيات الخطيب المتصوف من أهل بلش مالقة توفِّي سنة ٧٢٨هـ، وفي وقته كان الأسلوب الخطابي والكتابي - في المشرق- قد انحط إلى مستوى شنيع، ونزل إلى درك وضيع، وأصبحت سمات التكلف البادية الواضحة تعلن عن الهزال والضعف والركاكة والتفكك، وقد كان هنالك من يحاول - مع ذلك خلو كلامه من حروف المعجم أو المهمل إعلاناً عن التفصح، وتنويها بمقدرته البيانية متناسياً أن هذه المحاولة نفسها تنبئ عن تخلفه عن الركب.

٢- وفي هذه الخطبة دليلان على نزول درجتها البلاغية.

أ- أحدهما هذا التكلف الذي أخذ الخطيب نفسه به.

ب- والثاني ذلك التعقيد في الاستدلال والغموض في الإيضاح والتعمية في الشرح، وما أظن خطيب منبر يزعم لنفسه بمثل هذا الأسلوب أنه يستدر دمعاً، أو يرهف سمعاً، أو يثير وجداناً.

- المضامين الزهدية عند الخطباء الزهاد:

١- الحديث عن يوم القيامة وعلاماته وأهواله.

٢- والتذكير بما ينتظر الإنسان من حساب وحشر.

٣- ونعيم مقيم.

٤- فعلى الإنسان العاقل التزود لمثل ذلك اليوم بالعمل الصالح.

ثالثاً- الخطابة السياسية:

أ- مقدمة:

وقد احتل هذا الفن من اللحظة الأولى التي دخل فيها العرب الأندلس مكانة مرموقة، والغرض عند الأندلسيين كما هو عند المشارقة يتمثل في:

١- إيقاظ نار الحماسة.

٢- وبث روح الجهاد.

٣- ونشر الدين.

٤- وإخضاع الأقاليم.

حيث تمثل الأمراء والخلفاء فصاحة اللغة وعمق البيان **واتسم هذا النوع من الخطابة بالسمات التالية:**

أ سهولة العبارة.

ب- البعد عن السجع.

ج- الجريان مع الطبع.

د- القدرة على التأثير.

هـ- الإيجاز والبلاغة.

و- وضوح المعاني.

ب- نماذج من الخطابة السياسية:

١- خطبة منذر بن سعيد:

جاءت الوفود إلى عبد الرحمن الناصر لتهنئه بالخلافة فقدم ابنه الحكم أبا علي القالي صاحب كتاب "الأمالي"، فقام أبو علي فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أرتج عليه، وانقطع وبهر، فلما رأى منذر بن سعيد ذلك وكان حاضراً قام من تلقاء نفسه ووصل افتتاح أبي علي بكلام بهر العقول... وهذا هو نص هذه الخطبة:

"أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليَّ يا معشر الملأ بأسماعكم، وافقهوا عني بأفئدتكم.

إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل: كذبت، وإن الجليل - تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه-، أمر كليمه موسى - على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام- أن يذكر قومه بأيام الله - جل وعز- عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم، بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قوتكم، كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم مشعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال، ونكد العيش، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء، أنشدكم الله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمنها؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.

فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد؟ حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان وهجر الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابّة عالية، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة بعد حدتها، فلم يبق لها غارب إلا جبه، ولا ظهر لأهلها قرن إلا جده، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلمِّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين متجهة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، للأخذ بحبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[سورة النور:٥٥].

وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوا المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالسداد، وألهمه التوفيق إلى سبيل الرشاد- أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكشفهم جمعاً، وأجملهم صنعاً، لا تهاجمون ولا تذادون، وأنتم - بحمد الله- على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخلفتكم، وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم، فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن في التعليق بعصمتها، والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقيام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سدد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم

القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام بـه، فإنـه - تبـارك وتعـالى- يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُم﴾[سورة النساء:٥٩].

وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه مـن ضروب المـشركين، وصـنوف الملحـدين، الساعين في شق عصاكم، وتفريـق ملـئكم، الآخـذين في مخاذلـة ديـنكم، وهتـك حـريمكم، وتوهين دعوة نبيكم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسـلين-، أقـول قـولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين".

- تحليل الخطبة:

١- كان من حق منذر بن سعيد أن يتهيب هذا الموقـف الـذي فـوجئ بـه مفاجـأة لم تكـن مترقبة، والذي حمل عليه حملاً غير منتظر، ومثل هذا الموقف يأخذ بالوعي، ويذهب بالإدراك، ويبدد الخواطر والأوهام؛ فإذا أضيف إلى ذلك احتشاد الجموع من كل حدب، وأن أديباً كبيراً قبله كبا به جواده، وخانه بيانه، وقصرت به فصاحته، ولكنه - مـع ذلـك- اسـتطاع أن يقـف على قدميه من غير تلجلج، ويسترسل في حديثه من غير لعثمة، ويتدفق البيان مـن غـير تـرو، وجعلنا بجعله في مصاف الأساتذة الكبار والكلام بين يدي رئيس حكومة، أو أمـير دولـة، أو خليفة شعب من شأنه أن يحيط به الحذر، ويحفه الحساب والتقدير، ويتقدمه التفكـير والـرأي، حتى لا يجيء في ثناياه شيء من الفضول، أو معنى من الخلط، أو نوع من القحة، أو بعض مـن سوء الأدب، وقليل من الناس من يعرض نفسه له، أو يتصدى لاقتحام مجالاته، اللهـم إلا إذا كانوا قد تمكنوا من ناصية القول، وتعودوا على المنطق، ومرنوا على الخطابة، وألفوا أن يصولوا في ميادين البلاغة، وأن يردوا حلبات الفصاحة.

٢- ومنذر بن سعيد بهذه الخطبة يعطينا صورة واضحة عن:

أ- بيانه السهل.

ب- وبلاغته الحلوة.

ج- وأدبه الجم، وعقله الواعي.

د- ولسانه الطبع.

هـ- وطبعه السليم.

و- وأسلوبه الواضح.

ز- وصراحته القوية.

ح- وإيمانه الصحيح.

٣- فهو يتحدث عن الخليفة من غير مبالغة ولا ملق، وهو إذ يقول: "إن خلافة أمير المؤمنين لمت شعثكم، وأمنت سربكم، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كملتكم بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم"، إنما يقرر حقيقة، ويذكر قضية مسلمة، وتظهر صراحة منذر بن سعيد، وإخلاصه لدينه، ومراقبته لربه، من قوله: فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ولا يؤخذ على منذر بن سعيد في هذه الخطبة إلا تكرار بعض المعاني في الخطبة تكرار إذا التمسنا له العذر فيه لم نستطع إلا أن نقول: إنه كان يريد أن يملأ ذلك الفراغ الواسع الذي كان يشعر به في هذا الموقف الرهيب.

٤- والخطبة بعد ذلك كله ليست نمطاً من:

أ- البيان الرفيع.

ب- ولا البلاغة العالية.

ج- ولا الأدب النقي.

د- ولا الأسلوب القوي.

٥- كانت الخطبة عنواناً على:

أ- ملكة الارتجال.

ب- وحكمة التصرف.

ج- وحسن التخلص.

د- وجرأة القلب.

هـ- وعدم المبالاة بالظروف.

و- وعدم الهلع من الأحداث.

ز- وعدم الفزع من المباغتة.

٢- خطبة لسان الدين بن الخطيب في الحض على الجهاد:

"أيها الناس رحمكم الله...

إخوانكم المسلمون - بالأندلس- قد دهم العدو - قصمه الله تعالى- ساحتهم، ورام الكفر - خذله الله- استباحتهم، وزحف أحزاب الطواغيت إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم - بعزة الله تعالى- أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد قد تعين، الجار الجار قد قرر الشرع حقه وبين، الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد - عليه الصلاة والسلام-، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه.

أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة - التوحيد- واسوا بأموالكم وأنفسكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم، والله سبحانه وتعالى يقول فيه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الصف: ١٠].

ومما صح عنه صلى الله عليه وسلم: ((من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار)) ((لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم)) ((من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا))، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده، ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد إن قال: لم فرطتم في أمتي وتركتموهم للعدو المعتدي تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحياء من وجه ذاك السيد، اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهم

انصرنا على أعدائك، بأحبائك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

تحليل الخطبة:

١- صاحب هذه الخطبة فارس من فرسان البلاغة، وكبير من كبار رجالات الأدب، له في كل ميدان من ميادين القول مجال، هيهات أن يدانيه فيه غيره، أو يلحق به سواه.

٢- وإلى جانب هذا فالموضوع شائك، والموقف حرج، والساعة رهيبة، وطن تنهده الأحداث، وتصطلح عليه الخطوب، وفي ذلك الذي يحيط به ويطوقه قضاء على نفوذ الإسلام، وانتكاس لرايته، واستذلال لأهله، ومساومة لهم في أعراضهم، وشرفهم ودينهم، وليس بعد ذلك مهانة ذليلة، ولا صغار بين، ولا قتل لردح الكرامة.

٣- ولئن كان هنالك أحاسيس تستدر الدمع، وتقطع نباط القلب، وتشيع في النفس القلق والخوف، والذعر والاضطراب، فإنها لا تبلغ ما تبلغه تلك الأحاسيس التي يشعر بها المسلم حينما يدرك أن دولة مجد شامخ، وشرف باذخ، تطيح بها الطوائح الظالمة، والأهواء الغاشمة، من غير ذنب سوى أنها ترفع علم العدالة والحرية والمساواة في الحقوق والمعاملات، وتنادي بالإصلاح والنهوض، والتقدم والرقي، والبر والخير، والسلام والأمن، وتدعو إلى سعادة الدنيا والآخرة.

٤- وقد استطاع الخطيب:

أ- أن يفي بالغرض.

ب- وأن يبلغ الغاية من القول.

ج- وأن يلهب شعور المسلمين بالفجيعة، وتقديرهم للموقف، لولا أن الحال كان يستدعي السيف لا القول، والجهاد لا الحسرة والعبرة، والقوة الضاربة، لا الدمعة الغالبة، ولمن كان يقول لسان الدين بن الخطيب: أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، وبادروا عليل الإسلام قبل أن يموت" وهم كما يقول القرآن الكريم: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[سورة الحشر:١٤].

رابعاً- الخطابة الاجتماعية:

أ- مقدمة:

وهي نوع من الخطابة يتحدث عن المشاكل الاجتماعية المعايشة لتلك الفترة في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وترك البدع، وهجر الأباطيل.

ب- نماذج من الخطابة الاجتماعية:

١- خطبة محمد بن تومرت:

وكان محمد بن تومرت - رأس الموحدين- قد جمع أنصاره قبل موته ليعظهم وينصحهم ويوصيهم أن يصلوا بعده ما انقطع من الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلما حضروا بين يديه قام - وكان متكئاً- فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم-، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم.

فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مداهناً، فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوه الناس إليهم، ثم إن الله - سبحانه وتعالى وله الحمد- من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيض لكم من ألفاكم ضلالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون، لا تعرفون معروفاً، ولا تنكرون منكراً، قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لساني عن النطق به، وأربأ بلفظي عن ذكرها.

فهداكم الله بعد الضلالة، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبهم، وما ربك بظلام للعبيد، فجددوا لله - سبحانه وتعالى- خالص نياتكم، وأروه من الشكر - قولاً وفعلاً- ما يزكي به سعيكم، ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفرقة، واختلاف الكلمة، وشتات الآراء وكونوا يداً واحدة على

عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم.

وإلا تفعلوا شملكم الذل، وعمكم الصغار، واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أولها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته، فرأيناه في ذلك كله ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره، وإني لأرجو ألا يخلف الظن فيه، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه، أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين - أعزهم الله- خير وبركة، والأمر لله يقلده من شاء من عباده.

تحليل الخطبة:

١- صاحب هذا النص هو محمد بن تومرت زعيم طائفة الموحدين الذين حكموا الأندلس فترة طويلة من الزمن، بعد أن استنجد بهم أهالي البلاد ليخلصوهم من جماعة المرابطين الذين بالغوا في إيذائهم، والعمل على تفريق كلمتهم، وشق صفوفهم، وكان محمد بن تومرت هذا يلقب بالمهدي، وكان مثقفاً ثقافة عالية تجعله جديراً بأن يحمل راية الدعوة التي كان يتزعمها، والمؤرخون له يقولون: إنه ارتحل إلى المشرق لطلب العلم، وقد استطاع أن يأخذ عن أساتذة كبار، وشيوخ جلة، أمثال الغزالي والشاشي والطرطوشي وابن عبد الجبار.

٢- وقد عمل على أن يصل إلى الحكم والسلطان، وقيادة الجماهير، وسيادة الناس، من طريق الإصلاح الاجتماعي، القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتصدى للتدريس أول أمره- فنشر مذهب الأشاعرة ببلاد المغرب، والتفت حوله جماهير غفيرة، كانت تثق به، وتطمئن إليه، وتأخذ عنه، وتجعله قدوتها في الطاعة، ومثالها في الاستقامة، وشيخها في الطريقة، ومنارها إذا اشتبهت المعالم، ولم تزل البلاد تأخذ بهديه، وتسير على نهج أتباعه من بعده، وتحكم الدين في سلوكها، والقرآن في سياستها، والشريعة الإسلامية في معاملاتها، حتى تغلب عليهم بنو هود أصحاب سرسقطة، وإن كانوا لم يطل بهم العهد، فإن الإسبان قضوا عليهم وعلى سواهم من ملوك الطوائف، ولم يسلم من غائلتهم إلا بنو الأحمر.

٣- والخطبة بعد هذا:

أ- أسلوب من أساليب الوعظ الصادق.

ب- والنصح البالغ.

ج- والإرشاد الصحيح.

د- ينبع فيضها من القلب.

هـ- وتصدر ألفاظها عن إيمان.

و- وتعبر كلماتها عن شعور قوي، ووجدان غير مكذوب.

ز- وتصور قائلها في صورة إنسان كبير القلب، نقي الذهن، صافي العقل، ناضج التفكير، سليم الطوية، بعيد النظر، ليس له غرض حقير، ولا هوى مسف، ولا طيش مرذول.

٤- لا تجول معانيها إلا برؤوس أصحاب الدعوات النبيلة، والأهداف السامية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

٥- وهي تبرز لنا ابن تومرت في ثياب الأطهار الأبرار الذين تتفقدهم الإنسانية حيناً بعد حين فلا نجدهم إلا كما تجد الشيء النادر.

٦- ولعل روعتها لم تكن في تنسيق الألفاظ، وجودة التراكيب، بمقدار ما هي في صدق العاطفة والوجدان، والشعور والإحساس، والميل والهوى، والرغبة والنزوع، والإيمان واليقين، والكلام الذي يخرج من القلب لا يستقر إلا في القلب.

الباب العشرون
فن الترسل الأندلسي

أولاً- مقدمة:

- تطور فن الترسل الأندلسي:

١- ارتفع شأن الرسائل التي ساعد على ظهورها بكثرة وانتشارها، كما ساعد على قيامها، وتعزيزها اهتمام الوزراء والأمراء بها، فاستقل فن الرسائل عن الكتابة الديوانية، وعالج موضوعات من الحياة، واعتمد الخيال في ابتكار الصور، وكان هذا الفن في عهده الأول مطبوعا لا يلتزم السجع إلا ما تقتضيه البلاغة، كما هي الحال في رسائل ابن زيدون، وابن شهيد، وبعض رسائل ابن حزم.

٢- ثم صار شأن هذه الرسائل إلى تكلف السجع، والتزيين، وتقلب الجمل على المعنى الواحد، والإكثار من الأدعية والأمثال، والشواهد الشعرية كما في رسائل ابن برد الأصغر، وقويت موجة التنميق في المرحلة الأولى فغلبت الصنعة، وكثر التكلف، وغدا النثر في فن الرسائل عبارات مرصوفة، ومعاني جافة وصوراً مسجوعة كما في رسائل "لسان الدين بن الخطيب".

٣- والرسائل من حيث غايتها في الحضارة الأندلسية قسمان:

أ- قسم فكري يعالج القضايا الاجتماعية والعقلية والنفسية من دون الاهتمام الزائد بوجوه البيان كرسائل "ابن باجة" الفلسفية.

ب- وقسم بياني يهدف إلى إظهار البراعة الأسلوبية كرسالة "ابن برد الأصغر" في السيف والقلم ورسائل "ابن حسداي" في الزهريات.

٤- وقد اهتم كتاب الرسائل الأندلسيون بوصف الرحلات إلى المدن والبلاطات كما هو الحال عند "أبي عبد الله محمد بن مسلم" الذي ترك رسالة «طي المراحل» وفيها يطرق أبواب المدن ويصور كيف حملته الأسفار المرهقة إلى ارتياد المناطق الطوال خلال سنوات عديدة خاض فيها أهوالاً جمة، وصعوبات كثيرة ومسالك وعرة، فكانت تلك الرحلات المدونة في الورق من أصعب ما مر به "ابن مسلم " في مراحل عمره.

٥- ولقد كانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يلتزم فيها سجع ولا توشية، ثم حظيت كتابة الرسائل بكتاب معظمهم من

فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل المتنوعة ومنها الديوانية والإخوانية.

٦- وقد شاع استعمال لفظ «كتاب» عوضاً عن الرسالة، كما ورد في رسالة جوابية كتبها ابن عبد البر (ت٤٥٨هـ) إلى أحد إخوانه يعبر فيها عن مدى إعجابه بأدبه.

٧- كما ترسم الأندلسيون خُطا المشارقة في الخطابة، حذوا حذوهم في فن الترسل فكتبوا رسائلهم تبعاً للأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية، كانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يلتزم فيها سجع ولا توشية، ثم حظيت كتابة الرسائل بكتاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل المتنوعة ومنها الديوانية والإخوانية.

٨- فمن الرسائل الديوانية رسالة أبي حفص أحمد بن برد (ت٤٢٨هـ) (المعروف بالأصغر تمييزاً له من جده الأكبر) من كتاب ديوان الإنشاء في دولة العامريين، وقد وجهها لقوم طلبوا الأمان من مولاه، واستخدم فيها الأسلوب الذي يخيف بالكلمة المشبعة بالوعيد.

٩- ومن الرسائل الإخوانية رسالتا ابن زيدون الهزلية والجدية، ورسالة لسان الدين بن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون في الشوق إليه.

١٠- وقد شاع استعمال لفظ «كتاب» عوضاً عن الرسالة، كما ورد في رسالة جوابية كتبها ابن عبد البر(ت٤٥٨هـ) إلى أحد إخوانه يعبر فيها عن مدى إعجابه بأدبه.

ثانياً- أنواع الرسائل:

برز لدى الأندلسيين من الرسائل:

١- الرسائل الديوانية:

وتختص بمكاتبات الملوك والأمراء وما يتعلق بشؤون الخلافة من عزل أو تعيين حاكم أو إصدار مرسوم، وتسمى السلطانية أو الإنشائية، وهي رسائل تصدر عن دار الحكم وتوجه إلى مسؤولي الدولة من وزراء والعملين عليها، ومن الأمثلة عليها هذه المقتطفات مما كتبه أبو

حفص بن برد وكان وزيراً (توفِّي عام ٤١٤ هـ) إلى هذيل بن رزين (الذي حاول أن ينفرد بحكم بعض الجهات) محاولاً إعادته إلى نطاق الطاعة وفيها يقول:

(أما بعد: آتاك الله رشدك، وأجزل من توفيقه قسطك، فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم، وأنسأهم بمَهَل غير مُهْملٍ، بل ليحصي آثارهم وليبلوا أخبارهم وجعلهم أصنافاً متباينين، وأطواراً مختلفين، فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية وبين الفريقين أقوام خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم، ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، ولذلك خلقهم، والسعيد من خاف ربه، وعرف ذنبه، وبادر بالتوبة قبل فوتها، واستعطى الرحمة قبل منعها).

ويقول في نهايتها مرغباً مهدداً: (وأنت بين طاعة سالفة، واستقامة موروثة وبين إنابة منتظرة، وتوبة مستقبلة، فبإحدى الحالتين تحط الذنوب الكبيرة، ويغطى على العيوب الكثيرة فالآن عصمك الله: واللبب رَخِيٌّ، والمركب وَطِيٌّ، وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة، إياك ومصارع الناكثين وحذار موارط الغادرين).

وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل الديوانية لم تتطور مع مرور الوقت كمثيلتها في الشرق فقد استمرت على حالها موغلة في الجناس والسجع كأسلوب ظل متَّبعاً في الكتابة، ومن الرسائل الديوانية المشهورة رسالة "لسان الدين بن الخطيب" إلى السلطان المنصور بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون والتي شرح فيها حال بلاد الأندلس وما يعتريها من أخطار في الفترة التي كانت أعمدة الدولة الإسلامية تنهار فيها عموداً إثر آخر وتسقط حصنا بعد حصن وقد ورد فيها كثير من الإسراف في السجع وإيغال في الصنعة وتقليد لأسلوب المشارقة.

٢- الرسائل الأدبية:

وهي رسائل غير موجهة إلى أحد بعينه، ولعها أشبه شيء بالمقالات الحديثة، وقد ظهر في الأندلس فن من فنون الكتابة وهو ما يمكن تسميته بالكتابة العلمية ذات الصبغة الأدبية حيث حرص صفوة علماء وكتاب الأندلس على تسجيل مفاخر وطنهم نثراً كما سجله الشعراء شعراً، وأشهر كاتبين في هذا المضمار:

- " ابن حزم الأندلسي "المتوفَّى عام ٤٥٦هـ" حيث ترك الأول ما يقرب من ٤٠٠ مؤلف، أشهرها: الفصل في الملل والأهواء والنِّحل، الإحكام في أصول الأحكام، جمهرة الأنساب، الناسخ والمنسوخ، والمحلى في الفقه، طوق الحمامة، وغيرها.

- وإسماعيل بن محمد الشقندي"، وقد برع فيها الأندلسيون واحتوت على المناظرات والمناقشات والقصص الخيالية، ورسائل الاستعطاف والهجاء الساخر كابن زيدون في رسالته (الجدية والهزلية)، ورسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد، وأهم ما كتب في الفلسفة (حي ابن يقظان) لابن طفيل.

٢- الرسائل الإخوانية:

ويمكن اعتبارها بمثابة "رسائل خاصة"، وهي لا تختلف عن الرسائل الديوانية في طبيعتها وأسلوبها ومن الأمثلة عليها رسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية وقد كتب:

الأولى: على لسان محبوبته ولادة إلى غريمه في حبها الوزير أحمد بن عبدوس.

والثانية: كتبها أثناء وجوده في السجن يستعطف فيها أبا الحزم جهور صاحب قرطبة ويسأله العفو ويرجو منه أن يطلق سراحه، وكلا الرسالتين كتبت بأسلوب مسجوع وعبارات منمقة وكانت غنية بالأعلام والأمثال والوقائع التاريخية والأشعار المقتبسة وقد شرح الكاتب جمال الدين بن نباتة المصري رسالة ابن زيدون الهزلية في كتابه (سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون).

ثانياً- شروط كتابة الرسالة الأندلسية:

إذا كان المراد بالمراسلات "التعبير عن العواطف والميول وسائر الأحوال، فقد أكثر الأندلسيون من ذلك وقد نبغ جماعة من أصحاب القرائح تعاونوا على ذلك حتى صار للإنشاء طريقة اتخذها أهل العصور نموذجاً نسجوا على منواله، وهي الطريقة المدرسية في اصطلاح، وقد نضجت هذه الطريقة المدرسية للترسل العربي في هذا العصر.

وللطريقة المدرسية في الإنشاء العربي شروط أهمها:

١ - السجع: بحيث أصبح التسجيع شرطاً من شروط الترسل، وهو ثمرة من ثمار التأنق لما يقتضيه من العناية في إتقانه، فالرسالة المسجعة يظهر فيها التأنق أكثر من غير المسجعة والسجع إذا أتقنت صياغته أكسب المعنى قوة.

٢ - الجناس والبديع: وقد أكثر المترسلون الأندلسيون من الجناس، وهو من قبيل الترصيع للأواني أو الوشي للثياب، والجناس والبديع لا يزيد العبارة معنى لكنه يكسبها رونقا، لاسيما مع السجع.

٣- الإكثار من الخيال الشعري حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثور، لكنه مقفى فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعراً يتغنى به، وينشر في الأعياد والأفراح، والمناسبات الأخرى.

٤ - كثرة تضمين مراسلاتهم الأمثال والنكت الأدبية، أو العبارات التاريخية أو العلمية التي تحتاج إلى شرح لغرابة لفظها، أو لتعقيد حبكها، وعمق مرادها.

٥ - أكثروا فيه من الاستشهاد بالأشعار في أثناء مراسلاتهم، وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة، ووضوحاً، ويكسبه قوة على إبداء ما في خاطر الكاتب.

٦ - صار للرسائل نمط خاص: فالرسالة تبدأ غالباً:

أ- بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعته.

ب- بعد الإشارة إلى كتابه.

ج- وقد يأتي اللقب مشفوعاً بالدعاء بصيغة الغائب.

د- وقد يجعلون الخطاب بصيغة الغائب.

هـ- وقد يجعلون الخطاب بصيغة المخاطب في بعض الأحوال.

٧- تفرع الترسل إلى أبواب عملاً بسنة النشوء، كما تفرع الشعر، فصارت الرسائل تقسم إلى رسائل للتهنئة والتعزية والمديح والرثاء، وإلى الأخويات والسلطانيات ونحو ذلك.

٨- امتازت مقدماتهم بتقديم:

أ- الحمدلة: الحمد لله رب العالمين.

ب- والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

ج- وتختم بآية يحسن الختام بها، أو بالحسبلة: حسبنا الله ونعم الوكيل، أو السلام: والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ونحو ذلك من الخواتيم الحسنة.

ثالثاً- نماذج من الرسائل الأندلسية:

١- من رسالة في وصف رياض غب المطر لابن خفاجة الأندلسي:

(ولما أكب الغمام إكباباً، لم أجد منه إغباباً، واتصل المطر اتصالاً، لم ألفَ منه انفصالاً، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجل الكتاب، وطفقت السماء تخلع جلبابها، والشمس تميط نقابها، وطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت، وقد تحلت، فذهبت في لمة الإخوان نستبق إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرج أرضاً، فلا أندفع إلى غدير نمير، قد استدارت منه في كل قرارة ماء سحابة غماء، وانساب في تلعته حباب، فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ترسل مشى على بساط وشي، فإذا مر بغدير نسجه درعاً، وأحكمه صنعاً، وإن عثر بجدول شطب منه نصلاً، وأخلصه صقلاً، فلا ترى إلا بطاحاً، مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هنالك كتائب، فألقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول.

تحليل الرسالة:

أ- صاحب النص هو ابن خفاجة الشاعر الذي اشتهر في شعره بوصف الطبيعة، والحديث عنها، وصفاً يجعلها تنطق بما تكنه، وتفصح عما تضمره، وتعلن عما تحتويه من حس صارخ، وجمال شائع، وفتنة رائعة، وسحر خلاب.

ب- وهو في نثره لا يقل في تصويره وتعبره، وبيانه الفصيح، وبلاغته النادرة، عن ذلك الشعر الذي عودنا أن يملك به زمام قلوبنا وقيادة أفئدتنا، وفي هذا التمثيل الذي يسوقه، والتشبيه الذي يعرضه، والأسلوب الذي يستعين به، يجيء برسم لا يمكن أن يرسمه هذا الذي قد أمسك بيده دهانه وزيته، وريشته وألوانه، ليعبر لك عن خلجات نفسه، وهواتف حسه، وما من إنسان أضناه العمل، وأتعبه التفكير، وأناخت بساحته الهموم، فأراد أن يفزع إلى روض نضير، وماء نمير، وبستان تتغنى أطياره، وتتعانق أشجاره، إلا وهو واجد في

حديقة ابن خفاجة – هذه– ما يشبع نهمه، ويروي ظمأه، وريح خياله ويمتع خاطره، ويطيب له وجدانه.

وليس بعد هذا الغمام الذي أكب إكباباً كان بعده المطر الذي جعل الصحو يطلع صفحته وينشر صحيفته، فصارت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت، وللنسيم أثناء ذلك ترسل مشى على بساط وشي، فلا ترى إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول وسيف مسلول.

٢- وكتب الوزير أبو عمرو الباجي يصف - كذلك- مطراً نزل بعد قحط:

إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحاً يبسطها إذا شاء ترفيهاً وإنعاماً، ويقبضها إذا أراد تنبيهاً وإلهاماً، ويجعلها صلاحاً وخيراً، وعلى آخرين فساداً وضيراً ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[سورة الشورى:٢٨].

وإنه بعد ما كان من امتساك الحيا، توقف السقيا، الذي ريع به الآمن، واستُطير له الساكن، ورجعت الأكباد فزعاً، وذهلت الألباب جزعاً، وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء درها، واكتست الأرض غبرة بعد خضرة، ولبست شحوباً بعد نضرة، وكادت برود الأرض تطوي، ومدود نعم الله تزوى، نشر الله رحمته، وبسط نعمته، وأتاح منته، وأزال محنته، فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح بماء دفق، ورواء غدق من سماء طبق، استهل جفنها فدمع، وسح دمعها فهمع، وصاب وبلُها فنقع، فاستوفت الأرض رياً، واستكملت من نباتها أثاثاً ورئياً، فزينة الأرض مشهورة، وحلة الروض منشورة، ومنة الرب موفورة، والقلوب ناعمة بعد بوسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، وآثار الجزع ممحوة، وسور الحمد متلوة، ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سواء الطريق، ونستعيذ به من المنة أن تصير فتنة، ومن المنحة أن تعود محنة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تحليل الرسالة:

أ- هذا نص آخر لأحد كتاب الأندلس البلغاء، الذين كانت لهم شهرة ذائعة، ومكانة رفيعة؛ لأنه خدم في كثير من ملوك الطوائف، ووزر لهم، وحظي عندهم.

ب- في نفس هذا الكاتب إيمان بالله، واعتراف بقدرته وإعجاب بسلطانه المصرف، وإرادته المدبرة ونفوذه البالغ، وعلمه المحيط، وسياسته الحكيمة.

ج- أجاد الوصف، وأبدع التصوير.

د- المحسنات البديعية أخذت من جهدها، ولوت عنانه وشاعت في أسلوبه وبدت واضحة في بيانه.

٣- رسالة "لابن حسداي" الذي كان وزيراً للمؤتمن والمستعين من ملوك الطوائف بعث بها إلى بعض أصدقائه يدعوه إلى أن يحضر مجلس أنسه:

"محلك - أعزك الله- في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعيانك في أحناء الضلوع بادٍ وإن شحط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخواطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تتمتع من لقائك بظفر اللحظ، فلا عائدة أسبغ برداً، ولا موهبة أسوغ ورداً، من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه، ويتصل بمحاضرتك انتظامه، ولك فضل الإجمال، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال، وأنا - أعزك الله- على شرف سؤددك حاكم وعلى مشرع سنائك حائم، وحسبي ما تتحققه من نزاعي وتشوقي، وتتيقنه من تطلعي وتتوقي، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة، واعترض الاقتراح بارتقاب الصلة، وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمك، وبارع كرمك، تنشئ للمؤانسة عهداً، وتوري بالمكارمة زنداً، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمداً لا زلت مهنئاً بالسعود المقبلة، مسوغاً اجتلاء غرر الأماني المتهللة بمنه.

تحليل الرسالة:

أ- الكتابة الإخوانية لون من الكتابة الإنشائية - أو كتابة الرسائل- ومجال الإجادة فيها غير فسيح.

ب- المعاني التي تدور حولها والأغراض التي تتضمنها، ليست ذات أهمية، ولا مما يثير الأحاسيس والعواطف، اللهم إلا أن تكون شوقاً إلى لقاء، أو فرحة بأوبة، أو دعوة إلى زيارة، أو عتاباً على هفوة، أو ما شاكل ذلك مما من شأنه أن يحرك الوجدان، ويوقظ الوعي والانتباه.

ج- وفي هذه الرسالة - الإخوانية- التي يصور فيها الكاتب لصديقه أنه في طي الجوانح ثابت، مع نزوح الدار، وبعد المزار، وأن الصلة المتمكنة له في قلبه هي التي تشفع له أن يدعوه دعوة أخ واثق من الود، طامع في العطف، راج للصلة، ولا موهبة أسوغ ورداً من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه، ولك فضل الإجمال بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال.

د- وفي هذه الجمل التي نقلناها عنوان على بعض التكلف الذي لا نستسيغه نحن الآن في أدبنا الحديث، ولكنه ربما كان - في حينه- مثالاً طيباً، ونموذجاً كريماً، وهكذا لكل وقت ذوق أهله، ومعايير حسنه وقبحه.

٤- رسالة الوزير الكاتب أبي المطرف بن الدباغ إلى أبي الفضل بن حسداي - صاحب الرسالة المتقدمة- يداعبه ويعاتبه، وكان ابن حسداي - هذا- يهودياً ثم أسلم:

كنت عهدتك لا تمتنع عن مداعبة من يداعبك، ولا تنقبض عن مراجعة من يخاطبك، فمن أين حدث هذا التعالي، وما سبب هذا التغالي، عرفني - جعلت فداك- ما الذي عراك، ولعلك رأيت الحضرة خلت من قاض فطمعت في القضاء، وجعلت تأخذ نفسك بأهبته؟ وتترشح لرتبته وأنت الآن لا شك تتفقه في الأحكام، وتتطلع شريعة الإسلام، وهبك تحليت بهذا السمت، وتهيأت لذلك الدست، ما تصنع في قصة السبت؟ دع هذا التخلق، وارجع إلى أخلافك، وعد في إطراقك، وتجاهل ما قبلك جاهل، وتحامق مع الحمقى وأنت عاقل، فلا تمنع لذة الاسترسال، ولا تتبع الدنيا بجد منك في سائر الأحوال، فما أشبه إدبارها بالإقبال، وكثرتها بالإقلال.

تحليل الرسالة:

أ- هذا نوع من مداعبة الأقران وفكاهات الإخوان، حين ترتفع الكلفة، وتصفو النفوس، ولا يجد أحد غضاضة في أن يقسو على صاحبه، أو يغمزه في جانبه، أو يشتد عليه في المعاملة، أو يتطاول في العتاب، ويتجاوز حدود الصواب.

ب- هذا الأسلوب هو عدم الإسراف في الحسن، ولا المبالغة في البديع، ولا الإفراط كل الإفراط في العناية باللفظ.

ج- ساعد على هذا الانطلاق على السجية الموضوع نفسه.

د- انفعال القلب بهذا العتب الساخر، واللوم العنيف، غطى على الاهتمام باللفظ، والعناية بالتنسيق.

هـ- قامت تلك السخرية مقام المحسنات البديعية، فأكسبت الموضوع أناقة وجمالاً استغنى بهما عن العوامل التي يحاولها الناس، ويتكلفها الكاتبون.

٥- وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر - من كتاب ملوك الطوائف- إلى المأمون ذي النون يشكره على مراسلته:

"الآن - أيدك الله- عاد الشباب خير معاده، وابيض الرجاء بعد سواده، وترك الزمان فضل عنانه، فلله الشكر المردد بإحسانه، وافاني أعزك الله - كتاب كريم كما طرز البدر النهر، أو كما بلل الغيث الزهر- طوقتني به طوق الحمامة وألبستني به ظل الغمامة، وأثبت لي فوق النجوم منزلة، وأريتني الخطوب عني نائبة ومعتزلة، فوضعته على رأسي إجلالاً، ولثمت سطوره احتفاء واحتفالاً، وناولنيه الوزير الكاتب أبو الحسن عبدك ونصيحك - أعزه الله- وبشر بدنو الدار، وأشار إلى ما لديك كما يشار إلى النهار، ويعلم الله أني ما أعدني إلا شيعة، ولا أرى ودك إلا ديناً وشريعة، فإنك الموثوق بوفائه وشرفه، والمسكون إلى برد أمنه وطرفه، الذي لا تجد الأيام الفضل متمماً إلا لديه، ولا تعقد الأحرار الأصفاق إلا عليه، ولن أزال العالم بحقك ومقدارك، الناظم في سلكك واختيارك إن شاء الله تعالى.

تحليل الرسالة:

أ- هذه الرسالة لون جديد من كتابة الرسائل.

ب- أسلوبه قائم على روعة التشبيه، وحسن الكناية، التي دارت عليهما رحى الحديث، في مثل طوق الحمامة، وظل الغمامة، وأريتني الخطوب عن نائية.

ج- هذا الأسلوب المصنوع لا يخلو صاحبه من هنات يكون الباعث عليها، أو المؤدي إليها هو تلك الصناعة التي تبدو من خلال:

- التزام سجع.

– طلب جناس، كقوله: ما أعدني إلا شيعة، وما أرى ودك إلا ديناً وشريعة، فإنك تحس منها تكلف المعنى الذي جر إليه تكلف اللفظ.

٦- وقال ابن شهيد في صدر رسالته المسماة "التوابع والزوابع":

كنت أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيذ، فنبض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم، وقليل الالتماح من النظر يؤيدني، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني، إذ صادف شن العلم مني طبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً، ولا كالحمار يحمل أسفاراً فطعنت ثغرة العلم دراكاً، وأعلقت أرجل طيره أشراكاً، فانثالت لي العجائب، وانهالت عليَّ الرغائب، وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجزعت وأخذت في رثائه فقلت:

تولى الحمام بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت:

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى في الضمير

فأرتج على القول، فإذا أنا بفارس بباب المجلس، على فرس أدهم كأنما بقل وجهه، وقد اتكأ على رمحه، وصاح بي أعجزاً يا فتى الإنس، فقلت: لا وأبيك للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان، فقال قل بعده:

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته، وقلت: بأبي أنت وأمي من أنت؟ قال زهير بن نمير: من أشجع الجن تصورت لك رغبة في اصطفائك، قلت: أهلا بك أيها الوجه الوضاح، صادفت قلباً إليك مقلوباً، وهوى نحوك محبواً، وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع، وقلت له: هل حيلة في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عني، ثم انصرف وقد أذن له، فقال جل على متن الأدهم، فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يحتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جواً لا

كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال: حللت أرض الجن أبا عامر، فبمن تريد أن تبدأ؟ قلت: الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشوق، قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس، فأمال العنان إلي، وإذا واد ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عيينة بن نوفل، بسقط اللوى وبحومل ويوم دارة جلجل، إلا ما عرضت لنا، وسمعت من الإنس وعرفتنا كيف إجازتك له، فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحيا صاحبك، أهذا هو؟ قال: هو هذا وأبي جمرة يا عيينة، قال: أنشد قلت: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط... وجعل ينشد:

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا .....

حتى أكملها، قال: أنشد فهممت بالحيصة، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت:

شجته مغان من سليمى وأدؤر .....

حتى انتهيت إلى قولي:

ومن قنة لا يدرك الطرف رأسها نزل بها ريح الصبا فتحدر

تكنفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسر

ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق وفي الكف من عسالة الحظ أسمر

هما صاحباي من لدن كنت يافعا مقيلان من جد الفتى حين يعثر

ثم قال لي زهير: من تريد بعده؟ قلت: صاحب أبي نواس، قال: هو بدير حنة، قد غلب عليه الخمر، فركضنا ساعة وجزنا في ممرنا بقصر قد أمه، فقلت: لمن هذا القصر يا زهير؟ قال: لطوق بن مالك بن أبي الطبع صاحب البحتري، فهل لك في أن تراه؟ قلت: أجل إنه من أساتيذي وقد كنت أنسيته، فصاح: يا أبا الطبع، فخرج إلينا فتى على فرس أشعل، بيده قناة، فقال له زهير: إنك موفق، قال: لا صاحبك أشمخ مارناً من ذلك لولا تنقصه، قلت: يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفزان، أنشدنا من شعرك فأنشد:

ما على الركب من وقوف الركاب .....

حتى أكملها، ثم قال: هات إن كنت شيئاً فأنشدته:

هـــــذه دار زينـــــب والريـــــاب .....

حتى انتهيت فيها إلى قولي:

فكـــأن النجـــوم بالليـــل جـــيش دخلـــت للكمـــون في جـــوف غـــاب

وكـــأن الـــصباح قـــانص طـــير قبـــضت كفـــه برجـــل غـــراب

فكأنما غشى وجه أبي الطبع قطعة من الليل، وكر راجعاً إلى ما وراءه دون أن يسلم، فصاح به زهير: أأجزته؟ قال: أجزته لا بورك فيك من زائر... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنة، فضرب زهير الأدهم فسار بنا في قنته، ففتق سمعي قرع النواقيس، فقلت: فصحت من منزل أبي نواس: ورب الكعبة... وسرنا نجتاب أديراً وكنائس وحانات إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه، فوقف زهير ببابه، وصاح: سلام على أهل دير حنة، فقلت أو سرنا بذات الأكيراح؟ قال: نعم، وأرقلت نحونا الرهابين، مشدودة الزنانير، قد قبضت على العكاكيز، مبيضة الحواجب واللحى، مكثرين التسبيح، عليهم هدي المسيح.

فقالوا: أهلاً بك يا زهير من زائر، وصاحب أبي عامر، ما بغيتك؟ قال: حسن الدنان، قالوا: إنه لفي شرك الخمرة، منذ أيام عشرة، وما نراكما منتفعين به، فقال: وعلى ذلك، ونزلنا وقاد إلى بيت، قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه، وفي دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طهر جارة، وحواليه صبية كالظباء تعطو إلى عرارة، فصاح به زهير: حياك الله يا أبا الإحسان، فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه، فقال لي زهير: اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصحت: أنشد من كلامك أبي طويلة:

ولـــرب حـــان قـــد أدرت بـــديره خمـــر الـــصبا مزجـــت بـــصفو خمـــوره

في فتيـــة جعلـــوا الزقـــاق تكـــاءهم متـــصاغرين تخـــشعاً لكبـــيره

وإلى عـــلي بطرفـــه وبكفـــه فأمـــال مـــن رأسي لقلـــب كبـــيره

وتـــرنم النـــاقوس عنـــد صـــلاتهم ففتحـــت عينـــي لرجـــع هـــديره

فصاح من حبائل نشوته: أأشجعي؟ قلت: أنا ذاك، فاستدعى ماء قراحاً فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إلي من حاله، فأدركتني مهابته، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم والشعر، فقال: أنشد حتى أنشدك، فقلت: إن ذلك أشد، لتأنيسي على أنه ما بعدك لمحسن إحسان فأنشد:

يا دير حنة من ذات الأكيراح ... من يصح عنك فإني لست بالصاح
يعتاده كل محفو مفارقه ... من الدهان عليها سحق أمساح
لا يدلفون إلى ماء بساقية ... إلا اغترافاً من الغدران بالراح

ثم قال لي أنشد، فقلت: وهل تركت للإنشاد موضعاً؟ قال: لابد لك، فأنشدت:

أصباح شيم أم برق بدا ... أم سنا المحبوب أورى زندا
هب من رقدته منكسرا ... مسبلاً للكم مرخ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا ... صائد في كل يوم أسدا
قلت هب لي يا حبيبي قبلة ... تشفني من غم تبريح الصدا

الباب الحادي والعشرون

فن المقامات

أ- مقدمة:

المقامة:

هي نوع من النثر الفني نشأ في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني، ثم حذا حذوه الحريري، فتأثر الأندلسيون بمقاماتهم تأثراً جلياً، إذ كان من الطبيعي أن تثير إنجازاتها إعجاباً بين الأدباء، وتخلق تياراً من المحاكاة في ميدان الكتابة عموماً وفي فن كتابة المقامات خصوصاً، ومن منطلق هذا الإعجاب عارض أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي (توفِّي بقرطبة سنة ٥٣٨هـ) مقامات الحريري الخمسين بكتاب الخمسين مقامة اللزومية، وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية، ولزم في نثرها المسجوع ما لا يلزم، كتب أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (ت٧٥٠هـ) «مقامة العيد» التي استكدى فيها أضحية العيد من حاكم مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر.

كما ألَّف لسان الدين بن الخطيب مقامات كثيرة منها مقامته في السياسة، وقد بناها على حوار بين بطلين هما الخليفة هارون الرشيد وحكيم فارسي الأصل عربي اللسان، وقد تضمّنت آراءه وتجاربه الشخصية فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الحكم.

وبدخول الأندلس عهد ملوك الطوائف كانت مقامات الهمداني ورسائله قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أصبح الكثير من الأدباء يؤلفون في هذا الصنف من الأدب.

وكانت قد ظهرت مقامات الحريري في مطلع عهد المرابطين وسرعان ما تداولها الناس على نطاق واسع، وإن العديد من الأندلسيين سمعوا الحريري يبسط مقاماته في حديقته ببغداد، ثم عادوا إلى الأندلس لينشروا ما سمعوا، وبعد موت الحريري تابع تلاميذه بدورهم بسط المقامات باعتبارهم معتمدين من قبل أسيادهم.

لقد استخدم الأندلسيون المقامة وسيطاً لوصف الإدارة العامة والعدالة، ومثال ذلك مقالة كتبها ابن الخطيب ذاته، عنوانها "خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف".

ب- أنواع المقامات: للمقامات أنواع متعددة:

أولاً- من حيث الهدف:

١- استخدمت المقامات لأغراض تعليمية.

٢- ولأغراض تربوية.

٣- وسيلة لتعليم الأدب.

٤- وسيلة لتعليم القواعد ليوفر على التلاميذ مشقة الرجوع إلى مؤلفات أكبر في هذه المواضيع.

٥- وتحتوي المقامات إلى جانب ذلك غايات وأهدافاً تربوية وخلقية.

٦- وفيها تعبير ناقد للمجتمع الذي نشأت فيه.

ثانياً- من حيث الأسلوب:

إن نظرة فاحصة متأملة إلى المقامات الأندلسية تهدي إلى القول بأن تلك المقامات تناولت عدداً من الموضوعات المتنوعة بطرق وأساليب من مثل:

١- الأسلوب الوصفي.

٢- الأسلوب الوعظي.

٣- الأسلوب الفكاهي.

٤- الأسلوب الأدبي.

٥- الأسلوب النقدي.

ثالثاً- من حيث الموضوعات:

فقد تعرضت المقامة الأندلسية إلى:

١- العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

٢- روابط الصداقة، ووصف الصديق.

٣- الضيوف والكرم وما يكون من الكرماء من العطاء.

٤- المشكلات اليومية المتعلقة بحرفة الإنسان ومهنته.

وهكذا جاءت المقامة تعبيراً عن حاجة اجتماعية، فقد صورت كثيراً من ظـواهر المجتمـع، وعالجت جملة من المشكلات الاجتماعيـة المختلفـة، وعـبرت عـن آراء الكتـاب ومـشكلاتهم وهمومهم الذاتية.

ج- موضوع المقامات وأغراضها الاجتماعية:

ركز موضوع المقامات على أغراض متعددة:

١- التعبير عن الأهداف الشخصية والغايات الاجتماعية في آن واحد.

٢- تبدى الطابع الاجتماعي فيها بشكل أوضح من غيره.

٣- التعبير عن الظـواهر الاجتماعيـة المختلفـة وأحـوال المجتمـع، وكـل مـا يـصورالحياة العلاقات بين الأفراد كظاهرة "الكدية".

٤- ظاهرة الشكوى من الزمان والمصائب والمحن التي حاقت بالناس.

٥- التعبير عن الذات وهمومها.

٦- الإحساس بظلم الدهر.

٧- الإحساس بالضعة والفقر وضيق الرزق والفاقة.

٨- عرض تناقضات المجتمع.

٩- تمثيل أخلاق المعاصرين، وأحوال العصر في القرن السادس الهجري.

١٠- تصوير حياة العبث والمجون والترف التي انغمس فيها بعض الأندلسيين.

١١- رسم النزعـة الدينيـة القويـة لـدى أفـراد المجتمـع في الإقبـال عـلى الزهـد والتعبـد والتنسك، والحرص على حضور حلقات الـوعظ والنـصح الـديني التـي كـان يعقـدها أهـل التقوى والورع من الزهاد والصلحاء.

١٢- عرض صورة الواعظ الذي يصدر في وعظه عن تقوى وورع وإيمان صادق برسـالته التي تروم الهداية والصلاح.

١٣- تناول ظاهرة زهد المجان، وحياة الترف والمجـون التـي انغمـس فيهـا بعـض أفـراد المجتمع.

١٤- تصوير صحوة الضمير عند ذوي النفوس الحية والضمائر اليقظة، ويسجل ما يدور في نفوسهم من صراع بين الرغبة في التمادي في حياة العبث واللهو وبين نيتهم الصادقة في التوبة وهجر الذنوب.

١٥- تصوير طبيعة التركيب الاجتماعي بين طبقة غنية تملك رفاهة الحياة، وأخرى تحرم منها، بين فئة سائدة، وأخرى مسودة بقصد دفع الأغنياء إلى العطاء والسخاء.

١٦- وصف عادات بعض طوائف من المجتمع والتعرف إلى تقاليدهم في الحياة.

١٧- وصف التكسب من ترقيص الدببة.

١٨- انتحال مهنة من المهن: كما في مقامة "الطب والعرافة"، حيث يَبرز البطل وقد انتحل مهنة الطب والعرافة معاً، فهو يداوي فتى أصابه المرض ففعل به الأفاعيل.

١٩- تصوبر صورة "القاضي" لنقل مشهد من مشاهد الظلم الاجتماعي والفساد والرشوة.

٢٠- الحثُّ على الزهد في الدنيا ومتاعها، ووصفها بأسوأ النعوت والصفات من: غدر وخداع وتقلب.

٢١- الحث على التوبة.

٢٢- تصوير العابث اللاهي.

٢٣- تصوير الموت، والتنبيه إلى نهاية كل حي، والتذكير بثواب الآخرة والبعث والحساب، بغية زجر السامعين، وتنبيه الغافلين وتخويفهم، فالموت خير واعظ، وهو قدر محتوم لا يستطيع المرء الفكاك منه.

٢٤- الاعتبار بمن مضى من الأمم وعظام الرجال الذين أخنى عليهم الدهر، وعصفت بهم يد الحدثان ينساب صوت وعظي تأملي ينبه إلى المصير الذي آلت إليه تلك الممالك والدول.

٢٥- حث أصحاب الثراء والمال على البذل والعطاء وملء بطون الأيتام والفقراء والمعوزين ويدعو إلى الكرم والسخاء والبذل في سبيل الله، ويحتقر البخل وعبادة المال ويحذر من الطمع والحرص.

د- أسلوب الكتّاب في المقامات:

تميزت أساليب الكتاب في مقاماتهم بما يلي:

١- جاءت اللغة مفردات وأساليب مصوغة في تراكيب بسيطة سهلة واضحة.

٢- استخدام السجع بشكل سائغ.

٣- إبراز ثقافته الدينية التي تناسب الموضوع.

٤- الاقتباس من آي الذكر الحكيم؛ ليفخم بها موعظته، ويجتذب نفوس السامعين فمن الاقتباس باللفظ والصيغة.

٥- اختتام المقامة الوعظية بقطعة من الشعر.

٦- التزام السجعة أكثر من حرفين، وهذا السجع يفيض عذوبة ورقة، وينسجم مع المعنى العام للمقامة، إذ وقع في النفس موقع الاستحسان؛ لما أحدثه من أثر في تجميل العبارة وتزيينها وإثرائها بالموسيقا.

٧- إبداء مهارة فائقة في عرض المواعظ والتوجيهات الوعظية، إذ غالباً ما كانت الشخصية المقامية تتنكر في صورة الولي الصالح، والعابد الناسك الذي يزهد الناس في الدنيا، ويحبب إليهم الآخرة، ويذكرهم الموت والثواب والعقاب، ويحثهم على التوبة وهجر الذنوب والمعاصي، ويحض على التجمل بمكارم الأخلاق من قناعة وصبر وسخاء وتقوى.

٨- التعبير عن ذلك بطريقة البوح الذاتي التي تعتمد المكاشفة والمصارحة بعيداً عن الخداع والتمويه.

الباب الثاني والعشرون
فن القصة

أ- مقدمة:

تعد القصة أحد الفنون الأندلسية المميزة، والتي سبق فيها الأندلسيون أقرانهم المشارقة؛ وهي لم تحظ في بلاد الأندلس بما حظي به الشعر من اهتمام غير أن القليل الذي وصل منها جدير بالعناية والدراسة والتحليل.

ومن المعروف أن الأدب الوعظي يعد نمطاً من أنماط الأدب، وهو ذو صلة وثيقة بالخطابة، وقد ازدهر هذا اللون في الأندلس ازدهاراً واسعاً طوال عصر المرابطين والموحدين، إذ حلفت المساجد بالوعاظ القصاص الذين كانوا يقصون على الناس أساطير الأولين، وسير الأنبياء وأخبار الصالحين، يستخلصون منها العبر والعظات، ليردوا إلى الناس إيمانهم، فتنفعل بمواعظهم نفوس الحاضرين فيبكون خشوعاً لله تعالى، فأبو عبد الله البغدادي (ت ٥٤٦هـ) كان يجلس بمسجده المنسوب إليه بمدينة جيان "للوعظ والقصص وإيراد حكايات الصالحين، ونحا منحى الزهد، وكانت العامة تنتاب مجلسه".

وكذلك فقد اتخذ خطباء الزهد في هذا العصر القصة سبيلاً للتمثيل، يعظون السامعين بأحداثها؛ لأنها أكثر إثارة للمتلقي، وبعثاً لأحوال التشويق والمتعة فيه، وقد دأب القصاص الوعاظ على استلهام مادة قصصهم الوعظية من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وسير الأولياء الصالحين، فكان القرآن الكريم الينبوع الفياض الذي ينهل منه الوعاظ عظاتهم، ففيه أحسن القصص وأبلغ المواعظ عن الأمم التي ذهبت جراء عصيانها والأخرى التي أطاعت واعتصمت بتعاليم دينها.

ب- أشهر الوعاظ القصاص:

١ - اشتهر الزاهد **أبو المطرف بن عميرة** من بين هؤلاء الوعاظ بمجالسه الوعظية التي كان يصنعها للواعظ الصالح أبي محمد بن علي بن أبي خرص، ومما جاء فيها قصة آدم- عليه

السلام – وإهباطه من الجنة إلى الأرض، يقول على سبيل العظة والعبرة: "... ويح ابن آدم، أما يذكر قصة أبيه ويقيس يسير جنايته بعظيم ما يجنيه، زاد عليه في المخالفة طولاً وعرضاً، فليته أعطى من ندامته ولو بعضاً، زلة أهبطته من جنة المأوى، وأدنفته حتى أعلى بالشكوى".

٢- وعُرف **ابن عميرة** نفسه "بفصوله الوعظية" التي تناول في بعضها قصة العبد المؤمن بلال بن رباح مع الظالم الطاغية أمية بن خلف، إذ صَوّر فيها صبر بلال وجلده على تعذيب أمية إياه، مشيراً إلى مقتل أمية على يد بلال في غزوة بدر الكبرى: "يوم الفتح تبين خطل بن أخطل وقد عاذ بمكانه، ونعم بال بلال حين غاظ بعض السامعين بأذانه، ما ضرَّ الحبشي لونه وإن ازدروه، ولا نفع القرشي كونه أحد مَنْ داروا حوله وداروه، ما أقرضه بمكة سلا لسيف العدوان وانتضاه، فعلى القليب قضاه إياه.... أَغرى به سفهاء مكة، فحشر عليه سراة يثرب، أقعده في الرمضاء حتى حمى، فضربه بسيوف حتى برد".

صاحب رجاء غد عسى الأيام أن ... يرجعن يوماً كالذي قد كانوا
واستعمل البُقيا حذار جناية ... تجزى بها، فكما تُدين تدان
ضل امرؤ جعل الإساءة عادة ... ويرى المتوبة أنها إحسان

تحليل القصة الوعظية:

١- تبرز في هذا النمط من القصص الوعظي قدرة القاص على استكمال أدوات القصص الديني حتى يستميل قلوب السامعين وأفئدتهم قصد التأثير فيهم.

٢- استخدم القاص ألوان البديع المتنوعة من سجع وجناس وطباقٍ لتحلية ألفاظه وتنميق معانيه ولتوليد الإيقاع الموسيقي المعبر عن المعاني والأحاسيس.

٣- وشى قصصه بأشعار من نظمه هو، فجاءت أبياته في نهاية الفصل الوعظي بمثابة تلخيص لمضمونها، وإيذاناً للمستمع بنهاية القصة وختامها.

٤- أظهر الواعظ قدرته البارعة على عرض الأحداث التاريخية بطريق مشوقة، مستخدماً.

أ- الإشارات والتلميحات.

ب- معتمداً على ثقافة المستمع وفهمه.

فهو يشير إلى انتصار المسلمين في غزوة بدر، وإلى منزلة بلال بكونه مؤذن الرسول الكريم، ويومئ إلى المكان الذي ألقى فيه زعماء مكة يوم بدر وهو القليب.

٣- أما **القاضي عياض** فيقول: "أين الذين عتوا على الله وتعظموا، واستطالوا عباده وتحكموا، وظنوا أنه لن يقدر عليهم حتى اصطلموا "وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعداً"، وغرهم الأمل، وكواذب الظنون، وذهلوا عن طوارق القبر وريب المنون وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون، حتى إذا رأوا ما يوعدون، فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً.

فإنه يُذكر بمصير الأمم الداثرة التي ذهبت جزاء عصيانها في خطبة له ضمنها آيات من القرآن الكريم للتأسي والاعتبار، واتخذ بعض الوعاظ من قصص الأنبياء والمرسلين وأخبار الصحابة والأولياء الصالحين مادة للوعظ، ليقتدى الناس بسيرتهم، ويسلكوا سبيلهم.

٤- **ولابن الجنان** موعظة بليغة سرد فيها قصة بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما مرَّ به من مواقف وأحداث، قصد استخلاص العظة والعبرة، يقول في خطبة طويلة له متحدثاً عن معجزات الرسول الكريم محمد: "أُعطي من المعجزات ما على مثله آمن البشر، وكانت له في الغار آيات بينات خفي بها على القوم الأثر، وارتجّ لمولده إيوان كسرى، وخمدت نار فارس وكان ضرمها يتسعر، وأتته أخبار السماء فما عمي في الأرض الخبر، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين، وجعل له القرآن معجزة تتلى، يبلى الزمان وهي لا تبلى، وتعلو كلماتها على الكلم ولا تُعلى".

تحليل القصة:

أ- يحاول الواعظ أن يربط بين قصص الملوك الغابرين ذوي الجاه والسلطان وبين ما يجري في عصره من أحداث.

ب- يتخذ من تلك القصص وسيلة للتحريض على الجهاد ضد أعداء الدين، فما دام الموت قد أفنى أولئك الجبابرة، فلم تبق إلا آثارهم.

ج- على الأندلسيين استخلاص العبرة والعظة من سيرتهم، فينبذون الدنيا وزخرفها، وينهضون إلى جهاد حملة الصليب الإسبان.

٥- يقول ابن أبي الخصال في خطبة له: "... سلوا الكواكب إذا اصطفت في مجاريها، ورفت في غدائر الظلماء مداريها عن ملوك نيط سلطانهم بالنجوم وصياصيها، وعقت تيجانهم بنواصيها، عاجلهم - والله - الفطام، وهمدوا كما همد الحطام، ولفظتهم تلك القصور والآطام، فما عندهم من أمان لخائف، ولا مقام لطائف، فهل منكم مشتر لنعيمهم وملكهم بدرهم زائف، لشد - والله - ما زهدتم وبخلتم، ولحق أن تخالوا فيما خُولتم غير ما خلتم".

وجُماع القول في الخطب الدينية ذات الطابع الزهدي القصصي أنها نجحت في:

أ- استيعاب المضامين الفكرية للزهاد.

ب- وفي إيصال رسالتهم إلى الناس قصد إرشادهم وهدايتهم إلى طريق التقوى والرشاد.

ج- ورسم قواعد السلوك الاجتماعي القويم الذي يجدر أن يتحلى به كل عاقل أريب.

د- استمالة القلوب والأسماع.

هـ- الحرص على إقناع جمهور المخاطبين بما يدعون إليه.

و- لم يغفل القصاص الجانب الفني لقصصهم.

ز- اعتنوا بقصصهم الوعظية عناية كبيرة إلى جانب فصاحتهم العربية، وبلاغتهم الفطرية، فبدت آثار الإعداد واضحة جلية في كثير منها.

ح- مال القصاص الوعاظ إلى الاهتمام بإعداد قصصهم، والتأني في صوغها، والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها.

ط- وكانوا يتأنقون في أسلوبها فيدبجون فيها ضروباً من المحسنات البديعية، والصور البيانية التي تزيد المعنى وضوحاً وجلاء، والفكرة رونقاً وبهاء.

ي- استكملت الوعظية على أيديهم مقومات بنائها الفني. وكانت قصصهم في نجوة من الضعف والتردي في زخرف التصنيع اللفظي.

ك- كما أنها كشفت بوضوح عن قدرة الأندلسيين في القصة الوعظية الخطابية، وعما كانوا يتمتعون به من فصاحة القول وحسن البيان، وجودة الإبانة والإفهام، مما أهّلهم للالتحاق بركب الخطباء المقتدرين.

ج- ومن نماذج القصة في الأندلس:

١- قصة (حي بن يقظان):

أ- وهي الشهيرة تعتبر من أكبر الأعمال القصصية في العصور الوسطى ليس في الأدب العربي فقط وإنما في العالمي أيضاً، ومؤلفها هو الفيلسوف المشهور والطبيب والعالم والشاعر ابن طفيل، وهو تلميذ لفيلسوف الشرق ابن سينا وقصته أقرب إلى القصص الفكري منها إلى الأدبي وتنبع أهمية هذه القصة من هدفها السامي وهو الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به.

ب- وملخصها أن (حياً) هو وليد من غير أبوين ولد في جزيرة نائية من جزر الهند (وفي رواية أخرى ولد لأم وأب في جزيرة نائية وخافت أمه من أخيها؛ لأنها تزوجت دون علمه فألقت بحي في اليم فحمله المد إلى ساحل جزيرة أخرى) والمهم أن حياً كان وحيداً ومحتاجاً إلى رعاية وعناية فأخذته ظبية شفقة عليه فقامت بإرضاعه وتغذيته حتى نشأ على سليقة أمه الظبية، فحاكى الظباء في حركاتها وطباعها وأصواتها، ثم كبر وتعلم المشي وفكر في أمر نفسه وقارن بينها وبين الحيوانات الأخرى في الجزيرة فوجد أن الحيوانات مستورة وهو عار فعمل على ستر جسمه بأوراق الشجر، ولاحظ أنها مسلحة وهو أعزل فتسلح بعصا من أغصان الشجر.

ثم فكر بالصيد لاستغلال يديه وأخذت أساليب تعامله مع الحياة ترقى وتتحسن فاستعاض عن أوراق الشجر بأثواب من جلد النسور التي كان يصيدها، ثم بدأ يهتم بما عنده من حواس مختلفة وتستمر قدراته في النمو نتيجة التجارب التي قام بها حتى تعلم غزل الصوف والملابس وتعلم فن البناء وأخذ يقوم بتشريح الحيوانات وعمل تجارب عليها ومعرفة وظائف أعضائها.

وهكذا كأن هذه القصة باختصار تحكي عن تطور الإنسان وعن طريق التجربة والاستقصاء يتمكن ابن طفيل من الوصول إلى نتيجة، ومن ثم إلى ثانية وثالثة وهكذا وهو ما يعتبر شيئاً جديداً في ميدان القصة الفلسفية والعلمية التجريبية وتأخذ معارف (حي) في التقدم فيدرس المعادن والروح التي فطن إلى وجودها حين اكتشف قلب الظبية (أمه) بعد أن ماتت وشرح جسمها وتقوده دراسته إلى النفس الحيوانية والنباتية وتتطور معارفه لتصبح فلسفة يؤمن بها إيمان المجرب.

وفي النهاية يتوصل إلى قناعة مفادها أن لكل موجود علة فأخذ يبحث عنها في الطبيعة، ولكنه لم يتوصل لشيء لأن جميع ما في الطبيعة عرضة للتحول والفساد فحاول أن يبحث عنها في الأجرام السماوية وبدأ يتأمل السماء وهل هي ممتدة إلى ما لا نهاية أم لا؟ ثم تصورها كروية واستنتج ضرورة وجود أفلاك خاصة بالكواكب وهكذا شيئاً فشيئاً وبالتدريج يقترب من معرفة الله ويصل لنتيجة مفادها أن محرك هذا العالم لابد أن يكون خارجاً عنه، ثم أمعن النظر في فكرة الله الخالق، وتوصل لمعرفة صفاته نتيجة دراسته لصفات الكائنات، ثم ينتهي الأمر به إلى الإيمان بالله خالق الكون ومبدعه وأنه قادر وعاقل وعليم ورحيم.

ولا شك أن هذه القصة العظيمة والرائدة متأثرة شأنها شأن كل قصة بشخصية صاحبها الفيلسوف، ولذلك فقد غلبت على تفاصيلها:

٢- التوابع والزوابع:

أ- التعريف برسالة التّوابع والزّوابع: رسالة التّوابع والزّوابع رسالة نثريّة خاطب فيها ابن شُهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشّعريّ والنّثريّ، وقرنه إلى نتاج كبار أدباء المشرق مبيناً تفرّده وتفوّقه، وعرّض بخصومه وحسّاده من معاصريه الأندلسيّين والقرطبيّين.

ب- والتّوابع والزّوابع قصّة رحلةٍ خياليّة إلى عالم الجنّ قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن نُمير ولقي شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقديّة، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدّعابة التي سرت في هذه الرسالة.

ج- يحمله زهير على متن الجو إلى أرض الجن حيث التقى هناك بتوابع الشعراء المشهورين عتبة بن نوفل تابع امرئ القيس وعنترة بن العجلان تابع طرفة، وأبا الخطار تابع قيس بن الخطيم من الشعراء الجاهلين، ولقي عتّاب بن حبناء تابع أبي تمام، وأبا الطبع تابع البحتري وحسين الدَّنان تابع أبي نواس، وحارثة ابن المغلس تابع المتنبي، كما التقى ببعض شياطين الكتاب.

د- وهي فكرة جديدة صاحبها أبو عامر؛ ذلك أنه لم يكن من الشائع أن هناك شياطين أو توابع للكتاب، التقى أبو عامر بشياطين صفوة كتاب العربية وهم عتبة بن أرقم تابع الجاحظ، وأبو هبيرة تابع عبد الحميد، وزبدة الحقب تابع بديع الزمان، ويخرج أبو عامر من هذه المقابلات مجازاً مشهوداً له بالفضل، كأن يقال له أحد الجن ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك.

هـ- ولا يقف بابن شهيد في قصته عند مقابلة التوابع الذين مر ذكرهم، وإنما تلقي به طبيعة رحلته إلى مجلس أدب عقده أدباء الجن وهي جلسة نقدية يعرضون فيها لأقوال الشعراء ويستعرض ابن شهيد أمام منتدى الجن موهبته الشعرية والنقدية.

و- وتمضي قصة التوابع والزوابع، فيصل أبو عامر وتابعه زهير بن نمير إلى وادٍ آخر من أودية الجن وتلقي به المقادير إلى نادِ لحمير الجن وبغالها ويلتقي ببغلة أديبة ناقدة وبأوزة أديبة وتنتهي المحاورة بتغلبه على حيوان الجن الأدباء والنقاد وبذلك تنتهي قصة التوابع والزوابع أو بالأحرى تنتهي الجزء الذي وصل إلينا منها عن طريق كتاب الذخيرة.

ز- يبدأ ابن شهيد قصته قائلاً: "لله أبا بكر ظنٌّ رميته فأصميت، وحدسٌ أمّلته فما أشويت، فقلت كيف أوتي الحكم صبياً، وهزّ بجذع نخلة الكلام فاسّاقط عليه رطباً جنياً، أمَا به شيطان يهديه، وشيصبان يأتيه وأقسم أن له تابعة تنجده، وزابعة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النّفس لهذه النفس، فأما وقد قلتها، أبا بكر، فأصغ أُسمعك العجب العجاب" ويمضي يقص عليه نبأ تعلقه بأهل العلم والمطالعة حتى يصل إلى "فأرتج عليّ القول وأفحمت، فإذا أنا بفارس على باب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه، وقد اتكأ على رمحه وصاح بي وقلت له: بأبي أنت، من أنت؟ قال: أنا زهير بن نُمير من أشجع الجن، قلت: وما الذي حداك إلى التصور لي؟ فقال: صادفتَ قلباً إليك مقلوباً، وهوىً نحوك مجنوناً، وتحادثنا حيناً، ثم قال: متى شئت استحضاري؟ فأنشد هذه الأبيات:

وإلى زهير الحُبّ يا عَزَّ إنه ... إذا ذكرته الذاكرات أتاها

وأوثب الأدهم جدار الحائط، ثم غاب عني، وكنت، أبا بكر، متى أُرتج عليَّ أو انقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب، أنشد الأبيات فيمثلُ لي صاحبي فأسير إلى ما أرغب، وأدرك

بقريحتي ما أطلب، وتأكدت صحبتنا، وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها، لكني ذاكر بعضها".

نصّ قصة تابع امرئ القيس:

والنّص الذي بين يدينا ما هو إلاّ قصة جمالها في نسج أسلوبها، ودقّة ألفاظها، وبُعد مراميها الفكريّة والحضاريّة والفنيّة، وقد جعل ابن شهيد بدايتها: "تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزّوابع، وقلت: هل حيلةٌ في لقاء مَن اتّفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر، وقد أُذن له، فقال: حُلّ على متن الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطّائر، يجتابُ الجوّ فالجوّ، ويقطع الدّوّ فالدّو، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جوّاً لا كجوّنا، متفرعُ الشّجر عطر الزّهر، فقال لي: حللت أرض الجنّ أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ؟ قلت: الخطباء أولى بالتقديم لكني إلى الشعراء أشوق، قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس، فأمال العنان إلى وادٍ ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل بسقط اللّوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلاّ ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسيّ، وعرّفتنا كيف إجازتك له، فظهر لنا فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك! أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأيّ حمرة يا عتيبة! فقال لي: أنشد، فقلت: السيّد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتزّ عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنّا وكرّ، فاستقبلناه بالصعدة هازّاً لها، ثمّ ركزها، وجعل يُنشد:

سما لكَ شوقٌ بعدَ ما كانَ أقصرا ....

حتى أكملها، ثمّ قال لي: أنشدْ، فهممتُ بالحيصة، ثم اشتدّتْ قوى نفسي، وأنشدتُ:

شجتهُ مغانٍ من سُليمى وأدْؤُرُ ....

ومِنْ قُبَّةٍ لا يدركُ الطّرفُ رأسها تزلُّ بها ريحُ الصبّا، فتحدَّرُ

تكلّفْتُها، والليلُ قدْ جاشَ بحرهُ وقدْ جعلتْ أمواجُهُ تتكسَّرُ

ومِنْ تحت حضني أبيضٌ ذو سفاسقٍ وفي الكفّ من عسَالةِ الخط أسمَرُ

هما صاحباي من لَدُنْ كنتُ يافعاً مُقيلانِ من جِدّ الفتى حين يَعْثُر
فذا جَدْولٌ في الغِمدِ تُسقى به المُنى وذا غصُنٌ في الكفّ يجنى فيثمرُ

فلمّا انتهيتُ تأمّلني عُتيبةُ، ثم قال: اذهب، فقد أجزْتُكَ، وغاب عنا".

وتنتهي القصة بتوضيح الهدف الذي من أجله نسج ابن شهيد قصته، وهو إثباته لذاته عن طريق نيل الإجازة من تابع امرئ القيس، هذه الإجازة تبرهن على إعجاب ابن شهيد بنفسه وتأتي لتأكيد صلة أدب المشرق بالمغرب، وتطلّع ابن شهيد إلى رئاسة الأدبين، فالهدف عند ابن شهيد في كتابته قصة التوابع والزوابع دافع شخصي نابع من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لم يولوه حقه من التكريم، ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهلاً لها، كما أنّ غايته إثبات مقدرته الأسلوبية النثرية والشعرية أمام المشارقة عن طريق مقابلة توابع الشعراء والكتّاب، وكسب اعترافهم بتفوقه.

رؤيا في قصة ابن شهيد:

١ - لابن شهيد ثقافته العربية الواسعة بالشعر والنثر التي سخّرها لخدمة نسيج القصة، يدلل على أن هذه القصة عربية الشكل والمضمون.

٢ - استناد شكل القصة إلى الأسطورة العربية القديمة بوجود توابع للشعراء في وادي عبقر، واستقائها فكرة رحلة الإسراء والمعراج في نسج أحداثها.

٣- جاءت القصة عربيّة المضمون لما حوته من قص وشعر مرتبط بحضارة الأندلس من جهة، وبالتراث المشرقي من جهة أخرى.

٤ - هناك من يرى أن قصة التوابع والزوابع من حيث فكرتها مقتبسة من مقامة لبديع الزمان رغم قصرها، فبطل المقامة فقد إبله وخرج في طلبها، فرمته مقاديره في وادٍ أخضر وهناك التقى بشيخ جالس وبعد أن أنس إليه أخذ يروي شيئاً من أشعار العرب، وبهذا يتبين أن ابن شهيد أخذ المقامة ونماها وتوسع في خيالاتها وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص في كتابة قصته الطويلة، فالرحلة عربية الطابع والطبّع، وهي مستمدة من التاريخ العربي الإسلامي؛ لأنها تشبه رحلة الإسراء والمعراج في فكرة الرحلة، وأصالتها في المساجلات التي حصلت بين ابن شهيد وشعراء المشرق العربي ممّا يؤكّد انتماءها إلى التراث العربي

الإسلامي، كما أن رسالة التوابع والزوابع بُنيت على أساس الأسطورة العربية القائلة بأنّ لكل شاعر تابعاً يلهمه الشعر، ويعينه في صناعته.

٥- وابن شهيد يمثّل شخصيّة البطل في هذه القصّة، كما يمثلها في أغلب قصصه، فهو البطل والرّاوي وتأتي شخصيّة زُهير لتكون ظلاً لشخصيّة ابن شهيد إذ ترافقه أينما توجّه، وحيثما حلّ وتُسهم في إغناء مقدّمة القصّة من خلال الحوار الذي دار بينهما وشخصية الشيخ هي الثالثة، وقد جاء بها ابن شهيد، لتكون حلقة وصل بين ابن شهيد وزهير، هذه الشخصية لم يتحدّث عن هيئتها وأوصافها، بل اكتفى بالإشارة إليها لأهميّتها في نيل تذكرة القبول بالمغادرة عن طريق الحوار الذي جعل من هذا النيل حدثاً ثالثاً في القصّة عبر تسيير شخصية الشيخ له، وتأصيله بدعوة من زهير لابن شهيد لاستقلال جوادٍ يرحلان عليه.

٧- والقصّة في هذا السياق تقدّم جانباً مهماً من جوانب التربية التي يتمثّل بها ذلك العصر، فقد هذبت طباعَه أناقةُ القصور التي استظلّ في أفيائها، وخالط أصنافاً متعدّدة من أبناء المجتمع أيام النعيم والبؤس، فهو نقطة الدّائرة في عصره يرفع الأمراء قدره، ويخطب الوزراء صداقته، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته، كلّ هذه الأمور ترتبط بهدوء حديثه، ووقار كلامه، وبروز ذاته، ولا عجبَ أن يظهر سلوكه في ألفاظه؛ لأنّ الإنسان ابن البيئة، وقد كان للبيئة دور بارز في تكوين شخصيته، وصقل مواهبه، وهدوء النفس يرتبط بسياق القصة من خلال التركيب اللغوي الذي تتألف فيه العبارات محافظة على الوحدة العضويّة عن طريق العبارة الدّالة على السلوك تارة، ومن خلال اللفظة المنسجمة مع التعبير والملائمة للجو تارة أخرى.

الباب الثالث والعشرون

فن التوقيعات

أولاً- مقدمة:

تمثل التوقعات جانبا مهماً من بلاغة الأدباء والخلفاء والولاة والحكام في مجال النثر والشعر فقد عرفها الأندلسيون، ونماذجها الأولى التي كانت في فترة الإمارة التي تمثل استقلال البلاد، وإرساء دعائمها وأنظمتها الإدارية، وقد اعتمد عليها الحكام الأندلسيون في التعبير عن مواقفهم في كثير من الأشخاص، والقضايا كموقفهم من رجال الحاشية والمقربين، ورجال الدولة كما اعتمد عليها الشعراء لإظهار براعتهم: والتوقعات تذييل يكتب أسفل الرسائل الواردة على ديوان الدولة، أو على ظهرها، وتعتبر رداً من الحاكم وتعقيباً يمليه على كتابه، أو يخطه بيده، ومن ثم فهو من إنشاء الحاكم نفسه، ونظراً لضيق وقته وكثرة مشاغله، لم يكن لديه متسع للإفاضة والإسهاب في الجواب، ولاسيما أمام كثرة الرسائل التي تحتاج إلى الرد السريع، مما جعل التوقيعات تتميز في الغالب بالإيجاز الشديد الموفي للمقصود، وهي ظاهرة شديدة الشبه بالبرقية من هذه الناحية.

ثانياً- أقسام التوقيعات:

تقسم التوقيعات باعتبار أسلوبها إلى قسمين:

أ- التوقيعات النثرية:

وهي توقيعات كتبت نثراً لأغراض متعددة سياسية أو اجتماعية أو إدارية.

١- كتوقيع أبي المطرف عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) إلى ابنه المنذر بعد أن كتب إليه يسأله أن يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي يليه له ليقيم الجمعة، ويخطب ليحيي رسوم سلفهم، فوقع على ظهر كتابه: "قالت الحكماء: لو كان الكلام من فضة، لكان الصمت من ذهب".

٢- وحين سأله بعض مواليه عملاً لم يكن أهلاً له، وقع على كتابه: "من لم يعرف وجه مطلبه كان الحرمان أولى به".

٣- وكتب أمية بن زيد عن عبد الرحمن الداخل كتاباً إلى أحد عماله يستقصره فيما فرط من عمله، فأكثر وأطال الكتاب، فلما لاحظه الأمير أمر بقطعه، وكتب بخط يده: "إن يكن التقصير لك مقدماً، فعد الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً".

٤- ولما رفع أحد المشتغلين بتثمير الخراج للأمير عبد الرحمن بن الحكم أن القنطرة التي بناها جده على نهر قرطبة، لو رسم على الدواب والأحمال التي تعبر عليها رسماً لاجتمع من ذلك مال عظيم، فوقع الأمير عبد الرحمن على كتابه مستنكراً مثل هذا الاقتراح، لما فيه من إثقال على الرعية، موجهاً اهتمامه إلى مجالات الإصلاح الأخرى التي تورث الذكر الحسن، مثل بناء المساجد وإصلاحها، وحمله نفقة إصلاح المسجد المجاور له، ونص توقيعه كما يلي: "نحن أحوج إلى أن أفعال البر أمثال هذه القنطرة، لا أن تمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس القبيح، فتكون عائدته قليلة لنا، وتبقى تبعته وذكرى السوء علينا، وهلا كنت نبهتنا إلى إصلاح المسجد المجاور لك الذي قد تداعى جداره واختل سقفه، وفصل المطر مقبل، لكن يأبى الله أن تكون هذه المكرمة في صحيفتك، وقد جعلنا عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك على رغم أنفك، فيكون ما تنفق فيه منك، وأجره لنا إن شاء الله".

غير أن التوقيعين الأخيرين يطولان عن الحجم المألوف، وللأمير محمد بدوره توقيعات تظهر فيها مواقفه من رجال الدولة.

٥- فقد بعث له أحدهم – وهو وليد بن غانم – رسالة يشكره فيها على فضله عليه، ويستقل ما ولاه من خدمته، ويجدد طاعته:

"عظمت نعمة الخليفة سيدي أيده الله عن الشكر، وجلت أياديه عن النشر، فمتى رمت ذكر أدنى شكره، وحمد أيسر ما اشتمل علي من فضله، تكاء دنيا الشكر، وأعجزني الحمد، لكنني غير مؤتل في ذلك عن الاستفراغ في القول، والاجتهاد في العمل، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة سلفت، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت، وأنا بينهما مخيم، وعليهما معول، والله الناقل لعباده بطاعتهم له وشكرهم إياه، من دار الشقاء إلى دار السعادة، ومن نصب العاجل، إلى راحة الآجل، والسلام".

٦- فوقع الأمير في كتابه: "إن الله شاكر يحب الشاكرين، ولا يضيع أجر المحسنين، وقد ناديت فأسمعت، ولكل أجل كتاب والسلام".

ويقوم هذا التوقيع على التمثيل بالآيات القرآنية، بطريقة تبرز حسن استغلاله واستفادته من ثقافته ومحفوظه.

٧- وحين وصله كتاب القاضي محمد بن زياد يذكر فيه تداعي جانب من المسجد الجامع بقرطبة، ويحثه على إصلاحه، وقع على كتابه:

"إننا لسنا ننفق نفقة أحب إلينا ولا أثر عندنا من الإنفاق فيما ذكرت به وخصصت عليه، ونحن آمرون بالنظر في بنيان المسجد الجامع المكرم، والاجتهاد في رم شعثه والأخذ بالجد في ذلك وتعجيله، مع الإبلاغ في تقويته وتحصينه، ونوكل كفاتنا بعمله والقيام عليه، ونأمرهم ألا يرفعوا أيديهم عنه غبنا أو حضرنا، حتى يبلغ تمامه بحول الله وقوته، ونحن نحملك مع ذلك التفقد لذلك والمعونة عليه وإحسان النظر في معانيه لتشركنا في عظيم ثواب الله والمعونة عليه، فانهض بذلك راشداً إن شاء الله تعالى"، وإذا كان هذا التوقيع يطول بدوره، فإنه بذلك يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من جنوح الموقعين إلى الإطالة أحياناً رغبة في التفصيل والتوضيح.

ومن قبيل مواقف الحكام من الحاشية، من خلال التوقيعات، موقفهم من بعض الوشاة، ومن نماذج ذلك أنه حين أنعم الأمير عبد الرحمن بن الحكم على زرياب بثلاثة آلاف دينار بعد أن أطربه، فنشرها هذا على جواريه وولده، كتب أحد السعاة إليه يخبره أن المغني لم يعظم في عينيه ذلك المال، وأنه أعطاه في ساعة واحدة.

٨- فوقع الأمير على كتابه: "نبهت على كل شيء كنا نحتاج التنبيه عليه، وإنما رزقه نطق على لسانك، وقد رأينا أنه لم يفعل ذلك إلا حيينا لأهل داره، ويغمرهم بنعمنا، وقد شكرناه، وأمرنا له بمثل المال المتقدم، ليمسكه لنفسه، فإن كان عندك في حقه مضرة أخرى، فارفعها إلينا".

وعبر الحكام الأندلسيون في توقيعاتهم عن مواقفهم من الثوار، فيما دار بين الطرفين من مراسلات، وما ورد في شأنهم من رسائل بعض العمال والقادة.

٩- ومن ذلك ما أملاه عبد الرحمن الداخل على بعض كتابه إلى سليمان بن الأعرابي وكان خارجاً عليه، "أما بعد: فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن

يداً على الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لا أقين بنابها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد".

١٠- وكتب محمد بن عبد الرحمن المعروف بالشيخ الذي كان ممتنعاً بحصن (لقنت) إلى عبد الرحمن الثالث كتاباً فيه ما أوجب أن أجابه عبد الرحمن بالتوقيع التالي:

"ولما رأيناك قد تذرعت بإظهار اتقاء الله، رأينا أن نعرض أولاً ما لابد لك منه آخراً، وليس من أطاع بالمقال، كمن أطاع بعد الفعال".

فبادر الثائر إلى قرطبة مستسلماً، مما يبرز بلاغة التوقيع وعميق تأثيره في نفس الثائر.

ب- التوقيعات الشعرية:

وإلى جانب التوقيعات النثرية، هناك توقيعات شعرية، ومنها ما يتصل بمواقف الحكام من رجال الدولة، مثلما وقع به الأمير عبد الله إلى الوزراء في قصة موسى بن حدير، وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة، حين أراد كل منهما أن يكون مجلسه فوق الآخر، خلافاً لما كان والده الأمير محمد قد رتبه من رفع الموالي الشاميين على البلديين.

١- وقد وقع على الكتاب الذي رفع إليه بهذا الشأن:

موالي قريش من قريش فقدموا ... موالي قريش لا موالي معتب

إذا كان مولانا "يساويه عندنا ... سواه فمولانا كآخر أجنبي

ثالثاً- مادة التوقيعات:

أما مادة التوقيعات التي استقى منها الحكام والأدباء توقيعاتهم، فهي:

١- القرآن الكريم.

٢- والحكم والأمثال.

٣- وثقافة الموقعين في معظم الأحيان.

وقد برهن الموقعون في توقيعاتهم على براعتهم ومهارتهم، وحذقهم في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني.

الباب الرابع والعشرون

أدب الوصايا

أ- مقدمة:

الوصايا أدب نثري وشعري يحمل الجمال الفني المؤثر، الصادر من أديب يوجز تجربته وثمرة علمه بقطعة نثرية على شك لوصية يدعمه بالآيات القرآنية، والحكم البليغة.

وفن الوصية يأتي غالباً في حالة خلوص ذهن، وقرب فراق في حالة يصعب على الإنسان إلا أن يحكي ما استقر في نفسه من تجارب الحياة؛ فتكون الوصية بذلك موجزة صادقة.

وأدب الوصايا فن طريف، يجمع فيه الموصي خلاصة تجاربه، ويجسد فيه عمق معرفته والوصايا تراث يسمو في مضمونه وصياغته كالوصايا من والد لولده، ولا تقف فوائد المضمون عند ذلك الولد.

ولذلك حملت الوصايا الأندلسية مضامين مهمة، تنبعث منها عاطفة جياشة، عبر عنها الأدباء بلغة فصيحة.

ب أهمية الوصايا:

١ - تتجلى أهمية الوصايا من خلال احتفاء التشريع الإسلامي بها، يدل على ذلك ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من نماذج للوصايا المفيدة، مثل وصية لقمان لابنه.

٢ - أدب الوصايا باب من أبواب التربية، بل هي فن من ضروریاته.

ج- أشهر الوصايا وأصحابها:

لم يهتم الأدباء الأندلسيون بالوصايا كثيراً على طريقة أسلافهم؛ وإنما أكثر الخطباء من وصايا التمسك بعرى الدين، والزهد بمغريات الدنيا، والدفاع عن أرض أندلس من الاستعادة.

١ - ولعل أول الوصايا الزهدية في الأندلس ما وَعَظ به **القاضي الزاهدُ منذر بن سعيد** الخليفة عبد الرحمن الناصر لما رآه منه من انهماك في العناية بمدينة الزهراء، وانصراف عن

الاهتمام بصلاة الجمعة، فخطب في الناس بحضور الخليفة، وعرّض به، فذكره بالموت ودعاه إلى الزهد في عرض الدنيا الزائل، حتى بكى الناس وبكى الخليفة، وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه، وقد بدأ الواعظ خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[١٢٨ - ١٣١]، فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار، ومكان الجزاء، وهي وصية على شكل خطبة.

٢- ومن الوعاظ الزهاد ابن الطلاع، إذ كانت له موعظة مع المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، فقد لقيه المعتمد يوماً، فنزل له عن دابته، ووعظه ابن الطلاع، ووبخه على حياته اللاهية العابثة من خلال الوصية.

٣- وممن عرف بمثل هذه الوصايا والعظات الدينية الزاهد **أبو بكر الطُرطُوشي**، إذ دخل يوماً على الأفضل بن أمير الجيوش، فوعظه حتى أبكاه، وما جاء في موعظته: "إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله - عز وجل - سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أن الله- عز وجل- أتى سليمان بن داود مَلَكَ الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء، حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له عزَّ من قال: "هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب"، فما عُد ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل، فقال: "﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [سورة النمل: ٤٠] فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم".

وتعد هذه الموعظة التي جاءت على شكل وصية من أجمل المواعظ الدينية وأبرعها، لما امتازت به من بساطة التعبير وصدقه، وبعد عن التكليف، وقدرة على استمالة الأمير وإقناعه، وقد تسربلت تلك الموعظة بعاطفة دينية صادقة كان لها تأثير في نفس الأمير دفعته إلى البكاء فَرَقاً، لأن "لأكثر الوصايا والخطب الدينية والمواعظ أثراً في النفس، وبلوغاً إلى القلب، وتأثيراً

في السامع ما كان عن مطابقة حقيقية بين القول والفعل، وما كان صدى مستقيماً لسلوك مستقيم، وخلق قويم".

ولقد سلك الزاهد في موعظته سبيل الترسل الذي اعتمد العبارة الطويلة مبتعداً عن العبارة القصيرة المسجوعة إلا ما ورد منها عفو الخاطر دون قصد مثل: "فافتح الباب، وسهِّل الحجاب".

وكان تأثرها بمسلك القرآن الكريم في الوعظ وبأسلوبه واضحاً جلياً، فقد اقتبس من آي الذكر الحكيم على سبيل الاستشهاد، ليكون بينه على صدق ما يقول، وصحة ما يذهب إليه، الأمر الذي منح الموعظة جواً من المهابة والجلال الديني، وأورث "الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع".

ويمكن أن يعد ما ورد في كتاب "سراج الملوك" للمؤلف نفسه من وصايا على شكل مواعظ زهدية في باب مقامات الوعاظ والزهاد عند الأمراء والسلاطين، ومن قوله: "يا أيها الرجل... أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، فخيرها يسير، وعيشها قصير، وإقبالها خديعة، وإدبارها فجيعة، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاغتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا في خفض عيشهم ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم، وسوء منقلبهم".

٤- وصى الواعظ الخطيب **أبو الحسن بن شريح** أمير المسلمين علي بن تاشفين ونصحه موصياً إياه باتباع العدل وحسن اختيار الولاة الصالحين "اقتداء بالخلفاء الراشدين، وامتثالاً لفعل الأئمة الصالحين الذين قدروا هذه الدنيا حق قدرها، وتحققوا مكرها وغدرها، فعدلوا إلى الدار الآخرة، وابتاعوا ما يدوم ويبقى بما يبيد ويفنى، لم يشغلهم عن القيام بأمر الله إلْف ولا سكن، ولا ثبطهم عن جهاد عدوه دار ولا وطن".

وتدل وصايا ومواعظ الزهاد الدينية عند الأمراء بجلاء على إيمانهم برسالتهم في الصلاح البشري وعلى شجاعتهم وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق، واستهانتهم بالدنيا وزهدهم في حب العيش فيها، فكان الموصي والواعظ الزاهد ابن الطلاع "قوّالاً بالحق، وإن أوذي فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم"، فجمعت مواعظهم بذلك بين الصدق والشجاعة بعيداً عن التكلف والمصانعة.

الباب الخامس والعشرون
السيرة النبوية
في التراث الأندلسي

أ- مقدمة:

برع الأدباء في الأندلس بدراسة هذا الجانب كما برعوا في جوانب أخرى كثيرة حيث اعتنوا بالتاريخ وما يتصل به من معارف وبالفقه والحديث.

وهذا الاهتمام بالسيرة النبوية كان في منتصف القرن الثاني الهجري من خلال موسى بن عقبة الأسدي في كتابه "المغازي"، ثم في القرن الثالث الهجري تطور الأندلسيون في فهم دلالة السيرة النبوية، حيث اتسم بقدر أكبر بكثير من الدقة والمنهجية العلمية وإرهاف الحس النقدي، وخاصة بعد أن نشأ جيل جديد من تلاميذ بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح.

وقد استغرق العمل في السيرة النبوية المشرفة القرن الرابع كله، وهي الحقبة التي بلغت فيها الثقافة الأندلسية أوج نضجها واكتمالها على أنه كان الاهتمام الخصب المتنوع من جانب الأندلسيين بالسيرة النبوية الشريفة قد اتخذ منذ القرن الخامس مسالك ثلاثة بينهما بعض التداخل والتشابك، وإن أمكن التمييز بين بعضها البعض:

ب- مسالك السيرة النبوية:

سلكت التآليف في السيرة النبوية مسالك عدة:

أولاً: المسلك العلمي النقدي:

وهو الذي كان ثمرة تلك الجهود العلمية التي استغرقت القرن الرابع، وقد أنتج لنا هذا الاتجاه بعض التآليف الأندلسية التي يتمثل فيها ما أدركته ثقافة هذه البلاد الإسلامية وقد اتسم هذا الاتجاه بـ:

١ـ الالتزام بالمنهج العلمي الدقيق.

٢ـ اتضحت فيه معالم الشخصية الإسلامية.

٣ـ أصبحت مصدر لا غنى عنه للدارسين ليس في الأندلس وحدها، بل في كل بلاد الشرق ونضرب مثالاً بعالمين جليلين هما: ابن حزم، وابن عبد البر. وابن حزم له رسالة طويلة في السيرة النبوية بعنوان "جوامع السيرة" وقد كانت السيرة التي كتبها خاضعة لمنهج النقد في الحديث فجاءت مجردة من الأشعار والقصص محررة في ضوء المذهب الظاهري.

وأما العالم الثاني اختص بالسيرة النبوية بمؤلف اسمه " الدرر في اختصار المغازي والسير " وقد ذكر أنه اعتمد على كتب من سبقوه مثل موسى بن عقبة، ويظهر أن تشابها بين ابن حزم وابن عبد البر في كتابة السيرة، فكلاهما عالم ملتزم بالمنهج النقدي الصارم لأصحاب الحديث ولابد من التعريج على أول نموذج قدمته الثقافة الأندلسية لكتابة السيرة النبوية هو الفقيه عبد الملك بن حبيب الألبيري، حيث قدم الصورة المثلى للرجل المثقف في حياة الأندلس.

وقد أفرد كتاباً لمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده.

ثانياً: المسلك الوجداني:

وهو فن الرسائل إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر الأندلسيون من الكتابة فيه وهي تلك الرسائل التي يوجهها مؤلفها إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغاء البركة أو مناجاة خالصة يبثها الكاتب إيماناً نابضاً بالحرارة ومتحدثاً عما يضيق به من مشكلاته وأزماته، وكان يلتمس في مثل هذه المناجاة ضرباً من السلو والراحة وهو يتخيل نفسه متوجهاً بالخطاب إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومولد هذا الفن ارتبط ببداية ضعف الدولة الإسلامية في الأندلس فقد شعر الأندلسيون وهم يتأملون وطأة الأزمة على وطنهم بحاجتهم إلى مزيد من الإيمان يستلهمونه من هذه المخاطبات النبوية، وأقدم هذه الرسائل يرجع إلى أواخر عصر الطوائف الذي تمزقت فيه الدولة الإسلامية وأحدقت بها الأخطار.

وأهم من ألف في ذلك: أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي الذي يذكر أنه كتب رسالة إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعث معها بشعر محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي الشقوري كتب رسالة، وفيها شعر محمد بن محمد المرسي المعرف بابن الجنان لسان الدين الخطيب كتب رسالتين فيها يبسط أحوال الأندلس وما وقع من أحداث فيها،

ويعتذر للرسول عليه السلام فيها بأن تلك الأهوال التي تعانيها بلاده هي التي تمنع أن تشد إلى قبره الرحال.

ج- ومن نماذج فن الرسائل إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم:

١. رسالة لسان الدين الخطيب:

حيث يقول فيها: (السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا أبا القاسم سلام من يمد إليك يد الغريق ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق وينقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلما ازدلف إليك فريق وعمرت نحوك الطريق ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق...).

ثم يقول: (فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى وتوسل لي إلى مولى فضيلتك وتقبل وسيلتك في النقلة من هنا إلى هنا).

ثم يختم الرسالة بقوله: (كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى المتأخر جسماً المتقدم فلان "مخاطباً الله" والسلام عليك يا رسول تسليماً كثيراً ورحمة الله وبركاته).

فالرسالة تصور ذلك الجو النفسي القلق الذي كان يسود الأندلس حينما ألحت عليها المحن وأصبح مصيرها معلقاً بخيط واهن يوشك أن ينبت.

٢- رسالة لسان الدين الخطيب:

الذي يقول فيها: (إلى رسول الحق إلى كافة الخلق وغمام الرحمة الصادق البرق الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب وطبيب أدواء القلوب والوسيلة إلى علّام الغيوب نبي الهدى...).

ثم قال: (كتبت إليك يا رسول الله والدمع ماح وخيل الوجد ذات جماح عند الشوق يزداد كلما نقص الصبر...).

في هذه الرسالة بسط فيها لسان الدين أحوال الأندلس ويتحدث في تفصيل عن آخر ما وقع بها من أحداث، ويعتذر للرسول عليه السلام بأن تلك الأهوال التي تعانيها بلاده هي التي تمنع أن تشد إلى قبره الرحال.

ونلاحظ في الرسالة الصنعة الأدبية واللغوية حيث يختار العبارات المؤثرة والإيقاع القوي لعله يصل به إلى مراده وألفاظها مختارة ومؤنقة.

د- رسائل المدائح النبوية:

لقد كان الإنتاج النثري للمؤلفين الأندلسيين في المناقب النبوية على أعظم جانب من الجودة والوفرة فإن إنتاجهم الشعري لم يقصر عن ذلك، ولعل أول من استوقفتهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأديب المؤلف عبد الملك بن حبيب الألبيري الذي مر معنا، وقد علمنا أنه أول مؤلف اختص بالسيرة النبوية بالكتابة.

ولابن حبيب هذا قصيدة جميلة وصف بها مشاعره وهو واقف على المشاهد النبوية أثناء رحلته للحج فيقول: (من البحر الكامل)

لله در عصابة صاحبتها ... نحو المدينة تقطع الفلوات
حتى أتينا القبر قبر محمد ... خص الإله محمداً بصلاة
خير البرية والنبي المصطفى ... هادي الورى لطرائق الحسنات
لما وقفت بقربه لسلامه ... جادت دموعي واكف بالعبرات
ورأيت حجرته وموضعه الذي ... قد كان يدعو فيه للخلوات
سقياً لتلك معاهداً شاهدتها ... وشهدتها بالخطو واللحظات
وبطيبة طابوا ونالوا رحمة ... مقنى الكتاب ومحكم الآيات
وبقبر حمزة والصحابة حوله ... فاضت دموع العين منهمرات
صلى الإله على النبي المصطفى ... هادي البرية كاشف الغمرات
وعلى ضجيعيه السلام مرددا ... ما لاح نور الحق في الظلمات

فنلاحظ في هذه الأبيات العاطفة الجياشة التي ملأت قلبه حتى جعلت العبرات دائماً تسكب والدموع منهمرة، وكيف أنه استعمل الألفاظ الملائمة المناسبة لهذا الموقف، وهذا وإن دل فإنه يدل على قدرة وثقافة هذا الشاعر.

وهذا الرعيني الغرناطي يقول وهو يسكب العبرات في روضة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

هـــذه روضـــة الرســـول فدعنـــي أبـــذل الدمـــع في الـــصعيد الـــسعيد

لا تلمنـــي علـــى انـــسكاب دمـــوعي إنمـــا صنتهـــا لهـــذا الـــصعيد

وممن عني بالمديح النبوي لسان الدين الخطيب حيث بلغت عدد مدائحه النبوية اثنتا عشرة قصيدة حيث يقول:

وأنـــت مـــلاذ الخلـــق حيـــاً وميتـــا وأكرمهـــم ذاتـــاً وأعظمهـــم مـــجدا

فلـــولاك مـــا بـــان الـــضلال مـــن الهـــدى ولا امتاز في الأرض المكـــبّ مـــن الأهـــدى

فقد مدح النبي عليه السلام بأنه ملاذ الخلق وأكرمهم وأعظمهم في حياته وبعدها ولولاه لما استبان الضلال من الهدى.

فهناك قصيدة نظمها الأديب الأندلسي ابن المناصف القرطبي في / ٧٠٠/ بيتاً من الرجز بعنوان "الدرة السنية في المعالم السنية".

وقد جمع أحد أدباء المغرب المتأخرين وهو الحسن بن عبد الرحمن بن عذرة الأنصاري كتاباً ضخماً في المدائح النبوية في أكثر من خمسة وعشرين مجلداً بعنوان: "منتهى السول في مدح الرسول".

وهناك ديوان للمديح للشاعر الأندلسي محمد بن جابر الهواري الوادي وهو بعنوان "العقدين في مدح سيد الكونين"، وله قصيدة معارضة لقصيدة البردة حيث توخى فيها أن يشمل كل بيت لوناً من ألوان البديع، وقد انتشرت هذه القصيدة انتشاراً كبيراً وكانت موضعاً لشروح وتعليقات كثيرة.

الباب السادس والعشرون
المناظرات في الأدب الأندلسي

أ- توضيح:

المناظرة: فنٌّ أدبيٌّ نشأ في المشرق وبلغ أوج ازدهاره في الأندلس، وهو يقوم على المجادلة والمحاورة بين شخصين، يدلي كلّ واحدٍ بحججه وبراهينه ليثبت تفوقه على الآخر، معتمداً في ذلك على رصيده الثقافي ومخزونه التراثي من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة والتراث الأدبيّ القديم، يتناول هذا البحث " المناظرات في الأدب الأندلسي" وهو فن أدبي نثري برع فيه عدد من كتاب الأندلس على درجةٍ من التفاوت والتأنّق، وابتكروا موضوعات جديدة مستحدثة على أيديهم لم تكن معروفة لدى كتّاب المشرق، وقد تعددت موضوعات المناظرة في الأدب الأندلسي، وعبرت عن جوانب البيئة الأندلسية الجديدة التي نشأ فيها هذا الأدب، ووظّفها الأدباء أحياناً في المدح، وفي التعبير عن شغفهم بالطبيعة، وفي وصف جوانب الحضارة.

وكانت أحياناً أخرى مظهراً من مظاهر التفنن في القول وإبراز المقدرة على التأليف والابتكار، وقد اخترت منها المناظرات ذات الطابع الفكري؛ لأنها عبرت عن الجانب الفكري والعلمي في الأندلس، كما أكّدت نزعة الأندلسيين إلى التمسك بأصالتهم، والدعوة إلى الاهتمام بتاريخهم وثقافتهم في وقت كانت فيه الحوادث الخطيرة والهزات العنيفة تهدد هذه الشخصية بالزّوال.

وهي فن يهدف الكاتب فيه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية، وهي نوعان خيالية وغير خيالية.

ب - نماذج من المناظرات:

١ - فمن المناظرات الخيالية مناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وقد رمز بالسيف لرجال الجيش، وبالقلم لأرباب الفكر، ثم أجرى الحوار بينهما، وانتهى فيه إلى ضرورة العدل في المعاملة بين الطائفتين.

٢- ومن المناظرات غير الخيالية ما تجري فيه المناظرة بين مدن الأندلس ومدن المغرب كمفاخرات مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب، وكانت مالقة أيام الدولة الإسلامية من أعظم الثغور الأندلسية، أما سلا فهي مدينة رومانية قديمة في أقصى المغرب، وقد فضل الكاتب مالقة.

الباب السابع والعشرون
أبرز أعلام كتّاب النثر
في الأندلس

١ - ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ): وكان شاعراً وكاتباً، وله في النثر كتاب «العقد الفريد» الذي قسمه إلى خمسة وعشرين باباً، وجعل لكل بابين منها اسم جوهرة لتقابلهما في العقد، وهو يجمع بين المختارات الشعرية والنثرية، ولأن أكثر مواده تتصل بالمشرق، فقد قال الصاحب بن عباد لما اطلع عليه: بضاعتنا ردت إلينا،

٢ - ابن شهيد (ت٤٢٦هـ): كان شاعراً وكاتباً، من آثاره النثرية «رسالته في الحلواء» ورسالته المسماة «حانوت عطار» و«رسالة التوابع والزوابع» وهي قصة خيالية يحكي فيها رحلته إلى عالم الجن واتصاله بشياطين الشعراء والكتاب، وقد عرض من خلالها آراءه في اللغة والأدب.

٣- ابن حزم (ت٤٣٨هـ): اشتهر شاعراً وكاتباً، ومؤلفاته النثرية كثيرة تتناول شتى الموضوعات في الفقه والأدب والأنساب والتاريخ.

٤ - ابن سيْدَة (ت٤٥٨هـ): وكان أعلم الناس بغريب اللغة من أشهر مؤلفاته كتابي «المخصص» و«شرح مشكل أبيات المتنبي»، وابن عبد البر وكان من أهل قرطبة، واشتهر برسائله التي يغلب عليها الاتجاه السياسي والحديث عن الصداقة والمودة، وقد وصف الشطرنج.

٥ - ابن زيدون (٤٦٣هـ): وقد افتنَّ برسائله، فكتب الهزلية على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يسخر منه كما سخر الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير من الكاتب أحمد بن عبد الوهاب وقد ساق ابن زيدون تهكمه في سيول من الأشعار والأمثال وأسماء الرجال، وحرص على تناسق الإيقاع، فكان السجع نائباً عن الأوزان والقوافي، كما كتب الرسالة الجدية

يستعطف فيها قلب ابن جهور فيخرجه من السجن، وقد بدأها بالنثر وختمها بالشعر، وهي من حيث القيمة الفنية لا تقل عن الهزلية.

٦- تمام بن غالب بن عمر (ت٤٣٦هـ): وهو من أعلام النحويين واللغويين ويعرف بابن التياني نسبة إلى التين وبيعه، من كتبه «الموعب في اللغة» و«تلقيح العين» وقد وجه صاحب دانية، والجزائر الشرقية (جزائل البليار) الأمير أبو الجيش مجاهد العامري (ت٤٣٦هـ)، وكان من أهل الأدب، إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة كتاب ألفه تمام لأبي الجيش مجاهد فلم يفعل ورد الدنانير وقال: «والله لو بذل لي ملء الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة لكن لكل طالب».

٧- أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت٤٧٦هـ): المعروف بالأعلم؛ لأنه كان مشقوق الشفة العليا، والشنتمري نسبة إلى شنتمرية من بلاد الأندلس وله شروح على الكتب المشرقية، وعلى دواوين بعض الشعراء الجاهليين.

٨- ومن كتّاب القرن الخامس الهجري ابن الدبّاغ الذي نشأ في سرقسطة وترعرع فيها، وقد أعلى المقتدر بن هود منزلته لفصاحته وبلاغته، له رسائل يغلب عليها الاتجاه الاجتماعي، وقد جاءت معظم رسائله مملوءة بالشكوى من الزمان.

٩- ابن طاهر (ت٥٠٧هـ): وقد تناول كثيراً من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بحكم إمارته لمرسية، فكتب في الجهاد والصراع مع الصليبيين وفي موضوعات الرسائل الإخوانية، وفي الفكاهة والهزل.

١٠- ابن أبي الخصال الغافقي (استشهد سنة ٥٤٠هـ) وقد شغل مناصب إدارية في دولة المرابطين، وألف في المقامات، وشارك في نمط من الرسائل عرفت بالزرزوريات.

١١- ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وضمنه محاسن أدباء الأندلس من بُعيد الدولة المروانية إلى عصره.

١٢- محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت٥٤٥هـ) وقد ألف كتاب «إحكام صنعة الكلام» في النثر وفنونه.

١٣- ابن طفيل (ت٥٨١هـ) وكان طبيباً وأديباً وفيلسوفاً اشتهر بقصته «حي بن يقظان» التي تعد من أعظم الأعمال القصصية الفكرية في العصور الوسطى، والهدف منها الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به.

١٤- أبو الحجاج بن محمد البلوي (ت٦٠٤هـ) ويعرف بابن الشيخ، وكان موفور الحظ من علم اللغة والأدب، مشاركاً في النقد والأصول، من مؤلفاته كتاب «ألف باء» وهو أشبه بموسوعة جامعة لفنون الثقافة العامة صنّفه ليتأدب به ابنه عبد الرحيم (ت٦٣٨هـ).

١٥- ابن جبير (ت٦١٤هـ) أبو الحسين محمد، وكان شاعراً وكاتباً له الرحلة المشهورة وقد دونها بأسلوب رصين جزل الألفاظ سهل التراكيب وهي من رحلاته المشرقية الثلاث.

١٦- محيي الدين بن عربي صاحب المؤلفات الصوفية ومنها «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم»، وله «الوصايا».

١٧- ابن الأبّار: ومؤلفاته تربو على خمسة وأربعين كتاباً وصلنا منها «تحفة القادم» و«التكملة» لصلة ابن بشكوال، و«المعجم» و«درر السمط في خبر السبط».

١٨- حازم القرطاجني: وكان شاعراً ونحوياً وناقداً، وأشهر كتبه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» الذي يمثل قمة من قمم النقد الأدبي.

١٩- أبو الطيب (أبو البقاء) الرندي: وكان أديباً شاعراً ناقداً، من كتبه «الوافي في نظم القوافي» وهو من كتب النقد والبلاغة.

٢٠- ابن سعيد (ت٦٨٥هـ): الذي نظم الشعر وارتحل ودوّن مذكراته، وترك آثار أدبية تدل على ثراء في الموهبة، واستقامة في التعبير، ومن كتبه المطبوعة «المُغرب في حلى المَغرب» و«القدح المُعَلَّى»، و«رايات المبرّزين وغايات المميّزين»، و«عنوان المُرقصات والمُطربات»، و«الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة»، وله «رسالة في فضل الأندلس».

٢١- ابن الجيّاب (ت٧٤٩هـ) وقد تدرج في الخدمة في دواوين بني الأحمر حتى صار رئيس كتاب الأندلس، وتخرج على يديه عدد من أهل العلم والأدب.

٢٢- منهم لسان الدين بن الخطيب: من آثاره «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» و«خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» و«معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار»، وله رسائل كثيرة جمع قسماً منها في كتابه «ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب».

الباب الثامن والعشرون
دراسة أدبية لنص نثري
رسالة التوابع والزوابع

أ- حياة ابن شهيد:

ولد أبو عامر ابن شهيد مؤلف رسالة التوابع والزوابع بقرطبة في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الخليفة الأموي الذي حجر عليه الحاجب محمد بن أبي عامر ولقد حظي ابن شهيد في طفولته برعاية خاصة من الحاجب هذا ولقي منه عطفاً كبيراً فبلغ في الدولة العامرية رتبة الوزارة وبقي أميناً للعامريين مخلصاً لهم حتى بعد سقوط دولتهم (سنة ١٠٠٩ م) ولكن كان لابن شهيد خصوم يكرهونه ويكيدون له فاتهموه شتى الاتهامات عند الخليفة الأموي المستعين فسجن، ثم أفرج عنه ومرض في آخر حياته بداء الفالج خاصة، وأنه كان يسترسل في ارتشاف الملذات والانغماس في الشهوات، وتوفِّي في الرابعة والأربعين من عمره سنة (١٠٣٤م).

نجد آثار ابن شهيد الأدبية متفرقة في بعض كتب الأصول مثل كتاب الذخيرة لابن بسام ويتيمة الدهر للثعالبي ومطمح الأنفس للفتح ابن خاقان ونفح الطيب للمقري ووفيات الأعيان لابن خلكان، وعرف لابن شهيد شعر كثير لا يختلف فيه عن غيره من الشعراء الأقدمين، ونجد في رسالة التوابع والزوابع التي نشرها الأديب اللبناني بطرس البستاني سنة ١٥٥١ بعد أن صححها وحقق فيها وشرحها وبوبها دراسة تاريخية أدبية عن حياة ابن شهيد ولهوه ومجونه وخصومه وحساده.

ب- فما هي رسالة التوابع والزوابع؟

١ - هي قصة طويلة لم يتهيأ للأدب العربي بإثباتها كاملة، فقد ضاع أكثرها بين ما ضاع من آثار أدبائنا، واستطاع صاحب الذخيرة أن يحفظ لنا طرفاً منها يصلح في حد ذاته لأن يكون قصة مكتملة رغم اجتزائه.

٢- وتقسم من حيث موضوعها وأغراضها في رأي بطرس البستاني إلى مدخل وأربعة فصول:

أ- الفصل الأول توابع الشعراء.

ب- والفصل الثاني توابع الكتاب.

ج- والفصل الثالث نقاد الجن.

د- والفصل الرابع حيوان الجن.

٣- وموضوعها أدبي قصصي يحرص ابن شهيد أن يعرض فيها المشكلات الأدبية البيانية التي عرضت له في زمانه مع زملائه الأدباء والشعراء، ولقد اتخذ وادي الجن مسرحاً لرسالته كما اتخذ الجن أبطالاً حملهم آراءه الأدبية في خصومه وحساده من رجال السياسة والعلم والأدب.

٤- هناك حيرة في تصنيف النص.

٥- ما طبيعة هذا النصّ؟.

٦- ما هو هدفه من هذه الرّسالة؟

٧- هل تأثر ابن شهيد في كتابته لرسالة التّوابع والزّوابع بالفكر اليوناني كما ذهب بعضهم؟.

٨- وما الجنس الأدبي الذي تندرج تحته هذه الرسالة؟.

٩- وما مدى إحكام البناء الفني للقصة في هذه الرسالة؟.

١٠- وهل ظهرت طبيعة عصره في رسالته؟.

١١- لمن كان سبق الظهور رسالة التوابع والزوابع أم رسالة الغفران للمعري؟.

١٢- وإلى أيّ مدى كان موفقاً في إيصال الفكرة إلى المتلقي؟.

ج- التعريف برسالة التّوابع والزّوابع:

١- رسالة التّوابع والزّوابع رسالة نثريّة خاطب فيها ابن شُهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشّعريّ والنّثريّ، وقرنه إلى نتاج كبار أدباء المشرق مبيناً تفرّده

وتفوّقه، وعرّض بخصومه وحسّاده من معاصريه الأندلسيّين والقرطبيّين، والتّوابع والزّوابع قصّة رحلةٍ خياليّة إلى عالم الجنّ قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن نُمير ولقي شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقديّة، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدّعابة التي سرت في هذه الرسالة.

يحمله زهير على متن الجو إلى أرض الجن حيث التقى هناك بتوابع الشعراء المشهورين عتبة بن نوفل تابع امرئ القيس وعنترة بن العجلان تابع طرفة، وأبا الخطار تابع قيس بن الخطيم من الشعراء الجاهليين، ولقي عتّاب بن حبناء تابع أبي تمام، وأبا الطبع تابع البحتري وحسين الدَّنان تابع أبي نواس، وحارثة بن المغلس تابع المتنبي، كما التقى ببعض شياطين الكتاب، وهي فكرة جديدة صاحبها أبو عامر؛ ذلك أنه لم يكن من الشائع أن هناك شياطين أو توابع للكتاب، التقى أبو عامر بشياطين صفوة كتاب العربية وهم عتبة بن أرقم تابع الجاحظ، وأبو هبيرة تابع عبد الحميد، وزبدة الحقب تابع بديع الزمان، ويخرج أبو عامر من هذه المقابلات مجازاً مشهوداً له بالفضل، كأن يقال له أحد الجن ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك.

٢- ولا يقف بابن شهيد في قصته عند مقابلة التوابع الذين مر ذكرهم، وإنما تلقي به طبيعة رحلته إلى مجلس أدب عقده أدباء الجن وهي جلسة نقدية يعرضون فيها لأقوال الشعراء ويستعرض ابن شهيد أمام منتدى الجن موهبته الشعرية والنقدية، وتمضي قصة التوابع والزوابع، فيصل أبو عامر وتابعه زهير بن نمير إلى وادٍ آخر من أودية الجن وتلقي به المقادير إلى نادِ لحمير الجن وبغالها ويلتقي ببغلة أديبة ناقدة وبإوزة أديبة، وتنتهي المحاورة بتغلبه على حيوان الجن الأدباء والنقاد.

وبذلك تنتهي قصة التوابع والزوابع أو بالأحرى ينتهي الجزء الذي وصل إلينا منها عن طريق كتاب الذخيرة.

د- ومما ورد في القصة:

١- "لله أبا بكر ظنٌ رميته فأصميت، وحدسٌ أمّلته فما أشويت، فقلت: كيف أوتي الحكم صبياً، وهزّ بجذع نخلة الكلام فاسّاقط عليه رطباً جنياً، أمَا به شيطان يهديه، وشيصبان يأتيه

وأقسم أن له تابعة تنجده، وزابعة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النّفس لهذه النفس، فأما وقد قلتها، أبا بكر، فأصخ أُسمعك العجب العجاب".

ويمضي يقص عليه نبأ تعلقه بأهل العلم والمطالعة حتى يصل إلى: "فأرتج عليّ القول وأفحمت، فإذا أنا بفارس على باب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه، وقد اتكأ على رمحه وصاح بي وقلت له: بأبي أنت، من أنت؟ قال: أنا زهير بن نُمير من أشجع الجن، قلت: وما الذي حداك إلى التصور لي؟ فقال: صادفتَ قلباً إليك مقلوباً، وهوىً نحوك مجنوناً، وتحادثنا حيناً، ثم قال: متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات:

وإلى زهير الحُبّ يا عَزَّ إنه ... إذا ذكرته الذاكرات أتاها

وأوثب الأدهم جدار الحائط، ثم غاب عني، وكنت، أبا بكر، متى أُرتج عليَّ أو انقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب، أنشد الأبيات فيمثلُ لي صاحبي فأسير إلى ما أرغب، وأدرك بقريحتي ما أطلب، وتأكدت صحبتنا، وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها، لكني ذاكر بعضها".

٢- نصّ قصة تابع امرئ القيس: والنّص الذي بين يدي ما هو إلاّ قصة جمالها في نسج أسلوبها، ودقّة ألفاظها، وبُعد مراميها الفكريّة والحضاريّة والفنيّة، وقد جعل ابن شهيد بدايتها: "تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزّوابع، وقلت: هل حيلةٌ في لقاء مَن اتّفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر، وقد أُذن له، فقال: حُلّ على متن الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطّائر، يجتابُ الجوّ فالجوّ، ويقطع الدّوّ فالدّو، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جوّاً لا كجوّنا، متفرعُ الشّجر عطرْ الزّهر، فقال لي: حللت أرض الجنّ أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ؟.

قلت: الخطباء أولى بالتقديم لكني إلى الشعراء أشوق، قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس، فأمال العنان إلى وادٍ ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل بسقط اللّوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلاّ ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسيّ، وعرّفتنا كيف إجازتك له، فظهر لنا فارسٌ على

فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك! أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأيّ حمرة يا عتيبة! فقال لي: أنشد، فقلت: السيّد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتزّ عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنّا وكرّ، فاستقبلناه بالصعدة هازّاً لها، ثمّ ركزها، وجعل يُنشد:

سما لكَ شوقٌ بعدَ ما كانَ أقصرا .....

حتى أكملها، ثمّ قال لي: أنشدْ، فهممتُ بالحيصة، ثم اشتّدتْ قوى نفسي، وأنشدتُ:

شجتهُ مغانٍ من سُليمى وأدْؤُرُ .....

ومِنْ قُبَّةٍ لا يدركُ الطّرفُ رأسها تزلُّ بها ريحُ الصبّا فتحدَّرُ

تكلّفْتُها والليلُ قدْ جاشَ بحرهُ وقدْ جعلتْ أمواجُهُ تتكسَّرُ

ومِنْ تحت حضني أبيضٌ ذو سفاسقٍ وفي الكفّ من عسَالةِ الخط أسمَرُ

هما صاحباي من لَدُنْ كنتُ يافعا مُقيلانِ من جِدّ الفتى حين يَعْثُر

فذا جَدْولٌ في الغِمدِ تُسقى به المُنى وذا غصُنٌ في الكفّ يجنى، فيثمرُ

فلمّا انتهيتُ تأمّلني عُتيبةُ، ثم قال: اذهب، فقد أجزْتُكَ، وغاب عنا".

هـ- فكرة القصّة:

رحلةٍ خياليّة قام بها ابن شُهيد مع زهير بن نمير للقاء تابع امرئ القيس هذا اللقاء يقدّم فيه ابن شهيد نتاجه الشّعري، لينال إجازة من تابع امرئ القيس.

و- البناء الفنّي للقصّة وجماليّات الأسلوب:

١ - العقدة: جعل الكاتب بداية قصته لقاء مع زهير بن نمير فيه تمت إعادة ذكريات من التوابع والزوابع، هذه البداية هي بمنزلة العقدة الرئيسة في القصّة التي انطلقت من خلالها الأحداث.

٢ - وعلى منوال هذه البداية نسج ابن شهيد قصتّه لرغبة في نفسه، هي شوقه وتوقه للقاء تابع امرئ القيس، هذا الشوق يوحي باللون الأحمر المعبر عن تعطّشه للقاء ذلك التّابع كي يحظى بإجازة منه.

٣- وابن شهيد يمثّل شخصيّة البطل في هذه القصّة، كما يمثلها في أغلب قصصه، فهو البطل والرّاوي، بعكس ما هي عليه الحال في الملاحم، إذ تقوم أبطال القصّة بالقول والفعل، ويبقى الرّاوي خلف السّتار الذّاتي يراقب الأحداث وتطوّراتها، وتأتي شخصيّة زُهير لتكون ظلاً لشخصيّة ابن شهيد، إذ ترافقه أينما توجّه، وحيثما حلّ وتُسهم في إغناء مقدّمة القصّة من خلال الحوار الذي دار بينهما، والذي دلّت عليه المفردة (تذاكرتُ) التي توحي للوهلة الأولى بتداعي شريط من الذّكريات، وقد حُدّدت ماهيته ضمن السيّاق عن طريق التّصريح بأنّ التّداعي مرتبطٌ بالتراث القديم.

٤- وفي الحوار يبدو سلوك ابن شُهيد الحضاري في تساؤله، وهذا التساؤل يوحي بتواضعه والتّواضع يرتبط بوقار العلماء وجلالهم، وهذا السلوك هادئ لوقار صاحبه، هذا الوقار اكتسبته نفسيته من أدبي النفس والدّرس اللذين نهلهما من منابع الثقافة، ومجالس الخلافة، فقد ننشأ نشأة مترفة في زمن المنصور، وكان بعد ذلك على صلة بخليفتين هما يحيى بن حمّود والمستظهر.

٥- ولا عجبَ أن يظهر سلوكه في ألفاظه لأنّ الإنسان ابن البيئة، وقد كان للبيئة دور بارز في تكوين شخصيته، وصقل مواهبه، وهدوء النفس يرتبط بسياق القصة من خلال التركيب اللغوي الذي تتألف فيه العبارات محافظة على الوحدة العضويّة عن طريق العبارة الدّالة على السلوك تارة، ومن خلال اللفظة المنسجمة مع التعبير والملائمة للجو تارة أخرى.

٦- ويظهر سلوك الأندلسيّ في احترام الكبار على لسان زهير حتى أستأذن شيخنا، وحتى في هذا السياق توحي بعمق الشّعور بإكبار هؤلاء الشيوخ، ويوجز بحذف الجمل لدلالة الكلام السابق على المحذوف، ولو ذُكر هذا المحذوف لعُدّ ذلك ضرباً من اللغو والحشو، وبعد الاستئذان يمضي، والسيّاق يشير إلى ذلك وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر إذ يتمّم هذا الحدثُ الحدثَ السابق، وتأتي جملة وقد أُذن له مؤكدة سبب انصراف زهير، وموجزة في التّعبير.

٧- وشخصية الشيخ هي الثالثة، وقد جاء بها ابن شهيد، لتكون حلقة وصل بين ابن شهيد ووادي عبقر حيث يلقى تابع امرئ القيس، هذه الشخصية لم يتحدّث عن هيئتها

وأوصافها، بل اكتفى بالإشارة إليها لأهميّتها في نيل تذكرة القبول بالمغادرة عن طريق الحوار الذي جعل من هذا النيل حدثاً ثالثاً في القصّة عبر تسيير شخصية الشيخ له، وتأصيله بدعوة من زهير لابن شهيد لاستقلال جوادِ يرحلان عليه.

٨- وتبدو الدقة باستخدام اللفظة الملائمة للسياق في لغة الحوار التي تجذب النّفس لمتابعتها لما فيها من بساطة ووضوح، فالمفردة حُلّ التي جاء بها بدلاً من امتطِ فيها دلالةٌ على ذوقه الفنّي المنطبع بحضارة الأندلس، كما أنّ نطقها فيه انسيابيّةٌ ورشاقة، على حين أن امتطِ صعبة الإرسال لتنافر حروفها وبُعْدِها عن تآلف الألفاظ في هذا السياق، كما أنّ حلّ تعطي الصورة المتخيّلة في الذهن عن ذلك الفارس الذي تعلوه الهيبة والوقار، وهو يتأهب لاعتلاء الجواد.

٩- وابن شهيد يركّز على وحدة نسيج القصة عبر اللفظ سار بنا بدلاً من حلّق لأنّ الجواد يسير، ولا يُحلّق من جهة، ولأنّ ابن شُهيد يريد نقل المتلقي من الواقع إلى الخيال، إلى أرضٍ ليست كأرض البشر، وهنا يدخل عنصر التّشويق ليثير في النفس الدهشة والغرابة، وليجعلها تنتظر معرفة المزيد، ويأتي بمفرده التمحتْ بدلاً من شاهدت ليؤكد دقته في استخدام اللفظة المناسبة للجوّ، فهو في رحلة فضائية، يلمح معالم الأرض دون التماس جزئياتها.

ويستمر جو الوقار في هذا السياق ليتمم جو السياق السابق فبمن تريد أن نبدأ؟ دلالة على احترام المتحاورين بعضهم لبعض، وهو بهذا يعطيه حق الاختيار، وفي هذه العبارة إيحاءٌ بحرية الفكر في المجتمع الأندلسي وكانت أحد أسباب ازدهار تلك الحضارة.

١٠- ويتابع ابن شهيد حديثه الرزين الخطباء أولى بالتقديم على الرّغم من شوقه للشعراء، وهذا الأسلوب في الكلام مرتبطٌ بآداب الحديث.

١١- وكأنّ ابن شهيد يشير إلى تقنيات التربية في ذلك العصر، وطلبه لصاحب امرئ القيس فيه دلالةٌ على نفسيّته النزّاعة إلى القمّة، وعلى أنّ السيد لا يقابل إلاّ السيد، هذا الطلب كان عن طريق الانتقال من العام إلى الخاص، فهو يخصّص امرأ القيس؛ لأنه يدرك في أعماق نفسه أنه أفضل المشارقة من الشعراء، وهذا يدل على ارتباط ابن شهيد بالتراث العربي القديم.

١٢- ويمضي بالتصوير، فهو وزهير على متن الجواد في أعلى الوادي، وعتيبة في قعره والوادي لم يكن وروده عبثاً في هذا السياق، بل جاء مرتبطاً بالأسطورة العربيّة القائلة بوجود وادي الجن الذي يقطن فيه ملهمو الشعراء، كما أنّ جوّ السياق يوحي بجنة خضراء مكتظة بالأشجار تجعل الناظر إليها يشعر ببطء الزمن لما فيها من ألوان وأشكال، كما تطرب النفس لصداح العصافير، الذي يُشعر النفس بالطمأنينة والهدوء، ويجعلها تنتشي لما ترى، وتطرب لما تسمع.

١٣- وفي هذا المشهد الطبيعي إشارة إلى فن توقف الفارس فأمال العنان، والإمالة ترتبط بالمكان العالي، وفي ذلك دلالةٌ على ارتباط اللفظ بالمعنى في سياق القصة، ومفردة تنكسر تدلّ على الاستمرار والدّوام، كما أنّ الشدة الظاهرة على اللفظ توحي بكثرة الأشجار، وتداخلها، ومفردة تترنّم تتلاءم مع ذلك الجو الطبيعي الذي تصدح فيه العصافير، وتغنّي لجمال الطبيعة.

١٤- وينادي زهير صاحب امرئ القيس باسمه، ذاكراً الأماكن التي ارتبط بها، هذه الأماكن تؤكد تواصل ابن شهيد مع التراث القديم، كما أنها تلخّص مسيرة حياة امرئ القيس وأيّام الترف والرخاء في دارة جلجل، وأيام البؤس والشقاء على زوال ملك كندة، فالبكاء على سقط اللوى فحومل.

١٥- هذا الفارس بما أنّه تابعٌ، فهو يعرف زهير بن نمير، والتحيّة التي أدلى بها حيّاك الله يا زهير تشير إلى بداوة هذا الشخص، وبعدها يتساءل مستغرباً أهذا فتاهم؟ هذا التساؤل يحمل في طياته الأنفة والكبرياء، كما أنّ مفردة فتاهم التي وردت على لسان عتيبة فيها دلالة على أنّ ابن شهيد يريد تمثيل الأدباء الأندلسيين في حضرة تابع امرئ القيس، كما أنّ فيها إيحاء بحبّ ابن شهيد لذاته، فهو يرى نفسه أفضل من الجميع، وتأتي الإجابة من زهير هو هذا! لتؤكّد ذات ابن شهيد، ولتعلي من قدره أمام عتيبة عن طريق اسم الإشارة، ويوجز في الحوار بحذف الجمل التي أراد من خلالها عتيبة الاستفسار عن سبب مجيء زهير، كما تحذف الجمل من الكلام السابق، وكأنّ حديثاً سابقاً دار بين عتيبة وزهير عن رغبة ابن شهيد في المجيء، وكأنّ عتيبة على اطلاع سابق على غاية ابن شهيد في المجيء، هذا الإيجاز يفسح المجال للخيال لتصوّر مدى فراسة عتيبة وذكائه في إدراك سبب مجيء هؤلاء.

١٦- ويتساءل زهير عن المكانة التي تمنح لابن شهيد وأيّ حمرةٍ يا عتيبة، وبهذا التساؤل تنتهي مهمة زهير ليلقى ابن شهيد عتيبة هذا اللقاء هو الحدث الأهم في القصة؛ لأنه يؤدّي إلى المغزى من خلال الحوار الذي دار بينهما إذ يطلب عتيبة من ابن شهيد إنشاد الشعر، ويبدو ابن شهيد متواضعاً كما هي الحال في بداية القصة، هذا التواضع فيه اعتراف بسيادة امرئ القيس؛ لأنه الأقدم، وهنا يحترم ابن شهيد من هو أكبر منه قدراً؛ لأنه يريد أن يظهر بمظهر الشاعر الممثّل لشعراء الأندلس عليه هيبة الكبار، وتسيّر سلوكه طبائع وعاداتٌ استقاها من الوسط الاجتماعي الأندلسي، والقصّة في هذا السياق تقدّم جانباً مهماً من جوانب التربية التي يتمثّل بها ذلك العصر، فقد هذبت طباعَه أناقةُ القصور التي استظلّ في أفيائها، وخالط أصنافاً متعدّدة من أبناء المجتمع أيام النعيم والبؤس، فهو نقطة الدّائرة في عصره يرفع الأمراء قدره، ويخطب الوزراء صداقته، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته، كلّ هذه الأمور ترتبط بهدوء حديثه، ووقار كلامه، وبروز ذاته.

١٧- وابن شهيد عندما طلب من عتيبة الإنشاد ملقباً إياه بالسيد، لم يكن لقبه عبثاً، بل كان يريد من هذا اللقب اعتراف عُتيبة به، كما أن عُتيبة عندما يسمع هذا الكلام ينتشي، وهذا ما حصل من خلال الحركات التي أبداها حتى إن المتلقي يخاله في زهوه وكبريائه يستعد لأمرٍ عظيم، وهو في وادي الجن، وابن شهيد في أعلى الوادي، ويجمع بينهم الحوار، واستجابة عُتبة تقترن بالخيلاء من خلال الإيحاء الموجود في اللفظ فتطامح طرفه، وهذه نظرة الكبار الذي يأنفون من انحناء الرّأس، كما أنّها ترتبط ببيئة القصّة فعتيبة في الوادي، ويريد الوصول إلى ابن شهيد، ويُتبع تطامح الطرف باهتزاز العطف واهتزّ عطفه إشارة إلى هيبة الموقف، وتتحرّك الصورة بين هذا وذاك إلى ضرب الفرس التي يجعلها تتحرّك، ويركّز ابن شهيد على رشاقة اللفظ المرتبط بالحدث فسمت والمعبّر عن نفسيّة ابن شهيد الطامحة للقمّة، والمفردة سمت تؤكّد تماسك السيّاق، ووحدته العضويّة، في ارتباطه مع السّياق السابق، وتتمّم هذه المفردة فسمت المعنى، كما تؤكّد وجود عتيبة في الوادي وابن شهيد في أعلاه.

١٨- وينطلق عتيبة إليهم، فيستقبلونه، فيتوقّف برهة، هذا الوقوف يرتبط بفنّ إنشاد الشّعر، عند الاستعداد للإلقاء حين يريح الشّاعر أعصابه، ويتأهّب للإنشاد، وهذا ما فعله عُتيبة ثم أنشد:

سـما لـكَ شـوقٌ بعـد مـا كـان أقـصرا .....

١٩- واكتفاء ابن شُهيد بذكر هذا الشطر على لسان عتيبة له دلالـةٌ عـلى نفـسية ابـن شُـهيد التي ترى نفسها في القمّة دوماً وحالة السمو تشير إلى ذلك، كما أنّ هذه المفردة تـرتبط بشخـصية قائلها، فهو ابن ملك كنده، وقمّة شعراء المشرق، وتـأتي كـاف الخطـاب لـك لتـدل عـلى حالـة السمو التي تلازم نفسية ابن شهيد، والمفردة شوق جاءت بصيغة النكرة لتدلّ على كثرة الـشوق وشدته من جهة ولتبيّن عمق الصلة بينهما، وسمو الشوق بعد ركوده يـؤجج المـشاعر ويجعلهـا تضطرم داخل النفس، هذا الاضطرام يوحي باللون الأحمر المعبّر عن العلاقة الحميمية بينهما.

وحالة السمو التي وردت على لسان عتيبة باختيار ابن شهيد لها في سياق القصة ما هـي إلاّ تأكيدٌ لنفسية ابن شهيد النزّاعة لإثبات الذات حتى على لسان الآخـرين، هـذا الاعـتراف مـن عتيبة قبل إنشاد ابن شهيد فيه دلالة على عظمتـه، ويـأتي الاعـتراف مـتماً لأحـداث القـصة، وملازماً لنفسية صاحبها.

٢٠- وينهي عتيبة الإنشاد، ويطلب مـن ابـن شـهيد أن ينـشده فقـال لي: أنـشد، ولا يـأتي الإنشاد إلاّ بعد تبيان حالة ابن شهد عن طريق الإطناب بالاعتراض الذي أراد منـه التحـسين لتشويق النفس كي تتابع الأحداث، والحالة التي انتابت ابن شهيد عندما طلـب منـه الإنـشاد فهمت بالحيصة تشير إلى خوفه واضطرابه من جلال الموقف، ويتبع الخوف بالمواجهة.

ثم اشتدت قوى نفسي هذا الإتيان بـين الجملـة ونقيـضها، يجعـل القـارئ يتخيّـل إنـساناً اضطرب لسماع خبر ما، وبعد ذلك الخوف أراد المواجهة، وفي المواجهة تأكيدٌ على قـوة الإرادة التي تتغلب على الانفعالات إزاء الأشياء، وإبراز الحالة النفسية يشوّق القارئ ليتـابع الحـدث تلو الحدث عـبر إحكـام النّسيج بقيـادة الحـدث لاكتـشاف جوانـب الشخـصية، وبتأصـيل الشخصية للحدث من خلال لغة الحوار البعيدة عن الإبهام، والموجزة في التعبير لتفسح المجال للخيال لتصوّر الأحداث والشخصيات التي تطوّرها.

ز- جمالية الصورة الشعرية:

١- والأبيات التي أنشدها ابن شهيد تُصوّر ما آلت إليه حالته النفسية من ألمٍ وشـجن عـلى تلك الدّيار التي عبثت بها أيادي الطامعين والناقمين من الفتنة التي حلت بالأندلس، ويـتجلى

الصرّاع عن طريق الحوار مع الذات شجته مغانٍ، وصيغة الماضي الملازمة للمفردة (شجته) ترتبط بالذكرى والذّكرى توحي بالألم الذي يعتصر الفؤاد، هذا الألم يوحي باللون الأحمر المعبّر عن الحالة النفسية التي انتابت ابن شهيد من الجرح الذي أدمى الديار التي وصلت إلى قمة الازدهار، وإذ برياح الفتن تهبّ عليها لتنال منها، والمغاني التي أشجت ابن شهيد هي ديار الأندلس، وبذلك يكون ابن شهيد قد عبّر عن حالته النفسية بشكل غير مباشر، لينقل انفعالاته إلى الآخرين.

٢- ويمضي ليستعيد أيام الازدهار التي وصلت إليها الأندلس، وهذا الحديث عن الازدهار ما هو إلا حالة تعوضية عمّا انتاب الأندلس من اضطرابات وفتن.

٣- والذّوق المترف الذي تمثل به ابن شهيد يتجلّى بمجيئه بالمفردة تزلّ التي تتفق وهي تلك القبة التي ازدهرت وسمت، كما أنها تشير إلى رونق البناء وجماله الهندسي، إذ إنّ الريح كالماء الذي ينساب منحدراً إلى الأسفل، وهنا تكمن براعة التصوير ودقته المتناهية، في رسم حالة الازدهار التي وصلت إليها الأندلس.

٤- ولكن ما حصل أشجى ابن شُهيد، وجعله يفصّل في حالته تكلفتها التي تعطي الصورة المتخيلة في الذهن عن ذلك الشخص الذي يواجه الصعوبات التي تعترض مسيرته في الحياة، هذه الصعوبات المتراكمة ما هي إلاّ همومٌ سودٌ توحي بحالة البؤس التي اعترت نفسيّة ابن شهيد لما آلت إليه حالة الأندلس التي صوّرها عن طريق الإطناب الذي يرسم مشهداً تتداخل صوره وقد أراد منه نقل الحالة الشعورية التي يحياها إلى الجميع، من خلال الاندماج مع الطبيعة والليل قد جاش بحره صورة سوداء مخيفة توحي بحالة القلق التي خيّمت عليه، وقد أراد إزالتها ولكن هيهات، لأن الاضطراب يمثل حالة واقعيّة على حين ظن الشاعر ذلك اضطراباً في الطبيعة.

٥- وهنا يعبّر ابن شهيد عن حالته بالصورة أمواجه تتكسّر، وما اضطراب الأمواج إلاّ اضطرابٌ في نفسية ابن شهيد من جهة، واضطرابٌ في الوسط الاجتماعي الأندلسي من جهة أخرى.

٦- هذا الاضطراب يجعل ابن شهيد في حيرة من أمره كيف يواجه ذلك الخطر؟ أجل! لا مواجهة للأخطار إلاّ بالسيف والرمح، وهما قوتان لا غنى عنهما في بناء الدولة والدفاع عنها.

وعند هذين المشهدين يُنهي ابن شهيد إنشاده لينتقل إلى إبراز رأي عُتيبة في ذلك الإنشاد، فلما انتهيتُ تأمّلني عتيبة هذا يعني إصغاء عتيبة لذلك الإنشاد، والمفردة تأمّلني توحي بتراخي الزّمن؛ لأنّ فيها توقف النظر على ابن شهيد، وتفحّص تلك الشخصية، هذا الإنعام فيه إعجابٌ من عُتيبة، لذلك يأتي الحكم تتويجاً لذلك التأمل والإعجاب، اذهب فقد أجزتك، وهنا يفكّ السّحر، وتنتهي القصة بتوضيح الهدف.

٧- وتنتهي القصة بتوضيح الهدف الذي من أجله نسج ابن شهيد قصته، وهو إثباته لذاته عن طريق نيل الإجازة من تابع امرئ القيس، هذه الإجازة تبرهن على إعجاب ابن شهيد بنفسه وتأتي لتأكيد صلة أدب المشرق بالمغرب، وتطلّع ابن شهيد إلى رئاسة الأدبين، فالهدف عند ابن شهيد في كتابته قصة التوابع والزوابع دافع شخصي نابع من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لم يولوه حقه من التكريم، ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهلاً لها، كما أنّ غايته إثبات مقدرته الأسلوبية النثرية والشعرية أمام المشارقة عن طريق مقابلة توابع الشعراء والكتّاب، وكسب اعترافهم بتفوقه.

٨- ومما لا شكّ فيه أن ابن شهيد ثقافته العربية الواسعة بالشعر والنثر التي سخّرها لخدمة نسيج القصة، يجعلنا نجزم بأن هذه القصة عربية الشكل والمضمون لاستناد شكلها إلى الأسطورة العربية القديمة بوجود توابع للشعراء في وادي عبقر، واستقائها فكرة رحلة الإسراء والمعراج في نسج أحداثها، كما أنّها أتت عربيّة المضمون لما حوته من قص وشعر مرتبط بحضارة الأندلس من جهة، وبالتراث المشرقي من جهة أخرى.

٩- كما أن هناك من يرى أن قصة التوابع والزوابع من حيث فكرتها مقتبسة من المقامة الإبلية لبديع الزمان رغم قصرها، فبطل المقامة فقد إبله وخرج في طلبها، فرمته مقاديره في وادٍ أخضر، وهناك التقى بشيخ جالس، وبعد أن أنس إليه أخذ يروي شيئاً من أشعار العرب، وبهذا يتبين أن ابن شهيد أخذ المقامة ونماها وتوسع في خيالاتها وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص في كتابة قصته الطويلة.

١٠ - لم يتأثر ابن شهيد بالفكر اليوناني، فالرحلة عربية الطابع والطبّع، وهي مستمدة من التاريخ العربي الإسلامي؛ لأنها تشبه رحلة الإسراء والمعراج في فكرة الرحلة، وأصالتها في المساجلات التي حصلت بين ابن شهيد وشعراء المشرق العربي ممّا يؤكّد انتماءها إلى التراث العربي الإسلامي، وينفي ما ذهب إليه بيريس، كما أن رسالة التوابع والزوابع بُنيت على أساس الأسطورة العربية القائلة بأنّ لكل شاعر تابعاً يلهمه الشعر، ويعينه في صناعته.

١٢ - ظهرت التوابع والزوابع في الأندلس، وفي الوقت نفسه عرفت رسالة الغفران في المشرق، وقد اختلف في الكتابين أيهما أسبق إلى يد القارئ، وأي الكتابين تأثر بالآخر.

ح- موازنة بين رسالة الغفران والتوابع والزوابع:

١ - الكتابان يسيران في طريق واحد.

٢ - الاعتماد على الخيال.

٣- فرسالة الغفران كتبت للرد على ابن القارح، الذي كتب رسالة إلى أبي العلاء المعري، اعتمد فيها على الخيال فرد عليه أبو العلاء برسالة طويلة هي رسالة الغفران، وقد اعتمدت رسالة الغفران على الدعوة من أبي العلاء بأن تغرس لابن القارح شجرة كبيرة في الجنة، ثم أخذ أبو العلاء يصف شجرة الجنة هذه وما حولها ومن سكن بقربها من الشعراء، وقد استرسل في سؤال الشعراء عن سبب المغفرة لهم فيسأل الأعشى عن سبب المغفرة، فيقول الأعشى: القصيدة التي مدحت بها الرسول، فالرسالة مبنية على الغفران للشعراء وسببه.

٤ - ورسالة التوابع والزوابع بنيت على الرحلة إلى أرض التوابع، أي توابع الشعراء والكتاب، ووسيلة ابن شهيد في تلك الرحلة جواد تابعه زهير بن نمير، فقد ركبا ذلك الجواد وطار بهما إلى أرض التوابع وعندما وصلا إلى أرض التوابع أخذ ابن شهيد يعرض أنماطاً من كتابته على توابع الكتاب والشعراء، ومما عرضه عليهم أنماط من كتابته التي حواها كتابه التوابع والزوابع.

٥- والتقت الرسالة والمقامة على إظهار قصة طواف يتنقل فيه الأديب من مدينة إلى مدينة ومن حوزة أمير إلى حوزة آخر، ومن مجموع ما وصلنا عن طبيعة المقامة الأندلسية يتبين لنا فقدت من بعضها قصة الكدية والحيلة المقترنة بها في المقامة المشرقية، وأصبحت صورة رسالة يقدمها شخص بين يدي أمر يرجوه أو أمل يحب تحقيقه، كما أن كثيراً منها أصبح وصفاً للرحلة والتنقل.

الباب التاسع والعشرون
النقد الأدبي
في العصر الأندلسي

أولاً- مدارات النقد الأدبي:

أ- مقدمة:

دار النقد الأدبي في الأندلس في مجالات الدفاع عن الأندلس وأدبها، ونافح الفقيه ابن حزم عن علماء بلاده وأدبائها، ولعل تضخم الشعور بضرورة التحرر من النموذج الأدبي المشرقي هو الذي حفز الأدباء الأندلسيين على رفض التبعية الأدبية وإلى تعدد محاولات الاستقلال، وظل هذا الموضوع هاجسا يقض مضاجع بعض أدباء الأندلس، وقد أقدم ابن حزم على تأليف رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها.

ثانياً- نظريات النقد الأدبي الأندلسية:

١- نظرية ابن طباطبا العلوي في عيار الشعر:

كتب محمد أحمد ابن طباطبا العلوي (٣٢٢ هـ) كتابه (عيار الشعر) من أجل وصف الشعر والسبب الذي يتوصل به إلى نظمه، يبدأ ابن طباطبا كتابه بتعريف للشعر اشتمل على عناصر الوظيفة والماهية والمصدر المعرفي، حيث يقول:

أ- الشعر:

١ - كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما يخص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجّته الأسماع، وفسد على الذوق ونظمه معلوم محدود.

٢ - فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه.

٣- إن ابن طباطبا يربط بين النظم وقوانين العروض.

٤- ويربط صحة الطبع بالذوق لدى الشاعر.

٥- يفرق بين المعرفة المكتسبة التي يتم هضمها فتصبح جزءاً من عفوية الشاعر وبين معرفة أهل العلم لأدوات الشعر.

٦- الشعر منظوم بالطبع.

٧- للشعر أدوات ومصادر معرفية يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه.

٨- الشعر عنده كالسبيكة المفرغة والوشي المنمنم والعقد المنظم واللباس الرائق.

٩- وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه.

١٠- وتكون قواعد البناء يتركب عليها ويعلو فوقها فيكون ما قبلها مسوقاً إليها ولا تكون مسوقة إليه، فتقلق في مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها.

١١- وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له غير مستكرهة ولا متعبة.

ب- أدوات الشاعر عنده:

١- التوسع في اللغة.

٢- البراعة في فهم الإعراب.

٣- الرواية لفنون الآداب.

٤- المعرفة بأيام الناس وأنسابهم ومناقبهم.

٥- الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر.

٦- التصرف بحكاياتها وأمثالها.

وأدوات وشروط الشعر النموذجية هي وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي تتميز به الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن واجتناب القبيح ووضع الأشياء في مواضعها

هكذا يتحدث ابن طباطبا عن ماهية الشعر ونموذجية الشعر وأدوات الشاعر ومصادره المعرفية المرغوبة مؤكداً جانبي: الاكتساب والطبع، وهذا يقوده إلى اعتبار الشعر صنعة والقصيدة تعتمد على مجموعة من البنى والأنساق والأنظمة والجوامع.

فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة محض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه، أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي، فإذا كملت المعاني له وكثرت الأبيات، بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعا لما تشتت منها، ثم يبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية ويكون كالنساج الحاذق وكالنقاش وكناظم الجوهر.

وبهذا يرى ابن طباطبا اكتمال الصنعة، ومن هنا ربط بين صناعة الشعر وكمال العقل، مع أنه عند تعريفه للشعر اشترط الطبع، وقال بوضوح: هناك فارق بين معرفة الشاعر بمصادره المعرفية العلمية وبين معرفة العلماء، فالأولى يتم هضمها حتى تتحول إلى جزء من الطبع، وفي الثانية تظل المعرفة العلمية منفصلة عن النص.

ج- أفكار ابن طباطبا:

والأفكار الأساسية في أطروحات ابن طباطبا حول الوظيفة والماهية والمعرفة الشعرية.

أولاً: إن الشاعر النموذجي يعتمد الصدق والوفاق في تشبيهاته وحكاياته.

ثانياً: شعراء عصره في أشعارهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظة فصيحة وحيلة لطيفة وخلابة ساحرة، فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يربو عليهم لم يتلق القبول.

ثالثاً: ويسلك الشاعر منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم.

رابعاً: الشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه متشابه الجملة، متفاوت التفصيل مختلف كاختلاف الناس في صورهم وعقولهم، فمن الأشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة اللفظ حكيمة المعاني عجيبة التأليف، وللمعاني ألفاظ تشكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها.

خامساً: في أشعار المولدين عجائب استفادوها ممن تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم ولبسوها على من بعدهم، وتكثروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها.

سادساً: ينبغي للشاعر أن لا يظهر شعره إلا بعد ثقته بجودته.

سابعاً: العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها ومرت به تجاربها وأدركه عيانها.

ثامناً: الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، فللكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه.

تاسعاً: عيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مجّه ونفاه فهو ناقص.

عاشراً: للشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه ويرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع للفهم مع صحة الوزن، صحة المعنى وعذوبة اللفظ، تم قبوله، إن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي: اعتدال الوزن، وصواب المعنى وحسن الألفاظ، كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه، ولحسن الشعر وقبول الفهم إي الحال التي يعد معناه لها.

حادي عاشر: الشعر هو ما عري من معنى بديع لم يعر من حسن الديباجة، وما خالف هذا فليس شعراً.

ثاني عشر: أخذ المعاني واستعمالها في الأشعار على اختلاف فنون القول فيها، فالشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول إذا فتشت أشعار الشعراء كلها وجدتها متناسبة، أما متناسبة قريبا أو بعيداً.

د- ملاحظات:

١- النموذجية النسبية موجودة في الشعر القديم.

٢- وبالتالي الشاعر المحدث يواجه محنة عدم استخدام لمقاييس القدماء.

٣- وضع أساسات أخلاقية لمفهوم الصدق بينما وضع أساساً فنياً لمفهوم الكذب.

٤- فكيف تصح المقارنة بين مفهوم أخلاقي ومفهوم فني رغم اختلافهما في النوع؟ وتطبيقه لهذا المفهوم نفسه، حين يضع مقاييس فنية خاطئة للتفرقة بين مخاطبة الملوك ومخاطبة العامة.

٥- اعتبار القديم هو النموذج واعتبار المحدث قاصر؛ لأنه تلاه زمنياً فقط.

٦- عندما تخلى ابن طباطبا عن الصدق، لجأ إلى تعليم الشعراء كيفية السرقة.

٧- حول ابن طباطبا السرقة إلى مصدر شرعي من مصادر الشاعر المعرفية، ولكنه طالبه بإخفائها جيداً.

٨- سيطر العقل اللفظي على فكر ابن طباطبا حين يفصل بين المعاني والألفاظ؛ لأنه ربطها بمفهومي: الحسن والقبيح وهما مفهومان أخلاقيان كما نفهم من تطبيقات ابن طباطبا.

٩- أعطي أهمية للتشبيه، ولكنه يطلب من الشاعر المحدث أن يقلد تشبيهات القدماء.

١٠- يضع النماذج القديمة في التشبيهات أساساً مطلقاً للتشبيه كعنصر من عناصر البنية السطحية.

١١- استنتج قوانين جزئية محدودة من النصوص ليوهمنا أنها قوانين شاملة.

وكان متفرداً في تفسير الطبع على أساس روحاني: بمعنى أن من تغلبت نفسه على جسمه كان مطبوعاً روحانياً، فتجيء الصور عنه في أجمل صورة، وفي اعتبار الطاقة الشعرية واحدة في البديهة والرويّة، ابن رشيق وابن شرف، وربما لم يبلغ أي ناقد أندلسي آخر مبلغه في إرهاف الذوق والإحساس بالجمال الفني، وفي اتخاذ شاعريته وسيلة للتعبير عن آرائه النقدية بطريق التصوير.

٢- نظرية حازم القرطاجني الشعرية:

أ-

ب-

ج-

د- رؤيا حازم القرطاجني للشعر:

تأثر حازم القرطاجني بكتاب الشعر لأرسطو تأثيراً عميقاً في المنهاج، وقد أكثر فيه القرطاجني الاهتمام بالصناعة الشعرية، فهو يعرف الشعر بأنه "كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه

أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك".

وهو ينقل في هذا الفصل كثيراً عن الفارابي وابن سينا، ويزيد على ما ينقله محاولة جديدة لتحديد معنى التخييل وتفصيل أنواعِه ووصف عمل الشاعر فيه، وفي ذلك كله نجد التأثير اليوناني واضحاً، بل نجد كلام حازم استمراراً لكلام ابن سينا، لولا أن هذا فيلسوف يكتب في الشعر، وذاك شاعر يعتمد على الفلسفة، وكما يصرح حازم بذكر ابن سينا والفارابي يشير إلى أرسطوطاليس مؤكداً أن القوانين التي وضعها غير كافية لأن تطبق على أشعار العرب.

وتقسيم حازم للشعر إلى طريقتين– طريقة الجد وطريقة الهزل يوحي باستفادته من أرسطو، وحرص حازم على أن ينتفع من الشعر اليوناني في هذا الباب، فاعتمد على ما لاحظه أرسطو من أن الشعراء الأخيار مالوا إلى محاكاة الفضائل، بينما مال الأرذال إلى محاكاة الرذائل، وما فهمه من تلخيص ابن سينا أن التراجيديا محاكاة ينحى بها منحى الجد والكوميديا محاكاة ينحى بها منحى الهزء والاستخفاف، فجعل ذلك عمدة في تقسيم الشعر العربي إلى طريقتين– الجد والهزل، واستطاع حازم بهذا أن يطبق بإخلاص تقسيم أرسطو هذا للشعر اليوناني على الشعر العربي الغنائي.

هـ- رأي حازم القرطاجني في ظاهرة الإبداع:

وأما من حيث الإبداع، فتتولد المعاني الشعرية من قيام هذا الفن بوصف حالات النفس وانفعالاتها وتأثراتها؛ فهناك ظواهر تسير بالنفس بين قبض وبسط، وحركات النفس بسائط ومركبات، تتضمن الارتياح والاكتراث وما تركب منهما – وهي الطرق الشاجية؛ والأنواع التي تقع تحت هذه الأجناس هي: الاستغراب والاعتبار والرضا والغضب والنزاع والنزوع والخوف والرجاء.

وهذا الإبداع لا يتأتى على أكمل الوجوه إلا بحصول ثلاثة أشياء، وهي:

١ – المهيئات.

٢– والأدوات.

٣– والبواعث.

١ - أما المهيئات: فأهمها البيئة ذات الهواء الطلق، والمطعم الطيب، والمناطق الأنيقة، والترعرع بين الفصحاء الذين دربوا على الإحساس بالإيقاع وحفظ الكلام الموزون.

٢- والأدوات: هي العلوم المتعلقة بالألفاظ والعلوم المتعلقة بالمعاني.

٣- والبواعث: تنقسم إلى أطراب وآمال، فالأطراب كعوامل الحنين والآمال كالاستشراف إلى العطاء وما أشبه.

وبجانب هذه العوامل، **لابد لكمال إبداع الشعر** من توفر قوى داخلية، وهي ثلاثة:

١ - القوة الحافظة، وهي أن تكون خيالات الفكر منتظمة متمايزة، تلبس الموضوع صورة جلية حقيقية، مع تجنب جميع ما يعكرها ويكسبها الغموض وعدم الانتظام.

٢- القوة المائزة هي التي يميز بها الشاعر ما يلائم موضوعه ونظمه وأسلوبه وغرضه مما لا يلائم ذلك.

٣- القوة الصانعة هي التي تضم الألفاظ والمعاني والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية بعضها إلى بعض، وإذا اجتمعت هذه القوى جميعها في الشاعر، سمي ذلك بالطبع الجيد في صناعة الشعر.

وتبدو لنا من جملة ما سبق سيطرة حازم على مختلف جوانب النقد التي نجدها في أماكن متفرقة على مرّ الزمان، فهو قد استفاد من النقاد الفلاسفة في تعريف الشعر وتعلقه بحركات النفس، كما أخذ عن الجاحظ القول بأثر البيئة والعرق، ووقف في صف النقاد الذين قالوا بحاجة الشاعر إلى الثقافة (العلوم).

وأما حديثه عن القوى الحافظة والمائزة والصانعة فهو قياس على ما نجده عند الفلاسفة (وخاصة ابن سينا) من الحديث عن قوى النفس: قوة الفنطاسيا والقوة المصورة والقوة المخيلة والقوة الوهمية والقوة الحافظة الذاكرة، فأحسن حازم الجمع بين هذه النظريات المتبعثرة واستخلص منها تصوره لماهية الشعر، التصور الذي يتسم بغاية الدقة والإتقان.

و- أقسام الشعر عند حازم القرطاجني

ينقسم الشعراء عند حازم القرطاجني إلى: الجد والهزل.

١ - "فأما طريقة الجدّ فهي مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك، ويجب في هذه الطريقة أن يُتجنّب الهزل، أي الساقط والمولد من الألفاظ، ويعتمد على العربي المحض الصريح في الفصاحة، ويعتمد فيها من المعاني ما لا يشين ذكره ولا يسقط من مروءة المتكلم، ويُتحرّى فيها المتانة والرصانة.

٢ - وأما طريقة الهزل فإنها مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مجون وسخف بنزاع الهمة والهوى إلى ذلك.

وفي هذه الطريقة الهزلية، فقد تقتبس شيئاً من الطريقة الجدية (بغير العكس)، وقد قال سقراط: "حكاية الهزل لذيذة سخيف أهلها، وحكاية الجدّ مكروهة، وحكاية الممزوج منهما معتدل، ولا يقبل شاعر يحكي كل جنس، بل نطرده وندفع ملاحته وطيبه، ونقبل على شاعرنا الذي يسلك مسلك الجد فقط".

ز- تقسيم الأغراض الشعرية نظرية حازم القرطاجني:

بنى حازم القرطاجني نظريته في تقسيم الأغراض على أساس النظر إلى البواعث، فلذلك لم يرتض تقسيمات المتقدمين، كما سبق بيان ذلك، وجاء منهجه هذا متسماً بالدقة المتناهية، التي نتجت عن سعة ثقافته وعمق اطلاعه، وبفضل هذه الثقافة نراه يخطو خطوة بعيدة أمام من قبله من النقاد في ربط الأغراض بالانفعالات النفسية التي تبعث على قول الشعر، ومن ثم تقسيم الشعر بالنظر إلى تلك البواعث.

وأشار حازم في مستهل حديثه عن تقسيم الأغراض الشعرية إلى أقوال النقاد السابقين حول هذه القضية، وأورد اختلافهم في ذلك.

فقسم بعضهم الأغراض إلى ستة أقسام: "مدح وهجاء ونسيب ورثاء ووصف وتشبيه"، وحصرها بعض آخر إلى خمسة، حيث أرجع التشبيه إلى معنى الوصف.

ولم يعجب حازم بهذا التقسيم، وألزم أصحاب هذا الرأي أن يدخلوا قسم الوصف في الذم أو الحمد، فذلك متعين وإن لم تكن تلك الأوصاف مما يحتاج الناس إلى حمد موصوفاتها أو ذمها؛ إذ "في كل الحالات يصل إليها من ذلك شيء".

ثم استأنف في إيراد أقوال النقاد في الأغراض، فهي عند فريق أربعة: "الرغبة والرهبة والطرب والغضب"، وعند فريق آخر: "الشعر كله في الحقيقة راجع إلى معنى الرغبة والرهبة".

وبعد هذا السرد القصير بدأ حازم في بيان طريقته الخاصة في هذا التقسيم وقال: "وهذه التقسيمات كلها غير صحيحة لكون كل قسم منها لا يخلو من أن يكون فيه نقص أو تداخل، وأنا أذكر الوجه الصحيح والمأخذ المستقيم في القسمة التي لا نقص فيها ولا تداخل".

وهو يطلب بهذا مبدأ الوحدة الذي طلبه قدامة عندما جعل أغراض الشعر نابعة من منبع واحد أخلاقي هو الفضيلة (وما يناقضها) وأنها تتجسم في صورة واحدة هي المدح (وما يناقضه)، لكنه سلك طريقاً جديدة في تصوير هذه الوحدة فقال: "إن الأقاويل الشعرية لما كان القصد بها استجلاب المنافع واستدفاع المضار ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد بما يخيل لها فيه من خير أو شر، وكانت الأشياء التي يرى أنها خيرات أو شرور منها ما حصل ومنها ما لم يحصل.

أ- وكان حصول ما من شأنه أن يطلب يسمى ظفراً، وفوته في مظنّته الحصول يسمّى إخفاقاً.

ب- وكان حصول ما كان من شأنه أن يُهرب عنه يسمى أذاة أو رزءاً، وكفايته في مظنة الحصول تسمى نجاة، سمي القول في الظفر والنجاة تهنئة.

ج- وسمي القول بالإخفاق إن قصد تسلية النفس عنه تأسياً.

د- وإن قصد تحسرها تأسُّفاً.

هـ- وسمي القول في الرزء إن قصد استدعاء الجلد على ذلك تعزية.

و- وإن قصد استدعاء الجزع من ذلك سمي تفجيعاً.

ز- فإن كان المظفور به على يدي قاصد للنفع جوزي على ذلك بالذكر الجميل وسمي ذلك مديحاً.

ح- وإن كان الضار على يدي قاصد لذلك فأدى ذلك إلى ذكر قبيح سمي ذلك هجاء.

ط- وإذا كان الرزء بفقد شيء فندب ذلك سمي ذلك رثاء.

وعَقِبَ هذا قسم المنافع إلى:

١ - ما يكون بالنسبة والملاءمة.

٢- وإلى ما يكون بالفعل والاعتماد.

أ- فما تعلق من تلك المنافع بهوى النفس سمي نسيباً.

ب- وما كان متعلقاً بالأشياء المستدعية رضا النفس سمي مديحاً.

ج- وإذا تعلق الذكر القبيح بالأشياء المنافرة لهوى النفس والأشياء المباعدة رضاها فكلاهما داخل في قسم الهجاء.

ولما أورد الأقسام الفرعية للشعر مثل التوبيخ والإعتاب، توجه إلى تقسيم "الأقوال فيما حصل مما شأنه أن يطلب أو يهرب عنه إلى:

١ - تهانٍ وما معها.

٢ - وتعازٍ وما معها.

٣- ومدائحٍ وما معها".

وبعد التقسيمات الكثيرة الصعبة، عاد حازم إلى ذكر هذه الأغراض الأربعة مديحاً أنها "أمهات الطرق الشعرية"، وأن كل ذلك يرجع إلى ما سببه الارتياح أو الاكتراث أو هما معاً.

ولحازم في تقسيم أغراض الشعر مكانة خاصة بين سائر النقاد وفضل سبق إلى ناحية من هذه القضية، فبتتبع كل المحاولات لتقسيم الشعر نلاحظ أنها تنصب كلها على جانب الشكل والصورة النهائية للشعر، ولم تتعرض للبواعث إلى الأقوال الشعرية، والذي دفعه إلى ذلك هو فكرته عن التخييل، **فمعاني الشعر عنده** "ترجع إلى:

١ - وصف أحوال الأمور المحركة إلى القول.

٢ - أو إلى وصف أحوال المتحركين لها.

٣- أو إلى وصف أحوال المحركات والمحركين معاً.

٤- وأحسن القول وأكمله ما اجتمع فيه وصف لحالين".

ومضى في هذا الاتجاه وبين أغراض الشعر من ناحية البواعث على قولها؛ فعلى سبيل المثال، "الارتياح للأمر السار إذا كان صادراً عن قاصد لذلك أرضى فحرّك إلى المدح...".

ح- علاقة الأوزان بالأغراض الشعرية عند حازم القرطاجني:

يقول حازم القرطاجني: إن للأغراض الشعرية علاقة في التلاؤم مع الأوزان:

١- فالمقاصد التي يقصد فيها إظهار الشجو والاكتئاب، فقد تليق بها الأعاريض التي فيها حنان ورقة.

٢- كل غرض من أغراض الشعر يوجب نوعاً معيّناً من الأوزان.

٣- إذا قصد الشاعر الفخر استدعى ذلك الأوزان الفخمة الباهية الرصينة.

٤- وإذا كان قصده هزلياً أو استخفافياً أو نحو ذلك جاء بما يناسبه "من الأوزان الطائشة القليلة البهاء".

٥- العروض الطويل تجد فيه أبداً بهاء وقوة.

٦- وتجد للبسيط بساطة وطلاوة.

٧- وتجد للكامل جزالة وحسن اطِّراد.

٨- وللخفيف جزالة ورشاقة.

٩- وللمتقارب بساطة وسهولة.

١٠- وللمديد رقة ولياناً مع رشاقة.

١١- وللرمل لياناً وسهولة.

١٢- ولما كان في المديد والرمل من اللين كان أليق بالرثاء، وما جرى مجراه منهما بغير ذلك من أغراض الشعر.

١٣- فالشاعر القوي إذا نظم شعراً على الوافر "اعتدل كلامه وزال عنه ما يوجد فيه مع غيره من الأعاريض القوية من قوة العارضة وصلابة النبع"، والمثال على ذلك أبو العلاء

المعري، "فإنه إذا سلك الطويل توعر في كثير من نظمه حتى يتبغّض، وإذا سلك الوافر اعتدل كلامه وزال عنه التوعر".

١٤- ما ذكرته من تخييل الأغراض بالأوزان قد نبه عليه ابن سينا في غير موضع من كتبه، ومن ذلك قوله في الشفاء، في تعديد الأمور التي تجعل القول مخيّلاً:

ط- والأمور التي تجعل القول مخيلاً:

١- أمور تتعلق بزمان القول وعدد زمانه وهو الوزن.

٢- أمور تتعلق بالمسموع من القول.

٣- أمور تتعلق بالمفهوم من القول.

٤- أمور تتردد بين المسموع والمفهوم.

ي- نظم الشعر:

النظم صناعة آلتها الطبع، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها؛ فإذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام بحسبه عملاً، وكان النفوذ في مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه إنما يكونان بقوى فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أبكار الشعراء.

و"اعلم أن خير الشعر ما صدر عن فكر وَلِع بالفن"، بأن يكون لدى الشاعر صدق الإحساس بالتجربة الشعرية، "ولهذا كان أفضل النسيب ما صدر عن سجية نفس شجية"، ويجعل الخيال قادراً على تعويض تلك التجربة؛ والخيال إنما يتأتى عن طريق الثقافة ودراسة طرق السابقين حتى تصبح للشاعر "قوة على التشبه".

ك- والشعراء في هذه القوة قسمان:

١- فأما من ينسحب تأثير تلك القوة على جميع كلامه أو أكثره فهم الذين لا تحتاج فيهم تلك القوة إلى معاونة من أمر خارج عن الذهن من الأمور الباعثة على قول الشعر، لتوفير تلك القوة فيهم على كل حال، ومن أئمة هذا الصنف: الشريف ومهيار وابن خفاجة.

٢- وأما من لا ينسحب تأثير تلك القوة التشبيهية إلا على الأقلّ من كلامه فهم الذين تحتاج تلك القوة فيهم إلى معاونة بالأمور الباعثة على قول الشعر.

ل- القوى التي تحتاج إليها الشاعر لنظم الشعر:

١- القوة على التشبيه فيما لا يجري على السجية ولا يصدر عن قريحة بما يجري على السجية ويصدر عن قريحة.

٢- القوة على تصور كليات الشعر والمقاصد الواقعة فيها والمعاني الواقعة في تلك المقاصد.

٣- القوة على تصور صورة للقصيدة تكون بها أحسن ما يمكن (من حيث توالي أجزائها).

٤- القوة على تخيل المعاني بالشعور بها.

٥- القوة على ملاحظة الوجوه التي يقع بها التناسب بين المعاني.

٦- القوة على التهدي إلى العبارات الحسنة الوضع والدلالة على تلك المعاني.

٧- القوة على التخيّل في تسيير تلك العبارات متّزنة.

٨- القوة على الالتفات من حيّز إلى حيّز والخروج منه إليه والتوصل به إليه.

٩- القوة على تحسين وصل بعض الفصول ببعض والأبيات ببعضها.

١٠- القوة المائزة حسنَ الكلام من قبيحه بالنظر إلى نفس الكلام وموضعه.

م- مراتب الشعراء:

١- الذي اجتمعت في هذه القوى فهو الشاعر في الحقيقة أو الشاعر الكامل، وهذه الطائفة هم الشعراء الذين يقوون على تصوّر كليات المقولات.

٢- الذين حصل لهم قسط متوسط من هذه القوى وهم الذين تغلب فيهم الدربة على الخيال.

٣- الذين حصل لهم قسط قليل من تلك القوى، وهم أدعياء الشعراء المتلصّصون الغيورون على معاني غيرهم، "وهم شر العالم نفوساً وأسقطهم همماً وهم النقلة للألفاظ والمعاني على صورها في الموضع المنزل منه من غير أن يغيّروا في ذلك ما يعتدّ به".

ن- وصية حازم القرطاجني للشعراء:

إذا أراد الشاعر نظم الشعر والزمان مُنْسَجِمٌ له، فعليه:

١ - أن يأخذ بوصية أبي تمام للبحتري.

٢ - ومن ثم يحضر الشاعر مقصده في خياله وذهنه ويتخيل المعاني التي هي عمدة.

٣- ثم يقسمها في فصول مرتبة، مختاراً الوزن المناسب.

٤ - وعلى الشاعر أن يتجنب الحالات النفسية التي تقف بينه وبين نظم الشعر كالكسل في الخاطر أو التشتت فيه أو الاستيلاء السهو عليه أو تكليفه لمواد العبارات (لأنها قليلة).

٥ - وأن يحذر حين يصوغ الشعر من أن يكون قدر الوزن فوق قدر المعنى أو العكس.

٦ - أو يكون المعنى دقيقاً داعياً إلى إيراد العبارة عنه على صورة يقلّ ورودها عفواً.

٧- أو يكون المعنى من المعاني التي يقلّ التعبير عنها في اللسان، فلا يتمكن الخاطر من إيرادها موزونة إلا بعد كدّ وتعب.

٨- وأما بالنسبة إلى العبارة، فيجب أن يراعي الشاعر فيها:

أ- حسن التأليف وتلاؤمه (في الحروف والكلمات).

ب- والتسهل في العبارات وترك التكلف.

ت- وإيثار حسن الوضع والمبنى.

ث- وتجنب ما يقبح من ذلك.

ج- وتجنب الزيادة والحشف.

ح- كما أن عليه اختيار العبارات المستعذبة الجزلة.

ص- أقسام الشعراء بالنسبة للنظم:

وينقسم الشعراء بالنظر إلى عملية النظم إلى قسمين:

١ - شاعر مروٍّ، الذي يحتاج لروية قبل أن ينظم وحال النظم وعند الفراغ، وبعد الفراغ من النظم، ومعنى ذلك أنه يعتمد على قوة التخييل والقوة الناظمة وقوة الملاحظة وقوة

الاستقصاء، وقد تُحدث الروية تغييراً في العبارة أو معنى لكي لا يـواطئ الـشاعر مـن سـبقه، و"طلباً للغاية القصوى من الإبداع".

٢- شاعر مرتجل، حيث تكون أحسن حـالات شـعره أن يـأتي مستقـصى مقـترن المعـاني، وأسوأ حالاته أن يكون شعره غير مستقصى ولا مقترن.

ع- اختلاف الشعر عند حازم:

١- الشعر يختلف باختلاف أنماطه وطرقه، فشاعر يحسن في النمط الذي يقصد فيه الجزالـة والمتانة من الشعر، ولا يحسن طريقة الرقة واللطافة؛ وآخـر يحـسن في النـسيب دون غـيره مـن الأغراض.

٢- الشعر يختلف بحسب اختلاف الأزمان وما فيها من الأمور يولع الناس بالتعلق بهـا في أشعارهم، فهناك زمن تشيع فيه وصف الطبيعة وما ناسب ذلك ويجيـدون فيـه، وزمـان آخـر يشيع فيه وصف الحروب أو الغارات، أو نيران القرى وإطعام الضيوف.

٣- الشعر يختلف بحسب الأمكنة وما يوجد فيها مما شـأنه أن يوصـف؛ فـبعض الـشعراء يحسن في وصف الوحش (البادية) بينما يحسن البعض الآخر وصف الروض أو (الحاضرة).

٤- الشعر يختلف بحسب اختلاف أحوال القـائلين وأحـوال مـا يتعرّضـون للقـول فيـه، فواحد يحسن الفخر، والآخر يحسن المدح.

٥- الشعر يختلف بحسب اختلاف الأشياء فيما يليق بها من الأوصاف والمعاني.

٦- الشعر يختلف بحسب ما يختص به كل أمة من اللغة المتعارفة عندها.

ف- متى نثني على الشاعر:

١- يجب الثناء على الشاعر إذا أحسن في وصف ما ليس معتاداً لديه.

٢- ولا مألوفاً في مكانه.

٣- ولا هو من طريقه.

٤- ولا مما احتنك فيه.

٥- ولا ممّا ألجأته إليه الضرورة.

٦- إذا كان متكلماً باللغات التي يستعملها في كلامه.

٧- وبالجملة: إن الشاعر إذا أخذ في مأخذ ليس ممّا أَلِفَه ولا اعتاده، فساوى في الإحسان فيه من قد ألفه واعتاده، كان قد أربى عليه في الفضل إرباء كثيراً.

٨- إذا اجتمع الشاعران في غرض ووزن وقافية، يحكم بالتفضيل للذي قال في الغرض الذي لم يألفه على الذي قال في الغرض الذي ألفه وإن تساويا في الجودة.

س- رأي حازم في المفاضلة بين جماهير شعراء:

١- "فأما المفاضلة بين جماهير شعراء توفّرت لهم الأسباب المهيّئة لقول الشعر والأسباب الباعثة على ذلك، وبين جماهير شعراء لم تتوفّر لهم الأسباب المهيئة ولا البواعث، فلا يجب أن نتوقّف فيها بل:

٢- نحكم حكماً جزماً أن الذين توفّرت لهم الأسباب المهيئة والباعثة أشعر من الذين لم تتوفّر لهم.

٣- وذلك كما نفضّل شعراء العراق على شعراء مصر.

٤- ولا نتوقّف في ذلك.

٥- إذ لا مناسبة بين الفريقين في الإحسان في ذلك.

٦- كما لا تناسب بينهم في توفر الأسباب.

٧- وإن كان أكثر تلك الأسباب أيضاً في الصقع العراقي قد تغير عما كان عليه في الزمان المتقدّم.

ش- معاني الشعر:

جعل حازم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، منبع الشعر واحداً، حيث إنه وليد حركات النفس، وذلك رغبة منه في تطبيق الوحدة الأرسطية في عمله النقدي، هذه الحركات النفسية تشتمل على ثلاثة عناصر:

١- العوامل المحركة.

٢- المتحركين.

٣- العوامل المتحركة والمتحركين معاً.

فمعاني الشعر، على هذا التقسيم، ترجع إلى:

١ - وصف أحوال الأمور المحرِّكة إلى القول.

٢ - أو إلى وصف أحوال المتحرِّكين لها.

٣- أو إلى وصف أحوال المحرِّكات والمحركين معاً.

٤ - وأحسن القول وأكمله ما اجتمع في وصف الحالين.

ولما كانت الغاية الكبرى من المعاني الشعرية هي إحداث التأثير والانفعال في النفوس الإنسانية بحملها على فعل الشيء أو التجنب منه، فإن أدخل المعاني في الصناعة الشعرية وأعرقها فيها هي ما اشتدت علقته بأغراض الإنسان واشتركت فيها نفوس الخاصة والعامة بحكم الفطرة أو العادة.

وأحق هذه المعاني بالتعبير عنها في الأغراض الشعرية هي:

١ - ما كان معروفاً ومؤثراً في آن واحد.

٢ - أو كان مؤثراً بعد معرفته وإدراكه.

٣- وأحسن الأشياء التي تجمع المعرفة والتأثير معاً هي التي فطرت النفوس على استلذاذها أو التألم منها.

٤ - وهذا يعني أن الشعر من هذه الناحية يهتم بأمور ثلاثة:

أ- ما هو مفرح كلقاء الأحبة واجتلاء الروض والماء.

ب- ما هو مفجع كالتفرّق والتوحش.

ج- وما هو مستطاب كلذة قد انصرفت فيلتذ الإنسان لتخيلها ويتألم لفقدها، فهذه الأمور تتصوّر بالفطرة، ولذلك يمكن أن نسميها المتصورات الأصلية، وما كان بخلاف ذلك نسميه بالتصورات الدخيلة، وهي التي لا يوجد لها في فطرة النفوس أثر من فرح أو شجو، وإنما هي مكتسبة، كتلك الأغراض التي لا تقع إلا في العلوم والصناعات والمهن.

وهذه المعاني المعروفة التي لا يحسن إيراده في الشعر:

١ - كالمعاني المتعلقة بصنائع أهل المهن.

٢- وذلك لضعتها.

ومن المعاني التي ليست معروفة عند الجمهور ما يستحسن إيراده في الشعر:

١ - إذا كان مما فطرت النفوس على الحنين إليه.

٢ - أو التألم منه، مثل الأخبار القديمة المستحسنة.

٣- وطرف التاريخ المستغربة.

"والشاعر الحق لا يدرج في شعره إلا المعاني التي تحرِّك الجمهور وتؤثر في النفوس؛ لذلك يمكن القول: إن المعاني العامة في المادة الأصلية للشعر، وهي التي لا يتألف كلام فصيح إلا منها؛ وقد ترد فيها معان أوائل (مقصودة في نفسها) أو معان ثوان (أي استدلالات تقوي المعني الأوائل)؛ ولذلك كانت خير التصورات ما صلحت لإيراد النوعين من هذه المعاني متعقبين، وذلك لا يكون أيضاً إلا بالعودة إلى المعاني العامة القائمة في أصل الفطرة الإنسانية".

غ- قضية السرقة الشعرية عند حازم:

قسّم القرطاجني المعاني من حيث كونها قديمة متداولة وجديدة مخترعة إلى ثلاثة أقسام:

١ - هو ما بتداوله الناس من تشبيه الشجاع بالأسد والكريم بالغمام، ومثل هذا لا تدخله السرقة لأن معانيه ثابتة في وجدان الناس، "من قسمة في خواطرهم سواء ولا فضل فيها لأحد على أحد إلا بحسن تأليف اللفظ، فإذا تساوى تأليفاً الشاعرين في ذلك فإنه يسمى الاشتراك".

٢ - المعاني التي قلّت في أنفسها أو بالإضافة إلى غيرها، ويجوز للشاعر أن يتعرض له بشروط:

أ- "منها أن يركّب الشاعر على المعنى معنى آخر.

ب- ومنها أن يزيد عليه زيادة حسنة.

ج- ومنها أن ينقله إلى موضع أحق به من الموضع الذي هو فيه".

٣- استنباط المعاني؛ "من بلغها فقد بلغ الغاية القصوى من ذلك، لأن ذلك يدل على نفاذ خاطره وتوقّد فكره حيث استنبط معنى غريباً واستخرج من مكامن الشعر سراً لطيفاً"، "وهذا النوع المبتكر لا يمكن أن يسرق وإنما يتحاماه الشعراء لضيق المجال في إخفاء السرقة".

وهذه المعاني وأنواعها تجعل الشعراء على أربع مراتب بالنظر إلى وجود هذه المعاني في أشعارهم، وهي:

١- اختراع، "فالاختراع هو الغاية في الاستحسان.

٢- واستحقاق، والاستحقاق تال له.

٣- وشركة، والشركة منها ما يساوي الآخر فيه الأول فهذا لا عيب فيه، ومنها ما ينحط فيه الآخر عن الأول فهذا معيب.

٤- وسرقة، والسرقة كلها معيبة وإن كان بعضها أشد قبحاً من بعض".

ظ- قضية التخييل والمحاكاة عند حازم القرطاجني:

أول من استعمل كلمة "التخييل" هو الفيلسوف الفارابي وابن سينا تفسيراً لكلمة المحاكاة التي وردت في ترجمة متى، وقد تأثر الفيلسوفان في وضع هذا الاصطلاح وتحديد معناه بنواح ثلاث من فلسفة أرسطو:

١- من حيث "المنطق"، فقد عدَّ المنطقيون العرب الشعر مؤلفاً من مقدمات مخيلة.

٢- من حيث علم النفس، فالشعر يخاطب الفكر، ويخاطب المخيلة فينبه صور المحسوسات المختزنة فيها؛ والتخييل يعتمد على المحسوسات وثيقة الاتصال بالانفعالات.

٣- ردَّ العرب التخييل إلى "العلة الصورية" للشعر، وإلى المعاني والأفكار على أنها علته المادية، ومن هنا أصبح التخييل هو الحقيقة الذاتية التي تميزه عن غيره من الكلام مما ليس بشعر، وجاز للشاعر أن يستخدم التصديقات الخطابية إذا صاغها في عبارة مخيلة، " فالشاعر أو الأديب: مرآة عصره، والفن يعكس واقع الحياة ممتزجاً برغبات الإنسان وآماله ومعتقداته،

ومحاكاة الفن للحقيقة عند أرسطو لا تكون محاكاة للعالم المحسوس، بل تكون محاكاة لدنيا الحياة العقلية داخل الإنسان، فأرسطو يجعل المحاكاة قوام الشعر، وهو عنده يشمل الموسيقا والكلام المنظوم.

ويجعل حازم القرطاجني المخيلة من مقومات الشعر تبعاً لأرسطو، حيث قال في تعريف الشعر: "الشعر كلام مخيل موزون..."، ثم إذا نظرنا إلى تعريف هذا العالم للتخييل والمحاكاة نجد أنه يريد بهذين اللفظين ما يريده بهما الفلاسفة المسلمون تماماً، فالتخييل والمحاكاة عنده هما الشيء الواحد، وإن اختلفت جهة التسمية، فالتخييل – كما عرفه بنفسه – هو أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه.

وقسم حازم التخييل (المحاكاة) إلى:

١ – أن التخييل بالنسبة إلى الشعر قسمان:

أ- تخييل ضروري

ب- وتخييل غير ضروري، ولكنه أكيد أو مستحب، وهذا التخييل يقع في الشعر من جهة المعنى، والأسلوب، واللفظ، ومن جهة النظم والوزن.

وكذلك قسّم المحاكاة من حيث الغاية إلى:

١ – محاكاة تحسين.

٢ – ومحاكاة تقبيح.

٣- ومحاكاة مطابقة.

وإن الرسام أو الشاعر قد ينقل الشيء كما هو أو أدنى مما هو أو كما يجب أن يكون، وطرق تعلق تحسين المحاكاة وتقبيحها بالشيء أو فعله أو اعتقاده من أربع جهات:

١ – الدين.

٢ – العقل.

٣- المروءة (الخلق).

٤ – المصلحة (ويسميها القرطاجني الحظ العاجل)، وولّد من متعلقات التحسين والتقبيح أربع وعشرين صورة.

وفي التاريخ استقصاء أجزاء الخبر المحاكى وموالاتها على حدّ ما انتظمت عليه حال وقوعها، كقول الأعشى:

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... في جَحْفَلٍ كسواد الليل جرّار

إذ سامه خِطَّتي خَسْفٍ، فقال له: ... قل ما تشاء فإني سامع حار

فقال: غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار

فشك غير طويل، ثم قال له: ... اقتل أسيرك إني مانع جاري

فهذه محاكاة تامة؛ ولو أخلّ بذكر بعض أجزاء هذه الحكاية لكانت ناقصة، ولو لم يورد ذكرها إلا إجمالاً لم تكن محاكاة ولك إحالة محضة.

وعلل حازم القرطاجني "إن منظر الشمعة أو المصباح ربما كان جميلاً، ولكن انعكاس صورة الشمعة أو المصباح على صفحة مائية صافية أجمل بكثير من الشيئين في الواقع.

١ – أولاً: لحدوث اقترانات جديدة (بين الضوء وصفحة الماء).

٢ – وثانياً: لأن هذا الصورة أقل تكراراً من رؤية الشمعة نفسها، والنفس إلى ذلك أميل ذهاباً من الاستطراف".

لقد استوحى حازم قواعده من الشعر العربي، ولاسيما من الشعر الأندلسي الذي اهتم بالوصف اهتماماً كبيراً، "ولم يتعسّف في تطبيق هذه القواعد على الشعر العربي، بل حاول أن يطبق الأصل الأرسطي في "المحاكاة" على الشعر العربي، مؤمناً بقيمة هذا الشعر.

ز- قضية الصدق والكذب في رأي حازم القرطاجني:

١ – ليس من الضروري عند حازم أن تكون الأقاويل الشعرية صادقة أو كاذبة أبداً.

٢ – الذي تقوم به الصناعة الشعرية، وهو التخييل، غير مناقض لواحد من الطرفين (الصدق والكذب).

٣- قد تكون مقدمات الشعر صادقة وتكون كاذبة، وليس يعد شعراً من حيث هو صدق ولا من حيث هو كذب، بل من حيث هو كلام مخيل.

٤- هناك فرق بين الأسلوب الشعري والأسلوب الخطابي من حيث وقوع الصدق والكذب فيهما:

أ- "فالشعر قد تكون مقدماته يقينية ومشهورة ومظنونة.

ب- الشعر يفارق البرهان والجدل والخطابة بما فيه من التخييل والمحاكاة.

٥- الشاعر قد يرجع إلى الكذب إذا لم يعوزه الكلام الصادق المشتهر في مقصده. والشعر من زاوية الصدق ينقسم إلى قسمين:

١- ما هو أحسن في معناه.

٢- وما يكون هناك أحسن منه.

والشعر من زاوية القبيح يقسم إلى قسمين:

١- ما هو أقبح في معناه.

٢- وما قد يوجد أقبح منه.

إن الشعر إنما ينظر إليه من ناحية تأثيره وقدرته على إحداث الانفعال النفساني، فقد يكون صادقاً والصدق فيه عاجز عن إحداث الانفعال، وحينئذ يكون الكاذب القادر على إحداث الانفعال خيراً منه.

ح- مذهب المطابقة والمقابلة والتقسيم والتفريع عند حازم:

١- تحدث حازم عن الطباق وخالف قدامة في تسميته بالتكافؤ.

٢- وقسّم المطابقة إلى محضة وغير محضة، كمقابلة الأبيض بالأحمر، ولم يخف حازم عند تعرضه لهذه المسائل إعجابه ببيت المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

فهذا البيت قد اشتمل على صفتي المطابقة: المحضة وغير المحضة.

٣- ورأى أنه مما يجري مجرى المطابقة تخالف وضع الألفاظ لتخالفٍ في وضع المعاني مثل:

أنـــــت للـــــمال إذا أصـــــلحته فـــــإذا أنفقتـــــه فالمـــــال لـــــك

٤- وتناول المقابلة مُورِداً في ذلك أقوال قدامة وابن سنان الخفاجي واستشهاداتهم، وفرّق بين المقابلة الصحيحة والمقابلة الفاسدة، ومما تعرض لـه مـن هـذه المسائل الجزئيـة: التقسيم وضروبه، والتفسير وأنواعه، وأوجب أن يتحرّى في التفسير مطابقة المفسِّر المفسَّر، والمثال على ما جاء فيه التفسير غير مطابق للمفسَّر قول بعضهم:

فيـــا أيهـــا الحَـــيرَان في ظلـــم الـــدجى ومـــن خـــاف أن يلقـــاه بغـــي مـــن العـــدا

تعـــالَ إليـــه تلـــق مـــن نـــور وجهـــه ضـــياء ومـــن كفيـــه بحـــراً مـــن النـــدى

قال: "فمقابلة ما في عجز البيت الأول بما في عجز الثاني غير صحيحة، والتسامح في إيراد التفسير على مثل هذا مُخِلٌّ بوضع المعاني ومُذْهِب لطلاوة الكلام، فينبغي أن يُتحرّز منه وألا يتسامح في مثله".

٥- ثمّ تحدث عن التفريع، فعرّفه بأنه "أن يصف الشاعر شيئاً بوصف ما، ثم يلتفت إلى شيء آخر يوصف بصفة مماثلة، أو مشابهة، أو مخالفة لما يوصف به الأول، ليستدرج من أحدهما إلى الآخر، ويستطرد به إليه على جهة تشبيه أو مفاضلة أو التفات أو غير ذلك ممّا يناسب به بين بعض المعاني وبعض، فيكون ذكر الثاني كالفرع عن ذكر الأول"، ومثّل على ذلك بقول الكميت:

أحلامكـــم لـــسقام الجهـــل شـــافية كـــما دمـــاؤكم يـــشفى بهـــا الكَلَـــب

وطلب أن تكون النُّقلة بين المعنيين متناسبة، وأن يكون بينهما اتصال وحسن اقتران وإلا كان حشواً، والتفريع يحسن في البيت الواحد وفي غير كثرة حتى لا ينقلب إلى عكس المقصود منه.

٣- ابن رشد: الأقاويل الشعرية:

أ- يقول ابن رشد في ((تلخيص كتاب أرسطو في الشعر)): "الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيلة" ثم يشرح مجموعة من الأفكار منها:

أولاً: أصناف (التخيل والتشبيه ثلاثة: اثنان بسيطان وثالث مركب منهما، أما الاثنان البسيطان: فأحدهما تشبيه شيء بشيء وتمثيله به (حروف التشبيه)، وإما أخذ التشبيه بعينه بدل التشبيه وهو الذي يسمى الإبدال في هذه الصناعة، إلا أن الكنايات هي إبدالات من لواحق الشيء، والاستعارة هي إبدال من مناسبة، وأما القسم الثاني فهو أن يبدل التشبيه، والصنف الثالث من الأقاويل هو المركب من هذين.

ثانياً: توجد المحاكاة بالأقاويل: بالطبع والتخييل، والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء: من قبل النغمة المتفقة، ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه، وليس في أشعار العرب لحن وإنما هي: إما الوزن فقط وإما الوزن والمحاكاة معاً فيها، وكثيراً ما يوجد من الأقاويل التي تسمى أشعاراً ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط، وأما تلك فهي أن تسمى أقاويل، أحرى منها أن تسمى شعراً.

ثالثاً: إن النوع الذي يسمونه ((النسيب)) إنما هو حث على الفسوق، ولذلك ينبغي أن يتجنبه الولدان، ويؤدبون أشعارهم بما يحث فيه إلى الشجاعة والكرم (العرب)، أما اليونانيون فيقولون: إن أكثر ذلك شعر موجه نحو الفضيلة أو الكف عن الرذيلة، أو ما يفيد أدباً من الآداب أو معرفة من المعارف.

رابعاً: صناعة المديح (التراجيديا)، يكون تعلمها في الأعاريض الطويلة لا في القصيرة، وصناعة المديح هو أنها تشبيه ومحاكاة للعمل الإرادي الفاضل الكامل الذي له قوة كلية في الأمور الفاضلة، محاكاة تنفعل لها النفوس انفعالا معتدلاً بما يولد فيها من الرحمة والخوف، وهذه المحاكاة بالقول تكمل إذ اقرن بها اللحن والوزن، فأول أجزاء صناعة المديح الشعري في العمل هو أن تحصي المعاني الشريفة التي بها يكون التخييل، ثم تكسى تلك المعاني اللحن والوزن الملائمين للشيء المقول فيه، وعمل اللحن في الشعر هو أنه يعد النفس لقبول خيال الشيء الذي يقصد تخييله.

قال: ((وقد يجب أن تكون أجزاء صناعة المديح ستة: الأقاويل الخرافية والعادات والوزن والاعتقادات والنظر واللحن)).

خامساً: ينبغي أن تكون صناعة المديح مستوفية لغاية فعلها:

١ - مما يحسن به قوام الشعر ألا يطول فيه بذكر الأشياء الكثيرة التي تعرض للشيء الواحد المقصود بالشعر، إن الشيء الواحد تعرض له أشياء كثيرة، وكذلك يوجد للشيء الواحد المشار إليه أفعال كثيرة.

٢ - يجب أن تكون الصناعة تشبه بالطبيعة، أعني أن تكون إنما تفعل معي ما تفعله من أجل غرض واحد وغاية واحدة.

٣ - المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وأكثر ما يجب أن يتم في صناعة المديح أن تكون الأشياء المحاكيات أموراً موجودة، لا أمور لها أسماء مخترعة، فإن المديح إنما يتوجه نحو التحريك إلى الأفعال الإرادية، فإذا كانت الأفعال ممكنة، كان الإقناع فيها أكثر وقوعاً أعني التصديق الشعري الذي يحرك النفس إلى الطلب أو الهرب.

٤ - كثير من الأقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة غير المتفننة.

٥ - يجب أن تكون خواتم الأشعار والقصائد تدل بإجمال على ما تقدم ذكره من العوائد التي وقع المدح بها.

٦ - يجب على الشاعر أن يلزم في تخيلاته ومحاكياته الأشياء التي جرت العادة باستعمالها في التشبيه، وألا يتعدى في ذلك طريقة الشعر.

- طريقة الشعراء في قصائدهم:

١ - من الشعراء من يجيد القول في القصائد المطولة.

٢ - ومنهم من يجيد الأشعار القصار والقصائد القصيرة، وهي التي تسمى المقطعات.

والسبب في ذلك أنه لما كان الشاعر المجيد هو الذي يصف كل شيء بخواصه وعلى كنهه، وكانت هذه الأشياء تختلف بالكثرة والقلة في شيء من الأشياء الموصوفة وجب أن يكون التخييل الفاضل هو الذي لا يتجاوز خواص الشيء ولا حقيقتها.

الباب الثلاثون
أعلام النقد الأدبي الأندلسي
أولاً- حازم القرطاجني

أ- حياته ونشأته:

ولد أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن القرطاجني عام ٦٠٨/ ١٢١١ بمدينة قرطاجنة من سواحل كورة تدمير شرقي الأندلس، عاش في طفولته وشبابه عيشاً رغداً، حيث كان أبوه ذا مكانة عالية في قرطاجنة، متولياً فيها خطة القضاء حتى وفاته سنة ٦٣٧/ ١٢٣٤، بدأ حازم، ككل الأطفال في عصره، بحفظ القرآن، وتخرج في قراءته على شيوخ أجلاء من قراء بلده، وكان لوالده دور مشاهد في تكوين شخصيته العلمية، حيث كان معلمه الأول، وموجهه لمعرفة العربية وتعلم قواعدها، ورائده في الأخذ بأطراف العلوم الفقهية والحديثية.

ولما يفع حازم أقبل على دراسة العلوم الشرعية واللغوية، وكان ذلك سبباً في ترداده المستمر على مرسية القريبة للأخذ عن العلماء مثل الطرسوني والعروضي، "وهناك درس كثيراً من أمهات الكتب حتى فاق نظراءه، واكتملت عناصر ثقافته فكان فقيهاً مالكي المذهب كوالده، نحوياً بصرياً كعامة علماء الأندلس، حافظاً للحديث، راوية للأخبار والأدب، شاعراً.

ولم يقتصر حازم على ذلك، بل حرص على الاستزادة من المعرفة والأخذ عن أعلام عصره المقيمين بجنوبي الجزيرة، وسافر في سبيل طلب العلم إلى غرناطة وإشبيلية، حتى جمع كثيراً من الإجازات والأسانيد، واتصل آخر الأمر بشيخه الجليل عمدة الحديث والعربية أبي علي ابن الشلوبين.

ولعل شيخه الشلوبين لاحظ فيه استعداداً للأخذ بالعلوم العقلية، فلم يجعل منه راوية كابن الأبار، أو لغوياً نحوياً فقط، فيقتصر على تدريس كتاب سيبويه، بل وجهه إلى مطالعة كتب الفلسفة الهيلينية، وأشار له بدراسة كتب المنطق والخطابة والشعر.

وأعجب حازم بسعة اطلاع أستاذه فأقبل على دراسة ما أشار عليه به من مصنفات شيخه ابن رشد، وكتب غيره من الفلاسفة مثل الفارابي وابن سينا، وذكر السيوطي أن عدد شيوخه بلغ ألفاً، ولكننا لا نجد في تلك المصادر من ذُكر باسمه غير الطرسوني والعروضي والشلوبين، وانعكست هذه المؤثرات – من سعة الاطلاع، والأخذ عن أعلام أفذاذ – على شخصية حازم القرطاجني، حيث تزيّن بكمّ هائل من العلوم اللسانية والحديثية والفقهية، وأورد السيوطي في ذلك أقوال بعض معاصريه حيث ذكر بعد اسمه ونسبه أنه "شيخ البلاغة والأدب".

قال أبو حيان: هو أوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان، ونقل أيضاً عن ابن رشيد قوله: "حبر البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة، لا نعلم أحداً ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم؛ من منقول ومبتدع، وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل روايتها، أميراً في الشرق والغرب، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها، فهو حماد راويتها، وحمال أوقارها، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط، ويضرب بسهم في العقليات، والدراية أغلب عليه من الرواية"، وأورد هذا القول، كذلك، المقري في "أزهار الرياض" عند ترجمته لحازم القرطاجني.

ب- رحيله إلى تونس:

اضطرّ حازم القرطاجني إلى مفارقة قرطاجنة بعد أن دفن فيها أباه بزمن يسير، يقدره الباحثون بين سنة ٦٣٣ – ٦٣٧/ ١٢٣٦ – ١٢٣٩، ولم يقصد حازم تونس توّاً، بل مكث بمراكش بعض الوقت، واتصل بالسلطان الموحدي الرشيد أبي محمد عبد الواحد بن المأمون، ولابد من الإشارة هنا إلى الحركة الثقافية والعلمية التي لوحظت رغم الاضطرابات والفوضى التي كانت تهز المغرب آنذاك، "وذلك أن الرشيد كان يولي هذا الجانب من الحياة في دولته عناية خاصة"، حيث كان يغدق على العلماء المقيمين بفاس أموالاً كثيرة.

ثم ينتقل حازم إلى تونس فيرد قصر المأمون الحفصي – أبي زكريا الأول، وينشده قصيدته الطويلة التي أعلن فيها بيعته وطلب من الأمير حمايته واستصرخه، كما فعل ذلك ابن الأبار لإنقاذ الأندلس المنكوبة المغلوبة، وكانت له مكانة مرموقة في بلاط المستنصر، كما سبق ذكر

ذلك، قال ابن سعيد واصفاً مكانة حازم: "وهو الآن تحت إحسان المقام الإمامي المستنصري – خلد الله دولته وأبقى على الكل بركته – وقد تشرف بالحضور في المجلس الكريم، وأخذ معه فيما تجذبه المذاكرة من النثير والنظيم".

وبقي حازم يعيش في ظل الحفصيين إلى أن توفاه الله ليلة السبت ٢٤ من رمضان، سنة ٦٨٤ / ٢٣ نوفمبر ١٢٨٥.

ج- - مصنفاته:

١- الآثار الشعرية

– مدائح حازم القرطاجني إلى الأمير الموحدي الرشيد.

– مدائحه لعدد من الأمراء الحفصيين، وله منظومة طويلة، أربت على الألف بيت.

– ومن القصائد التي قالها في هذا الغرض منظومته الطويلة ذات تسعة وتسعين بيتاً، ضمنها الشاعر معلقة امرئ القيس، وصرف معناها إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، مطلعها:

لعينك قل إن زرت أفضل مرسل "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"

– مدح المستنصر بالله الحفصي: ومن أطول مدائح حازم وأجودها وأشهرها قصيدته المقصورة، التي تحتوي على ستة وألف بيت، ذكر في مقدمتها أنه عارض بها مقصورة ابن دريد، وكان داعي نظم هذه القصيدة والغرض فيها هو مدح المستنصر بالله الحفصي على تجديده الحنايا وإيصاله الماء من زغوان إلى تونس، ثم استصراخه والاستنجاد لغزو النصارى وتطهير بلاد الأندلس منهم، وبدأ حازم مقصورته بمقدمة غزلية جرياً على التقاليد العربية، وطالعها:

لله ما قد هجت يا يوم النوى على فؤادي من تباريح الهوى

– ومن أشعاره الصوفية قصيدة مطلعها:

سبحان من سبحته الشهب والفلك والشمس والبدر والإصباح والحلك

– ومن شعره الوصفي، أورد المقري قصيدة وصفية لحازم في اثنين وثلاثين بيتاً مطلعها:

أَدِرِ المُدامـــــة فالنـــــسيم مـــــؤرَّج والـــروض مرقـــوم الـــبرود مـــدبَّجُ

وله في هذا الغرض ست مقاطيع، مما أمكن الوقوف عليه من الشعر.

- ويمثل شعر الغزل عند حازم غرض النسيب، وهذا يبدو في طوالع القصائد، مثل قوله:

ســلطان حــسن عليــه للــصبا علــم إذا رأتــه جيــوش الــصبر تنهــزم

- أما النظم الصناعي البديعي فمنه:

يـــا مَـــن لـــه فكـــرٌ منيـــ ـــر يهتـــدى بـــسراجه

مـــا جمـــعٌ إن تـــأمر بـــه أضـــحى كقولـــك: حاجـــه

- وتنقسم أشعاره الجدية إلى مراث ومدائح.

- المراثي: منها ما قاله في رثاء الإمام الحسين بن علي:

لا تبـــك حزنـــاً ليـــوم بـــين وذكـــر ريـــم بـــرامتين

٢- الآثار النحوية:

- قصيدته النحوية، وتحتوي على تسعة عشر ومئتي بيت، ويظهر أن حازماً أراد بها وضع متن في علوم العربية، وطالعها:

الحمـــد لله مُعـــلي قـــدر مـــن علـــما وجاعـــل العقـــل في ســـبل الهـــدى علـــما

والغـــبن في العلـــم أشـــجى محنـــة علمـــت وأبـــرح النـــاس شـــجواً عـــالمٌ هـــضما

٣- الآثار البلاغية والنقدية:

- كتاب في التجنيس ولابن الرشيد شرح عليه.

- كتاب في العروض وعلم القوافي.

- كتاب المنهاج.

د- مكانة حازم القرطاجني في النقد الأدبي:

١- احتلَّ حازم القرطاجني مكانة سامقة في النقد الأدبي.

٢- كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" من أفضل كتب النقد وأكملها.

٣- القرطاجني كاتب يتمتع بقدر هائل من الثقافة العامة وجوانب علمية متنوعة.

٤- اطلع على آثار النقاد والبلاغيين العرب.

٥- كما أنه اطلع على المؤلفات الهيلينية.

٦- أضاف إلى ذلك ذوقه الأدبي الشعري، الذي اكتسبه من كثرة اطلاعه على أشعار السابقين.

٧- وأدى كل هذه إلى أن وجدنا أنفسنا أمام ناقد بارع، صاحب آراء جديدة لم يسبقه إليها أحد من متقدميه.

٨- ونقده قد اعتمد على دعامتين أساسيتين هما:

أ- الأخذ بالمبادئ الأرسطية في الشعر وأحياناً في الخطابة.

ب- التزم بمبدأ الوحدة في قضية منبع الشعر حين جعله وليد قوة واحدة، وهي حركات النفس.

٩- اعتماده على الذوق الأدبي الرفيع، الصادر عن نفس شاعرة.

١٠- ساعده ذلك على توجيه بعض نظريات أرسطو وتكييفها وفق طبيعة الشعر العربي.

١١- نقد حازم يحمل الشمولية التي لا نجدها عند غيره من أصحاب هذا الفن.

١٢- فقد استطاع أن يجيب على أكثر المشكلات المهمة التي عرضت للنقد الأدبي على مرّ الزمن، على منهج قائم على منطق خاص لصاحبه.

هـ- ما انفرد به حازم

استطاع حازم في مؤلفه أن يعيد بناء النقد الأدبي ويقيمه على أركان سليمة، وقد تفرد حازم بمسائل نقدية وبلاغية كثيرة.

أ- أول ناقد يتحدث عما يسمى اليوم "التجربة الشعرية" المستمدة من الواقع.

ب- ردّ الشعر إلى العوامل النفسية دون غيرها.

ج- يتناول قضايا كتابه بأسلوب حكمي فلسفي دقيق.

د- استعمل كثيراً من المصطلحات الفلسفية، ومصطلحات المناطقة.

هـ- أحدث بعض المصطلحات الخاصة به؛ فمن ذلك التسويم والتحجيل، اللذان ذكرهما عند حديثه عن أقسام القصيدة.

١- فالتسويم هو اعتماد الأغراض الأصلية في رؤوس الفصول.

٢- والتحجيل هو تذييل أواخر الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية.

و- الفرق بينه وبين الاتجاه المشرقي في النقد:

أول ما يميز عمل حازم القرطاجني عن غيره من العلماء أنه:

أ- لم يبحث البلاغة على الطريقة المدرسية مثل ما فعل السكاكي ومن سبقه من البلاغيين.

ب- بخلاف المشارقة بنى نظريته النقدية على أسس منطقية حكمية، وعلى ذوقه النابع عن نفس شاعرة.

ج- مصدر الشعر:

١- عند عبد القاهر الجرجاني: جعل الشعر مربوطاً بالعقل، من جهة المعاني حتى في حالة التخييل، وبذلك قصر التخييل على الحيل العقلية في رفع درجة الشيء المخيل إلى درجة المعقول؛ ومن ثمّ كان الالتذاذ الناشئ عن تذوق الشعر لديه أمراً عقلياً.

٢- عند حازم فإنه استطاع لدقته أن يميز بين الحيل التمويهية والتخييل.

٣- حازم تخطّى الخلاف الشديد والعقيم في قضية الصدق والكذب.

٤- منح التخييل الأهمية القصوى في العمل الشعري.

٥- تجاوز حازم قضية اللفظ والمعنى، والتي شغلت كثيراً من النقاد المشرقيين.

٦- تأثر حازم بقدامة في مواطن ضلل فيها، ولكنه نجح في التخلص فيما أوقعه فيه قدامة.

الباب الحادي والثلاثون

الحكمة العربية والإسلامية

أ- يقول ألفارو:

"إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتفنيدها بل لتعليم أسلوب عربي بليغ، وا أسفاه إنني لا أجد اليوم عالماً يقبل على قراءة الكتب الدينية، والإنجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً أو أدباً ولا لغة إلا العربية، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب فيهم، ويجمعون منها مكتبات ضخمة، تكلفهم الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحتقرون فيه الكتب المسيحية وينبذونها.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الأول

الجدل والحوار الديني في القرآن الكريم

أ- الجدل والحوار سمة إنسانية:

لعل من المفارقات العجيبة التي يشهد لها التاريخ الإنساني الحرية الفكرية التي عاشها أهل الأندلس بكافة أعراقهم، وأديانهم وجنسياتهم حيث كثر الجدل الديني بين معتنقي الديانات السماوية ومن هنا كان أكثر المناظرات صعوبة هي ما يتعلق بالدين أو المذهب، والحق أن الحوار الإسلامي - اليهودي - النصراني هو ما اختاره المسلمون الأوائل في الأندلس كطريق للتعايش السلمي، ومن ثم كطريق للدعوة الدينية، دعوة قائمة على الإقناع والاقتناع، وهو طريق سلكه المتحاورون كمدخل حيوي لتحاول الثقافات المختلفة، وهو بالتالي ما ولد حضارة إسلامية أندلسية، تعتبر بحق أول حضارة إنسانية أرست مبادئ حوار إنسانية.

ب- آيات الجدل والحوار في القرآن الكريم:

جاءت في القرآن الكريم عدة آيات بينات عن الجدل والمحاورة منها:

١- ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [سورة الكهف: ٥٤].

٢- ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [سورة الكهف: ٣٤].

٣- ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [سورة الكهف: ٣٧].

٤- ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: ١].

٥- ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٦].

٦- ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل: ١١١].

٧-﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ [سورة غافر: ٥٦].

٨- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

ج- سمات الجدل والحوار المثمر:

أ- صفة إنسانية لازمة لكل إنسان ولكل جماعة.

ب- وهي سبيل من سبل الحوار بين الناس المخلوقين مختلفين على الدوام.

ج- وطريق من طرق تبادل الثقافات وتلاقحها.

د- وهي سبيل من سبل الدعوة إلى الحق.

يقول الإمام الغزالي في هذا الصدد: إن الجدل منازعة بين متفاوضين لتحقيق الحق وإبطال الباطل، والمتصفح للعدد الكبير من الآيات التي تأتي فيها كلمات الجدل أو الحوار يستخلص أن الجدل القرآني يشترط عناصر أساسية لقيام الجدل واستقامته وهي:

د- عناصر الجدل والحوار:

١- شخصية المتجادلين أو المتحاورين.

٢- الأجواء المواتية للجدل.

٣- المعرفة بموضوع الجدل.

٤- أسلوب الجدل.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الثاني

الجدل والحوار الديني في الأندلس

شهدت الأندلس الجدل الديني بين الديانات السماوية الكبرى(اليهودية والنصرانية والإسلام) في القرون الثلاثة الهجرية (القرن الرابع والخامس والسادس)، وتزعمه طائفة من علماء المسلمين، ومثلهم من رهبان النصارى وأحبار اليهود، والحق يقال إن تلك المجادلات أنتجت علماً كبيراً اتخذ له فيما بعد مسمى "علم مقارنة الأديان" وهو علم لا يزال يلقى قبولاً في أوساط الدوائر الأكاديمية المعاصرة، وإن كان للأندلس الإسلامية أن تفخر بأشياء فلا شك أن الحوار الحضاري الذي تم على أرضها بين الشعوب العرقية والدينية يأتي في مقدمة ما تفخر به وتزهو.

ضم المجتمع الأندلسي طوائف وأعراقاً متعددة وهي التي كونت اللحمة الاجتماعية والثقافية التي ميزت الأندلس عما جاورها من بلدان أوروبية، يأتي على رأس تلك الطوائف:

١- **المسلمون:** وهم خليط من العرب والبربر والموالي من أصواف فارسية وبيزنطية والمولدين.

٢- **النصارى:** وهم خليط أيضاً من سكان البلاد الأصليين من عرقيات أوروبية مثل الصقالبة.

٣- **اليهود:** وهم قلة ولكنهم شكلوا قوة ثقافية وجدلية.

ويأتي على رأس ما ذكرنا المستعربون المسيحيون الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية، ثم يأتي المدجَّنون المسلمون الذين درجت حياتهم تحت سيادة المسيحية.

وكانت الحياة الفكرية والعلمية في الأندلس في القرن الرابع والخامس والسادس توصف بأنها قرون العلم الحق والفكر النير، وحرية التعبير، مع بعض الانتكاسات التي عرفتها

الأندلس في بعض حقبها التاريخية، وطالت الحرية العلمية والفكرية، وهي انتكاسات تعتبر شذوذاً عن القاعدة، ولا أدل من ذلك مما قام به المنصور بن أبي عامر عندما أنشأ "ديوان الندماء" وكانت مهمته العناية بالشعر والاحتفاء بالشعراء، ومثل ذلك يقال عن ملوك الطوائف الذين شغفوا بالعلم وكانوا أنفسهم علماء وأدباء، وانتشرت في الأندلس دور العلم والمكتبات في المساجد والكتاتيب، وذكر المقري في كتابه: (نفح الطيب) ربما نقلاً عن ابن حزم في كتابه: (جمهرة أنساب العرب) أن للحكم المستنصر (ت ٣٦٦هـ) مكتبة في قرطبة تحوي ما لا يقل عن / ٤٠٠.٠٠٠/ مجلد.

ولم تمنع الحروب التي اشتد أوارها بين المسلمين والنصارى خصوصاً في القرن السادس الهجري من استمرار الحوار الحضاري بين أصحاب الديانات الثلاثة، فكان لا يكاد يمر عام إلا وتشهد الأندلس صراعاً مسلحاً بين المسلمين وأصحاب مختلف الطوائف النصرانية، ولعل تاريخ قرطبة – معقل العلم والفكر في الأندلس – خير من يمثل المدينة التي عاشت ويلات الصراع المسلح بين المسلمين والنصارى، ولكنها في الوقت نفسه تزخر بالعلماء المسلمين يناظرون ويجادلون الطوائف الأخرى، ولكن الجدال والمناظرة تقف عندما يشتد الصراع المسلح، ويأخذ السيف مكان القلم، ويسود الحقد النصراني، لدرجة القيام بالتخريب والدمار وحرق الكتب والنهب كما حدث لقرطبة عام (٥٤٠ هـ)، حيث عاث الجنود النصارى في الحي الشرقي لقرطبة ومزقوا المصاحف، وأحرقوا الأسواق، وكان مثل ذلك العمل مدعاة للتنديد من قبل النصارى المعتدلين فيما بعد أمثال المؤرخ الألماني يوسف أشباخ الذي أدان ذلك العمل.

لم يعرف علماء الأندلس المسلمين الجدل والمناظرات في العقود الأولى لدخول المسلمين أيبيريا، وذلك راجع لتفرغ المسلمين لمهمة توطيد السلطة الإسلامية، وراجع أيضاً لعدم اتساع معرفة الإسبان باللغة العربية معرفة تخولهم الاطلاع على الفكر الإسلامي، أما بعد استقرار العرب، وشيوع اللغة العربية بين المستعربين والمسلمين الجدد، فقد شهدت الأندلس انصرافاً قوياً من الشباب إلى الثقافة الإسلامية واللغة العربية لدرجة اطراح ما عداهما من المعارف، وفي هذا الصدد ما أبلغ شكوى الأسقف ألفارو أسقف قرطبة، وذلك سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م،

من انصراف الشباب الإسباني عن اللغة اللاتينية والثقافة النصرانية، وهو ينعى فيها على إخوانه في الدين أنهم نسوا حتى لغتهم اللاتينية.

دخل علماء المسلمين في الأندلس في تحاور حضاري رفيع المستوى، لا من حيث الأسلوب فقط، ولكن من حيث المنهج والمعاني والموضوعات المطروقة التي غطت ميادين دينية وفلسفية عديدة، وقد انطلق المتحاورون من كل الطوائف الدينية لتحقيق أهداف معلومة للكل، وينبغي الاعتراف أن الإسلام كعقيدة وشريعة وتطبيق هيّأ الأرضية المناسبة لمثل ذلك التحاور الحضاري، فكما هو معروف لم يطلب الإسلام من الإسبان الذين دخلوا فيه إلا التلفظ بالشهادتين لقاء تمتعهم بكامل الأهلية الإسلامية، وترك للذين اختاروا البقاء على دياناتهم السابقة حرية الدين والشريعة والحكم.

ولم يتعرض المسلمون لسواد النصارى فضلاً عن ساداتهم، وفوق ذلك فإن المسلمين استعانوا باليهود - وهم الطائفة المضطهدة من قبل القوط النصارى- وولوهم المناصب العليا وقربوا المتعلمين منهم، فاستوزر عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني الطبيب اليهودي حسداي بن شبروط، (٩٤٥- ٩٧٠م)، واستوزر الأمير حبوس في غرناطة الأديب اليهودي المعروف: إسماعيل بن النغريلة صاحب كتاب (القصص اليهودي) وصاحب أكبر مكتبة شخصية في الأندلس.

لقد تعامل المسلمون مع نصارى الأندلس بتسامح كبير، ولقد تمتع رجال الدين المسيحي بحرية دينية، وسمح لأساقفة النصارى بعقد مؤتمراتهم الدينية (وأغلبها مخصص للتبشير)، في المدن الأندلسية الكبيرة مثل: المؤتمر الديني الذي عقد في قرطبة عام ٨٥٢م ومؤتمراً إشبيلية عام ٨٧٢م، وغني عن القول أن الحكومة الإسلامية سمحت للنصارى بتشييد العديد من الكنائس.

وكان بعض فقهاء المسلمين في الأندلس يتخذون من النصارى مساعدين لقضاء حوائجهم ولا يجدون في ذلك غضاضة، فقد ذكر الطرطوشي أن الفقيه ابن الحصار استعمل جاره النصراني على قضاء حوائجه ومنافعه، وكذلك مشاركة بعض المسلمين النصارى

احتفالاتهم الدينية مثل: عيد ميلاد المسيح وعيد سان خوان ولا شك أن تلك المشاركة الروحية ترجع إلى التعايش السلمي بين الطائفتين.

بل وصل بعض النصارى إلى مناصب عالية في الحكومة الإسلامية فقد استوزر المقتدر بن هود (ت: ٤٧٤)، ملك سرقسطة أبا عامر بن غند شلب النصراني.

وفعل مثله محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت ٢٧٣هـ) الذي صار كبير الكتبة عنده قومس ابن أنتُنيان النصراني وهو الذي جعل من يوم الأحد إجازة رسمية للدولة.

إن الجو السياسي والديني والعلمي الذي أظل العلماء في الأندلس كان مواتياً لانطلاق أكبر تحاور حضاري عرفته أوروبا في تاريخها القديم والوسيط، والفضل كما قلت يعود للحكومة العربية الإسلامية التي رسخت قولاً وعملاً منهج التحاور العلمي وأشاعت جواً من الحرية الفكرية تمتع بها الكل، وقد درس خالد السيوطي الجدل الديني في الأندلس، واستخلص أهم الأهداف التي سادت الجدل الديني، وهي بدورها تعتبر من سمات التحاور الحضاري بين الديانات السماوية في الأندلس.

من تلك الأهداف استعمال الجدل الديني في الأندلس في عصور عديدة من قبل المتحاورين المسلمين والنصارى من أجل الدعوة إلى الإسلام، ومن أجل التبشير بالنصرانية، وقد أبان تجادل أصحاب الديانات عن روح التسامح السائد بين المتجادلين من علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب، ولعل ذلك راجع للتقاليد التي أشاعها المسلمون حكاماً وعلماءً ومنها حرية التعبير والاعتقاد الديني لكل الطوائف والملل، وقد بيّن الجدل الديني الدائر آنذاك مقدار احترام الإسلام والمسلمين للرأي الآخر، وهذا الملمح يعد بحق رافداً من روافد الحضارة الإسلامية التي عرفت التعدية في العقائد والمذاهب والأفكار والرؤى.

وكما هو معروف في الإسلام فإن الاختلاف سنة من سنن الله في الكون، ولعل أكبر ثمار الجدل الديني ما توصل إليه المسلمون عقلياً، وما أقر به بعض علماء أهل الكتاب المنصفين فيما بعد من أن كثيراً من عقائد أهل الكتاب السائدة آنذاك يفتقر للبرهان المقبول، وقد اعترف بذلك بعض علماء النصرانية، ونجد تلك الاعترافات مبثوثة في مؤلفاتهم الجدلية، فيذكر الصفي بن العسال في كتابه: (الصحائح في جوارب النصائح) أن العقائد النصرانية غير

برهانية، وينقل عن بولس الرسول مقولته المشهورة: "لم أبشركم بحكمة الكلام لئلا يتعطل صلب السميح"، وفي هذا القول الأخير ما يغني عن الاسترسال ذلك، أن بعض العقائد النصرانية لا تصمد أمام الجدل العلمي.

لقد بلغ من معرفة علماء المسلمين المشتغلين بعلوم الكلام والفلسفة درجة عظيمة في ميدان الجدل حتى أصبح عند الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمرو بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب المتوفَّى عام (ت٦٤٦هـ) علماً بذاته، يؤلف فيه كتاب مستقل عنوانه: "منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل" وهو كتاب في غاية الإتقان والبحث العقلي، وتدوير الأدلة النقلية لتطابق الفكر والعقل، أو كتاب علم الجَدَل في علم الجَدَل" لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الطرفي (ت٧١٦هـ)كما كشف الجدل الديني عن براعة المسلمين في علم المنطق، نجد مصداق ذلك لدى فقهاء وعلماء شرعية مثل ابن حزم والباجي اللذين لم يشتهرا كفلاسفة أو علماء في المنطق.

والحق أن المرء لتصيبه الدهشة من تمكن علماء المسلمين من الجدل المنطقي، وهم الذين لم يتوسعوا في دراسة المنطق اليوناني أو الفلسفة اليونانية، ومعرفتهم الواسعة بعقائد أهل الكتاب، ومن أمثلة ذلك ما نجده عند القرافي (ت ٦٤٨هـ) ولو أنه من علماء المشرق الإسلامي، في كتابه القيم: (الأجوبة الفاخرة في الأسئلة الفاجرة) كما أن معرفة المشرق الإسلامي لأهل الكتاب تكشف للمراقب عن تفوق المجادل المسلم على مستوى المؤلفات والرسائل الجدلية، أو على مستوى المناظرات الشفاهية، مثال ذلك كتاب: (عيون المناظرات) لأبي على عمر السكوني (ت: ٧١٧ هـ) الذي يحوي عدداً من المناظرات مع اليهود والنصارى تنتهي كلها بإفحامهم، وانقطاعهم عن الحجاج الديني، وأحياناً باعتناق بعضهم الدين الإسلامي.

أوضحت المجادلات الدينية كثيراً من الصراعات الفكرية التي تحاور فيها علماء المسلمين فيما بينهم، وفي أحيان تقاتلوا بشأنها وعانت منها الأمة الإسلامية بأسرها، وتبين أن مرد تلك الصراعات تأثر علماء المسلمين بما عليه الطوائف غير المسلمة، مثال ذلك القول بقدم القرآن

وتشددهم في ذلك، والمعتزلة يخافون من أن يضاهي القول بقدم القرآن كلمة الله ادعاء النصارى قدم المسيح؛ لأنه كلمة أيضاً.

وأثبتت تلك المجادلات الدينية الإسلامية مع أهل الكتاب مقدار ما أسهم به فكر بعض الفرق الإسلامية مثل الأشاعرة والمعتزلة والماتردية من جهود فكرية وفلسفية للمنافحة عن الإسلام والمسلمين، ومن هذا أيضاً ما لاحظه ابن حيان (ت: ٤٦٧هـ) من أن مقاتل بن سليمان أخذ عن اليهود والنصارى بعض تفسير القرآن الذي يوافق كتبهم الدينية مثل تشبيه الرب سبحانه وتعالى بالمخلوقين.

وأسهمت المجادلات الدينية التي استمرت طويلاً بين علماء المسلمين ونظرائهم من اليهود والنصارى في نشأة علم الكلام الذي شهد قبولاً من قبل بعض المسلمين وغيرهم من علماء أهل الكتاب، بل وفوق هذا يمكن القول: إن المجادلات الدينية كانت أساساً متيناً في نشأة ما أطلق عليه مؤخراً اسم "علم مقارنه الأديان" ولا شك أن العالم الإسلامي ابن حزم الأندلسي من مؤسسي هذا العلم.

وعند تناول ظاهرة الجدل الديني بين المسلمين وغيرهم من أرباب الديانات الأخرى، نسعى إلى إثبات أن ذلك الحوار والجدل أديا إلى بروز ظاهرة أخرى لا تقل عن الأولى في الأهمية وهي ظاهرة "الاحتكاك الثقافي" وهو احتكاك أدى إلى تفاعل حضاري بين الأندلس والدول الأوروبية المجاورة، حيث تم تبادل الزيارات العلمية بينهما، وقامت الوفود من الطرفين بزيارات متبادلة، وتم أيضاً تبادل الرسائل التي يحرص أن يقول فيها كل طرف الحجج القوية لتأييد ما يذهب إليه.

مثال ذلك الرسائل التي بعث بها راهب فرنسي إلى المقتدر بن هود(ت٤٧٤هـ) حاكم سرقسطة يدعوه إلى اعتناق النصرانية، وتكررت رسائل ذلك الراهب مما دعا بالمقتدر إلى الطلب من القاضي أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) أن يتولى كتابة الرد، خصوصاً أن القاضي الباجي له مؤلف مشهور في الرد على أهل الكتاب ومحاجتهم عنوانه، (السراج في علم الحجاج) ومثل هذا رد الخزرجي على أحد القسيسين.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الثالث

جدل وحوار النصارى

عُرف الجدل الديني بالجدل بين التوحيد والتثليث، وهو جدل سابق لدخول المسلمين شبه جزيرة أيبيريا، وكان الجدل الديني يدور بين الأرثوذكس من جهة والأريوسيين من جهة أخرى، وهما أهم طائفتين نصرانيتين في شبه جزيرة أيبيريا وقتذاك، لقد رفض الأريوسيون قرارات مجمع نيقيا لعام (٣٢٥م) القائلة بألوهية المسيح، ولم يروا فيه أكثر من كونه بشراً ورسولاً، ولما دخل الإسلام إسبانيا وانتشر رأي بعض علماء النصارى أن الإسلام لا يعدو أن يكون صورة من المذهب الأريوسي، لذلك كثر في مجادلاتهم ومناظراتهم من أن الإسلام هرطقة نصرانية كما يذهب الراهب نيكولا دي كو في كتابه: "نقد القرآن".

وأخذ الكتاب النصارى يطلقون على مخالفيهم الأريوسيين لقب(مسلمون) وهو لقب يحمل معاني الاحتقار، وهذا سبب عزوف علماء النصرانية الأرثوذكس من الدخول مع علماء الإسلام في جدل ديني حتى منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

أما بعد ذلك التاريخ فقد ظهرت مؤلفات جدلية ألفها علماء الدين النصراني واليهودي لنقد الدين الإسلامي، وكانت البداية في مؤلفات الجدل الديني عند أهل الكتاب غير موفقة من حيث الأسلوب والمنهج المتبع، وليس هناك سبب للشطط وسوء اللغة المستخدمة في المؤلفات الجدلية إلاّ تسامح المسلمين والتزامهم الجدل بالحسنى، فظهرت مؤلفات تتصف بقذف الإسلام عقيدة وشريعة، ولكن تلك الحالة لم تستمر إذ دخلت الأطراف المتجادلة في حوار عملي رصين، صحيح أنه كانت هناك بعض التجاوزات، ولكنها لا تشكل السمة الغالبة.

في مطالع القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ظهر كتاب لمؤلف مجهول عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وانتشر ذلك الكتاب عند مثقفي الأندلس انتشاراً واسعاً، وكان

الكتاب يحتوي على أفكار مغلوطة ومفاهيم مكذوبة، وقد بيّن علماء المسلمين ذلك عندما استعرضوا الكتاب وراجعوه، ومع هذا أصبح الكتاب الحجة والمرجع شبه الوحيد للمحاورين من أهل الكتاب، ثم ظهر كتاب إيولوجيو عام (٨٥١م) وعنوانه: "ذكرى الشهداء" ويعني بهم المقتولين النصارى في المواجهات الحربية مع المسلمين فيما عُرف بحركة الاستشهاد في قرطبة، التي اندلعت في منتصف القرن التاسع الميلادي (ما بين سنتي ٢٣٦-٢٤٥ هـ/ ٨٥٠- ٨٥٩م).

ويهدف إيولوجيو من وراء كتابه تذكير الشباب النصراني بذكرى أسلافهم، وإلى وقف اعتناق الإسلام من قبلهم، ثم أخرج القس ألفارو عام (٨٥٤م) كتاباً في نقد الإسلام أسماه " نقد المحمدية" احتوى على فهم مغلوط لشعائر الإسلام وخاصة الأذان والصلاة، ويعلق المستشرق راينهات دوزي على تلك الكتب المغلوطة ويبدي استغرابه حيال رجال الدين المسيحي الذين يعرفون الإسلام واللغة العربية ومع هذا فقد شوهوا العقيدة الإسلامية.

وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي حيث بدأ الضعف والسقوط يأخذ بالممالك الإسلامية، نشطت المجادلات الدينية من الجانب النصراني، وأخذت المناظرات الشفاهية أو المكتوبة شكل تخصص دقيق، اجتهد له القوم، فتخصصوا في الدراسات العربية والإسلامية، وكانوا دائماً يرددون مقولة مؤداها أنهم إنما يدرسون الثقافة العربية لينقلوا العلوم والفلسفة اليونانية والهلنستية التي ترجمها علماء العرب في الشرق من اللغتين اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية، لذا فهم يستعيدون علومهم من العرب، وتمكن الرهبان النصارى من تأسيس حلقات العلم الدينى لإعداد جيل من الفقهاء يستطيعون مقارعة حجج المسلمين واليهود على السواء.

وكان من ثمرة تلك الجهود العلمية أن قصد الأندلس أحد علماء تلك الحلقات، وهو بطرس المكرم وهو فرنسي من الرهبانية البندكتية، ورئيس دير كلوني، من أجل التزود من العلوم العربية والإسلامية، وعندما رجع إلى ديره أخذ يصنف المؤلفات الجدلية للرد على العلماء المسلمين واليهود.

كما أنجز توما الأكويني (ت ١٢٧٤م) من الرهبان البندكتينيين دراسة ضخمة بعنوان: "خلاصة ضد الكفار" وكان يهدف من وراء كتابه أن يصبح مرجعاً للمبشرين النصارى العاملين بين المسلمين، وكذلك فعل رايموندو مارتيني، وكتب كتاباً عنونه " خنجر الإيمان" وكان رايموندو مارتيني يهدف من وراء كتابه إلى الرد على المسلمين واليهود على حدٍّ سواء.

وصنف المبشر النصراني ريموند لول الذي قُتل في شمال إفريقيا عام (١٣١٤م)، كتاب " الزنديق" وأداره على شكل رواية أبطالها يهودي ونصراني ومسلم، وتحتوي تلك الرواية على أخطاء كثيرة، ثم ألف رواية أخرى عمادها مناظرة بين ريموند النصراني وعمر المسلم، حيث أدار مناظرة بين الاثنين انتصر فيها لريموند، والحق أن ريموند لول أمضى سنوات غير قليلة من عمره يبشر بالنصرانية بين أظهر المسلمين، ولكن لم يحالفه الحظ، وباءت محاولاته بالفشل، والحقيقة الغريبة التي تستحق التوقف عندها أن كل المؤلفين السابقين، وكل المجادلين من علماء اليهودية والنصرانية اعتمدوا واستفادوا من المؤلفات الفلسفية والعملية لكل من: الغزالي، وابن رشد، وابن سينا، وابن باجة، وابن طفيل، وابن عربي التي ترجمت إلى اللاتينية، وكانت الأساس القويم للنهضة الأوروبية فيما بعد.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الرابع

جدل وحوار اليهود

أما المحاورون من اليهود فيأتي على رأسهم إسماعيل (صموئيل) ابن النغريلة، وهو من أعلام القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كتب ابن النغريلة عدة كتابات جدلية طاعناً في صدق القرآن الكريم، والشعائر الإسلامية الأخرى، ويظهر أن ابن النغريلة استغل التسامح الذي أشاعه المسلمون في الأندلس، وكذلك الحرية شبه المطلقة التي منحها المسلمون ليهود الأندلس، وهي حرية لم يألفوها من قبل من لدن الرومان، ثم القوط النصارى.

أقول: فتجرأ ابن النغريلة وأمثاله على الإسلام وتعاليمه جرأة لا تمت للتحاور والمجادلة العلمية بصله، وهو أمر دعا علماء الأندلس للرد عليه، وفي أحيان استعمال اللغة القاسية التي يجيدها، بقول ابن حزم وهو من الذين تصدوا لابن النغريلة: "فإن بعض من تلقى قلبه للعداوة للإسلام وأهله، وذوبت كبده بغضه الرسول صلى الله عليه وسلم، من متدهرة الزنادقة المستترين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود، أطلق الأشر لسانه وأرخى البطر عنانه، واستشمخت لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيرة، فألف كتاباً يقصد فيه بزعمه إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل في القرآن، اغتراراً بالله تعالى أولاً، ثم بملك ضعفه ثانياً، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً، ثم بأهل الرياسة في مجانة عوداً.

ويمثل إسماعيل بن النغريلة مثال اليهودي المثقف الذي أوقف حياته في المنافحة والمدافعة عن اليهودية واليهود، وثلب الإسلام والمسلمين، درس إسماعيل الأدب العربي والفلسفة الإسلامية، وكان نابغاً وصل إلى أرفع الدرجات الوظيفية، فتبوأ منصب الوزارة في عهد حبوس وابنه أمراء غرناطة، ولما مات إسماعيل خلفه في الوزارة ابنه يوسف الذي لا يقل عن

أبيه إخلاصاً لدينه، وزاد بأن استطال على الإسلام والمسلمين، واشرأبت في زمنه اليهود وتطاولوا على المسلمين.

وكان يوسف هذا كاتباً لبلقين بن باديس بن حبوس ولي عهد أبيه ملك غرناطة، وكان بشهادة ابن بسام قد نظر في كتب المسلمين والعرب، ونُقل عنه ادعاؤه القدرة على نظم القرآن شعراً وموشحات.

وقد صور الشاعر أبو إسحق الإلبيري" إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي" (ت ٤٥٩هـ)، الحالة التي عليها يوسف وطائفته اليهودية في قصيدة نونيه مشهورة، ثارت العامة بسببها وقتلوا يوسف وهم يرددون أبيات تلك القصيدة.

ثم يأتي يهودا اللاوي المعروف في الأوساط العربية في طليطلة بأبي الحسن اللاوي، وهو صاحب كتاب: "الحجة والدليل في نصرة الدين الذليل"، وتقوم فكرة هذا الكتاب على قصة خيالية ملخصها أن أحد ملوك الخزر أراد التعرف على الدين الإسلامي والنصراني، بينما استبعد الدين اليهودي لقلة أتباعه، وبعد المقارنة استبعد الإسلام؛ لأن معجزته القرآن الكريم المكتوب باللغة العربية، وهي لغة لا يمكن لغير العرب تلمس الإعجاز فيها، ولا يمكن لغيرهم من التفريق بين القرآن الكريم وغيره من الكتب العربية، أما النصرانية فلأنها في قتال وحرب مستمر مع الإسلام، وهذا في حد ذاته دليل على فساد الديانتين، ولو كان فيهما خير لما اقتتلا، أو لانتصر الدين الحق على ما سواه، ومن هنا فقد وقع اختيار ملك الخزر على الديانة اليهودية، وهي قصة موغلة في الخيال، والخيال لا يعد حجة في المناظرات الدينية.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الخامس

جدل وحوار المسلمين

أنفق علماء المسلمين الجهد والوقت والمال في سبيل التعرف على معتقدات أهل الكتاب وعلومهم الدينية، ثم قاموا بعقد المناظرات الشفاهية مع الرهبان والقساوسة والمفكرين النصارى واليهود، وألفوا الكتب التي تتكئ في معلوماتها على الكتب الدينية المعتمدة عند الطرف الآخر، واستعانوا بعلم المنطق والعقليات والفلسفة لدحض آراء المناوئين للإسلام، وبيان فساد عقيدة أهل الكتاب.

وعند تأملنا المنهج الجدلي لعلماء المسلمين نجد أنهم اعتمدوا على المنهج التركيبي والمنهج التحليلي، وزاوجوا بين المنهجين، وكانت طريقتهم في الجدل تبدأ بمرحلة تحليل النص أو الفكرة، يعقب ذلك ثلاث مراحل هي على التوالي: التركيب، ثم التحليل، ثم التوليف، وتلك المراحل هي ما تعرف اليوم باسم "الجدل الدياليكتيكي".

أول ما نواجه من الرد والمناظرات هي تلك التي تصدت للمستعرب الإسباني المسلم أبي عامر أحمد بن غرسية وهو من سبي المسلمين، ومع أنه نشأ مسلماً، إلا أنه يحمل في داخله عقيدة شعوبية ضد الإسلام والعرب، وقد تصدى له أبو جعفر أحمد ابن الدودين البلنسي، وممن جادل علماء النصارى الشيخ أبو الطيب عبد المنعم القروي (ت ٤٩٣هـ) وقد صنع مجادلته بأسلوب (قلتم وقلنا) أو ما يطلق عليه اسم (الفنقلة) وهو أسلوب من أشق أساليب المحاججة والمناظرة.

وتأتي مناظرات ومؤلفات ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) والقاضي أبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ) وأحمد بن عبدالصمد الخزرجي (ت ٥٨٢هـ) والفيلسوف ابن رشد (ت ٥٩٥) وأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، (ت٦٧١هـ) والفقيه أبي عبد الله محمد بن الفرج المعروف

بابن الطلاع، (ت ٤٩٧ هـ)، تأتي كلها في الذروة من الجدل الديني الإسلامي تجاه الملل والنحل غير الإسلامية.

ويتضح من خلال استعراض أدبيات الجدل الديني الإسلامي في الأندلس أن كتابات ومناظرات العلماء المسلمين الجدلية يغلب عليها أمران: الأول يتمثل في الدفاع عن الدين الإسلامي عقدية وشريعة ونبوة دفاع علمي دقيق، وبأسلوب هادئ ضد حجج المجادلين من أهل الكتاب، الأمر الثاني يتلخص في المحاولات الناجحة لنقص العقائد الدينية اليهودية والنصرانية، وكانت المحاورات تتم في الغالب بصورة كتابية، وبمعنى تأليف المسائل والردود، وفي أحيان أخرى تتم المحاورة في شكل مناظرة بين عالمين يشهدها نفر من أتباع أديان المتناظرين.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل السادس

علم الكلام الأندلسي

أ- تقديم:

قدم العرب إلى الأندلس وهم قريبو عهد بالبداوة وسذاجة الدين، قبل أن تتأثر ثقافتهم بمذاهب وعقائد وفلسفات الأمم التي كانت قد سبقتهم في مضمار الحضارة؛ بالإضافة إلى أن الأندلس كانت بعيدة عن الحكمة كما وصفها صاعد الأندلسي، واللافت للانتباه الصراع الحاد بين التيار المحافظ وتيار التوفيق بين الفلسفة والدين.

ففي عهد هشام المؤيد بالله (٣٦٦- ٣٩٩هـ) أُحرقت كتب العلوم القديمة المؤلفة من علوم المنطق وعلم النجوم، وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطب والحساب، تحبباً إلى عوام الأندلس، وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحاكم عندهم، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عن أسلافهم، مذمومة بألسنة رؤسائهم، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج من الملة، مظنوناً به الإلحاد في الشريعة فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك، وخملت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم.

ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها، ويظهرون ما يتجوز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك، إلى أن انقرضت دولة بن أمية من الأندلس، واستمر الموقف من العلم في الأندلس بين القبض والبسط حتى خروج المسلمين منها.

وقد قسم ابن خلدون تاريخ علم الكلام إلى: ثلاث مراحل من جهة طبيعة الأدلة المستخدمة:

١- مرحلة ما قبل استخدام المنطق. ن

٢- مرحلة المنطق.

٣- مرحلة اختلاط المباحث الكلامية بالفلسفة، أما فيما يتعلق بالقضايا التي تناولها علم الكلام، فقد تعددت وتباينت تبعاً لاختلاف السياقات الزمانية والمكانية وبالتالي لتنوع المؤثرات والتهديدات التي كان يستشعرها متكلمو كل وقت، وتفاوتت ردود أفعال الجمهور والسلطة إزاء القضايا المثارة من وقت لآخر، فعلى سبيل المثال، عندما تبنى بعض الخلفاء قول المعتزلة بخلق القرآن وحملوا الناس على موافقتهم، تولد رد فعل قوي من قبل المعارضين خلّف آثاراً تجاوزت بكثير دائرة الجدال الكلامي، وكان من شأنها التأثير على مسار الفكر الإسلامي.

أما مسألة الصفات الإلهية فقد شغلت حيزاً كبيراً من الفكر الكلامي أكثر من غيرها من القضايا الأخرى كإثبات النبوة وفعل الإنسان، وعلى خلاف المسائل الكلامية فإن مسألة الإمامة هي الوحيدة التي يمكن تصنيفها بأنها تاريخية اجتماعية.

غير أن الأندلسيين لم يظهروا اهتماماً بعلم الكلام إلا في أضيق نطاق، إذ لم تقم فيهم الفرق الكلامية، ولم يعرفوا سجالاتها الحامية على غرار ما شهده المشرق الإسلامي، لاسيما في البصرة وبغداد إبّان ازدهار المدارس الكلامية.

- العوامل التي قد تفسر ضعة علم الكلام في الأندلس:

١- غياب التحديات العقائدية.

٢- قلة المذاهب والفرق.

٣- الروح المحافظة التي أبقت على رسوم الدين وتصوراته قريبة مما كانت عليه في طورها الأول.

وخلافاً لحالة التنوع والتعدد التي ميزت الفكر الديني في المشرق، فقد كان المشهد الإسلامي في الأندلس أكثر تجانساً وأقل تعقيداً فيما عدا حالة الصراع بين التيار المحافظ وتيار التوفيق بين الدين والفلسفة، ففي عهد المرابطين، الذين كانوا شديدي المحافظة، كانت السلطة العليا في يد الفقهاء الذين قرروا تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، فكان من

الطبيعي أن يمنعوا الخوض فيه، ويلوِّحوا بمعاقبة المشتغلين به فكتبوا إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه.

ولما دخلت كتب الغزالي إلى المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها، لكن هذه الأوضاع ما لبثت أن تبدلت بقيام دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت الذي أخذ المذهب الأشعري عن الغزالي في بغداد وعاد لينشره في المغرب والأندلس، لكن ذلك لم يثمر مؤلفات كبرى كتلك التي ظهرت في المشرق، مع ذلك فقد ظهرت إسهام من نوع آخر، هذا إذا قبلنا اعتبار النقد إسهاماً، شارك فيه ابن حزم الظاهري (٣٨٤- ٤٥٦هـ) والقاضي ابن رشد(٥٢٠- ٥٩٥ هـ) والحبر اليهودي ابن ميمون(٥٣٠- ٦٠١ هـ) الذي اعتبر فيلسوفاً إسلامياً مثلما اعتبر الفيلسوف حنين بن إسحق من فلاسفة الإسلام، فقد تناول ثلاثتهم المذهب الأشعري بالنقد كل من موقعه الفكري.

ب- نقد ابن حزم للفرق الكلامية:

انتقد ابن حزم سائر الفرق الكلامية، وسعى إلى تفنيد دعاواها بحجج وصفها بأنها براهين، إلا أن شروط البراهين المنطقية لا تنطبق عليها، فهي أشبه ما تكون بأساليب المتكلمين في الاستدلال من حيث إخراج وجه التناقض لدى الخصم وإلزامه بمقدمته، ومع ذلك فإن هنالك اختلافين جوهريين بين ما ساقه ابن حزم من حجج وبين أدلة المتكلمين:

١- الأول هو أن ابن حزم يحتكم إلى ما يقرره الحس والواقع وظاهر الوجود.

٢- والثاني هو أنه اعتمد منهجاً متماسكاً في التعامل مع الألفاظ لم يحد عنه.

٣- الوقوف عند ظاهر النص وعدم الخروج في فهم الألفاظ عما درج عليه العرب، فالقرآن يجب حمله على ظاهره مالم يمنع من حمله على ظاهره نص آخر، أو إجماع، أو ضرورة حس.

اعترض ابن حزم على مقولة الجوهر الفرد التي أسس عليها الأشاعرة دليلهم على حدوث العالم، بل وتصورهم للعالم واعتبر أن كل جزء فهو يتجزأ أبداً بلا نهاية، وأن جزءاً لا يتجزأ ليس في العالم أصلاً ولا يمكن وجوده، بل هو من المحال الممتنع.

كما رفض مقولات الجوهر الذي ليس بجسم ولا عرض والخلاء والمدة بدعوى أنها كلها دعاوى مجردة لا يقوم على صحة شيء منها دليل أصلاً لا برهاني ولا إقناعي، بل البرهان العقلي والحس يشهدان ببطلان ذلك.

ولم يجد غضاضة في تقبل فكرة أن المسافة المتناهية التي يقطعها الإنسان أو الحيوان في زمن متناه يمكن أن تنقسم إلى أجزاء غير متناهية، وقال بخطأ من توهم أن الأجسام مركبة من السطوح وأن السطوح مركبة من الخطوط مركبة من النقط، وبدلاً من ذلك اعتبر السطوح المطلقة إنما هي تناهي الجسم وانقطاع تماديه من أوسع جهاته وعدم امتداده فقط، وأما الخطوط المطلقة فإنما هي تناهي جهة السطع وانقطاع تماديها، وأما النقط فهي تناهي جهات الجسم من أحد نهاياته كطرف السكين ونحوه، فكل هذه الأبعاد إنما هي عدم التمادي، فالواقع الهندسي إذا من ضرورات الحس والعقل التي لا سبيل إلى إغفالها ولا مجادتها.

أما رده على إنكار الأشعرية للطبائع بالجملة، فقد اعتمد فيه على دلالات الألفاظ كما جاء على لسان العرب، فكلمة طبيعة بمعنى قوة في الشيء يوجد بها على ما هو عليه موجودة في اللغة التي نزل بها القرآن، وسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكرها قط، ولا أنكرها أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا أحد ممن بعدهم؛ وإذا كان الأشاعرة يعتبرون المعجزات خرق عادة فإنهم بذلك يقللون من شأنها؛ لأنها لو كانت كذلك لما كان فيها إعجاز أصلاً؛ لأن العادة في لغة العرب: الدأب والديدن والديدان... وهي ما كثر استعمال الإنسان له مما لا يؤمن من تركه إياه، ولا ينكر زواله عنده، بل هو ممكن وجود غيره ومثله بخلاف الطبيعة التي الخروج عنها ممتنع.

تميز نقد ابن الحزم للمتكلمين بوحدة المنهج المستمد من مذهبه الظاهري، وبعض النظر عن محتوى الآراء وطبيعة المواقف والقضايا المختلفة والجانب الديني فيها، فإن مقاربة ابن حزم تبقى على شهادة الحس، وعلى التزام حدود الحقل الدلالي للألفاظ ضمن إطار منهجي لم تحد عنه.

ج- نقد ابن رشد للمتكلمين وللمذهب الأشعري:

خص ابن رشد المذهب الأشعري دون غيره من مذاهب المتكلمين بالفحص والنقد، ولربما كان ذلك بسبب أن الأشاعرة، هم الذي يرى أكثر الناس اليوم أنهم أهل السنة أو لأنه

المذهب الوحيد الذي وصلت أصداؤه إلى الأندلس عبر دولة الموحدين، والتي عرف عن مؤسسها محمد بن تومرت أنه أخذ عن الغزالي في بغداد، ومعروف أن بقية المذاهب لم يكن لها حضور يذكر في الأندلس، حتى أن ابن رشد لم تتوافر لديه مؤلفات المعتزلة بدليل قوله: أما المعتزلة فإنه لم يصل إلينا من كتبهم شيء نقف منه على طرقهم التي سلكوها في هذا المعنى، ويشبه أن تكون طرقهم من جنس طرق الأشعرية.

حدد ابن رشد في بداية مؤلفه الذي خصصه لنقد المتكلمين هدفه بفحص الظاهر من العقائد التي قصد الشرع حمل الجمهور عليها... متحرياً في ذلك قصد الشارع صلى الله عليه وسلم بحسب الجهد والاستطاعة ووفقاً لتصنيفه للشريعة لظاهر هو فرض الجمهور ومؤول هو فرض العلماء، اختار أن يبقى في دائرة الظاهر التي تخص الجمهور، وفي هذا التحديد انتقاد للمقاربة الكلامية التي تخاطب العامة والخاصة بخطاب موحد، لا تفرق فيه بين المستويين، فتكلّف العامة ما لا يطيقون، فضلاً عن أنها تخالف طريقة الشرع التي تخاطب عقول الجمهور بالأدلة البسيطة المألوفة، وأما منهجه في تحري مقاصد الشريعة فيقوم على الاعتقاد بمطابقة الحكمة للشرع وجدارة الشرع في تحقيق السعادتين الدنيوية والأخروية.

استهل ابن رشد انتقاداته للأشاعرة بالتمييز بين ثلاث طرق للاستدلال: طرق العلماء البرهانية، وطرق المتكلمين الخطابية، وطرق الجمهور التي خاطبهم بها الشرع، فالمتكلمون وإن اعتمدوا النظر العقلي إلا أن استدلالاتهم برهانية من قبل أنها لم تمض على قواعد البرهان المعروفة في المنطق، فهي إذاً ليست يقينية كما أنها ليست على غرار الطرق الشرعية المألوفة لطباع الجمهور، التي تتميز بقلة مقدماتها وقرب النتائج من المقدمات الأولى وتأثيرها الإقناعي، وكان أول ما توقف عنده من أدلتهم دليل حدوث العالم الذي يعدونه العالم وبأن كل محدث لابد له محدث لا يكفي لتحديد وضعية هذا المحدث من قبل كونه أزلي أو محدث.

ثم عمد إلى التحليل المنطقي للاستدلال بتحديد مقدماته التي يقوم عليها، وعلّق على المقدمة الأولى إثبات الجوهر الفرد قائلاً: إن وجود جوهر غير منقسم ليس معروفاً بنفسه، وفي وجوده أقاويل متضادة شديدة التعاند، فهي إذاً ليست بديهية ولا ضرورية، غير أن مقدمة الجوهر الفرد وتصور العالم الذي انبنى عليها لم يكونا مجرد فصل في دقيق الكلام يستخدمونه في مباحث جليل

الكلام فحسب إنما أساساً أقاموا عليه العقيدة التي ما لبثت أن صارت عقيدة معظم أهل السنة والجماعة لقرون طويلة، فإمام الحرمين الجويني وهو الذي اكتمل على يديه بناء المذهب اعتبر أن التفاضل بين جسمين في العظم مرجعه إلى كثرة أجزاء أحدهما مقارنة بالآخر.

وضرب مثلاً بالنملة التي تقطع جسماً فلو كانت أجزاؤه غير متناهية لما تصور الفراغ من قطعه وتخليقه إذ الانقضاء ينبئ عن الانتهاء، وما استحال عليه وصف الانتهاء لم يعقل فيه الانقضاء،ومضى إلى اعتبار تناهي الأجزاء من قواعد الدين، إذ إن من أعظم أركان الدين منع انقضاء حوادث لا نهاية لها، ولا تستمر دلالة العالم دون إثبات ذلك.

يبدو واضحاً أن فكرة لا تناهي الانقسام ولا تناهي الأجزاء تناقض مفهوم الأشاعرة للحدوث الذي يمثل حجر الزاوية في إثباتهم لوجود الله، ولما كانت هذه المسألة تتعلق بأساس العقيدة فإن من الطبيعي أن يقدموها على أي اعتبار آخر، ويضحون بكل ما من شأنه معارضة ذلك، فالجويني على سبيل المثال نفى إمكانية تنصيف الخطوط الفردية الأجزاء بقوله: كل خط تركب من وتر فلا نصف له على خلاف ما أقره أهل الهندسة، وإذا كان مفهوم الجسم اللامتناهي الصغر مجهولاً لديهم إذ إنه مفهوم حديث نسبياً، فإن الأمر مختلف فيما يتعلق بالمقادير المتصلة التي كانت معروفة منذ أن تمت ترجمة كتاب الأصول لإقليدس.

لذا فقد اعتبر ابن رشد رفض لا تناهي الأجزاء خطأ أن يجعل الأشياء كلها أعداداً ولا يكون هناك عظم متصل أصلاً، فتكون صناعة الهندسة هي صناعة العدد بعينها أي تبطل الهندسة فمقدمة الجوهر الفرد إذاً ليست لازمة والقبول بها يفضي إلى تقويض ما تقرر بالبرهان.

وبنفس الطريقة تناول ابن رشد مبدأ التجويز الذي قال به الجويني في الرسالة النظامية فبدأ بحصر المقدمات، ثم فحصلها منطقياً، وأخيراً استخلص ما يترتب عليها من نتائج، فوجد أن ذلك المبدأ يقوم على مقدمتين: الأولى أن العالم جائز على أي شكل غير الذي هو عليه، والثانية هي أن كل جائز محدث له محدث اختار من بين الممكنات الجائزة شكلاً بعينه، ووصف المقدمة الأولى بأنها خطابية وغير منطقية، وكاذبة، لأن الظاهر في بعض أجزاء العالم يخالفها من قبل أن له علة معروفة.

وخلص إلى أن القبول بهذه المقدمة من شأنه أن يبطل الحكمة التي هي المعرفة بالأسباب الغائية، فإذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضي وجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجود، فليس هاهنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره، والجواز الذي راموا به إطلاق إرادة الخالق وعدم تقييدها بضرورات هو أقرب أن يدل على نفي الصانع من أن يدل على وجوده، وأوضح أن المقدمة الثانية غير بينة بنفسها، وأن العلماء مختلفون بشأنها، فأفلاطون أجاز وجود جائز أزلي بينما نفاه أرسطو.

وعزي إنكارهم للقوى الطبيعة التي رتبها الله الموجودات ولوجود المسببات، هرباً من القول بوجود أسباب فاعلة غير الله، إلى جهلهم بالصناعة والصانع بالخلق والخالق وهو ما يترتب عليه إبطال العلم الذي هو معرفة الأشياء بأسبابها، وفتح الباب أمام القول بالاتفاق المصادفة لأن الذي يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق وبنفي الطبيعة يسقط جزء عظيم من موجودات الاستدلال على وجود الخالق الحكيم.

وفي سياق مناقشته لتبعات مقدمات المتكلمين، وعرض ابن رشد خلاصة رأيه في الطريق إلى معرفة الله، فهو ليس طريق المتكلمين ولا طريق الصوفية، إنما هو طريق العلماء علماء الطبيعة والبرهان، ذلك لأن معرفة الله على التمام إنما تحصل بعد المعرفة بجميع الموجودات، ومضى إلى اعتبار معرفة الموجودات العالم واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته وبالطبع ليس المقصود بهذا الموقف حمل الجميع على البحث والنظر في العلوم الطبيعية ليعرفوا ربهم، إنما قصد العلماء دون غيرهم، أما الجمهور فقد خاطبهم الشرع بالأدلة البسيطة والأمثلة التي تناسب أفهامهم ومخيلاتهم، مما أوجب الوقوف عند هذا الخطاب عدم تجاوزه.

وانطلاقاً من موقفه هذا، انتقد ابن رشد المنهج الصوفي في المعرفة، القائم على اعتبار إماتة الشهوات شرطاً كافياً لتحصيل المعرفة وإن وافقهم في كونها شرطاً لازماً فهي شرط في صحة النظر، مثلما تكون الصحة شرطاً في ذلك، واعتبر أن طريقتهم ليست عامة للناس بما هم ناس، ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر.

تابع ابن رشد عرضه للمسائل الرئيسية لدى المتكلمين (وجود الله، الوحدانية، التنزيه، بعث الرسل، القضاء والقدر، الجرح والتعديل، المعاد...) مستخدماً منهجه الذي التزمه منذ

البداية في الرد على آرائهم، لكن هل كان ابن رشد في معرض رده عليهم ينطلق من موقف كلامي يتيح تصنيفه في زمرة المتكلمين؟

للإجابة عن هذا السؤال ينبغي فحص منطلقاته ومنظوره ونتائجه.

ميَّز ابن رشد في انتقاداته بين ثلاثة أنواع من المعرفة:

١- معرفة الجمهور وهي المعرفة الأولى المبنية على علم الحس.

٢- معرفة العلماء وهي ما يدرك بالبرهان.

٣- معرفة المتكلمين، التي وصفها بوصف فيه الكثير من مصطلح الإيديولوجية المعاصر، فهو يقول عنهم: إنهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم، وسبب ذلك العصبية والمحبة، وقد يكون الاعتبار لأمثال هذه الأقاويل سبباً للانخلاع عن المعقولات... فهؤلاء لا شك محجوبون بحجاب العادة والمنشأ فالولاء للانتماء وروابط النشأة والتحزب وسلطان العادة والهوى على حساب أحكام العقل.

وقال عن حججهم أنها سوفسطائية مموهة بمعنى أنها توهم بأنها حجج وهي كاذبة.

وقد تناول ابن رشد آراء المتكلمين وفحصها، وذلك استناداً إلى عدم جدوى الزج بالجمهور في غمار التأويلات والأدلة المركبة والبراهين التي تستوجب إعداداً طويلاً وشاقاً؛ لأنه لن يألفها ولم يقتنع بها ولن ينجم عنها سوى البلبلة والحيرة والانقسام، وإلى أن العلماء لن يقبلوا سوى البراهين التي لا شك في يقينيتها، فقاده الفحص إلى أن دعوى المتكلمين لا تقوم على أسس منطقية ولا وجودية بمعنى مطابقة الوجود على ما هو عليه، غير أن هذه النتيجة ينبغي أن تؤخذ بحذر، ذلك لأن علم الكلام لم يتوقف عند آراء إمام الحرمين الجويني التي اعتمد عليها ابن رشد في محاوراته للمتكلمين، فالجويني هو ختام الطور الأول لعلم الكلام وخلاصته.

أولى ابن رشد المسميات أهمية كبرى، واعتبر أن من الضروري تحديد التعريفات قبل الشروع في المناقشة، وذلك لأن الاختلاف في التسمية أو الاشتراك في الاسم المحض مع تباين المقصود، يقودان إلى البلبلة والخلاف، وفي نفس السياق تعرض إلى مسألة التأويل الذي هو

تحول عن الدلالة المباشرة إلى الدلالة المجازية، معتبراً أن غياب الضوابط والتخليط أفضيا إلى تمزيق الشريعة وإبطال الحكمة المقصودة منها، والانقسام إلى فرق تكفر كل واحدة الأخرى، وختم بمحاولة استنباط قانون للتأويل يحدد ما ينبغي أن يؤول وما ينبغي أن يترك على ظاهره، ومن يجوز التأويل في حقهم ومن لا يجوز اطلاعهم عليه.

لم يتوقف ابن رشد عند تحليل مقدمات الأدلة الكلامية ونزع الالتباس عن المسميات فحسب، إنما أتبع ذلك بتقصي الأسس التي قامت عليها المعرفة الكلامية.

١ - عدم اعتدادها بواقع الوجود ولا بالمعارف التي تراكمت عن ظواهره ومكوناته، فالمتكلمون يصنعون الأدلة التي توافق معتقدهم حتى لو كانت تلك الأدلة تجحد ضرورات الوجود والمعلوم منه، وحتى لو كانت نتائجها تبطل العلم والحكمة.

٢ - الأصل في الأدلة الكلامية هو الوقوف في الجانب المقابل للخصوم ومخالفتهم ودحض آرائهم التي يعتقدون بطلانها، وغايتها إثبات خلق الهيولي وحدوث العالم ووجود إله مختار، منفصل عن العالم، مؤثر فيه... بأية وسيلة كانت.

٣- قياس الغائب بالشاهد، فالمعرفة الكلامية في معظمها خوض في غيبات إما محجوبة عن العقول وإما ليست من عالم الشهود، من خلال القياس على ما هو تحت طائلة العقل وضمن عالم الشهود، فالإنسان هو المعيار والحياة الدنيا هي النموذج والعقل البشري هو الأداة، وعلى الرغم من أن ابن رشد قد أشار في أكثر من موضع إلى خطل هذا القياس وتعسفه إلا أنه لم يغلق الباب بالكلية أمام البحث في هذه المسائل شريطة البقاء داخل دائرة البرهان ومقاصد الشرع وضوابط التأويل.

وقد اعتبر ابن رشد أن للفرق الكلامية دوراً في الاضطرابات الفكرية ولانقسامات التي تعرض لها المسلمون، وأن من شأن بعض الأدلة الكلامية تقويض العلم الطبيعي والفلسفة (البرهانية)، وإذا أضفنا إلى ذلك سوء الفهم الذي صور للبعض أن ثمة تعارضاً بين الحكمة والشريعة، فإن دراسة ابن رشد للآراء الكلامية هي في التحليل الأخير تشخيص لأدواء العقل المسلم من وجهة نظره، فمقاربته إذاً ليست كلامية، إنما نقدية بالمعنى الفلسفي، من قبل أنها تقبت عن الأسس والمكونات ورصدت الآثار والتبعات.

د- نقد موسى بن ميمون القرطبي لعلم الكلام الإسلامي:

ذكر ابن ميمون في كتابه دلالة الحائرين أنه درس أعمال كل من الفلكي جابر بن أفلح الإشبيلي والفيلسوف أبي بكر الصائغ السرقسطي (ابن باجة) ولم يأت على ذكر ابن رشد ضمن أساتذته، لكنه ذكر في إحدى رسائله التي سطرها عام١١٩١م أنه جمع كل مؤلفات ابن رشد ما عدا كتابه الحس والمحسوس وعلى خُطا هذا الأخير، تناول بالنقد آراء المتكلمين في دلالة الحائرين دون أن يفرد لهم كل الكتاب، ومعروف أنه ألف كتابه هذا بين عامي١١٨٦م و١١٩٠م بينما فرغ ابن رشد من كتابه الكشف عن مناهج الأدلة١١٧٩م.

بدأ ابن ميمون حديثه عن علم الكلام الإسلامي بتمهيد تاريخي كشف فيه عن جذور علم الكلام، فقال: كل ما قالته فرق الإسلام في تلك المعاني، المعتزلة منهم والأشعرية هي كلها آراء مبنية على مقدمات، تلك المقدمات مأخوذة من كتب اليونانيين والسريانيين الذين راموا مخالفة آراء الفلاسفة ودحض أقاويلهم، وكان سبب ذلك أنه لما عمت الملة النصرانية لتلك الملل، ودعوى النصارى ما قد علم وكانت آراء الفلاسفة شائعة في تلك الملل، ومنهم نشأت الفلسفة ونشأ ملوك يحمون الدين، رأى علماء تلك الأعصار من اليونان والسريان، أن هذه دعاوى تناقضها الآراء الفلسفية مناقضة عظيمة بينة، فنشأ فيهم علم الكلام هذا وابتدؤوا ليثبتوا مقدمات نافعة لهم في اعتقادهم، ويردوا على تلك الآراء التي تهد قواعد شريعتهم.

فلما جاءت ملة الإسلام ونقلت إليهم كتب الفلاسفة، نقلت إليهم أيضاً تلك الردود التي ألفت على كتب الفلاسفة، فوجدوا كلام يحيى النحوي وابن عدي وغيرهما في هذه المعاني، فتمسكوا به وظفروا بمطلب عظيم بحسب رأيهم، واختاروا أيضاً من آراء الفلاسفة المتقدمين كل ما رآه المختار أنه نافع له، وإن كان الفلاسفة المتأخرون قد برهنوا بطلانه كالجزء والخلاء، ورأوا أن هذه أمور مشتركة ومقدمات يضطر إليها كل صاحب الشريعة، ثم اتسع الكلام وانحطوا إلى طرق عجيبة، ما ألم بها قط المتكلمون من يونان وغيرهم لأن أولئك كانوا على قرب من الفلاسفة.

ثم أيضاً جاءت في الإسلام أقاويل شرعية خصيصة بهم احتاجوا ضرورة أن ينصروها أو وقع بينهم أيضاً اختلاف في ذلك، فأثبتت كل فرقة منهم مقدمات نافعة لها في نصرة رأيها.

فمقدمات علم الكلام بحسب ابن ميمون مأخوذة من كتب اليونان والسريان الذين تحولوا إلى المسيحية وراموا الدفاع عنها في مواجهة آراء الفلاسفة التي كانت شائعة في أوساطهم، وعلى أساس هذه الرواية يكون علم الكلام قد نشأ في خضم الصراع بين الدين والفلسفة، واستخدام منذ البداية في محاربة الآراء الفلسفية التي كان يعتقد أنها تتعارض مع قواعد الدين، فالعداء بين الفلسفة والدين ومحاولات التوفيق بينهما تعود إلى ما قبل الإسلام.

وبعد المدخل التاريخي لخص ابن ميمون القاعدة التي قام عليها علم الكلام بقوله: لا اعتبار بما عليه الوجود؛ لأنها عادة يجوز في العقل خلافها بمعنى أن المتكلمين لا يتبعون الظاهر من أمر الوجود ويجعلونه تابعاً للآراء، فهم يتأملون كيف ينبغي أن يكون الوجود حتى يكون منه دليل على صحة هذا الرأي أو لا يناقضه، فإذا صح ذلك التخيل فرضوا أن الوجود هو على صورة كذا... وهذا تقريباً ما قاله ابن رشد مع الفارق أن ابن ميمون اعتبرها قاعدة كل المتكلمين الأول من اليونانيين المتنصرين ومن الإسلام لاسيما أنه رجع بعلم الكلام إلى جذوره التاريخية التي تعود إلى ما قبل الإسلام.

وأن أول ما أخضعه ابن ميمون للفحص هو دليل حدوث العالم، فخلص إلى أنه ليس برهاناً قطعياً إلا عند من لا يعلم الفرق بين البرهان وبين الجدل وبين المغالطة ومضى إلى القول بأن هذا الدليل لا يستقر للمتكلمين حتى يبطلوا الوجود كله ويلتجئون إلى مكابرة المحسوسات، واعتبر أن أدلتهم على وجود الله ووحدانيته ونفي الجسمانية عنه لا تختلف عن دليل حدوث العالم من قبل أن مقدماتها إلا اليسير منها يناقضها المشاهد من طبيعة الوجود، وتطرأ عليها الشكوك وإن أفنوا أعمارهم في إثباتها ودفع ما يلحق بها من شكوك ودفع تناقضها مع ظاهر الوجود.

ومن هنا كانت مطالبته بضرورة أن يعتبر هذا الموجود على ما هو عليه وبأن تستمد المقدمات من المعلوم من أمر الموجودات، واستنتج من ذلك أن من ذلك أن من يرومون الاستدلال من الوجود على ما سواه لابد لهم من معرفة صورة الوجود.

جمع ابن ميمون كل المقدمات التي وضعها المتكلمون، على اختلاف فرقهم لإثبات مطالبهم الأربعة (حدوث العالم، وجود الله، الوحدانية، نفي الجسمانية) في اثنتي عشرة مقدمة،

وشرح كل مقدمة وبين تبعات القبول بها وتوصل إلى أن المقدمة الأولى (إثبات الجوهر الفرد) هي التي ألزمت المتكلمين قبول مقدمة أن الزمان مؤلف من أنات ومقدمة وجود الخلاء ذلك أنهم رأوا بلا شك براهين أرسطو التي برهن بها أن المسافة والزمان والحركة المكانية ثلاثتها متكافئة في الوجود أي إذا انقسم الآخر بنفس النسبة.

فإذا كان الزمان متصلاً وغير متناهي الأجزاء، فإن المسافة أيضاً يجب أن تنقسم إلى ما لا نهاية من الأجزاء، فأبقوا على الزمان والمسافة غير متصلين ومؤلفين من أجزاء متناهية، أما وجود الخلاء فلأنهم رأوا فيه شرط الحركة التي تجمع الأجزاء وتفرقها، واعتبر أن عدم اتصال المسافة، الذي تقرره المقدمة الأولى يفضي إلى تقويض جميع البراهين الهندسية جزئياً أو كلياً.

ففي حالة تنصيف الخطوط تبطل إذا كانت عدد الأجزاء الخط فردياً ولا تبطل إذا كان زوجياً، وفي حالة خواص التباين والاشتراك في الخطوط والسطوح وكون خطوط منطقة وغير منطقة وكل ما تضمنته عاشرة إقليدس [المقادير غير القياسية] وما شابه ذلك تبطل البراهين على الجملة، ولو صحت مقدمة وجود الخلاء لما صحت الحيل التي أوردها بنو موسى في كتاب الحيل على الرغم من أنها مبرهنة ومجربة عملياً.

تابع ابن ميمون عرض المقدمات الواحدة تلو الأخرى مبيناً مخالفتها للواقع والحس والمعرفة العملية في زمانه غير أنه توقف طويلاً عند المقدمة العاشرة التي وصفها بأنها عمدة علم الكلام، وتنص هذه المقدمة على أن الممكن لا يعتبر بمطابقة هذا الوجود لذلك التصور وهو ما يعرف بمبدأ التجويز العقلي الذي يعتبر كل متخيل جائزاً عند العقل، وأن الموجود بدقة مقاديره وانتظام أحواله ليس سوى عادة، ويمكن أن يكون على هذا الشكل أو غيره.

ولفت ابن ميمون الأنظار إلى أن المتكلمين مع إقرارهم بجواز المتخيلات لم ينفوا المستحيلات مثل اجتماع الضدين ميمون في نفس الزمان والمكان، ومثل وجود جوهر لا عرض له أصلاً أو عرض من دون محل في رأي بعضهم وأوضح أن ما يعتبرونها ممكنات بدعوى أنها جائزة عقلياً ما هي إلا تخيلات ذلك أن العقل يفعل المركبات ويميز أجزاءها ويجردها ويتصورها بحقيقتها وأسبابها، وقارن بين موقفي المتكلمين والفلاسفة ليخلص إلى ضرورة التمييز بين المعقولات والتخيلات، فالفيلسوف يتخذ الوجود معياراً يقاس عليه

الواجب والجائز والممتنع، بينما يدفع المتكلم بأن الموجود قد وجد بإرادة لا لزوم فيها ولا ضرورة، وإذا فعل بهذه الصفة فيجوز أن بفعل بخلافها إلا أن يقطع التصور العقلي أنه يجوز خلاف هذا.

لاحظ ابن ميمون أن المتكلمين لا يفرقون بين اللامتناهي الكبر واللامتناهي الصغر من قبل أنهم ينفون وجود ما لا نهاية له على أي حال كان، فالأشياء التي لا نهاية لها والتي لا نهاية لعددها والتي تنقسم إلى ما لا نهاية كلها وجودها ممتنع.

جعل ابن ميمون من إتهام المتكلمين لإدراك الحواس مقدمة من مقدماتهم الثانية عشرة ولخصها بقوله: إن الحواس تخطئ ويفوتها كثير من مدركاتها، فلذلك لا يدعي حكمها ولا تؤخذ مطلقة مبادئ برهان، وعزي أهمية هذه المقدمة إلى كونها خط دفاعهم في مواجهة كل من يتهمهم بمخالفة ضرورات الحس.

تبدو أوجه التشابه ونقاط الاتفاق في مواقف كل من ابن ميمون وابن رشد من علم الكلام جلية واضحة، والمقاربة المنهجية تكاد تكون واحدة في العملين، فكلاهما عمد إلى تقصي الأسس المعرفية التي قام عليها علم الكلام وأخضعها للتحليل النقدي وكشف آثارها ونتائجها، ومع ذلك فهنالك بعض اختلافات في الشكل والمضمون ففي الشكل، على سبيل المثال وضع ابن رشد لكل مسألة كلامية أو مطلب مقدماتها وناقش المقدمات في سياق المسألة بينما رصد ابن ميمون كل مقدمات المتكلمين وتناولها بالتحليل والنقد قبل إلحاقها بالمسائل.

وهذا أشبه ما يكون بالنسق الإقليدي في الهندسة وفي المضمون حدد ابن رشد هدفه في فحص الظاهر من العقائد التي قصد الشرع حمل الجمهور عليها بينما قصد ابن ميمون من تأليفه لكتاب دلالة الحائرين إطْلاع تلميذه النجيب يوسف بن عقنين على أسرار الكتب النبوية والأمور الإلهية ومقاصد المتكلمين وطرائقهم، وتلميذه هذا كان قد قطع شوطاً في دراسة التعاليم وصناعة المنطق، كما جاء في مقدمة الكتاب، لذا فقد استفاض ابن ميمون في عرض المسائل العلمية الدقيقة وآراء الفلاسفة المركبة، فالمخاطب فيلسوف أو على الأقل توفرت له المعرفة الكافية لفهم تلك الأمور.

وها هما ابن رشد المسلم وابن ميمون اليهودي يوجهان نفس الانتقادات لمنهج ونتائج ومقدمات ونتائج أهل الكلام فهل الخليفة الفلسفية الأرسطية لكليهما هي التي تفسر ذلك التشابه أم أنها خصوصية الفكر الأندلسي؟

صحيح أن موقف ابن رشد من المتكلمين يمثل امتداداً لموقف أستاذه ابن باجة(ت٥٣٣هـ) الذي اعتبر أن منطق أرسطو قد جب ما قبله من أقاويل الفلاسفة السوفسطائية والجدلية التي سقطت كلها فيها عدا ما أخذه المتكلمون الذين لا ينبغي أن يعتد بآرائهم؛ لأن هؤلاء القوم لم يقصدوا النظر في الطباع حتى أن منهم من يبطل وجودها، بل إنما عرض لهم في مناقضة خصومهم أن تكلموا في شيء يسير منها كقول من يقول بالجزء الذي لا يتجزأ غير أن نظرهم في ذلك لا لأجل أن يعطوا أسباب هذه الأمور الطبيعة، بل من أجل ما عثروا عليه في مناقضة بعضهم بعضاً رأينا أن نطرح هذا الجزء من البرهان، ونقصد قصد البرهان غير أن نقد ابن رشد تضمن عنصراً جديداً لا نجد جذوره عن ابن باجة، وهو ما يمكن أن نطلق عليه التحاكم إلى مقاصد الشرع.

وإذا بحثنا عن جذور هذا العنصر فإننا نجدها في فتوى أصدرها ابن رشد الجد نصت على وجوب أن يمنع صاحب الأمر العامة والمبتدئين عن قراءة مذاهب المتكلمين الأشعريين ويمنعهم من ذلك غاية المنع، مخافة أن تنبو أفهامهم عن وهمها فيضلوا بقراءتها، ويأمرهم أن يقتصروا فيما يلزمهم اعتقاده على الاستدلال الذي نطق به القرآن ونبه الله عليه عباده في محكم التنزيل، إذ هو أبين وأوضح لائح، يدرك ببديهة العقل بأيسر تأمل في الحين ويبدو جليا أن الموقف الذي تعبر عنه فتوى ابن رشد الجد لا يمت بأدنى صلة للمشائية الأندلسية، فلا يمكن إذا اعتبار نقد ابن رشد الحفيد للمتكلمين مجرد صدى لازدراء المشائين لكل الفلسفات التي سبقت أرسطو، ذلك لأنه يمثل توليفا ليست المشائية سوى أحد عناصره.

وفي سياق آخر وصف ابن ميمون يهود الأندلس من علم الكلام بقوله: الأندلسيون من أهل ملتنا كلهم يتمسكون بأقاويل الفلاسفة ويميلون لآرائهم ما لا تناقض قاعدة شريعة ولا تجدهم بوجه يسلكون في شيء من مسالك المتكلمين فالأندلسيون إذاً من المسلمين واليهود لم يجدوا ضالتهم في علم الكلام.

فالقاضي المالكي ابن رشد الجد وابن حزم الظاهري والقاضي والفيلسوف ابن رشد الحفيد واليهودي ابن ميمون، على اختلاف مواقعهم الفكرية قد اجتمعوا على رفض المقاربة الكلامية، مما قد يدفع إلى الاعتقاد بوجود سمة مشتركة للعقل الأندلسي يمكن تلخيصها في تحرره النسبي من الإيديولوجية ومن النزعة التلفيقية روح علم الكلام، وهذه ليست شهادة تفوّق ولا اعتراف بفضل إنما هي تقدير لواقع صنعته الظروف التاريخية، فبيئة الأندلس وتركيبته السكانية ووضعية الإقليم وبوصفه أحد الأطراف المرتبطة بالمركز وأحد ثغور المواجهة مع الأعداء وواقعه السياسي والاجتماعي، كل هذه العوامل أثمرت مشهداً ثقافياً اختلفت ملامحه عما كان عليه الأمر في المشرق الذي تعددت أقاليمه وتنوعت مكوناتها الثقافية وتباينت مساراتها.

ولا ينبغي أن يفهم من التركيز على النقد الأندلسي لعلم الكلام أن المشرق كان مجمعاً على قبول علم الكلام وتبني مواقفه ومناهجه ونتائجه، فقد تعرض علم الكلام في المشرق أيضاً لانتقادات حادة من جهات عديدة مثل أهل الحديث والسلفيين والصوفية وغيرهم.

ومن أبرز تلك الانتقادات ما سطره ابن تيمية في كتابه "الرد على المنطقيين" الذي اعترض فيه على تنصيب المنطق معياراً وحيداً وشاملاً للفكر وعاب على المتكلمين ردهم ما صح من الفلسفة بمعنى ما يعلم بالمشاهد والحساب الصحيح من أحول الفلك، واعتبر أن رد العلم الصحيح المعقول الذي أتى به الفلاسفة من بدع أهل الكلام وأن طرقهم في مناظرة الفلاسفة في العلم الإلهي فاسدة حائدة عن مسلك الشرع والعقل، وأن أكثر أقوالهم في العلوم الطبيعية والرياضية بلا علم ولا عقل ولا شرع.

فابن تيمية وإن قبل العلم الصحيح إلا أنه لم يقبل المنطق، وبالتالي فإنه لا يأخذ على المتكلمين فساد أقيستهم وبراهينهم، أما ابن سينا فكان نقده للمتكلمين بمثابة رد الكلام الشيعي على الكلام السني، فهو لم يتمكن من الانخلاع عن انتمائه الشيعي لعلم الكلام، فإن ما يمكن استخلاصه منهما هو أن النقد لم يتخذ من منظومة العلم لذلك الوقت قاعدة ينطلق منها، كما أنه كان متأثراً بدرجة كبيرة بالخلافات الإيديولوجية.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل السادس

القضايا التي استحوذت على اهتمام المتحاورين الأندلسيين

وأهم القضايا التي استأثرت باهتمام الأطراف المتحاورة هي ما يلي:

١ - دحض حجج أهل الكتاب المتعلقة بمذاهبهم المتعددة.

٢ - ومن ثم البرهنة على بطلان حججهم.

٣- وبيان فساد مذاهب النصارى المتعلقة في القول بفكرة الاتحاد والحلول.

٤ - والبرهنة النقلية والعقلية من كون التوراة والإنجيل محرفين لا يشبهان ما أنزل على النبيين موسى وعيسى عليهما السلام.

٥ - إثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

٦ - والمقارنة الشرعية والنقلية والعقلية بين عديد من الشعائر الإسلامية وما يقابلها في النصرانية واليهودية.

٧- الشعائر في الديانتين اليهودية والنصرانية قد دخلها كثير من الزيادة والنقصان.

٨- أصبحت الديانتان اليهودية والمسيحية المحرفة لا تتواءمان مع الشرع الإلهي والعقل الإنساني.

٩- تبقى الشعائر الإسلامية التي لم تحرف هي الصحيحة.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل السابع

انتقال المحاورات الأندلسية للمغرب

انتقلت المحاورات الأندلسية إلى البر المغربي وأصبحت هذه المحاورات الجدلية بين أتباع الديانات السماوية الثلاث في الأندلس نبراساً يقتفي أثره علماء ما بعد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وكذلك بعد سقوط الأندلس النهائي، نجد مصداق ذلك في محاورات الموريسكي محمد الكازر التي دونها في كتاباته، بل إن المحاورات والمجادلات الدينية بالأسلوب الأندلسي قد انتقلت إلى البر المغربي، حيث يقوم أحد الفارين من الأندلس إلى المغرب وهو: أبو العباس أحمد بن القاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الذي فرَّ من الأندلس عام ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨هـ وسجل قصة فرارة في كتاب لم يصلنا عنوانه: "رحلة الشهاب إلى الأحباب".

أقول: ألف الشهاب الحجري كتاباً آخر لم يصلنا عنوانه: " العز والرفعة والنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" نقل فيه محاورته راهب نصراني بأسلوب المكاتبة وهو الأسلوب نفسه الذي كان سائداً في الأندلس قبل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ولم يكتف الشهاب الحجري بالبر المغربي؛ لأننا نجده قد شد الرحال مجادلاً ومحاوراً علماء النصرانية في عقر دارهم في فرنسا وهولندا، ودوّن ملخص لمحاوراته ومجادلاته في كتاب سماه: " ناصر الدين على القوم الكافرين".

والواقع أن قمة المحاورة والمجادلة الدينية بين علماء الأديان السماوية الثلاث وقعت في القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، ولعل ذلك راجع إلى روح التسامح الديني، التي سادت مدن الأندلس قاطبة، وليس من المستبعد أنه راجع أيضاً لنشاط حركة التنصير، الشيء نفسه يمكن أن يقال عن زيادة عدد الداخلين في الإسلام من شباب النصارى واليهود نتيجة للمحاورات الدينية، وعلى الأخص شباب نصارى إشبيلية

الذين اعتنق مجموعة منهم الإسلام، لقد نشطت موجة كتابة الردود من قبل أحبار اليهود في القرن السادس الهجري؟ الثاني عشر الميلادي، وتوسعت دائرة الجدل الديني بين علماء الأديان السماوية في الأندلس.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل الثامن

أبرز من تصدى لحركة التنصير

أو حركة التأليف اليهودية من المسلمين

بأسلوب المجادلات والمناظرات الدينية الإمام أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـ) والشيخ أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي (ت ٥٨٢هـ) والشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ) لقد قام كل منهم بعمل فكري وجدلي كبيرين، وناقشوا قضايا عقيدية وتشريعية في الدينين (النصراني واليهودي) محاولين البرهنة على فسادها وعورها.

١- ابن حزم: فند عقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب وعقيدة صلب المسيح وأنسنة الإله، وتأليه الإنسان، وعقيدة التثليث، كل ذلك وغيره ورد في مؤلفاته الموسوعية:

(الفصل في الملل والأهواء والنحل) و(الأصول والفروع) و(الرد على ابن النغريلة اليهودي) وكانت مجادلات ابن حزم شاملة وعميقة وقاسية، وكانت مؤثرة لدرجة أن علماء التوراة اليهود أدخلوا تغيرات في النصوص التوراتية نتيجة مجادلات ابن حزم مثل ما فعل موسى بن ميمون (ت ٦٠٣هـ) الذي تأول مُعظم النصوص التجسيمية الواردة في التوراة بناء على ملحوظات ابن حزم ونقده، وفي هذا الشأن يقول السموءل بن يحيي المغربي (ت ٥٧٠هـ) في كتابه: "بذل المجهود في إفحام اليهود" ما نصه:

"عندهم- يقصد أهل الكتاب- من كفريات التجسيم كثيراً، على أن أحبارهم تهذبوا كثيراً عن معتقدات آبائهم بما استفادوه من عندهم بما يدفع إنكار المسلمين عليهم ما تقتضيه الألفاظ التي فسروها ونقلوها، وصاروا متى سُئلوا عما عندهم من هذه الفضائح استبرؤوا بالجحد والبهتان من فضيع ما يلزمهم من الشفاعة.

٢- الشيخ أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي: فقد ركز على نقد عقيدة الألوهية لدى أهل الكتاب، وعقيدة صلب المسيح، وكذلك نقد الأناجيل المعتمدة لدى النصارى في زمنه، وقد ألف الخزرجي كتابه العظيم الموسوم: "مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض الإيمان" وهو كتاب تم تحقيقه مرتين، وله كتاب آخر لا زال مخطوطاً عنوانه: "مقام المدرك في إفحام المشرك" وللخزرجي تجربة فريدة، فقد تم أسره من قبل الفرنج النصارى، وفي مقامه ذاك تمت محاولات عديدة لتحويله من الإسلام إلى النصرانية، ولكنه قاوم بشجاعة العالم، ورد وفند ما أثير حول الإسلام من قبل آسريه.

٣- الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: صاحب كتاب "الجامع لأحكام القرآن" الذي جادل حول تناقضات الإنجيل، وبرهن على صدق وقوع تحريف التوراة، وناقش قضية صلب المسيح، كما أنه أبان بطلان كثير من المعجزات النصرانية، وكتب كثيراً من الردود ورد على القس حفص بن البر صاحب كتاب "العقائد" وهو كتاب اتخذ بمثابة دليل ومعين للمجادلين النصارى عند تحاورهم مع المسلمين، وينسب للقس حفص بن البر أنه نظم مزامير داود شعراً.

ألف القرطبي كتاباً شاملاً في الجدل الديني أسماه: "الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام".

ويرى المؤرخون أهمية كبيرة لكتاب الخزرجي في ميدان الجدل الديني لموسوعية حجمه وكبره، وتطرقه للخلاف العقدي بين الإسلام والنصرانية.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل التاسع

الجدل الديني خلف علم مقارنه الأديان

إن مؤلفات أولئك العلماء، خصوصاً مؤلفات الإمام ابن حزم قد بُنيت على قواعد صلبه، أدت إلى نشوء علم اسمه: علم مقارنه الأديان وقواعده، لقد كان ابن حزم رائداً في ميدان النقد التاريخي، ورائداً في ميدان الفلسفة والعقليات، ويكفي أنه أول من نص على دور بولس الرسول في تحريف الإنجيل، وهو قول سبق به علماء النصرانية واللاهوت النصراني في العصر الحديث، وكان ابن حزم أكثر علماء الأندلس مجادلة ومناظرة لعلماء اليهود، ولقد كان ابن حزم صريحاً وواضحاً في مداخلاته الدينية، وكان لا يقر ما عليه الصوفيين في كل الأديان، ولكن نصيب الصوفيين المسلمين من نقده يُعد الأكثر والأقوى، وكان يرى أن الصوفية تُفسد الدين.

وقد كان نصيب الصوفي محمد بن عيسى الإلبيري من هجوم ابن حزم كبيراً، ولا يُستبعد كما يقول المستشرق الإسباني آسين بالإثيوس من أن محمد بن عيسى هذا من تلاميذ مدرسة محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح القرطبي الصوفي المشهور (ت ٣١٩هـ) وهي مدرسة لعبت دوراً في نشر الصوفية الإسلامية في الأندلس.

لقد شكلت النقاشات الحامية التي جرت بين علماء الأديان الثلاثة مقدمة ضرورية، ورصعت صفحات ناصعة في ميدان الحوار الديني، وكانت الروح المتسامحة السائدة بين المتحاورين هي ما شجع عدداً من العلماء من مختلف الطوائف للدخول في دائرة الجدل الديني، ما دام أنهم لن يتعرضوا للمساءلة أو العقاب من قبل المسؤولين الحكوميين، لدرجة أن بعض القضاة الذين يشهدون المحاورات الدينية يصمون آذانهم عندما يتلفظ أحد المتحاورين من أهل الكتاب بما يعد قذفاً في جنب الإسلام أو نبيه، وذلك خشية أن يوقع عليه العقوبة المشروعة.

وقد بلغ من اتساع دائرة التسامح الديني آنذاك أن القاضي محمد بن عمر بن لبابة (ت ٣١٤هـ) أفتى بعدم إيقاع حد الردة على يافع أندلسي بعد إسلامه بسبب ضغط أبويه، ومثل هذا فتوى القاضي عبيد الله بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) بخصوص فتى أندلسي رأى النكوص عن إسلامه بعد أن سجله القاضي، وجاء للقاضي لتسجيل رجوعه لدينه السابق، النصرانية، فتم له ما أراد.

ومما يسهل ملاحظته أن المحاورة الدينية بين المسلمين واليهود في الأندلس أكثر وأشمل من مثيلاتها في الشرق الإسلامي، نظراً للثقل الثقافي اليهودي في الأندلس وقتذاك، وأمر آخر لا يقل وضوحاً عن سابقة وهو: أن أسلوب المناظرة، ومنهجية المحاورة وطرائق المجادلة الأندلسية قد أثرت في شكل وطبيعة المحاورات في الشرق الإسلامي، ودليلنا على ذلك أن القرافي (ت ٦٨٤) وهو من علماء المشرق قد تأثيراً كثيراً بالخزرجي، لدرجة أن من لا يعرف القرافي يعده من علماء الجدل الأندلسيين.

إن الجدل الديني بين الديانات المساوية الثلاث شكل سمة من سمات الحوار الحضاري الذي عرفته الأندلس، وهو حوار حضاري، أنتج العقلية الأندلسية المتفتحة، وأدى إلى لقاء الثقافات المختلفة على صعيد واحد، وأدى إلى تلاقح العقول، وهو حوار حضاري ما أحوجنا اليوم لمثله، فقد أثبت التجربة الأندلسية أنه إذا ما توفرت الأجواء الصحيحة والتسامح، فإن الدين لا يشكل عقبه أمام الحوار الحضاري، وإن الدين لا يصبح كما يقول البعض من أنه كان سبباً من أسباب الصدام الحضاري، وإذا ما ابتعد عن التعصب والتحزب، والجدل الديني كما اتضح من التجربة الأندلسية، جدل قائم على قبول الرأي والرأي الآخر، وعلى فتح باب الخيار أمام المتجادلين وغيرهم، وعدم إجبارهم على قبول ما لا يرضون، أو التقليل من شأنهم.

ولم يرد في المصادر ما يشير إلى أن المتجادلين والمحاورين من أتباع النصرانية أو اليهودية قد تعرضوا للضرب أو السجن، ناهيك عن القتل، وهذا هو الجدل الديني المطلوب، الجدل الديني الذي يؤدي إلى حوار حضاري، وهو الحوار الحضاري الذي شهدته الأندلس، وقام بين الحضارة الإسلامية وحضارة أهل الكتاب بشقيها اليهودي والنصراني.

الباب الحادي والثلاثون

الفصل العاشر

القصة الفلسفية الأندلسية

رواية حي بن يقظان لابن طفيل
عندما لا تتعارض الفلسفة مع الدين
(من الأدب الأندلسي)

أ- مؤلفو القصة:

١ - قصة عربية تحكي قصة شخص يدعى حي بن يقظان نشأ في جزيرة وحده.

٢ - وترمز للإنسان، وعلاقته بالكون والدين.

٣- كما تحتوي على العديد من القصص والأساطير الفرعية، أنشأها فلاسفة، واحتوت مضامين فلسفية.

٤ - أول منشئ لقصة حي بن يقظان هو الفيلسوف ابن سينا، وفعل ذلك أثناء سجنه.

٥ - ثم أعاد بناءها شهاب الدين السهروردي.

٦ - وبعدها كتبها الفيلسوف العربي الأندلسي ابن طفيل.

٧- ثم كانت آخر رواية للقصة من قبل ابن النفيس الذي تنبه إلى بعض المضامين الأصلية الخاصة بابن سينا، والتي لم تكن توافق مذهبه، فأعاد صياغتها لتكون رواية حي بن يقظان عن صالح بن كامل.

٨- أشهر مؤلف من بين هؤلاء الأربعة التصقت القصة باسمه هو ابن طفيل، ومن شهرة هذه الرواية الفلسفية، فإن قصصاً غربية مثل قصة روبنسون كروزو وطرزان قد استوحيت من هذه القصة.

ب- القصة:

إن ولادة حي بن يقظان تبقى لغزاً، ومع ذلك فإن الرواية السائدة تقول: إن حي بن يقظان قد ولد تولداً جسدياً مألوفاً من أم هي شقيقة ملك إحدى الجزر الهندية، ومن أب هو قريب لها اسمه يقظان، كانت شقيقة الملك قد تزوجته خفية عن شقيقها الذي منعها من الزواج، وعندما وضعت المرأة طفلها خشيت من نقمة شقيقها الملك، فوضعت الطفل في تابوت وألقته في البحر، حملت الأمواج التابوت حتى ألقته على ساحل جزيرة مجاورة هي جزيرة الواق واق، وصادف أن مرت في المكان الذي استقر فيه التابوت ظبية كانت تبحث عن ابنها الذي فقدته فسمعت صوت بكاء الطفل فاتجهت نحوه، وكان أن عثرت على حي الوليد فأرضعته وحضنته.

يكبر حي بن يقظان وتمر حياته في سبع مراحل:

١- أما الأولى فهي إرضاع الظبية لحي وحضانتها ورعايتها له حتى جيل سبع سنوات.

٢- ثم بعد ذلك المرحلة الثانية وفاة الظبية وتشريحها من قبل حي لمعرفة سبب الوفاة، وهنا بدأت تتكون عند حي المعرفة عن طريق الحواس والتجربة.

٣- أما المرحلة الثالثة فكانت في اكتشاف النار.

٤- أما المرحلة الرابعة فكانت في تصفحه لجميع الأجسام التي كانت موجودة حوله، فكان بذلك يكتشف الوحدة والكثرة، في الجسم والروح، واكتشف تشابه الكائنات في المادة واختلافها في الصور.

٥- أما المرحلة الخامسة فكانت في اكتشاف الفضاء، وهذا شجعه على الخروج من رصده إلى معارف في العالم بقدمه وحدوثه.

٦- عند بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره، بدأ حي مرحلته السادسة وهي الاستنتاج بعد التفكير، فتوصل إلى أن النفس منفصلة عن الجسد وفي التوق إلى واجب الوجود.

٧- وأخيراً: يصر حي بن يقظان، في المرحلة السابعة على أن سعادته تكون في ديمومة المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود ورغبته في البقاء داخل حياة رسمها هو لنفسه.

ج- الفلسفة والعقل والدين:

١- صبّ ابن طفيل في هذه القصة آراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة أو بين الفلسفة والدين في قالب روائي قصصي.

٢- وتمثل القصة العقل الإنساني الذي يغمره نور العالم العلوي، فيصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل بعد أن تلقاها الإنسان عن طريق النبوة.

٣- تؤكد قصة حي بن يقظان على أهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية.

٤- وقد تركت آثارها على كثير من الجامعات والمفكرين وتُرجمت إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة.

٥- في قصة حيّ بن يقظان جوانب من النضج القصصي، وإن كان قالب القصة ليس سوى إطار لصب الآراء الفلسفية والصوفية في النص.

٦- وقد قدَّر كثير من النقاد هذا الجهد القصصي لابن طفيل فعدوا حيَّ بن يقظان أفضل قصة عرفتها العصور الوسطى جميعاً.

الباب الثاني والثلاثون

أعلام النثر الأندلسي

الباب الثاني والثلاثون

الفصل الأول

ابن حزم الأندلسي

١- اسمه:

علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن يزيد، ويزيد هذا كان مولى ليزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أخي معاوية، وكنيته أبو محمد بن حزم الأندلسي.

٢- ولادته:

ولد أبو محمد ابن حزم الأندلسي في آخر يوم من رمضان سنة ثلاثمئة وأربع وثمانين للهجرة، وكانت ولادته في حي منية المغيرة أجمل أحياء قرطبة.

٣- نشأته:

نما أبو محمد وترعرع في قصر حزم حيث تولى عميد الأسرة أحمد بن حزم وزارة المنصور، ولما كان أبو محمد من أبناء الأكابر وأصحاب الطبقة العليا في المجتمع فمن الطبيعي أن ينال قسطاً وافراً من التعليم، ولم يمنع وسط البلاط الذي قضى فيه شبابه عقله الوثاب للتكمل بمختلف العلوم، فهو يعيش في بحبوحة من العيش وعز من السلطان وكان يعتز بأنه طلب العلم لذات العلم يرجو به ما عند الله فلا يطلب به جاهاً ولا ثراء.

وقد حدثنا عن تعليمه في طفولته وحداثته فقال: "لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري؛ لأنني ربيت في جحورهن، ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وهن علمنني القرآن ورويننني كثيراً من الأشعار ودربننني على الخط ".

وقد أرسله أبوه إلى أفاضل الشيوخ ليتم على يديهم تعليمه، فذاق مرارة العيش منذ صغره عندما قتل سند الأسرة ومعينها الأول، وابنه ما زال في بداية سن الشباب طري العود، ومع

ذلك فقد واجه الشاب الحياة وظروفها القاسية بجلد وصبر يـذيب الحديـد، وبعـد وفـاة أبيـه بفترة اضطر إلى مغادرة قرطبة التي كانت قد مزقتها الحـروب الأهليـة، وكـان سـنه آنـذاك لا تتجاوز العشرين سنة.

٤- سيرته وحياته:

أخذ ابن حزم على عاتقه الدفاع عن الأسرة الأموية ضد البربر فرحل إلى المريـة حيـث راح يعمل على توحيد الصفوف من أجل استعادة العرش الأموي المفقود، ولكن حاكم المرية تنبـه له فسجنه، ثم نفاه مع صاحبه أحمد بن إسحق فذهب الصديقان إلى (حصن القـصر) فرحـب بهما حاكمه وتركاه بعد أربعة أشهر بعد أن نودي بعبد الرحمن الرابع المرتضي خليفة في بلنسية، واشترك أبو محمد مع جيش المرتضى في حرب غرناطة، وكان وزيراً لـه فـأسره العـدو، ولكنـه أطلقه بعد مدة ورجع إلى قرطبة سنة ٤٠٩ هـ، حيـث أصـبح وزيـراً للخليفـة عبـد الـرحمن المستظهر سنة ٤١٤ هـ.

ولكن ما لبث الاثنان إلا فترة وجيزة استمرت سبعة أسابيع لقي فيها الخليفة حتفه، ولقـي ابن حزم جدران السجن من جديد حيث انتهت حياته السياسية وبدأت حياته العلمية متفرغاً للعلم والتأليف ونشر آرائه والدفاع عنها.

٥- أساتذته وشيوخه:

تتلمذ أبو محمد على يدي أكابر الشيوخ والمدرسين، منهم أبو علي الحسين بن علي الفـارسي وكان أستاذاً في التربية واستقامة الخلق، قال عنه في طوق الحمامة: (مـا رأيـت مثلـه جملـة علـماً وديناً ورؤيا)، وأبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلـت المتـوفَّى سـنة ٤٢٦ هـ، بالإضـافة إلى الشيخ عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي، وعليه تعلم مختلف العلـوم والمعرفـة، وكـذلك درس النحو واللغة على يدي الشيخ أحمد بن الجسور، وأبي عبد الله محمد بن الحسن المـذحجي، ولـه غير هؤلاء شيوخ كثيرون، فقد سمع سماعاً كثيراً وطلب الحديث على سائر الشيوخ المحدثين، وهي إذ ذاك تغصُّ بالفحول من العلماء.

٦- تلامذته وطلابه:

من طلابه:

أ- تلميذه المخلص الذي حافظ على تراث أستاذه من الضياع ألا وهو الحميدي ابن عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي.

ب- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد العربي المعافري من أهل إشبيلية.

ج- أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد النهري الطرطوشي المتوفَّى سنة ٥٢٠ هـ.

د - أولاده الذين أذاعوا علم والدهم أذكر منهم أبو رافع الفضل بن علي بن سعيد بن حزم.

٧- عقيدته ومذهبه:

كان للحركة الدينية تأثير كبير في توجيه دراسة صاحبنا فقد بدأ بدراسة المذهب المالكي "الموطأ" واستمر ثلاثة أعوام، ثم اعتنق المذهب الشافعي، ثم لم يلبث أن ترك هذا المذهب واعتنق المذهب الظاهري، وقد تشدد في أحكام هذا المذهب والعمل به أكثر من صاحبه الإمام داود الظاهري الأصفهاني،وكان هذا المذهب يدعو إلى رفض الأخذ بالرأي في الأحكام الشرعية.

ولقد تشدد ابن حزم في هذا المذهب وساعده على هذا التشدد كثرة إحاطته الواسعة بالأحاديث النبوية، وكان لحداثته وتعليمه في تلك الفترة أثر كبير في هذا التشدد فكان لا يتبع إلا مصادر الشرع، وكان يقسو على مخالفيه في القول حتى إنه يرميهم بالخروج عن الدين في بعض الأحيان.

قال يشرح وجهة نظره في المذهب الظاهري:

فقلت هل عيبهم غير أني لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم أفن

وإنني مولع بالنص لست إلى ... سواه أنحو ولا في نصره أهن

لا أنثني نحو آراء يقال بها ... في الدين بل حسبي القرآن والسنن

وليس لأصحاب مذهب الظاهر كتب تعرف منها آراؤهم وأصول مذهبهم إلا ما سمح ببقائه الدهر من كتب ابن حزم، حتى قيل: (من أراد الاطلاع على مذهب داود الأصفهاني الظاهري فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري).

٨- مصنفاته وكتبه:

عرف ابن حزم من جميع العلوم التي كانت في متناوله، وترك كتباً في المنطق والفلسفة، إلا أنه قد استكثر جداً من العلوم الشرعية لذا كانت أكثر مؤلفاته دينية، ومع أنه صنف المصنفات القيمة في كل العلوم التي تحقق بها نراه قد عني العناية كلها بأمر واحد وهو تأييد المذهب الظاهري، فقد دافع عنه وطلب له الحجج والمؤيدات إلى أن مات وترك لنا آثاراً كثيرة تطفح بنصرته وشرح أصوله وفروعه ببيان قوي سهل محبوب، ولا شك أنه في سعة المعارف وبلاغة الأسلوب يستحق لقب حافظ الأندلس بلا منازع.

ومن المؤسف أن يضيق علماء عصره وحكامه بحرية ابن حزم وصراحته، حتى أشهروا عليه وعلى كتبه حرباً عواناً لا هوادة فيها، وحتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوا كتبه علناً في إشبيلية فما كان منه إلا أن أنشد أبياتاً بث فيها شكواه وحزنه على كتبه وأظهر تجلداً وصبراً في تحمل ذلك المصاب:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد ... وقولاً بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دون ما تبغونه الله من ستر

أ- كتب ابن حزم الأدبية:

١- طوق الحمامة في الألفة والألاف:

كتب أبو محمد رسالته بعد أن تخطى مرحلة الشباب، وفيه يحلل العواطف النبيلة من حب وبغض من الجانب النفسي ويبين لنا أثر ذلك على نفس كل إنسان، فهو في هذا المؤلف كفقيه متدين ملتزم بالشريعة، ولكنه يعالج الحب من الناحية الدينية فهو يدعو إلى الحجاب والحشمة وفصل الرجال عن النساء والعمل على سد الأبواب والذرائع التي من شأنها أن توجد الأطفال بين الرجال والنساء، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [سورة النور: ٣٠-٣١].

فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب ولطف كيدهن في التحليل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذي ليس وراءه مرمى وهذا أحد التعرض فكيف بما دونه، في هذا المصنف يبدو أبو محمد دقيق الملاحظة، شيق الأسلوب رقيق الشاعرية تناول فيه العشق وألوانه وأوضح فيه أنظاره النفسية، وتمثل فيه بأشعار من نظمه، وقد قسم رسالته إلى ثلاثين باباً، منها عشرة في أصول الحب ومنها في أغراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً ومنها في الآفاق الداخلة على الحب بستة أبواب.

ومنها بابان يختم بها رسالته وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعطف، يقول في الباب الأول: في ماهية الحب- أعزك الله - أوله هزل وآخره جد، رقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل.

ويقول في الباب الأخير فضل التعفف:

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة وألا يرغب عن مجاراة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، إلا يعصي مولاه المتفضل عليه، وإن من هام قلبه وشغل باله واشتد شوقه وعظم وجده، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته وأن يقهر دينه، ثم أقام العدل لنفسه حصناً وأعلم بها النفس الأمارة بالسوء وذكرها بعقاب الله تعالى وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب.

وينهي كتبه بقوله: "ولا تظن بكلمة خرجت من في امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً"، ولخشية أن يتهم بعد ذلك في دينه يقول: "إني أقسم بالله إني ما حللت مئزري على حرام قط ".

٢- وله رسالة في فضل الأندلس أهداها إلى صديقه أبي بكر أحمد بن إسحق وتحتوي هذه الرسالة على لمحة طريفة عن أهم تصانيف مسلمي الأندلسي المتقدمين، وتعتبر هذه الرسالة بالرغم من إيجازها تاريخاً للتفكير الأندلسي وللآداب الأندلسية حتى أوائل القرن الخامس الهجري، يقول: "وبلدنا هذا على بعده عن ينبوع العلم، ونأيه عن محلة العلماء، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز، أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق".

ب- كتبه التاريخية:

يعتبر ابن حزم من عظماء مؤرخي عصره وقد ألف في التاريخ كتباً منها:

١- جمهرة الأنساب أو أنساب العرب: وقد ألفه بعد عام ٤٥٠ هـ، وقد اعتمد عليه ابن خلدون كثيراً.

٢- " جوامع السيرة " عرض فيه عرضاً طريفاً للسيرة النبوية كشف لنا به عن سمة اطلاعه ودقة ضبطه للتواريخ، ووضوح منهجه في معالجة المسائل التاريخية.

٣- حجة الوداع.

على أن أهمية ابن حزم كمؤرخ لا تنحصر فيما خلف لنا من مصنفات وإنما تتجلى في المنهج الذي اصطنعه لدراسة أحداث التاريخ والحكم على وقائع عصره، وهو يحدثنا في رسالته " مراتب العلوم " عن مكانة التاريخ بين غيره من العلوم، فيبين لنا أهمية علم الأخبار ويحدثنا عن التواريخ الصحيحة، ويظهر لنا أن علم الأنساب هو جزء من علم الخبر.

ج- كتبه الفقهية:

١- رسالة في إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، وقد دافع فيه عن رأيه الذي يبطل فيه كل قياس فقهي لا يعتمد على القرآن والحديث، يقول: " إنا لم ننكر ما

نص الله ورسوله، بل ننكر ما أخرجتموه بعقولكم وما أوصيتموه بلا برهان ولا نص، وذلك اعتباراً عن الله بما لم يخبر به، وتقويل لرسوله بما لم يقل".

٢- وكذلك كتابه " الإحكام في أصول الأحكام " وهو دراسة في أصول الفقه على المذهب الظاهري والرد على المقلدين من المالكية.

٣- الإيصال في فهم الخصال: كتاب جامع لشرائع الإسلام في الحلال والحرام أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة في مسائل الفقه ودلائله.

٤- رسالة مسائل أصول الفقه.

٥- الفصل في الملل والأهواء والنحل، وقد نقد فيه الفرق الإسلامية المخالفة لمذهبه نقداً شديداً وهاجم فيه الأشاعرة وخاصة في رأيهم في صفات الله.

٦- النصائح المنجية من الفضائح المخزية والقبائل المردية من أقوال أهل البدع، والفرق الأربع: المعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة.

٧- المفاضلة بين الصحابة.

٨- التقريب إلى حد المنطق.

٨ - شعره:

كان ابن حزم ذا نفس واسع في الشعر وباع طويل في إنشاده وقال ابن بشكوال: " ما رأيت أحداً يقول الشعر على البديهة أسرع منه " وقد جمع له ابن بشكوال ديواناً شعرياً،وله في جذوة المقتبس للحميدي ديوان شعري على حروف المعجم، وقد عرف أبو محمد الشعر وهو صغير، وقاله قبل بلوغ الحلم وأكثر نظمه آنذاك كان تغزلاً، ثم رثاء لجاريته التي فقدها، وربما كان حبه لها سبباً من الأسباب التي دعته إلى تأليف كتابه طوق الحمامة، وقد تحدث فيه عن جميع ألوان الحب وأورد المقطوعات الطريفة على شاكلة قوله يتحدث عن مرارة المنع عن اللقاء والحظر على المحبوب من أن يراه محبه:

أرى دارها في كل حين وساعة ... ولكن من في الدار عني مغيب

وهل نافعي قرب الديار وأهلها ... على وصلهم مني رقيب مراقب

وهناك أثر للنزعة الصوفية في شعره، ولنستمع إليه يحدثنا عن نوع عجيب من الحب في عالم المغيبات:

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت أطلعة الشمس كانت أم هي القمر
أظنه العقل أبداه تدبره أو صورة الروح أبدتها لي الفكر
أو صورة مثلت في النفس من أملي فقد تخيل في إدراكها البصر

وله أيضاً قصيدة يفخر بها بالعلم ويذكر أصناف علمه:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد علي ما ضاع من ذكرى النهب

وتمتلئ بعض قصائده بالحكمة وتسبيح الله وتمجيده كالقصيدة التي مطلعها:

لك الحمد يا رب والشكر ثم لك الحمد ما باح بالشكر فم

والغريب أن صاحبنا يلذ له أن يحاكي أرباب الصنعة البلاغية، ولكنه سبقهم في تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد:

كأن الحيا والحزن والروض عاطر دموع وأجفان وخد مورد

بل شبه خمسة بخمسة في بيت واحد فأتى أبعد ما يكون من التكلف وأقرب ما يكون إلى الطبع:

كأني وهي والكأس والخمر والدجى ترى وحياً والدر والتبر والسبج

وقصيدته الطويلة التي بلغت ١٤٠ بيتاً قالها رداً على ملك الروم نقفور، وهذه القصيدة تزخر بالقوة والفخر أظهر فيها اطلاعه الواسع على التاريخ والجغرافية وختمها بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وتقريع من يسميهم "عبدة عيسى".

من كل ذلك يتضح لنا أن أسلوب ابن حزم في شعره سهل رقيق ممتنع لا يكاد يستعمل لفظة غير مأنوسة وهو أبعد عن الحوشي والتعقيد ولذلك فإن شعره قريب المتناول سلس الأسلوب.

ومن طريف ما نظمه في الأخلاق:

إنـــــما العقـــــل أســـــاس فوقـــــه الأخـــــلاق ســـــور

وتمـــــام العلـــــم بالعـــــدل وإلا فهـــــو زور

وتمـــــام العـــــدل بـــــالجود وإلا فهـــــو جـــــور

وتمـــــام الجـــــود بالنجـــــدة والجـــــبن غـــــرور

٩- أخلاقه ومزاجه:

آتى الله ابن حزم حافظة واعية وجلداً في طلب العلم جعله يستوعب أكبر قدر ممكن في علم السنة والآثار واختلاف الفقهاء وأخبار التاريخ، وكان حاضر البديهة تأتي إليه المعاني أوقات الحاجة إليها، وقد آتاه الله من هذه المزايا إيماناً قوياً وإخلاصاً في طلب الحقيقة لا يهمه في بيان ما يصل إليه رضا أحد أو غضب من أحد، وكان عالي الهمة تزيده قوة خصمه علواً ولا يتبع إلا مصادر الشرع يعلو على الشديد ولا يستسلم، ويعلو في المقاومة ولا يهن ولا يضعف، وكان مع كل ذلك ذا طبع حاد وشديد، فكان إذا رد قولاً رماه بالشفاعة ورمى صاحبه بالخروج على الدين.

ولهذا قيل عنه: لقد أوتي العلم ولم يؤت سياسته، وسياسة العلم على ما قالوا أعوص من إتقانه.

اعترته الحدة لمرض أصابه، ويقول في تبدل حاله بسبب المرض: لقد أصابتني علة شديدة ولدت في ربو الطحال الشديد، فولد ذلك علي من الضجر وضيق الحال، وقلة الصبر والنزق أمراً جاشت نفسي به إذا فكرت تبدل خلقي واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح وإذا فسد تولد ضده.

وفاته: استقرت النوى بهذا المجاهد العظيم بعد أن طوف مدن الأندلس يلفظه بلد إلى بلد وتقذفه بادية إلى بادية حتى أراد الله له الطمأنينة فاستراح إلى الأبد في قريته بالبادية من غرب الأندلس مطارداً خفياً استأثر الله بروحه سنة ست وخمسين وأربعمئة هجرية لليلتين بقيتا من شهر شعبان، ودفن في قرية هي ملكه وملك آبائه من قبله، ولقد نعى نفسه رحمه الله بأبيات:

كأنـــك بـــالزوار لي قـــد تنـــادروا وقيـــل لهـــم أودي عـــلي بـــن أحمـــد
فيـــا رب محـــزون هنـــاك وضـــاحك وكـــم أدمـــع تـــذرى وخـــد مخـــدد
عفـــا الله عنـــي يـــوم أرحـــل طاعنـــا عـــن الأهـــل محمـــولاً إلى بطـــن لحـــد
وأتـــرك مـــا قـــد كنـــت مغتبطـــاً بـــه وألقـــى الـــذي أنـــسيت دهـــراً بمرصـــد
فـــوا راحتـــي إن كـــان زادي مقـــدما ويـــا نـــصيبي إن كنـــت لم أتـــزود

وبوفاته بدأت مؤلفاته تشق له طريقه إلى الخلود وطفقت حسرة الناس تعظم لفقده؛ لأنه المنهل الغزير والنبع الذي ينهل منه طلاب العلم والمعرفة.

الباب الثاني والثلاثون

أعلام النثر الأندلسي

الفصل الثاني

ابن رشد فيلسوف الأندلس

(٥٢٠- ٥٩٥ هـ- ١١٢٦ - ١١٩٨ م)

أولاً- حياته ونشأته ونكبته:

١- حياة ابن رشد

أ- نسبه:

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد هو الفيلسوف الوحيد في أسرة من الفقهاء، والقضاة، كان أبوه قاضياً، وكان جده قاضي القضاة بالأندلس، وقد كانت تعهد إليه مع القضاء مهام سياسية بين الأندلس ومراكش فكان يضطلع بها على الوجه الأمثل، وتوفِّي سنة ٥٢٠ للهجرة قبل مولد حفيده بشهر واحد.

ب- نشأته:

نشأ بقرطبة وتعلم الفقه والرياضة والطب، وتولى القضاء بإشبيلية قبل قرطبة، واستدعاه الخليفة المنصور أبو يعقوب وهو متوجه إلى غزو ألفونسو ملك أرجوان سنة إحدى وتسعين وخمسمئة فأكرمه واحتفى به وجاوز به قدر مؤسسي الدولة، دولة الموحدين، وهم عشرة من أجلاء العلماء، فأجلسه في مكان فوق مكان الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاني، وهو صهر الخليفة (زوج بنته).

ويظهر أن شهرة القاضي بالفلسفة قد جعلته موضع النظر مع الحذر، فلما استدعاه المنصور ظن أهله وصحبه أنه عازله ومنكل به، فلما خرج من عنده بعد تلك الحفاوة أقبل عليه صحبه يهنئونه فقال لهم قولة حكيم: ((والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء به، فإن أمير المؤمنين قربني دفعة إلى أكثر مما كنت أؤمل فيه أو يصل رجائي إليه)).

قال ابن الأبار: ((تأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال ولا جمع مال، إنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة ومنافع أهل الأندلس عامة)) وقد شهد ابن جبير لجده بالتقوى والصلاح وصحة الدين حين هجاه في نكبته فقال:

لم تلزم الرشد يا بن رشد لما علا في الزمان جدك

وكنت في الدين ذا رياء ما هكذا كان فيه جدك

ج- علمه:

والمتواتر من جملة أخباره أنه كان شديد الانكباب على البحث والمذاكرة، لم يصرف ليلة من عمره بلا درس أو تصنيف إلا ليلة عرسه وليلة وفاة أبيه، وربما شغله ذلك عن العناية ببزته، أو ادخار المال لأيام عوزه.

د- كرمه:

كان يبذل العطاء لقصاده، ويلام أحياناً على البذل لمن لا يحبونه ولا يكفون عن اتهامه فيقول: إن إعطاء العدو هو الفضيلة، أما إعطاء الصديق فلا فضل فيه، وقد أعطى مرة رجلاً أهانه وحذره من فعل ذلك بغيره؛ لأنه لا يأمن بوادر غضبه، على أنه كان يسامح في أمر نفسه ولا يسامح في أمر غيره، ومن ذاك قصته مع الشاعر ابن خروف حين هجا أبا جعفر الحميري العالم المؤدب، فقد أوجع الشاعر ضرباً وأنذره ألا يعود لمثلها، ولو كان عفوه عن المسيئين إليه من قبيل المداراة لكانت مداراة الشعراء الذين يهجون غيره أقرب وأحجى.

هـ- خوفه من الموت:

أثر عنه في قضائه أنه كان يتحرج من الحكم بالموت، فإذا وجب الحكم أحاله إلى نوابه ليراجعوه، وقد اجتمع له قضاة الأندلس والمغرب وهو دون الخامسة والثلاثين.

ولم يذكر قط عن القاضي الفيلسوف خبر من أخبار التبسط لمجالس اللهو والطرب مما استباحه جملة أبناء عصره، ومنهم طائفة من العلماء والحكماء، بل كان يتعفف من حضور هذه المجالس، وبلغ من تعففه عما لا يراه خليقاً، بعلمه ومكانه من القضاء أنه أحرق شعره الذي نظمه في الغزل أيام شبابه، وعلى هذا كان يحفظ الجيد من الشعر ويرويه في مواطن الحكمة

وشواهد المثل، وحكى عنه أبو القاسم بن الطليسان أنه كان يحفظ شعري حبيب والمتنبي ويكثر التمثل بها في مجلسه، ويورد ذلك أحسن إيراد.

و- تواضعه:

قال ابن الأبار: ((كان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً))، وكان هذا الخلق منه مطمع الطامعين في تواضعه وفي كرمه، دخل إليه أبو محمد الطائي القرطبي فتلقاه قائماً كعادته في لقاء زائريه فقال الشاعر:

قد قال لي السيد الهمام قاضي قضاة الورى الإمام

فقلت قم بي ولا تقم لي فقلما يؤكل القيام

وظاهر أن هذه الخلائق الطيبة قد تغني المعلم أو الفيلسوف أو القاضي في صناعته، ولكنها لا تغني جليس الملوك في صناعة المنادمة والملازمة، بل لعلها تحرجه عندهم وتعرضه لإعراضهم ومقتهم؛ لأن هذا التواضع فيه لم يكن عن ضعة ولا عن استكانة، بل كان عن كرم وكرامة وشعور بالمساواة بين الناس في المجاملة وحسن المعاملة، فكان يخاطب الخليفة فيقول له: يا أخي! وكانت أمانة التعبير العلمي أحق بالرعاية من زخرفة القول في ألقاب الملوك والأمراء، حيث لا محل لها بين تقريرات العلماء والفلاسفة، فلما شرح كتاب الحيوان لأرسطو زاد عليه عند ذكر الزرافة أنه رآها (عند ملك البربر).

ومثل هذا اللقب هو الصدق الذي يجمل بالعالم في بحثه ودرسه، ولكنه لم يكن جميلاً عند الرجل الذي يسمى نفسه ويسميه من حوله بأمير المؤمنين وأمير الدين ولما بلغ الأمر مسمع هذا الأمير لم يغن عن ابن رشد أنه تمحل المعاذير وقال: إنه قد أملاها "ملك البرين" فصحّفها النساخون حين نقلوها إلى ملك البربر؛ إذ كان سم الوقيعة قد سرى مسراه ووافق ما كان في نفس الأمير من الغيظ لمناداته باسم الإخاء، فلم يدفع عنه عذر النديم ما جلبه عليه صدق العلماء.

أو لعله قد وافق في نفس الأمير غيظاً آخر لم يكن صاحبنا الفيلسوف يلتفت إليه أو يحسبه مما يتعاقب عليه، فقد كان يصادق أخا الخليفة أبا يحيى، والي قرطبة كما كان يصادق الخليفة،

فلم يعدم واشياً يقول وسامعاً يسمع أن وراء هذه الصداقة للأخ عداوة مستترة لأخيه، يوشك أن تنكشف عن تمرد وعن ولاء للمتمردين.

ولما أراد الخليفة أن ينكبه لم يذكر في أسباب نكبته سبباً من هذه الأسباب بطبيعة الحال، بل أحال على الدين تبعة هذه النكبة كما سيأتي بيانه، وأعلن من ذنوب الفيلسوف ما هو ذنب الأمير في باطن الأمر؛ لأنه تعلل عليه بإدمان النظر في كتب القدماء، وقد كان أبو الأمير هو مغريه بالنظر فيها ومعالجة شرحها وتيسيرها لطلابها.

٢- نكبته وأسبابها

أ- ولم يكن ابن رشد أول شارح لكتب الأقدمين، فقد سبقه ابن باجة إلى شرح بعضها وإن لم يتوسع في هذا العمل مثل توسعه، ولكن ابن باجة كان يحسن مصاحبة السلطان وابن رشد لم يكن يحسن هذه الصناعة، فنكب ابن رشد ولم ينكب ابن باجة، ولم يغن عن الفيلسوف المنكوب أنه شرح الكتب كما تقدم بأمر من أبي الخليفة.

ولا نعتقد إن نكبة ابن رشد كانت بسبب كونه وثيق الصلة بأخيه الذي كان يخشى من منافسته إياه وأن قوماً ممن يناوئ ابن رشد من أهل قرطبة ويدعي معه الكفاءة في البيت وشرف السلف سعوا به عند أبي يوسف ووجدوا إلى ذلك طريقاً بأن أخذوا بعض تلك التلخيصات التي كان يكتبها، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم: فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة... فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة، فلما حضر أبو الوليد- رحمه الله- قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق: أخطك هذا؟ فأنكر... فقال أمير المؤمنين: لعن الله كاتب هذا الخط وأمر الحاضرين بلعنه.

ونحن نعلم اليوم بعد دراسة أساطير اليونان أنهم كانوا يسمون الزهرة ربة الحب وأنهم أخذوا هذا من البابليين، وأن كلمة فينوس – أي الزهرة – مأخوذة من كلمة بنوت أي بنت وكانت فاؤها تكتب باء في بعض الكتب اليونانية القديمة، وأن هذا كله لا يتعدى المجاز كما يقول القائل منهم رب البحر وربة اللعب وربة الغناء.

ب- وقيل في أسباب النكبة: إن حساد ابن رشد دسوا عليه أناساً من تلاميذه يستملونه شرح الكتب الفلسفية فشرحها لهم ونقلوها عنه كأنها من رأيه وكلامه وأشهدوا عليها مئة شاهد، ثم رفعوها إلى الخليفة وطلبوا عقابه لانحلال عقيدته، فنكبه وألزمه أن ينزوي في قرية "لوسينا" بجوار قرطبة، ولا يبرحها.

ج- وقد نكبت مع ابن رشد طائفة من القضاء والفقهاء، وذوي المناصب لا يبعد أن يكون الخليفة قد ظن بهم الظنون وشك في ممالأتهم لمنافسيه ومناظريه، ولم يتسع له الوقت لاستقصاء مظان التهمة، ولا كان في وسعه أن يسكت عن قضية الثائرين باسم الغيرة على الدين فلحقت به النكبة من هذا الطريق.

د- وقد اشتهر عن ابن رشد أنه كان مصادقاً لأخي الخليفة، وتبين من تاريخ تلك الفترة أن المنافسة فيها على الملك كانت حرباً ضروساً لا تنقطع في وقت من الأوقات. فلا يبعد أن ينكب الخليفة ابن رشد اتهاماً له بمشايعة أخيه واتهاماً لأخيه بمصاحبة الفلاسفة وإضمار الكفر والضلالة

هـ- أما عفو الخليفة عن ابن رشد بعد ذلك فليس تفسيره بالعسير، فإنه قد عفا عنه عقب عودته من الأندلس إلى مراكش وبعد زوال الغاشية ووضوح الحقيقة في ظنونه بأخيه وجلساء أخيه، وقد قيل: إنه أقبل على الفلسفة التي تجنبها حيناً فأكثر من الاطلاع على كتبها، فإذا وافق ذلك شفاعة الشافعين في الحكيم المغضوب عليه فقد وضح سر النكبة وسر العفو ولم يكن فيه غريب غير مألوف من خلائق الملوك وخلائق الدهماء، مع الحكماء والفضلاء.

ثانياً- جوانب ابن رشد

١- آثار ابن رشد:

ترك ابن رشد مجموعة من المؤلفات، سرد ابن أبي أصيبعة أسماء هذه الشروح، ومنها:

أ- فلسفة أرسطو:

١- تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة.

٢- تلخيص كتاب الأخلاق.

٣- تلخيص كتاب البرهان.

٤- تلخيص كتاب السماع الطبيعي.

٥- شرح كتاب السماء والعالم.

٦- شرح كتاب النفس.

ب- في الطب لجالينوس:

١- تلخيص كتاب الأسطقات، أي العناصر والأصول.

٢- وكتاب المزاج.

٣- كتاب القوى الطبيعية.

٤- كتاب العلل والأعراض.

٥- كتاب التعرف.

٦- كتاب الحميات.

٧- أول كتاب الأدوية.

٨- النصف الثاني من كتاب حيلة البرء.

ج- تآليفه في الطب:

١- كتاب الكليات، وقصد أن يجمع فيه الأصول الكلية، وأن يعهد إلى صديقه ابن زهر أن يتممه بكتاب في الأمور الجزئية "لتكون جملة كتابيهما كتاباً كاملاً في صناعة الطب".

٢- شرح على أرجوزة لابن سينا في الطب.

٣- رد على تهافت الفلاسفة للغزالي سماه " تهافت التهافت ".

٤- رسالة في التوفيق بين الحكمة والشريعة سماها (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال).

٥- رسالة في نقد براهين المتكلمين والمتصوفة سماها (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة).

٦- كتاب في الفحص هل يمكن العقل الذي فينا – وهو المسمى بالهيولاني – أن يعقل الصور المفارقة أو لا يمكن ذلك، وهو المطلوب الذي كان أرسطوطاليس وعدنا بالفحص عنه في كتاب النفس.

٧- مقالة في أن ما يعتقده المشاؤون وما يعتقده المتكلمون من أهل ملتنا في كنيته وجود العالم متقارب في المعنى.

٨- مقالة في المقابلة بين آراء أرسطو وآراء الفارابي.

وغير ذلك تعليقات وردود على ابن سينا وابن باجة وابن طفيل في مسائل النفس والعقل والاتصال بالفعل، وما قيل عن قدم العالم وحدوثه هي أقرب إلى المقالات القصار منها إلى المطولات.

د- كتبه في الفقه فالمعروف منها:

١- كتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وهو مرجع لم يزل معتمداً بعد نكبة مؤلفه، يضرب به المثل في الشعر للإجادة والطموح، كما قال ابن زمرك بعد وفاة ابن رشد بأكثر من مئتي سنة:

أمولاي قد أنجحت رأياً ورايةولم يبق في سبق المكارم غاية

فهدى سجاياك ابن رشد نهايةوإن كان هذا السعد منك بداية

وترجم أكثر المؤلفات الطبية والفلسفية إلى اللاتينية والعبرية، وضاعت أصول الكثير منها وبقيت ترجماتها.

هـ- في الفلسفة:

١- كتاب "تفسير ما بعد الطبيعة".

٢- تلخيص كتاب "المقولات".

٣- تلخيص "تهافت التهافت".

٤- رسالة لطيفة في تلخيص كتاب الخطابة لأرسطو.

٥- كتاب "الكليات" في الطب مشفوعاً بوصف العقاقير والأدوية التي وردت فيه إشارة إليها.

ومن المحقق أن آثاره الباقية أقل من آثاره التي انتشرت في أيام حياته فقد أحرق منها في حياته شيء، وحرم بعد مماته شيء، وعجل الكمد بأجله فلم ينفع العفو عنه والرجوع به إلى سابق مكانته، ومرض بعد استدعائه إلى مراكش والعفو عنه مرضه الذي مات به (ليلة الخميس التاسعة من صفر سنة خمس وتسعين وخمسمئة) ودفن بجبانة باب تاغزوت، ثم نقل رفاته إلى قرطبة حسب وصيته، فدفن بها في روضة سلفة بمقبرة ابن عباس.

٢- فلسفة ابن رشد

وهما فلسفتان لا فلسفة واحدة:

أ- فلسفة ابن رشد كما يفهمها الأوروبيون في القرون الوسطى، يلاحظ عليها ثلاثة أمور:

أولها: أنهم اعتمدوا في فهم فلسفته على شروحه لأرسطو وتلخيصاتها لبعض كتبه، ومهما يكن من إعجاب ابن رشد بأرسطو فآراء الفيلسوف العربي لا تطابق آراء الفيلسوف الإغريقي في كل شيء.

وثانيها: أنهم اعتمدوا على تلك الشروح والتلخيصات مترجمة إلى اللغة اللاتينية أو العبرية، ولا تخلو الترجمة من اختلاف.

وثالثها: أن فلسفة ابن رشد ذاعت بين الأوروبيين في إبّان سلطان محكمة التفتيش التي كانت تتعقب الفلسفة العربية الأندلسية، على الخصوص، وتحرم الاشتغال بالعلوم التي تخالف أصول الدين في تقديرها، فمن الطبيعي أن تنسب إلى ابن رشد كل معنى يسوغ ذلك التحريم ويقيم الحجة على صوابه، وأن تؤكد كل فكرة تلوح عليها المخالفة، وإن جاز تأويلها على عدة وجوه.

ب- وفلسفة ابن رشد كما كتبها هو واعتقدها ودلت عليها أقواله المحفوظة، فالمعول فيها على كتبه كـ"منهاج الأدلة" و"فصل المقال"،وعلى آرائه التي يبديها في سياق مناقشاته كتلك الآراء التي قال بها في ردوده على الغزالي من كتاب تهافت التهافت، ثم على آرائه في شرحه

للمقولات وتفسيره لما بعد الطبيعة، وما شابه هذه الآراء في الكتب الأخرى التي يتيسر الوصول إليها.

وبين الفلسفتين: فلسفة ابن رشد كما فهمها الأوروبيون في القرون الوسطى وفلسفته - كما اعتقدها -مواضع اختلاف يمس الجوهر أحياناً أو يسمح بتفسير آخر في غير تلك الأحيان.

ويمكننا أن نقسم شروح أرسطو التي تركها ابن رشد إلى ثلاثة أقسام: الشروح الكبرى والشروح الصغرى والمختصرات أو المقتبسات.

فالشروح الكبرى تتابع الأصل متابعة دقيقة، ثم تشفعها بالتفسير المستفيض، والشروح الأخرى أكثر تركيزاً وتنظيماً في معالجة الموضوعات وترتيبها، وتورد عليها مناقشات وإضافات شخصية لا يسهل استخراج الآراء المنسوبة إلى أرسطو من خلالها.

ثم استطرد المؤلف إلى تلخيص فلسفة ابن رشد بعد بيان كتبه التي كانت متداولة بين قراءة اللاتينية فقال: إن وجود الكائن الأعلى – الله – هو موضوع فلسفة ما بعد الطبيعة وإثبات وجوده قائم بالبراهين الفقهية، وهو الذي تصدر عنه العقول منذ الأزل، وكل موجود غير الله لا يفسر وجوده بغير عمل الخالق، فليست العقول صادرة على التتابع واحداً بعد الآخر على حسب مذهب ابن سينا، بل هي من خلق الله أصلاً، وإنما يأتي تعددها من أنها لا تتساوى في الكمال والصفاء، وهي في الخارج متصلة بالأفلاك، فالسموات جملة من الأفلاك كل منها له صورة من أحد العقول، والمحرك الأول يحرك الفلك الأول، وهذا يحرك الأفلاك الأخرى إلى القمر الذي يحركه العقل الإنساني؛ لأنه يتصل بمداركنا ومعقولاتنا، وله عمل على اتصال بما فوق الطبيعة كما في مذاهب ابن سينا.

والمادة قديمة مع الله، لأن العدم لا يتعلق به عمل خالق، وهي عاجزة عن العمل ولكنها ليست خواء تناط به الصور منا في مذهب الأفلاطونية الحديثة، بل هي قابلية عامة تشتمل على الصور المختلفة، ومع حضور هذه المادة القديمة يخرج منها الخالق قواها العاملة، وينشأ العالم المادي من أثر هذا الخلق الدائم، ولابد من تتابع هذه الحركات بلا بداية ولا نهاية.

والعقل الإنساني – وهو آخر سلسلة الأفلاك – هو صورة غير مادية، أبدية، منفصل من الآحاد متحد في جملته، وهذا العقل هو العقل الفعال والعقل الهيولاني أو العقل الممكن معاً،

والعقل الإنساني في أفراد النوع البشري جميعاً واحد لا ينفصل بانفصال الأشخاص ولا يتغير بتغير الذات، وهو النور الذي يضيء النفوس البشرية ويكفل للبشر مشاركة لا تتبدل في الحقائق الأبدية.

والمعرفة العقلية في الإنسان الفرد تجري على النحو الآتي: فالعقل بتأثيره في أشكال الحواس التي تخص كل إنسان يتصل بذلك الإنسان حسب استعداده من غير أن يلحقه نقص بهذه الصلات المتعددة، وأول درجة من درجات هذا التعقل تحدث في الإنسان ما يسمى بالعقل المكتسب وبه يشترك العقل الخاص المنفصل في مدركات العقل التام المتحد، وهناك اتصالات أخرى بين عقل الإنسان العام وهي الاتصالات التي تأتي من إدراك الماهيات المفارقة، وأعلاها وأرفعها ما يأتي من المعرفة اللدنية ووحي النبوة.

والحياة بعد الموت عامة غير شخصية، ويعني كل شيء في الإنسان إلا عقله الذي ليس هو بجوهر مستقل، بل هو عقل النوع البشري كله عام في جميع آحاده.

والواقع أنه نبذ لأن الخليفة اتهمه بانحلال العقيدة، على أنه لم يكن جاحداً منكراً للدين، بل عنده أن الدين يصور الحقائق الفلسفية على أسلوب المجاز، وهو يميز بين التفسير الحرفي لنصوص القرآن وبين معانيها التي يدركها الحكماء ويرتفعون بها وحدهم إلى الحقائق العليا، ومن واجب الفلسفة أن تنظر فيما هو من تقليد الدين وما هو من القضايا التي تحتمل التفسير وعلى أي وجه يكون تفسيرها، وقد تسنى لابن رشد على هذه القاعدة أن يوافق بين القول بحدوث العالم على مذهب الغزالي والقول بقدمه على مذهب المشائين.

إن فلسفة ابن رشد كانت تخالف في بعض مسائلها ما عليه جمهرة الفقهاء من المسلمين، وقد حصر الإمام الغزالي في آخر كتابه (تهافت الفلاسفة) أهم المسائل التي دار عليها الخلاف بين الفقهاء والفلاسفة وقيل فيها بتكفير هؤلاء، وهي ثلاث مسائل:

١ - إحداها مسألة قدم العالم وأن الجواهر كلها قديمة.

٢ - وثانيها قولهم: إن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

٣- والثالثة إنكارهم بعث الأجساد وحشرها.

وقبل تلخيص مذهب ابن رشد في كل مسألة من هذه المسائل الثلاث نجمل آراء الفلاسفة الإلهيين فيها، ونعني بهم الفلاسفة الذين يؤمنون بوجود الإله تمييزاً لهم من الفلاسفة الماديين من الأقدمين والمحدثين.

أ- فالفلاسفة الإلهيون الذين قالوا بقدم العالم – وعلى رأسهم أرسطو – لم يكن منهم أحد قط يقول بقدم العالم، ويعني بذلك أن وجود العالم مساو لوجود الله، وإنما يقولون: إن وجود العالم متعلق بإرادة الله قديمة لا تراخ لما تريده، وإن العالم لم يسبقه زمان لأن الزمان من حركته.

أما علم الله بالجزئيات فلم يوجد فيلسوف إلهي قط ينكر إحاطة الله سبحانه وتعالى بالجزئيات أو الكليات، وإنما ينزهون علم الله أن يكون كعلم الإنسان فإن علم الإنسان تابع للأشياء التي يعلمها، وهو يعلمها جزءاً جزءاً، ثم يحكم عليها جملة ويستخرج من علم الجزئيات علمه بالكليات.

ب- والفلاسفة ينزهون علم الله أن يكون كهذا العلم، ويقولون: إن الله محيط بالجزئيات قبل وقوعها، على نحو أشرف وأكمل من العلم الذي يتاح للإنسان ويكون في كل حال تابعاً لما يعلمه متوقفاً عليه.

ج- أما البعث فإن الفلاسفة الماديين لا يؤمنون ببعث الأجساد ولا ببعث النفوس، وليس من الفلاسفة الإلهيين من ينكر بعث الأجساد إنكاراً منه لقدرة الله على بعثها، ولكنهم يقولون: إن الأرواح المفارقة أشبه بالعالم الأعلى، ومن آمن بالله وآمن بقدرة الله وآمن بالبعث فما هو من الملحدين.

د- وأما مسألة الصفات التي لم يذكرها الغزالي مع تلك المسائل الثلاث فلم تكن موضع بحث عند الفلاسفة الإغريق، ولم يكن لها شأن كبير عند فلاسفة الأوروبيين في القرون الوسطى، ولكنها أثارت الجدل الطويل بين علماء الكلام والمعتزلة والفلاسفة من المسلمين، ومثار الجدل فيها أن بعض الفلاسفة يقولون: إن صفات الله هي غير ذاته، وإن الصفات ليست بزائدة على ذات الله؛ لأن ذاته سبحانه وتعالى كاملة لا تتعدد، وغير هؤلاء الفلاسفة يردون عليهم ليوافقوا بين تعدد الصفات ووحدانية الله.

هـ- وقد كانت لابن رشد آراؤه في كل مسألة من هذه المسائل، ليست مطابقة كل المطابقة لما فهمه الأوروبيون في القرون الوسطى، وليست مغايرة لها كل المغايرة، ولكنها آراء كان الفيلسوف حريصاً جد الحرص على أن يلتزم بها حدود دينه ولا يخرج بها عما يجوز للمسلم أن يعتقده، وأن يعلمه للمسلمين.

- قدم العالم:

يقول ابن رشد عن قدم العالم في كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال): وأما مسألة قدم العالم أو حدوثه فإن الاختلاف فيها عندي بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف في التسمية، وخاصة عند بعض القدماء، وذلك أنهم اتفقوا على أن هاهنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة.

فأما الطرف الواحد فهو موجود من شيء غيره، وعن شيء أعني عن سبب فاعل ومن مادة، والزمان متقدم عليه، وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك، فهذا الصنف من القدماء اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة (هكذا)، وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديماً، وهذا الموجود يدرك بالبرهان، وهو الله تبارك وتعالى، وهو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره.

وأما الصنف من الوجود الذي بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره، والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم، فإن المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه، أو يلزمهم ذلك، إذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام.

وهم أيضاً متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه، وكذلك الوجود المستقبل، وإنما يختلفون في الماضي والوجود في الماضي، فالمتكلمون يرون أنه متناه، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته، وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال في المستقبل، فهذا

الموجود الآخر الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبيهاً من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم، فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث سماه محدثاً.

وهو في الحقيقة ليس محدثاً حقيقياً ولا قديماً حقيقياً، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة، ومنهم من سماه محدثاً أزلياً وهو أفلاطون وشيعته، لكون الزمان متناهياً عندهم من الماضي.

فالمذاهب في العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر.

فإن الآراء التي من شأنها هذا يجب أن تكون في الغاية من التباعد... وإن ظاهر الشرع إذ تصفح ظهر من الآيات الواردة في الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن الوجود والزمان نفسه مستمر من الطرفين، أعني غير منقطع، وذلك أن قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [سورة هود:٧]، يقتضي بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء، وزماناً قبل هذا الزمان، أعني المقترن بصورة هذا الوجود الذي هو عدد حركة الفلك، وقوله تعالى:﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [سورة إبراهيم:٤٨] يقتضي أيضاً وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾:[سورة فصلت:١١]، يقتضي بظاهره أن السماء خلقت من شيء.

والمتكلمون ليسوا في قولهم أيضاً في العالم على ظاهر الشرع، بل متأولون، فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجوداً مع العدم المحض ولا يوجد هذا في نص أبداً، فكيف يتصور في تأويل المتكلمين في هذه الآيات أن الإجماع منعقد عليه)).

وقد تناول الغزالي هذه المسألة في تهافت الفلاسفة فقال: إن وجود الزمان قبل وجود العالم غير لازم ((ولو كان الله ولا عيسى مثلاً، ثم كان الله وعيسى لم يتضمن اللفظ إلا وجود ذات وعدم ذات، ثم وجود ذاتين، وليس من ضرورة ذلك تقدير شيء ثالث وهو الزمان)).

فأجابه ابن رشد فقال: ((صحيح إلا أنه يجب أن يكون تأخره عنه ليس تأخراً زمانياً)).

وقد ردد ابن رشد نقده لبراهين معارضيه فقال: ((إن الطرق التي سلك هؤلاء القوم في حدوث العالم قد جمعت بين هذين الوصفين معاً أعني أن الجمهور ليس في طباعهم قبولها ولا هي مع هذا برهانية، فليست تصح لا للعلماء ولا للجمهور)).

وتناول في كتابه منهاج الأدلة هذا المبحث من رسالة أبي المعالي الموسومة بالنظامية حيث يقول أبو المعالي: ((إن العالم بجميع ما فيه جائز أن يكون على مقابل ما هو عليه حتى يكون من الجائز مثلاً أصغر مما هو عليه، وأكبر مما هو، أو بشكل آخر غير الذي هو عليه، أو عدد أجسامه غير العدد الذي هو عليه، أو تكون حركة كل متحرك منها إلى جهة ضد الجهة التي يتحرك إليها، حتى يمكن في الحجر أن يتحرك إلى فوق، وفي النار إلى أسفل، وإن الجائز محدث وله محدث أي فاعل صيره بإحدى الحالتين)).

فأجاب ابن رشد على هذا بما فحواه أن المصنوع لحكمة، إنما يكون على الوجه الذي يحقق تلك الحكمة ولا يكون عبثاً – تنزه الخالق عن العبث – ثم قال: إن ((ما يعرض للإنسان في أول الأمر عند النظر في هذه الأشياء شبيه بما يعرض لمن ينظر في أجزاء الموضوعات من غير أن يكون من أهل تلك الصنائع، وذلك أن الذي هذا شأنه قد سبق إلى ظنه أن كل ما في تلك المصنوعات أو جلها ممكن أن يكون بخلاف ما هو عليه، ويوجد عن ذلك المصنوع ذلك الفعل بعينه الذي صنع من أجله، أعني غايته، فلا يكون في ذلك المصنوع عند هذا موضع حكمة، وأما الصانع الذي يشارك في شيء من علم ذلك، فقد يرى أن الأمر بضد ذلك، وأنه ليس في المصنوع إلا شيء واجب ضروري، أو ليكون المصنوع أتم وأفضل إن لم يكن ضرورياً فيه، وهذا هو معنى الصناعة، والظاهر أن المخلوقات شبيهة في هذا المعنى بالمصنوع فسبحان الخلاق العظيم)).

الفهرس

مقدمة: الأدب في العصر الأموي في المغرب الأندلسي ١١
الباب الأول: الحياة العامة في العصر الأندلسي ١٣
الباب الأول: الفصل الأول: الحياة السياسية – الدولة الأموية في الأندلس ١٥
١ – عصر الولادة (٩٧ – ١٣٨ هـ): ١٨
٢ – عصر الإمارة الأموية في الأندلس ١٨
٣ – العصر الذهبي للدولة الأموية في الأندلس ٢٠
٤ – العصر الذهبي للدولة الأموية في الأندلس ٢٢
٥ – عصر ملوك الطوائف ٢٤
٦ – المرابطون ٢٧
٧ – المرابطون في الأندلس ٢٨
٨ – الموحّدون ٣٠
٩ – الموحّدون في الأندلس ٣٢
١٠ – سقوط الحكم العربي في الأندلس ٣٤
١١ – عوامل ضعف الحكم العربي في الأندلس وسقوطه ٣٦
الباب الأول: الفصل الثاني: الحياة الاقتصادية ٣٩
الباب الأول: الفصل الثالث: الحياة الفنية ٤٢
الباب الأول: الفصل الرابع: الحياة الفكرية ٤٤
الباب الأول: الفصل الخامس: التأثر الإسباني والأوروبي بالحضارة العربية الإسلامية ٤٧
الباب الأول: الفصل السادس: الحياة الاجتماعية والشخصية الأندلسية ٤٩
الباب الأول: الفصل السابع: سمات العصر الأندلسي في السياسة والاجتماع والفكر ٥١
الباب الأول: الفصل الثامن: إدارة المجتمع الأندلسي ٥٥
الباب الأول: الفصل التاسع: الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية ٥٨

الباب الثاني: شخصية المبدع الشعري الأندلسي ٦٣
الباب الثاني: الفصل الأول: ثقافة المبدع الأندلسي وطرق التعليم ٦٥
الباب الثاني: الفصل الثاني: طرق التعليم في الأندلس ٦٨
الباب الثاني: الفصل الثالث: طبقات الشعراء ٧٣
الباب الثاني: الفصل الرابع: حياة الشاعر الأندلسي ٧٨
الباب الثاني: الفصل الخامس: الآثار الأدبية الأولى وأشهر الأدباء والشعراء..... ٨٠
الباب الثاني: الفصل السادس: روابط الأدب الأندلسي بالمشرق ٨٣
الباب الثاني: الفصل السابع: أثر الأديب الأندلسي في أدباء الغرب ٩٢
الباب الثالث: سمات الشعر الأندلسي..... ٩٥
الباب الرابع: أغراض الشعر الأندلسي..... ٩٩
الباب الخامس: خصائص الشعر الأندلسي..... ١١١
الباب السادس: شعر البحرية الإسلامية ١١٣
الباب السابع: الشعر يرثي الأندلس ١٢٣
الباب الثامن: شعر الطبيعة الأندلسي ١٤٧
الباب التاسع: المرأة في الشعر الأندلسي ١٥٩
الباب العاشر: رموز الشعر الأندلسي ١٦٥
الباب الحادي عشر: أبرز أعلام الأدب الأندلسي ١٩٣
الباب الثاني عشر: نماذج من الشعر الأندلسي ٢٠٧
الباب الثالث عشر: الموشحات الأندلسية..... ٢١٣
الباب الرابع عشر: نماذج من الموشحات ٢٢٥
الباب الخامس عشر: الفنون الشعبية – الأزجال– عروض البلد– الكان كان ٢٣٩
الباب السادس عشر: دراسة نص أدبي ٢٤٣
أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيْـلاً مِـنْ تَدانِيْنـا – ابن زيدون وولادة بنت المستكفي ٢٤٥
دراسة أدبية مبسطة شرح قصيدة نونية ابن زيدون ٢٤٩

الباب السابع عشر: النثر الفني والأدبي في الأندلس ٢٥٥
الباب الثامن عشر: النثر الفني الأندلسي ٢٦١
الباب التاسع عشر: الخطابة الأندلسية ٢٦٥
الباب العشرون: فن الترسل الأندلسي ٢٩٣
الباب الحادي والعشرون: فن المقامات ٣٠٩
الباب الثاني والعشرون: فن القصة ٣١٥
الباب الثالث والعشرون: فن التوقيعات ٣٢٥
الباب الرابع والعشرون: أدب الوصايا ٣٢٩
الباب الخامس والعشرون: السيرة النبوية في التراث الأندلسي ٣٣٣
الباب السادس والعشرون: المناظرات في الأدب الأندلسي ٣٣٩
الباب السابع والعشرون: أبرز أعلام كتّاب النثر في الأندلس ٣٤١
الباب الثامن والعشرون: دراسة أدبية لنص نثري - رسالة التوابع والزوابع ٣٤٥
الباب التاسع والعشرون: النقد الأدبي في العصر الأندلسي ٣٥٩
الباب الثلاثون: أعلام النقد الأدبي الأندلسي ٣٨٥
الباب الحادي والثلاثون: الحكمة العربية والإسلامية ٣٩١
الباب الحادي والثلاثون: الفصل الأول: الجدل والحوار الديني في القرآن الكريم ٣٩٥
الباب الحادي والثلاثون: الفصل الثاني: الجدل والحوار الديني في الأندلس ٣٩٧
الباب الحادي والثلاثون: الفصل الثالث: جدل وحوار النصارى ٤٠٣
الباب الحادي والثلاثون: الفصل الرابع: جدل وحوار اليهود ٤٠٦
الباب الحادي والثلاثون: الفصل الخامس: جدل وحوار المسلمين ٤٠٨
الباب الحادي والثلاثون: الفصل السادس: علم الكلام الأندلسي ٤١٠
الباب الحادي والثلاثون: الفصل السادس: القضايا التي استحوذت على اهتمام المتحاورين الأندلسيين ٤٢٥
الباب الحادي والثلاثون: الفصل السابع: انتقال المحاورات الأندلسية للمغرب ٤٢٦

الباب الحادي والثلاثون: الفصل الثامن: أبرز من تصدى لحركة التنصير ٤٢٨
الباب الحادي والثلاثون: الفصل التاسع: الجدل الديني خلف علم مقارنه الأديان..... ٤٣٠
الباب الحادي والثلاثون: الفصل العاشر: القصة الفلسفية الأندلسية..... ٤٣٢
الباب الثاني والثلاثون: أعلام النثر الأندلسي ٤٣٥
الباب الثاني والثلاثون: الفصل الأول: ابن حزم الأندلسي..... ٤٣٧
الباب الثاني والثلاثون: الفصل الثاني: ابن رشد فيلسوف الأندلس ٤٤٧